الأخلاق في القرآن

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحیم

الاخلاق فی القرآن

کاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الاخلاق فی القرآن

اشارهٔ

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، ۱۳۰۵ - عنوان و نام پدیدآور : الاخلاق فی‌القرآن/ناصر مکارم‌شیرازی ؛ لمساعده مجموعه من‌الفضلاء ؛ تعریب‌الموسسه‌الاسلامیه‌للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه‌الامام علی‌بن‌ابی‌طالب (ع ۱۴۲۵ ق ۱۳۸۴. مشخصات ظاهری : ۳ج. فروست : نفحات‌القرآن؛ الدوره‌الثانیه. شابک : ۹۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۷-X ؛ ج.۱ ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۵-۹ ؛ ج.۲ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۶-۱ ؛ ج.۳ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۵-۳ ؛ ۸۰۰۰۰ ریال (دوره، چاپ دوم) یادداشت : عربی. یادداشت : عنوان اصلی: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربی. یادداشت : ج. ۳(چاپ سوم: ۱۴۲۸ق=۱۳۸۶). یادداشت : ج. ۱ - ۳ (چاپ دوم: ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۵). یادداشت : کتابنامه. مندرجات : ج.۱. اصول‌المسائل‌الاخلاقیه. -ج.۲-۳. فروع‌المسائل‌الاخلاقیه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامی موضوع : احادیث اخلاقی -- قرن ۱۴ شناسه افزوده : موسسه اسلامی ترجمه شناسه افزوده : مدرسه‌الامام علی‌بن ابی‌طالب (ع). رده بندی کنگره : BP۱۰۳/۳/م۷پ۹۰۴۳ ۱۳۸۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹ شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۵۳۴۰۹

الجزء الثانی

الأخلاق الحسنهٔ والسیئهٔ فی القرآن

مقدّمهٔ (منهج البحث):

تعرضنا فی الجزء الأوّل من هذا الکتاب (الأخلاق فی القرآن) إلی الاصول العامهٔ فی المسائل الأخلاقیهٔ والمناهج المختلفهٔ لتهذیب النفس، والمذاهب الأخلاقیهٔ، والدوافع والنتائج وقد بحثنا هذه المواضیع والمسائل بالتفصیل علی ضوء ارشادات وتعالیم القرآن الکریم علی شکل تفسیر موضوعی. ونری الآن أنّ الوقت قد حان لبحث جزئیات الفضائل والرذائل الأخلاقیهٔ بالاستفادهٔ من تلک الاصول العامهٔ واستعراض مواردها علی ضوء تعلیمات الوحی والآیات القرآنیهٔ. ومن ذلک سنتعرض فی هذا المجال للفضائل والرذائل الأخلاقیّهٔ علی مستوی الآثار والنتائج والعواقب الإیجابیهٔ والسلبیهٔ لکلّ واحدهٔ منها، وبالتالی طرق الوقایهٔ من الرذائل الأخلاقیهٔ ومعالجتها وکیفیّهٔ کسب الفضائل والملکات الأخلاقیهٔ الحمیدهٔ. ولدی ورودنا فی هذا الموضوع وهذه الدراسهٔ تأمّلنا کثیراً فی المناهج والنظم الدراسیهٔ والعلمیهٔ الّتی یمکن الاستفادهٔ منها فی هذا البحث العمیق، فهل ینبغی البحث علی مستوی المناهج الیونانیهٔ فی تقسیم الأخلاق إلی أربعهٔ أقسام (الحکمهٔ، العدالهٔ، الشهوهٔ، الغضب)؟ فی حین أنّ هذا التقسیم لا یتلاءم ولا ینسجم مع الآیات القرآنیهٔ الّتی نرید دخول هذا البحث من خلالها وعلی ضوئها، ولا- أنّ هذا المنهج خال من العیوب والنقائص الّتی تمّت الإشارهٔ إلیها فی الجزء الأوّل. أم أنّ ترتیب الفضائل والرذائل ینبغی أن یکون علی مستوی ترتیب حروف الالفباء، فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶ حین أنّ هذا المنهج یختلف کثیراً عن منهج الدراسهٔ المنطقیهٔ ولا ینسجم معها کثیراً. أم ینبغی أن نقرر هذه الدراسهٔ وفق منهج المذاهب الشرقیهٔ والغربیهٔ فی المسائل الأخلاقیهٔ فی حین أنّ کلّ واحدهٔ من هذه المذاهب لا تخلو من مشکلهٔ أو مشکلات منهجیهٔ، مضافاً إلی أنّها لا تتناغم مع التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم والّذی نزمع دراسهٔ القیم الأخلاقیهٔ علی ضوئه. وفجأهٔ وبلطف الله والالهام الباطنی تجلّی لنا منهج جدید فی استیحاء المفاهیم الأخلاقیهٔ من القرآن الکریم، وهو أننا نعلم أنّ القرآن الکریم خصّص قسماً مهماً من أبحاثه الأخلاقیهٔ والسلوکیهٔ فی ضمن دراسته لسلوکیات الأقوام السالفهٔ وتاریخ المجتمعات البشریهٔ الماضیهٔ وما ترجمه الأوائل علی المستوی العملی من أخلاق وقیم وفضائل کانت تتحرک فی تلک المجتمعات الإنسانیهٔ وبالتالی الکشف عن عواقب تلک السلوکیات وعرض

نتائـج تلکم الأعمال والممارسات الأخلاقیة، وللانصاف فإن القرآن الکریم بحث المسائل الأخلاقیة فی دائرة التجربة العینیة والخارجیة فی اطار ممارسـة الأقوام السالفـة لتتضـح النتائج المترتبـة علیها لکلّ قارئ ومسـتمع إلی هـذا التاریـخ الغابر، ویخرج منها بنتائـج عملیة وعمیقـة. ولهـذا السبب رأینا أنّ من الأفضل فی معیار نظم المباحث الأخلاقیـة وبالنظر إلی السـیاق الّذی یحکم دراساتنا الماضیـة فإننا سوف نجعل من هذه الدراسة التاریخیة للقرآن الکریم معیاراً حاکماً فی هذه المباحث العلمیة والأخلاقیة. وبعبارة اخری إننا بحثنا هذه المواضیـع من قصـة آدم وحواء ووسوسـة آدم وهبوطهمـا من الجنّة ومـا ترتّب علی ذلک من سـلوکیات سـلبیة أدّت إلی هـذه الواقعة التاریخیـة من طرد الشـیطان الرجیم من مرتبة القرب الإلهی وحرمان آدم وحواء من الجنّة وأمثال ذلک، ونعلم أنّ الشـیطان قد طُرد من الجنّة والمرتبة السامیة بسـبب (الاستکبار) و (الإنانیة) و (العجب) وبالتالی بسبب (العناد والتعصب) حیث رفض السجود لآدم، وکذلک وقع آدم وحواء فی مصیدة الشیطان بسبب (الحرص) وحیث أکلا من ثمرة الشجرة الممنوعة بدوافع من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷ وساوس الشـیطان، ثمّ تصل النوبـة إلی قصة (هابیل) و (قابیل) وما تضـمنت هذه القصة من صـفات قبیحة کانت هی الدافع علی قتل هابیل، ثمّ نصل إلی قصـة نوح وما جری علی الأقوام البشـریة من الطوفان وکذلک الحوادث الّتی جرت علی قوم بنی إسـرائیل ونبیهم موسـی وما تضـمّنته من سیرة الأنبیاء من الفضائل والمکارم الأخلاقیة فی ذلک الوسط المنحرف والّذی تسبّب بأنواع الأذی والعقوبات الإلهیـة علی هؤلاء القوم. هـذا المنهـج مضافـاً إلی کونه جـذاباً ومشوّقـاً فـإنه یتنـاغم مع سـیاق البحوث القرآنیـة وتتجلّی فیه الفضـائل والرذائـل الأخلاقیـة فی صورة تجسـید عینی لهـا فی حرکـة الإنسان والواقع الاجتماعی علی مسـتوی الحس والتجربـة. نسأل اللّه تعالی توفیقنا وجمیع أفراد المجتمع للتخلص من آثار الرذائل الأخلاقیة الّتی تبدل المجتمع إلی جهنم وإلی نار محرقة، ونسأله تعالی أن یهب لنـا التوفیق للتحرک من موقع الفضائل والمکارم الأخلاقیـة الّتی تصـبغ قلوبنا بالصـفاء والطمأنینـة وتهب لنا السـعادة والمراتب المعنویة السامیـة فی حرکـة الإنسان التکاملیة، أی مرتبة القرب من اللّه تعالی. (آمین یا ربّ العالمین). ربیع الأوّل ۱۴۲۰ ه. ق قم- ناصر مکارم الشیرازی

التکبّر والاستکبار

تنویه:

إنّ أوّل صـفة من الصـفات الأخلاقیـة الذمیمـة وأوّل رذیلـة نقرأهـا فی تاریـخ الأنبیـاء وبدایـة خلقـة الإنسـان، وکما یعتقـد أکثر علماء الأخلاق أنّها أُمّ المفاسد والرذائل الأخلاقیة وأصل جمیع أنواع الشـقاء الإنسانی، هی (التکبّر والاستکبار) والّتی وردت فی قصة إبلیس عنـدما خلق اللّه سـبحانه وتعالی آدم وأمر الملائکـة وکـذلک إبلیس بالسـجود له. هذه القصة المثیرة والمعبّرة هی قصة محذرة وملیئة بالعبر لجمیع الأفراد والمجتمعات البشـریة، والجدیر بالذکر أنّ النتائج والعواقب الوخیمة للتکبّر والاستکبار لا تتجلّی فی قصة خلق آدم فحسب، بل نراها متجلیة علی طول الخط فی سیرة الأقوام السالفة من تاریخ الأنبیاء ومدی الدور المخرب والمدّمر لهذه الصفة الذمیمة فی حرکـة الإنسـان والمجتمع البشـری. والیوم نری أنّ مسألـة الإسـتکبار لهـا الـدور الأـوّل فی خلق الأـجواء الفاسـدة وزیـادة المفاسـد الأخلاقیة والإجتماعیة فی العالم والمجتمعات البشـریة المعاصرة وتعد بحقّ البلاء الکبیر علی واقع الإنسانیة المعاصرة والحضارة البشریة الفعلیـة والّتی لا نجد صدیً واسـعاً وتجاوباً من قِبل المفکّرین والمصـلحین فی إصـلاح هذا الخلل الکبیر الّذی یتعرض له الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰ المجتمع البشری من جراء هذه الصفة الرذیلة. وبهذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الشریفة مـا یرشـدنا ویُلقی بـالضوء علی هـذا البحث، أی الآیـات المتعلّقـة بسـیرة آدم إلی سـیرة نبیّنا الأکرم فی دائرة آثار ودوافع هـذه الصـفة الأخلاقیة الذمیمة. ۱- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِکَةِ اسْـجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَـجَدُواْ إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَی وَاسْـتَکْبَرَ وَکَانَ مِنَ ا لْکَافِرِینَ» «۱». ۲- «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَـا یَکُونُ لَکَ أَن تَتَکَبَّرَ فِیهَا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصـغِرِینَ» «۲» ۳- «وَإِنِّی کُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصـبِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِمْ وَاسْـتَغْشَوْاْ

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْباراً» «۳». ۴- «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي ا لْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» «۴». ۵- «قَالَ ا لْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «۵». ۶- «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ» «۶» ۷- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ا لْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَ نَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱ ۸- «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ» «۱». ۹- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» «۲». ۱۰- «قِيلَ ادْخُلُواْ أَبْوَا بَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ا لْمُتَكَبِّرِينَ» «۳» ۱۱- «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۴». ۱۲- «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ ا لْمُسْتَكْبِرِينَ» «۵». ۱۳- «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ا لْمَلئكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِى وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» ۱۴- «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمِّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۶».

تفسیر و استنتاج:

البلاء العظیم علی طول التاریخ البشری:

إنّ الآیات القرآنیة الکریمة ملیئة ببیان مفاسد الاستکبار والعواقب الوخیمة المترتبة علی التکبر وکذلک المشکلات البشریة الّتی تزامنت وترتبت علی هذه الصفة الذمیمة علی طول التاریخ البشری وتأثیر هذه الصفة الرذیلة السلبی فی تقدّم وتکامل الإنسان فی أبعاده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲ المعنویة والمادیة حیث لا تخفی علی أحد، وما قرأنا فی الآیات أعلاه إنّما هو فی الحقیقة ناظرٌ إلی هذا الموضوع. «الآیة الاولی والثانیة» تتحدّث عن إبلیس والقصة المعروفة لسجود الملائکة عندما أمرهم اللَّه تعالی بالسجود لآدم تعظیماً له وقد کان إبلیس فی ذلک الوقت فی صف الملائکة بسبب علوّ مرتبته ومقامه، وقد سجد جمیع الملائکة إلّاإبلیس لأنّه آثر عصیان الأمر الإلهی وتکبر علی الحقّ وعلی اللَّه، وبالتالی تمّ طرده من ذلک المقام السامی بسبب رفضه الصریح للسجود وحتّی اعتراضه علی أصل الأمر الإلهی له، ولذلک أمره اللَّه تعالی بالخروج من ذلک المقام وتلک المرتبة إلی أسفل السافلین حیث تقول الآیة: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ» «۱». «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصغِرِينَ» «۲». وفی الحقیقة أنّ هذه أوّل معصیة وقعت فی عالم الوجود هذه المعصیة هی الّتی أدّت بمخلوق مثل إبلیس والّذی کان قد عبداللَّه ستة آلاف سنة (کما ورد فی الخطبة القاصعة لأمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغة) وأُخرج من ذلک المقام بسبب تکبر ساعة فحبطت أعماله وعباداته وطاعاته وسقط من ذلک المقام الّذی کان یُعدّ فیه مع الملائکة حیث یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام: «إِذْ احْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» «۳». وفی هذه القصة المثیرة والمعبّرة نقرأ دقائق ونکات مهمّة جداً حول عواقب التکبر ونستوحی منها أنّ هذه الصفة الرذیلة یمکن أن تؤدی إلی واقع الکفر والخروج من الإیمان تماماً کما ورد فی الآیات محل البحث «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ»» .الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳ وهکذا یتجلّی فی هذه القصة أنّ إبلیس وبسبب حجاب الکِبر والغرور قد تعامل مع الواقع من موقع الجهل التامّ حیث خاطب اللَّه تعالی من موقع الاعتراض والرفض للأمر الإلهی وقال: «قَالَ لَمْ اكُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ» «۱». فی حین أنّ من الواضح أن شرف آدم لم یکن لأنّه مخلوق من الطین بل بسبب تلک النفخة الإلهیة والروح الإلهی الّتی نفخها اللَّه تعالی فی آدم: «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» «۲»، وحتّی إبلیس لم یکن لیدرک افضلیة التراب

على النار، التراب الّذى صار مصدر جميع البركات فى واقع الخِلقة وظهور الحياة وأنواع المعادن والذخائر الطبيعية من الماء والنباتات وسائر المواد الاخرى الّتى تتولد منها النار ولذلك قال بمنتهى الغرور «خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۳». مضافاً إلى أنّ الكثير من الأشخاص الّذين يقعون فى الخطيئة والزيغ فإنّهم قد يعودون إلى مسارهم الفطرى والسليم بعد أن يدركوا خطئهم ويتحركوا من موقع إصلاح الخلل والتوبة، ولكن حالة التكبّر والإستكبار هى من الامور الّتى لا تفسح المجال للإنسان المخطىء فى سلوك طريق التوبة بعد الانتباه وإدراك الخطأ، ولهذا السبب فإنّ الشيطان عندما التفت إلى خطئه لم يتب منه، لأنّ الكبر والغرور لم يسوّغ له أن يتحرك من موقع التسليم والتعظيم لجوهر الخلقة (أى الإنسان) بل إنّه زاد من تكبره وعناده وأقسم على إضلال جميع الناس (إلّا عَبادَ اللَّهِ المخلصين) وطلب من اللَّه تعالى العمر المديد ليستمر فى غيّه ونصب شراكه وفخاخه لبنى آدم ليضلهم عن سبيل اللَّه وعن سلوك طريق الحقّ. وبهذا فإنّ التكبر والأنانية والعجب وأمثال ذلك تعدّ مصدراً من مصادر الحالات السلبية والصفات الذميمة الاخرى من قبيل الحسد، الكفر، الإفساد، ارتكاب الفحشاء والمنكر. وبهذا يكون الشيطان كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى الخطبة القاصعة قد وضع أساس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴ التكبّر والتعصب فى الأرض وعمل على التصدى للقدرة الإلهية المطلقة من موقع العناد واللجاجة: «فَعَدُوُّ اللَّهِ امَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الّذى وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِداءَ الْجَبْرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ» «۱». وبسبب هذه الحالة الدنيئة والفعل الدنىء فإنّ اللَّه تعالى قد جعل الشيطان ذليلًا وألبسهُ لباس الهوان والحقارة كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة: «الَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكَبُّرِهِ وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ فَجَعَلَهُ فِى الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَاعَدَّ لَهُ فِى الْآخِرَةِ سَعِيراً» «۲». والخلاصة أنّه كلّما تدبّرنا فى قصة إبليس وافرازات التكبّر والغرور فإننا نستجلى دقائق مهمّة وكثيرة عن أخطار التكبّر والاستكبار. «الآية الثالثة» تتحرك حول استعراض قصة نوح أول أنبياء اولى العزم وصاحب الشريعة، هذه القصة توضح لنا أنّ المصدر الأساسى للكفر وعناد قوم نوح مع نبيّهم يمتد إلى حيث صفة التكبّر والاستكبار. فعندما نقرأ الشكوى الّتى تقدّم بها نوح إلى اللَّه تعالى من قومه نجد أنّه يؤكد على هذه المسألة وهى أنّ مخالفتهم نابعة من شدّة استكبارهم حيث تقول الآية: «وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصبِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْباراً» «۳». فهنا نرى أيضاً أنّ التكبّر ورؤية الذات من موقع الغرور والعجب والتفوق على الآخرين يمثل منبع الكفر والعناد مع الحقّ. لقد كان تكبرهم إلى درجة أنّهم لم يتحملوا حتّى سماع كلام الحقّ والّذى يمكن أن يؤثر فى تنبّههم وإيقاضهم من ضلالهم ولذلك كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵ ثيابهم على رؤوسهم لكى لا يصل إليهم صوت نوح ويتأثروا بهذا الكلام الإلهى الصادر من أعماق الفطرة الإنسانية، فهذا العداء وهذه الكراهية لكلام الحقّ ليس لها مسوّغ ودافع سوى حالة التكبّر الشديد الّذى كان يعيشه هؤلاء القوم الظالمون. هؤلاء كانوا يتعرضون لنوح ودعوته ويتساءلون من موقع الاعتراض أنّ نوح كان يحيط به الأراذل من الناس والفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الضعيفة من المجتمع، فلذلك قرروا عدم الاقتراب من نوح والجلوس معه ما دام هؤلاء الأراذل والضعفاء بحسب تعبيرهم مع نوح. أجل فإنّ التكبّر والأنانية العجيبة الّتى كان يعيشها هؤلاء الناس كانت قد أحرقت الفضائل الأخلاقية فى واقعهم وحوّلتها إلى رماد. وفى الحقيقة فإنّ هذه الرذيلة الأخلاقية وهى التكبّر تعدّ عاملًا أساسياً لعنادهم وإصرارهم على الكفر إلى درجة أنّهم كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويغطّون رؤوسهم بثيابهم خوفاً من تأثير كلام نوح فى أنفسهم. ومن الملفت للنظر أنّ هذا العمل إنّما يدلّ على أنّهم كانوا يعترفون فى قرارة أنفسهم بحقّانية دعوة نوح ويعتقدون به ويدل على ذلك وضعهم أصابعهم فى آذانهم وتغطيتهم رؤوسهم بثيابهم. ويُحتمل أيضاً أنّهم كانوا يغطون رؤوسهم بثيابهم لكيلا- يروا نوح ولا- يراهم نوح فلعلّ رؤيتهم له توجب الأُنس به والرغبة والميل لسماع كلماته. وأخيراً فإنّ حالة العجب والغرور ورّثتهم الجهل وعدم سماع انذارات نوح عليه السلام فى آخر لحظات العمر حيث كانت هناك فرصة للنجاة فلم يكونوا يحتملون صدقه فى هذا الانذار لذلك عندما كان نوح عليه السلام يصنع السفينة فإنّ هؤلاء القوم الظالمين كانوا يمرّون عليه ويهزءون به ويسخرون منه ولكن نوح كان قد حذّرهم بقوله: «... انْ تَسْخَرُوا مِنّا فَانَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» «۱»، ولكن فى ذلك اليوم سوف لا تكون لكم فرصة للتنبّه حيث تحيط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶ بكم أمواج البلاء

والطوفان فلا ملجأ. وأساساً فإنّ أحد علامات المستكبرين هو أنّهم لا يتعاملون مع المسائل الّتى لا تدور فى دائرة مصلحتهم ومنفعتهم من موقع الجديّة بل يتخذونها وسيلة للعب واللهو ويتحركون دائماً من موقع الاستهزاء والسخرية بالمستضعفين حيث يمثل ذلك جزءاً من سلوكهم وديدنهم فى حياتهم، وكم رأينا أنّهم فى مجالسهم ينطلقون للعثور على مؤمن مستضعف ليجعلونه محور سخريتهم وضحكهم، وبذلك يكون هذا السلوك منشأ للترفيه عن أنفسهم، فهؤلاء وبسبب هذه الروح الاستكبارية يرون أنّهم العقل الكلّى ويتصورون أنّ الثروة الّتى اكتسبوها من الطريق الحرام هى علامة وآية لذكائهم ولياقتهم الّتى تبيح لهم أن يتعاملوا مع الآخرين من موقع التحقير والتهميش. وفى «الآية الرابعة» نتجاوز عصر نوح عليه السلام لنصل إلى عصر (قوم عاد) ونبيّهم هود عليه السلام، وهنا نرى أنّ السبب الأساس لشقاء هؤلاء القوم الظالمين هو عامل التكبر وروح الاستكبار المترسخة فى نفوسهم حيث تقول الآية: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» «۱». وهنا نرى أيضاً أنّ هذه الصفة الأخلاقية الذميمة وهى صفة التكبر والاستكبار كانت سبباً بأن يتصوّروا أنفسهم أقوى الموجودات فى عالم الخلقة وحتّى أنّهم نسوا قدرة اللَّه تعالى وبالتالى تعاملوا مع الآيات الإلهية من موقع الإنكار وأوجدوا جداراً سميكاً بينهم وبين الحقّ. والملفت للنظر أنّ الآية الّتى تليها (الآية ۱۶ من سورة فصلت) تشير إلى أنّ اللَّه تعالى ولأجل تحقير هؤلاء المتكبرين المعاندين قد سلط عليهم اعصاراً شديداً ومهولًا فى أيّام نحسات بحيث جعلت من أجسادهم كالرماد المبثوث وكالريشة فى مهب الريح. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷ أجل فإنّ التكبر يعدّ حجاباً على بصيرة الإنسان يمنعه من رؤية أيّة قدرة فوق قدرته حتّى أنّه لا يرى قدرة اللَّه تعالى على نفسه وأفعاله. وتعبير «بغير الحقّ» هو فى الواقع قيد توضيحى، لأنّ التكبر والاستكبار بالنسبة للإنسان هو بغير حقّ دائماً وبأيّة حالة، فلا يليق بالإنسان أن يتصرّف من موقع التكبر ويلبس هذا الرداء الّذى لا يليق إلّابالقدرة الإلهية المطلقة. «الآية الخامسة» تتحدّث عن زمان شعيب وقومه، وهنا نرى أيضاً أنّ السبب الأساسى لشقاء قوم شعيب وضلالهم هو الاستكبار حيث تقول الآية: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «۱». لماذا يجب على شعيب والّذين آمنوا معه وسلكوا طريق التقوى والانفتاح على اللَّه أن يخرجوا من ديارهم ومدنهم؟ هل هناك دليل آخر غير تحرّك الأثرياء والمتكبرين من قوم شعيب فى التصدى للدعوة الإلهية والرسالة السماوية ونظرتهم إلى الّذين آمنوا من موقع الاستصغار والاستحقار وبالتالى الانطلاق فى سبيل إلغائهم ونفيهم وإبعادهم عن ديارهم؟ أما قولهم «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا» فلا يعنى أنّ الّذين آمنوا مع شعيب كانوا على ملّة هؤلاء المستكبرين ودينهم، بل بسبب أنّهم كانوا منسوبين إليهم وإلى هذه المدينة، ونعلم أنّ التكبر وحبّ الذات يوجب على الإنسان المتصف بهذه الصفة أن يرى كلّ شىء متعلّقاً به ومن ممتلكاته. «الآية السادسة» ناظرة إلى عصر موسى وفرعون وقارون، حيث تتحدّث هذه الآية عن قصة هؤلاء وترى أنّ العامل الأساس لانحراف وضلال وشقاء قوم فرعون هو حالة التكبر فتقول: «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ» «۱»، ولهذا السبب فإنّهم لم يذعنوا للحقّ وبالتالى فقد أصابهم عذاب اللَّه وأهلكهم ولن يستطيعوا الفرار منه. (قارون) ذلك الرجل الثرى الّذى كان يرى أنّ ثروته العظيمة دليلًا على مقامه ومنزلته السامية عند اللَّه تعالى وكان يرى أنّ هذه الثروة العظيمة إنّما حصل عليها بسبب لياقته وذكائه، ولذلك تملّكه الغرور والفرح والفخر، فكان يخرج على قومه من فقراء بنى إسرائيل بعظيم الزينة ومظاهر الثروة إصراراً منه على تحقيرهم وإذلالهم، وكلّما نصحوه بأن يستخدم هذه الثروة لنيل الدرجات العليا فى الآخرة والسعادة المعنوية فى حركة الحياة والمجتمع، فإنّ هذه النصائح لن تؤثر فيه وذهبت أدراج الرياح، لأنّ الغرور والتكبر منعه من إدراك حقائق الامور وصدّه عن دفع هذه الأمانة الإلهية الّتى بيده لأيّام معدودة لأصحابها الواقعيين. أمّا «فرعون» الّذى جلس على عرش السلطنة والقدرة فإنّه قد أصابه الغرور والتكبر بأشد من صاحبه حتّى أنّه لم يقنع من الناس بعبوديتهم له بل كان يرى نفسه أنّه (ربّهم الأعلى). أمّا «هامان» الوزير المقرّب لفرعون والّذى كان شريكاً له فى جميع جرائمه ومظالمه بل إنّ جميع إدارة امور المملكة كانت بيده فإنّ القرآن الكريم صرّح أيضاً بأنّه ابتلى بالكبر والغرور الشديد. هؤلاء الثلاثة اتّحدوا فى مقابل موسى عليه السلام ودعوته الإلهية

وانطلقوا فی الأرض فساداً وأمعنوا فیها اضلالًا للناس وإذلالًا لهم إلی أن شملهم العذاب الإلهی الشدید، فأغرق فرعون وهامان فی أمواج النیل الهادرة حیث کانوا یعدون النیل مصدراً لقدرتهم وأساساً لملکهم، أمّا قارون فقد ابتلعته الأرض بکنوزه وثرواته الطائلة. «الآیة السابعة» تتحدّث عن قوم عیسی بن مریم علیه السلام والفرق بینهم وبین الیهود حیث الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹ تقول: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ ا لْیَهُودَ وَالَّذِینَ أَشْرَکُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ الَّذِینَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَی ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ» «۱». ثمّ تذکر الدلیل والعلّة لهذا التفاوت والفرق بین هاتین الطائفتین وتقول: «ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ». ومن هذه العبارة یتضح جیداً أنّ أحد العوامل الأصلیة لعداء الیهود للّذین آمنوا هو حالة التکبر والاستکبار تجاه الحقّ فی حین أنّ أحد أدلّة تعامل النصاری مع المؤمنین من موقع المحبّة واللطف هو عدم وجود هذه الصفة الذمیمة فی أنفسهم. إنّ الأشخاص الّذین یعیشون التکبر والاستکبار یریدون أن یقف الآخرون أمامهم موقف الذلّة والحقارة والعجز، ولهذا السبب فإنّهم إذا رأوا یوماً نعمة قد أنعم اللَّه بها علی الآخرین فإنّهم یجدون فی أنفسهم عداءً وکراهیة شدیدة تجاه هؤلاء الّذین أنعم اللَّه علیهم، أجل فإنّ الاستکبار هو سبب الحسد والحقد والعداء تجاه الحقّ والناس. صحیح أنّ هذه الآیة لا تتحدّث عن جمیع النصاری بل ناظرة إلی النجاشی وقومه فی الحبشة الّذین استقبلوا المسلمین المهاجرین إلیهم أحسن استقبال ولم یلتفتوا إلی وساوس أزلام قریش الّذین أرسلتهم قریش لیحرکوا النجاشی علی طرد المسلمین من الحبشة وتسلیمهم إلی المشرکین، وهذا الأمر هو الّذی تسبّب فی أن یجد المسلمون فی أرض الحبشة ملجأً وملاذاً لهم من شر المشرکین الّذین کانوا ینصبون لهم أشد العداوة والکراهیة، ولکن الآیة علی أیّة حال تقرر أنّ الاستکبار هو العامل الأساس للعداوة والبغضاء للحقّ وأهل الحقّ فی حین أنّ التواضع یُعد أساساً للمحبّة وتعمیق أواصر العلاقة والعاطفة مع أهل الإیمان والخضوع مقابل الحقّ. «الآیة الثامنة» تتحرّک من موقع التأکید علی هذا المعنی وتقریر هذه الحقیقة المهمّة، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰ وهی أنّ الاستکبار هو سبب (الکفر والعناد وعدم المرونة مقابل الحقّ)، وهنا تستعرض الآیة حالة (الولید بن المغیرة المخزومی) الّذی کان یعیش فی عصر نزول القرآن وتصف حالته فی مقابل الحقّ والآیات القرآنیة وتقول: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَکْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ یُؤْثَرُ» «۱». کلمة «سحر» توضح جیداً أنّ الولید قد أقرّ واذعن بهذه الحقیقة وهی أنّ القرآن الکریم له تأثیر عجیب علی الأفکار والقلوب ویتمتع بجاذبیة کبیرة لعواطف الناس، فلو أنّ الولید نظر إلی هذه الآیات نظر المنصف والطالب للحقّ فإنّه سوف یعد هذا التأثیر الغریب للقرآن دلیلًا علی إعجازه، وبالتالی سوف یؤمن به، ولکن بما أنّه کان ینظر إلیه من خلال حجاب الغرور والتکبّر فإنّه کان یری فیه سحراً کبیراً کسحر الأقوام السالفة، أجل فکلّما تراکم حجاب التکبّر علی بصیرة الإنسان وقلبه فإنّه سینظر إلی آیات الحقّ بنظر الباطل وینقلب الباطل فی نظره إلی حقّ. والمشهور أنّ الولید کان یعیش الغرور إلی درجة أنّه کان یقول: «انَا الْوَحِیدُ بْنُ الْوَحِیدِ، لَیْسَ لِی فِی الْعَرَبِ نَظِیرٌ، وَلَا لأَبی نَظِیرٌ!» فی حین أنّ الولید کان یُعتبر بالنسبة إلی الناس فی ذلک الزمان رجلًا عالماً وقد أدرک عظمة القرآن جیداً وقال فیه عبارة عجیبة مخاطباً بنی مخزوم: «إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَیْهِ لَطَلَاوةً، وَانَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَانَّ اسْفَلَهُ لَمُغْدَقٌ، وَانَّهُ لَیَعْلُو وَلَا یُعْلی عَلَیْهِ». هذا التعبیر یقرب بوضوح إلی أنّ الولید أدرک عظمة القرآن أکثر من أیّ شخص آخر من قومه ولکن التکبّر والغرور منعه من رؤیة شمس الحقیقة والإذعان لنور الحقّ. وتأتی «الآیة التاسعة» لتستعرض فی سیاقها خطاب مؤمن آل فرعون لقومه ویحتمل أن تکون هذه الآیة جزءاً من خطابه أو جملة مستقلة معترضة من الآیات القرآنیة الکریمة حیث نقرأ فیها قوله تعالی: «الَّذِینَ یُجَادِلُونَ فِی ءَایَاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ کَبُرَ مَقْتًا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۱ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِینَ ءَامَنُواْ کَذَلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ» «۱». «یطبع» من مادّة «طبع» وتأتی فی هذه الموارد بمعنی الختم، وتشیر إلی عمل تم فی الماضی والحال ویراد به الشیء الّذی یُراد بقائه دون استخدام وتصرف فیغلق علیه ویُسد بابه ویوضع علیها مادّة لاصقة إما من الطین أو الشمع أو ما شابه ذلک ویختم علیها بختم معین بحیث إذا أراد شخص فتحه سیضطر إلی کسر هذا الختم وبالتالی سیتّضح ویتبین أنّه تصرّف فیه فیحال إلی المحکمة. وعلی هذا الأساس فإنّ عملیة الطبع والختم علی قلوب المتکبرین یشیر إلی أن عناد هؤلاء وعدائهم للحقّ قد أسدل علی قلوبهم وأفکارهم حجاباً ظلمانیاً بحیث لا یقدرون معه علی

إدراك حقائق عالم الوجود، ولا يرون سوى أنفسهم ومصالحهم وأهوائهم النفسية ونوازعهم الدنيوية، فكانت أذهانهم وعقولهم بمثابة ظروف مغلقة لا ـ يمكن معها من إفراغ محتواها الفاسد ولا ملئها بالمحتوى السليم والفكر الصحيح، وهذا في الواقع هو نتيجة التكبّر وحالة الجبارية الّتي يعيشها هؤلاء الاشخاص، وفي الواقع فإنّ الصفة الثانية متولدة من الصفة الاولى لأنّ (جبار) تأتي في هذه الموارد بمعنى الشخص الّذي يعاقب وينتقم من مخالفيه من موقع الغضب الشديد والنقمة لا ـ من موقع العقل والحكمة، وبعبارة اخرى: أنّ الجبّار هو الشخص الّذي لا ـ يرى إلّانفسه وأهوائه ولا يرى للآخرين محلًا من الإعراب سوى أنّهم اتباع له. وبالطبع فإنّ هذه المفردة «الجبّار» تطلق أحياناً على اللَّه تعالى أيضاً ويراد بها مفهومٌ خاص وهو الشخص الّذي يُجبر نقائص الآخرين ويصلحها. وتنطلق «الآية العاشرة» لتشير إلى أصل كلي لا يختصّ بطائفة معيّنة، وهو أنّ الكافرين عندما يقتربون من حافة جهنم يُقال لهم إنّ هذا العذاب هو بسبب أنّكم تتصفون بصفة التكبّر الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۲ فتقول الآية: «قِيلَ ادْخُلُواْ أَبْوَا بَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ا لْمُتَكَبِّرِينَ» «۱». وشبيه هذا المعنى قد ورد في آيات متعددة اخرى من القرآن الكريم منها ما ورد في الآية ۶۰ من سورة الزمر: «الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ». ومن الملفت للنظر أنّ من بين جميع الصفات الأخلاقية الذميمة لأصحاب النار قد أكدت الآية على مسألة التكبّر ممّا يقرر هذه الحقيقة، وهي أنّ هذه الصفة الذميمة هي الأساس في سقوط هؤلاء في هذا المصير المؤلم بحيث تكون جهنم هي مقرّهم النهائي ومصيرهم الخالد. وممّا يلاحظ في هذه الآية أنّ كلمة «مثوى» من مادّة «ثوى تعني المحل الدائم والمقر الّذي يستقر فيه الإنسان في نهاية المطاف، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء لا نجاة لهم من العذاب الأليم في الآخرة. «الآية الحادية عشر» تتحدّث أيضاً عن المتكبّرين بشكل عام وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۲». هذه العبارات المثيرة الواردة في هذه الآية الكريمة تخبر عن عمق المصيبة الّتي يبتلي بها هؤلاء المتكبرون، فإنّ اللَّه تعالى سيجازي هؤلاء الأشخاص ويعاقبهم من موقع أنّهم لا ـ يجدون في أنفسهم قبولًا للحقّ بحيث إنّهم لو رأوا جميع آيات اللَّه ومعجزاته المتنوعة فإنّهم لا ينفتحون على الإيمان ولا يسلكون خط الصلاح والهدى ولو أنّهم وجدوا الصراط المستقيم مفتوحاً أمامهم فإنّهم لا يسلكونه بل إذا وجدوا طريق الغي والضلال فإنّهم يسلكونه من فورهم ويتحركون في خط الضلالة والباطل والإنحراف. الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۳ وعبارة «بغير الحقّ» هي في الواقع قيد توضيحي لأنّ العظمة والكبرياء مختصان باللَّه تعالى وقدرته المطلقة، وأمّا بالنسبة للإنسان الّذي ليس سوى ذرّة صغيرة من ذرات عالم الوجود الواسع، فإنّ رداء العظمة والكبرياء بالنسبة له ليس حقّاً وليس من حقّه أن يرتدي هذا الرداء. بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ هذا القيد هو قيدٌ احترازي وقالوا: إنّ التكبّر على قسمين: تكبّر في مقابل أولياء اللَّه فهو (بغير الحقّ) وفي مقابل ذلك التكبّر في مقابل أعداء اللَّه وهو (بالحقّ) ولكن مع الالتفات إلى جملة «يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ» يتّضح جيداً أنّ هذا التفسير غير منسجم مع سياق الآية لأنّ التكبّر في الأرض وفي مقابل البشر جميعاً هو خلقٌ مذموم وقبيح بصورة مطلقة. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة تشير في سياقها إلى أهم آثار وعواقب التكبّر الوخيمة، وهي أنّ مثل هذا الإنسان لا يذعن أمام آيات الحقّ ولا يؤمن بها بل على العكس من ذلك، فإنّه وبسبب هذه الصفة الذميمة سيدخل أبواب الضلالة، ويسلك سبيل الغي لدى مشاهدته فوراً. أجل فإنّ صفة الكبر والغرور تمثل حجاباً على قلب الإنسان وروحه ممّا يتسبّب أن يرى الحقّ باطلًا والباطل حقّاً، وبذلك يحجب عن الإنسان أبواب السعادة والنجاة ويفتح له أبواب الضلالة وعلى أساس أنّها أبواب السعادة، فما أعظم شقاء الإنسان الّذي لا يرى علائم الحقّ ويتغافل عنها ويسلك طريق الضلالة والزيغ والإنحراف ويتصور أنّ هذا المسير هو الّذي يؤدي به إلى السعادة والنجاة!! «الآية الثانية عشر» تقول: «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ ا لْمُسْتَكْبِرِينَ» «۱». وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في القرآن الكريم مرّات عديدة من قبيل قوله: الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۴ «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمينَ» «۱». «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «۲» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» «۳» «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِين» «۴» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ» «۵» «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ» «۶» ويقول في الآية محل البحث: «انَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». إنّ التدقيق في مثل هذه العبارات يوضح وجود رابطه خاصة بين هذه الامور المذكورة في هذه

الآيات، بحيث يمكن القول أنّ القدر المشترك بين الصفات الرذيلة فى هذه الآيات السبعة المذكورة آنفاً هو حبّ الذات والغرور والعجب أو التكبر الّذى يعد منبعاً للظلم والفساد والإسراف والفخر على الآخرين. وهنا تقول الآية: إنّ اللَّه تعالى لا يحب أيّاً من هذه الطوائف السبعة، ومفهومها أنّ من يتصف بهذه الصفات ويكون مصداقاً لأحد هذه الطوائف فإنّه مطرود من ساحة الربوبية والرحمة الإلهية الواسعة، لأنّه متصف بأخطر الرذائل الأخلاقية، وهى التكبر المانع من القرب إلى اللَّه تعالى. «الآية الثالثة عشر» من الآيات محل البحث وكما ورد فى الروايات فى شأن نزولها أنّها تتحدّث عن طائفة من نصارى نجران وتقول: «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵ ا لْمَلَئِكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» «۱». وتقول الآية الّتى تليها مؤكدة على أصل مهم ومصيرى فى حياة الإنسان والمجتمع البشرى: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصلِحتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَايَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَانَصِيرًا» «۲». هذه الآيات ناظرة إلى دعوى واهية لطائفة من النصارى الّذين ذهبوا إلى إلوهية المسيح وتصوّروا أنّهم لو أنزلوا المسيح من هذا المقام وأنّه عبداللَّه فإنّ ذلك سيكون هتكاً لحرمته وإهانة لساحته ومقامه السامى. وأمّا القرآن فيقول لهم أنّه ليس المسيح ولا أى واحد من الملائكة أو من المقرّبين له هذا المقام، ولا يتصوّر أحد منهم ذلك بل يرون أنفسهم عباد اللَّه ويذعنون أمام هذه الحقيقة الناصعة، ويأتون بطقوس العبودية له، ثمّ يذكر القرآن أصلًا كليّاً ويقول: إذا تحرّك أى واحد من المخلوقين حتّى الأنبياء الإلهيين أو الملائكة المقرّبين مبتعداً عن خط العبودية ومتلبساً بلباس الاستكبار أمام الحقّ تعالى واستنكف عن عبادته وتكبر فإنّه سوف لا يستطيع انقاذ نفسه من العذاب الإلهى ولا يستطيع أحد انقاذه من خالق العقاب الأليم المقرّر له. والملفت للنظر أنّ الآية الأخيرة تقرّر أنّ الإيمان والعمل الصالح يقعان فى النقطة المقابلة، للاستكبار والأنانية ورؤية الذات أعلى من الواقع، وبالتالى يمكننا أن نستوحى منها هذه النتيجة، وهى أنّ من يسلك طريق الاستكبار وينطلق فى فكره وسلوكه من موقع التكبّر فليس له إيمان حقيقى ولا عمل صالح. «الاستنكاف» فى الأصل من مادّة «نكف» على وزن «نصر» وهى فى الأصل بمعنى مسح قطرات الدموع على الوجه بالأصابع، وعليه فيكون الاستنكاف من عبودية اللَّه تعالى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶ يعنى الابتعاد عنه وذلك بسبب أحد العوامل المختلفة من قبيل الجهل أو الكسل وحب الراحة وغير ذلك، ولكن عندما وردت جملة «اسْتَكْبَرُوا» بعد هذه العبارة فإنّ ذلك يشير إلى الاستنكاف الّذى يقع من موقع الكبر والغرور ويكون معلولًا لهما، وبذلك يكون ذكر هذه الجملة بعد تلك العبارة فى الواقع إشارة إلى هذه النكتة الدقيقة. وعلى أيّة حال فإنّ التعبيرات المثيرة فى هذه الآيات تدلّ على أهمية هذه المسألة وأنّ هذه الصفة الذميمة وهى الاستكبار تنتج هذه العواقب الوخيمة لدى كلّ إنسان يتصف بها. وفى «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات محل البحث نقرأ نتيجة اخرى من النتائج الخطيرة والإليمة المترتبة على حالة الاستكبار حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمِّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الُمجْرِمِينَ» «۱». ففى هذه الآية الشريفة ورد أوّلًا (التكذيب بآيات اللَّه) إلى جانب (الاستكبار) وكما ذكرنا سابقاً أنّ أحد العلل المهمّة لإنكار آيات اللَّه والتصدى لدعوة الأنبياء هى حالة الاستكبار الّتى يعيشها الأقوام البشرية، فأحياناً كانوا يقولون: ما هو امتياز هذا النبى عنا؟ ولماذا نزلت عليه آيات اللَّه دوننا؟ ويقولون أحياناً اخرى: إن الاراذل والفقراء من الناس إلتفّوا حوله ونحن أعلى شاناً من أن نكون كأحدهم، ولو أنّ هذا النبى قد طرد هؤلاء المؤمنين به من حوله فسوف يفسح لنا المجال للدخول فى مجلسه والمشاركة فى الاستماع لكلماته ومواعظه، وهكذا من خلال هذه التبريرات والذرائع الواهية كانوا يعرضون عن الإيمان باللَّه والتحرّك فى خط المسؤولية. عبارة: «وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمِّ ا لْخِيَاطِ» والّتى وردت فى القرآن الكريم فى هذه الآية فقط هى تأكيد واضح على عظمة هذه الخطيئة وهذا الاتصاف السلبى والخطير فى حركة الإنسان فى الحياة، أى كما أنّ عبور الجمل (أو طبقاً لتفسير آخر: الحبل الضخم) غير ممكن ومستحيل من ثقب أبرة فإنّ دخول المتكبرين إلى الجنّة والنعيم الإلهى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷ محال أيضاً، ولعلّ ذلك يشير إلى أنّ طريق الجنّة إلى درجة من الدقّة بحيث يشبه ثقب الأبرة ولا يمر من خلاله إلّامن تحلّى بصفة التواضع ورأى نفسه من واقع حاله.

وجملة: «لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ» هى إشارة إلى ما ورد فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهو أنّ المؤمنين عندما ينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الاخرى أنّ روحهم وأعمالهم تصعد إلى السماء وتفتح لهم أبواب السماء ويستقبلهم الملائكة، ولكن عندما يصعد بروح الكفّار والمتكبرين وأعمالهم إلى السماء فسوف توصد أبواب السماء أمامهم ويناد المنادى أنّه أذهبوا بها إلى جهنم وبئس المصير.

النتيجة النهائية:

ونستنتج من مفهوم الآيات المذكورة آنفاً أنّ القرآن الكريم يعتبر (التكبّر والاستكبار) من أقبح الصفات والأعمال على مستوى السلوك البشرى، وأنّ هذه الصفة الذميمة يمكنها أن تكون مصدراً للكثير من الذنوب العظيمة وحتّى أنّها قد تورث الإنسان حالة الكفر باللَّه تعالى والأشخاص الّذين يعيشون هذه الحالة لا يتسنّى لهم إدراك معنى السعادة الحقيقية والطريق إلى مرتبة القرب الإلهى موصد أمامهم، وعليه فإنّ على السالكين طريق الحقّ لابدّ لهم قبل كلّ شىء من تطهير أنفسهم وقلوبهم من تلوثات هذه الصفة الأخلاقية القبيحة بأن لا يروا لأنفسهم تفوّقاً فى وجودهم على الآخرين ولا ينطلقوا فى تعاملهم مع الناس من موقع التكبر والأنانية، فإنّ هذه الحالة من أكبر موانع الوصول إلى اللَّه تعالى والقرب المعنوى من الكمال المطلق.

التكبّر فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية أحاديث كثيرة على مستوى ذمّ التكبر وبيان حقيقته ونتائجه الوخيمة على الفرد فى حركة الحياة والواقع وطرق علاجها ولا يسعنا ذكر هذه الروايات بأجمعها فى هذا المختصر، ولكننا نكتفى منها بما يلى: ١- ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ايَّاكُمْ وَالْكِبْرَ فَانَّ ابْلِيسَ حَمَلَهُ الْكِبْرُ عَلَى أنْ لَايَسْجُدَ لِآدَمَ» «۱». ٢- وهذا المعنى نفسه ورد بتعبير آخر فى خطب نهج البلاغة حيث نقرأ فى الخطبة القاصعة كلاماً كثيراً عن (تكبر إبليس) والنتائج المترتبة على ذلك حيث يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِابْلِيسَ اذْ احْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ» «۲». إنّ العبارات المثيرة أعلاه تبين جيداً أنّ التكبر والأنانية وحالة الفوقية الّتى يعيشها إبليس والإنسان بإمكانها أن تفضى، ولو فى لحظات قليلة، إلى أخطر العواقب الوخيمة وكيف أنّها كالنار المحرقة الّتى تأتى على الأخضر واليابس من الأعمال الصالحة فتحرقها وتجعلها رماداً منثوراً وتتسبب فى الشقاء الأبدى والعذاب الخالد لصاحبها. ٣- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إحْذَرِ الْكِبْرَ فَانَّهُ رَأسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ» «۳». وهذا الحديث الشريف يبين هذه الحقيقة، وهى أن مصدر الكثير من الذنوب والخطايا هى حالة الكبر والفوقية الّتى يعيشها الإنسان بالنسبة إلى الآخرين. ۴- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَا دَخَلَ قَلْبَ امْرِءٍ شَىْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إلّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلُ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ! قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ» «۴». ۵- وفى اصول الكافى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اصُولُ الْكُفْرِ ثَلَاثَةٌ، الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٢٩ الْحِرْصُ وَالْاسْتِكْبارُ وَالْحَسَدُ، فَامَّا الْحِرْصُ فَانَّ آدَمَ حِينَ نُهِىَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الْحِرْصُ عَلَى أنْ اكَلَ مِنْهَا، وَامَّا الْاسْتِكْبارُ فَابْلِيسُ حَيْثُ امِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَابى، وَامَّا الْحَسَدُ فَابْنَا آدَمَ، حَيْثُ قَتَلَ احَدُهُمَا صَاحِبَهُ» «۱». وعليه فإنّ أوّل الذنوب الّتى نشأت على الأرض كان مصدرها هذه الثلاثة من الصفات الأخلاقية الذميمة. ۶- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» «۲». ٧- وفى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «اقْبَحُ الْخُلْقِ التَّكَبُّرُ»». إنّ الأحاديث الإسلامية الواردة فى المصادر الروائية كثيرة فى هذا الباب ولكن هذا المقدار المعدود من هذه الأحاديث يكفى لبيان شدّة قبح هذه الرذيلة. فقد قرأنا فى الأحاديث المذكورة آنفاً أنّ الكبر هو مصدر الذنوب الاخرى، وعلامة على نقصان العقل، وسبباً لإهدار طاقات الإنسان وقواه المعنوية، ويعتبر من أقبح الرذائل الأخلاقية بحيث إنّه يتسبب فى حرمان الإنسان من دخول الجنة فى نهاية

المطـاف، وكـلّ واحـد من هـذه الامور بحـدّ ذاته يمكن أن يكون عاملًا مؤثراً فى ردع الإنسان عن التحرّك فى هـذا الاتجاه وسلوك طريق التكبّر، فكيف بأن يتصف بمثل هذه الصـفة الذميمة الّتى تؤدى إلى سـقوطه من مقام الإنسانية ومرتبة الإيمان فى حركة التكامل المعنوى؟

التكبّر فى منطق العقل:

ومضافاً إلى الآيـات والروايـات الشـريفة فإنّ (التكبّر والاسـتكبار) يُعتبر مـذموماً فى منطق العقل بشـدّة، لأنّ العقل يرى أنّ جميع أفراد البشـر هُم عبـاد اللَّه تعـالى وكـلّ إنسـان يجـد فى نفسه نقـاط إيجابيـة وقابليـات وملكات فى طريق الكمال، وكلّهم من أب واحـد وامّ واحـدة، فهم سواسـية فى ميزان الخلق، فلاـ دليـل على أن يرى أى إنسـان نفسه أعلى من الآـخرين ويفتخر على غيره ويسـعى لتحقيره، وحتّى لو رأى فى نفسه موهبـة من اللَّه تعالى لم تكن لدى الآخرين، فمثل هذه الموهبة يجب أن تكون سـبباً ليتحرك فى خط الشـكر للَّهتعالى والتواضع لا فى خط الكبر والغرور. إنّ قباحـة هـذه الصـفة الذميمـة يعـد من البـديهيات الّتى يشـعر بها كلّ إنسان فى وجدانه ويعترف بها، ولهـذا فإنّ الأشـخاص الّذين لا يعتنقون أى دين ومذهب يذمون حالة التكبر والأنانية أيضاً ويرون أنّها من أقبح الصـفات والسـلوكيات فى دائرة السـلوك الإنسانى. وفى الواقع فإنّ قسـماً مهماً من مسألة (حقوق الإنسان) الّتى تم تدوينها من قِبل مجموعة من المفكّرين غير المؤمنين ناظرة إلى مسألـة التصدى لحالة الاسـتكابر الدولى، ومع أننا قد نرى من الناحية العملية نتائج معكوسة على هذا القرار الـدولى بحيث أصـبح أداة طيّعة بيد المسـتكبرين للتحرك من موقع إدانة الآخرين لا العمل على تطبيق هذه المقررات الأخلاقية بإنصـاف على جميـع الـدول والمجتمعـات البشـرية المعاصـرة. وأساسـاً كيـف يرتـدى الإنسـان رداء التكبّر فى حيـن إنه وكمـا يقـول أميرالمؤمنين عليه السـلام كـان فى البـدايه نطفـة حقيرة، ثمّ جيفـة نتنـة، ثمّ هو فيما بينهما يحمل العـذرة؟ الإنسان ضـعيف وعاجز إلى درجـة أنّ البعوضـة تؤذيه وحتّى أقـل من البعوضـة، أى المكروب والفيروس الّـذى لا يُرى بالعين المجرّدة قـد يوقعه فى حبال المرض الشديد ويؤدى به إلى أن يرقد على سـرير المرضـى لمدّة طويلة، والإنسان الّذى يتالم من حرارة الهواء أو برودته ولو انقطع المطر مدّة عنه لشعر بالهلاك والتلف ولو أنّ المطر زاد قليلًا عن المألوف لوقع فى مصيبة أدهى ولو أنّه قد ارتفع ضغطه قليلًا لوقع فى خطر الموت وكـذلك لو انخفض ضـغطه أيضاً، وهو لا يعلم مصيره ومسـتقبله حتّى لمـدى ساعة من المسـتقبل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱ القريب ولا يعلم متى يحين أجله وقـد يكون أقرب الناس إليه هو الّذى يقتله ويذهب بحياته، وقد يكون الماء الّذى يروى حياته موجباً لموته أيضاً، وكـذلك الهواء الّـذى يتنسّـمه ويستنشـقه قـد يتحول إلى إعصار مـدمر فى حركـة سـريعة فيتحول بيته ومأواه إلى خرائب وبذلك يفقد كلّ شـىء لأتفه الأسـباب. ومن الامور الّتى تمثل علامة من علامات عجز الإنسان هى الأمراض الّتى تأخذ بحياة الإنسان وسـعادته وسـلامته والّتى غالباً ما تكون بسـبب المكروبات والفيروسات الصـغيرة جداً بحيث لا ترى إلّابأقوى المجاهر والمكرسكوبات وبإمكانها أن تصـرع أقوى الناس واغناهم وأشـدّهم قوّة وقـدرة. إنّ مرض السـرطان الموحش الّـذى يُعـدّ مرض العصـر فى هذا الزمان ويحصد أكثر الضـحايا على الرغم من سـعى آلاف الأطباء والعلماء فى كلّ يوم وصـرف مليارات من الأموال لعلاجه وايقافه عند حدّه هـذا المرض كيف يحـدث؟ أنّه يحـدث بسـبب طغيان واسـتكبار وتضـخم خلية واحدة من خلايا البدن الّتى لا تُرى إلّابالمجهر العظيم حيث تشـرع هـذه الخليـة بالتكثّر من دون وازع أو نظم معين، وهكذا تتضـخّم هذه الخلايا وتصبح على شـكل غدّة سـرطانية فى زمن قليل. إنّ الكثير من القادة العسـكريين ورؤساء العالم الّـذين يقودون الجيوش العظيمـة قـد صُـرعوا بهـذا الداء الوبيل، أى أنّ جيوشـهم العظيمـة لم تقـدر على التصـدى لخليّـة صـغيرة جـداً من خلايا الجسد. أجل فمثل هذا الضـعف والعجز الذاتى للإنسان كيف يسوغ له إدّعاء العظمـة والكبرياء بحيث يرتـدى لباس العزة والعظمـة على المخلوقين فى حين أنّ العظمة والكبرياء مختصّـتان باللَّه تعالى وليس لسواه من المخلوقات سوى العجز والفاقة والفقر. ونختم هذا البحث بحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه خلاصة لهذا البحث المنطقى ببيـان جميـل حيث يقول: «مِسْـكِينُ بْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الْاَجَـلِ، مَكْنُونُ الْعِلَـلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲

تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۱». فهل مع هـذا الحال یلیق بالإنسان أن یری لنفسه تفوقاً وتکبراً علی الآخرین ویفتخر علیهم من موقع رؤیة العظمة للذات والأنا؟

ملاحظات:

اشارة

وقد بقیت هنا مسائل وامور مهمّة لابدّ من بیانها وهی کما یلی:

۱- تعریف التکبّر وحقیقته

قـال علماء الأخلاق: إنّ أساس التکبر وتعریفه هو أن یری الإنسان علوّاً وتفوقاً علی غیره، وعلیه فالتکبر یتکون من ثلاثـة أرکان: الأوّل أن یری لنفسه مقامـاً ومرتبـة معیّنـة، الثـانی أن یری لغیره أیضـاً مقامـاً معیّنـاً، والرکن الثالث أن یری مقامه أعلی من مقام الآخر ویشـعر بالراحـة والفرح لأجـل ذلـک. وعلی هـذا الأساس قالوا: إنّ التکبر یختلف عن العُجب، ففی العجب لا توجـد مقارنـة مع الآخر، بل إنّ الإنسان یتملّکه حالـة من رؤیـة العظمـة فی نفسه بسـبب العلم أو الثروة أو القدرة أو حتّی العبادة حتّی لو لم یکن إنسان آخر علی وجه الأرض، ولکن فی حالـة التکبر هناک مقارنـة مع الآخرین حتماً بحیث یری نفسه أعلی منهم. إنّ مفردة «الکبر والتکبر» تارة تطلق علی الحالة النفسـیة الّتی ذکرناها آنفاً، وتارة اخری تطلق علی العمل أو الحرکة الناشـئة من تلک الحالة النفسانیة، مثلًا أن یجلس الإنسان أو یسیر بخطوات أو یتحـدّث بحدیث یظهر منه انه یری لنفسه تفوقاً علی أقرانه وجلسائه، فمثل هذه الأعمال والسـلوکیات تسـمّی بالتکبر أیضاً والّتی تمتـد فی جذورها وأصـلها إلی تلک الحالة الباطنیة والنفسانیة الذمیمة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳ إنّ علائم التکبر کثیرة، منهـا أنّ المتکبر یتوقع اموراً کثیرةً من النـاس مثـل أن یتوقع منهم أن یسـلموا علیه، وأن لا یـدخل أحـداً إلی المجلس قبله، وأن یجلس فی صـدر المجلس دائماً، والناس لا یرون لأنفسـهم شخصـیة أمامه ولا یتکلمون معه من موقع الانتقاد والنقد بل حتّی من موقع النصیحة والموعظة فیحفظون احترامه وحرمته دائماً ویقفون أمامه موقف الخاضع الخاشع ویتحدثون بعظمته ومقامه السامی دائماً. ومن البدیهی أنّ ظهور وبروز هذه الحالات فی ممارسات الإنسان وسـلوکیاته تابع لدرجة شدّة وضعف حالة التکبر فی واقعه النفسانی، ففی بعض الموارد تتجلّی هـذه العلامـات جمیعـاً، وفی بعضـها الآـخر یتجلّی قسم منها. هـذه الحالات والسـلوکیات فی الواقع الخارجی لها جـذور باطنیـة وأحیاناً تکون ضـعیفة وخفیّـة إلی درجة إن الإنسان نفسه لا یشـعر بوجودها بل قد یتصور هذه الصـفة الذمیمة من موقع نقطـة القوّة (من قبیل الاعتماد علی النفس وتوکید الذات والشخصـیة) فتختلط علیه الحالة، وأحیاناً تکون ظاهرة إلی درجة أنّ الآخرین أیضاً یدرکون وجودها فی هذا الإنسان.

۲- أقسام التکبّر

هناک مفاهیم متعددة تحکی عن هذه الحالة النفسانیة حیث یتصور البعض أنّها مترادفة وبمعنی واحد، والحال أنّ هناک اختلاف دقیق فیما بینها رغم أنّها تمتـد جمیعاً إلی أصل «التکبر» ولکنها تتجلّی فی زوایا ووجوه مختلفـة. (حالـة الفوقیة)، (الأنانیة)، (الذاتیة)، (عظمة الشخصـیة)، (التفاخر)، کلّ هذه المفاهیم تمد جذورها إلی أصل «التکبر» رغم أنّها تعنی مفاهیم مختلفة وناظرة إلی سـلوکیات متنوعة فی حرکـة الإنسان الإجتماعیة والنفسـیة. فقد تحکی الکلمة عن رؤیة الذات أعلی من الآخرین وهی (النظرة الفوقیة). وقد یری الإنسان نفسه هو الأجـدر بسـبب هـذه الفوقیـة فیتحرّک لیسـتلم زمـام الامـور فی جمیع المنـاحی الإجتماعیـة والمناصب السیاسـیة فهی (النظرة

الأنانية). الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴ والشخص الّذى يسعى فى المسائل الإجتماعية وخاصة عند بروز المشكلات والأزمات أن يؤمّن منافعه الشخصية ولا يهتم بمصالح الآخرين ومنافعهم فهى (الأنانية). والشخص الّذى يسعى إلى تحكيم سلطته على الآخرين وجعل الآخرين طوع إرادته فهو مبتلى بحالة (السلطوية)، وأخيراً فإنّ الشخص الّذى يسعى لاظهار ما لديه من مقام أو ثروة أمام الآخرين ويتعزّز بها فهى حالة (التفاخر). وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الصفات والحالات تشترك جميعاً فى أصل «التكبر» رغم أنّها تظهر وتتجلى بأشكال مختلفة.

۳- التكبّر على مَنْ؟

يقسّم علماء الأخلاق التكبر إلى ثلاث أقسام: ۱- التكبر أمام اللَّه. ۲- التكبر مقابل الأنبياء. ۳- التكبر على خلق اللَّه. والمراد من التكبر مقابل اللَّه تعالى والّذى يُعد من أسوأ أنواع التكبر وناشئاً من غاية الجهل هو أنّ الإنسان الضعيف يدّعى الإلوهية، وليس فقط أنّه لا يرى نفسه عبداً للَّه‌بل يسعى إلى دعوة الناس لعبادته أيضاً، أو يقول كما قال فرعون «... انَا رَبُّكُمُ الْاعْلَى» «۱» أو يقول «... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ الهٍ غَيْرِى ...» «۲». ومن البعيد جداً أن يرى الإنسان مثل «فرعون» الّذى حكم أرض مصر سنين متمادية أنه واقعاً «الربّ الأعلى للناس وأنّه معبود الناس جميعاً حتّى لو كان على درجة شديدة من قلّة العقل وقلّة الذكاء، إذن فالمراد حسب الظاهر أنّ فرعون وأمثاله ولغرض تحميق عامّة الناس واستحمار السُذّج منهم أن يدعوا هذا الأدّعاء لتثبيت أركان حكومتهم وسيطرتهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵ الشكل الآخر من التكبر إمام اللَّه هو ما نجده من تكبر إبليس وأتباعه حيث استكبروا ورفضوا إطاعة اللَّه تعالى من موقع الأفضلية لأنفسهم والاعتراض على الحكم الإلهى وأمره حيث قالوا: إنّ إبليس الّذى خلق من النار لا ينبغى له السجود لمخلوق من تراب كما تقول الآية على لسان إبليس: «... لَمْ اكُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ» «۱»، أو تقول الآية: «... قَالَ انَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۲». أجل فإنّ الحجاب العظيم للكبر والغرور قد يصل إلى درجة أن يحجب عقل الإنسان وبصيرته عن رؤية حقائق الامور وأنّه موجود ضعيف فيرى انه أعلم من اللَّه تعالى. القسم الآخر للتكبر هو التكبر فى مقابل الأنبياء والمرسلين الّذين أرسلهم اللَّه تعالى إلى أقوامهم كما نرى هذه الحالة فى طوائف المستكبرين من الأقوام السالفة أمام أنبيائهم اذ رفضوا طاعة الأنبياء من موقع التكبر والغرور وقالوا: «... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ...» «۳» أى موسى وهارون، وتارة كانوا يقولون مثل مقولة قوم نوح عليه السلام: «وَلَئِنْ اطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ انَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ» «۴». وتارة اخرى يتذرعون بذرائع طفولية ويقولون من موقع العناد واللجاجة: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَائَنَا لَوْلَا انْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا» «۵». القرآن الكريم يقول فى سياق هذه الآيات الشريفة: «لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى انْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً» «۶». القسم الثالث من أقسام التكبر هو التكبر فى مقابل عباد اللَّه بحيث يرى نفسه أعلى منهم ويرى الآخرين من موقع الحقارة والدنائة وأنّهم لا قيمة لهم أمامه وبالتالى فلا يرى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶ للآخرين حقّاً عليه بل يتوقع من الآخرين أن يحترمونه ويعترفون بعظمته ويذعنون لأوامره ومطاليبه. وهذا النوع من التكبر له نماذج كثيرة فى حياتنا الإجتماعية فلا حاجة للإطالة فى شرحه وبيان مصاديقه وموارده، وقد يمتد هذا النوع من التكبر ويصل إلى درجة فى أعماق النفس إلى التكبر فى مقابل الأنبياء ثمّ التكبر أمام اللَّه تعالى. أجل فإنّ نار التكبر والغرور تنشأ من التكبر فى مقابل عباد اللَّه عادة ثمّ يتدرج الإنسان ويتمادى فى هذه الحالة حتّى يتكبر أمام دعوة الأنبياء ويرفض إطاعتهم وبالتالى يصل به الأمر إلى التكبر أمام اللَّه تعالى.

۴- دوافع التكبّر

للتكبر أسباب ودوافع كثيرة تعود كلّها إلى أنّ الإنسان يتصور لنفسه كمالًا معيناً، وبسبب حبّه لذاته فإنه يرى نفسه أكبر من واقعها

ویحتقر الآخرین کـذلک. بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفیض الکاشانی) فی کتابه المحجّـة البیضاء یـذکرون فی مسألـة دوافع الکِبر وأسبابه سـبعة أسـباب: الأوّل: الأسـباب الدینیـة من العلم والعمل، والاخری الأسـباب الدنیویة من النسب والجمال والقوّة والثروة وکثرة الأعوان والأصـحاب، ثمّ ذکر الفیض الکاشانی لکلّ واحـدة من هذه الأسـباب شـرحاً وافیاً نذکره بشـکل مختصـر، حیث یقول: الأوّل: العلم، وما اسـرع الکبر إلی العلماء ولذلک قال رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: «آفة العلم الخیلاء» فلا یلبث أن یتعزّز بعزّ العلم، ویستشـعر فی نفسه جمال العلم وکماله ویستعظم نفسه ویسـتحقر الناس وینظر إلیهم نظره إلی البهائم ویتوقع أن یبدؤوه بالسـلام. العلم الحقیقی هـو الّـذی یعرف الإنسـان بـه نفسه وربّه وخطر الخاتمـة وحجـة اللَّه علی العلمـاء وعظم خطر العلم فیه، کمـا سـیأتی فی طریق معالجـة الکبر بـالعلم وهـذه العلوم تزیـد خوفـاً وتواضـعاً وتخشـعاً ویقتضـی أن یری أنّ کـلّ الناس خیر منه لعظم حجـة اللَّه تعالی علیه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷ بالعلم وتقصـیره فی القیام بشکر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء: «من إزداد علماً إزداد خوفاً» وهو کما قال. الثانی: العمل والعبادة ولیس یخلو عن رذیلة الغرور والکبر واسـتمالة قلوب الناس الزهّاد والعبّاد ویترشح الکبر منهم فی الدنیا والـدین. أمـا الـدنیا فهو أنّهم یرون غیرهم بزیـارتهم أولی من أنفسـهم بزیـارة غیرهم ویتوقعون قیـام النـاس بقضاء حوائجهم وتوقیرهم والتوسع لهم فی المجـالس وذکرهم بـالورع والتقوی وتقـدیمهم علی سـائر النـاس من الحظوظ إلی جمیع مـا ذکرنـاه فی حقّ العلمـاء وکـأنهم یرون عبـادتهم منّـة علی الخلق، وأمـا فی الـدین فهو أن یری النـاس هـالکین ویری نفسه ناجیاً وهو الهالک تحقیقاً مهما رأی ذلک قال النبی صـلی الله علیه و آله: «إذا سـمعتم الرجل یقول هلک الناس فهو أهلکهم»، وإنما قال ذلک لأن هذا القول یدل علی أنّه لخلق اللَّه، مغتر باللَّه، آمن من مکره، غیر خائف من سـطوته، وکیف لا یخاف ویکفیه شـراً احتقاره لغیره، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «کفی بـالمرء شـراً أن یحقر أخاه المسـلم» وکم من الفرق بینه وبین من یحبّه للّهویعظمه لعبادته ویسـتعظمه ویرجو له ما لا یرجو لنفسه فـالخلق یـدرکون النجاة بتعظیمهم إیاه للّهفهم یتقربون إلی اللَّه بالـدنو منه وهو یتمقت إلی اللَّه بالتنزه والتباعـد منهم کأنه مرتفع عن مجالسـتهم، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصـلاحه أن ینقلهم اللَّه الی درجته فی العمل وما أجدر إذا ازدراهم بعینه أن ینقله اللَّه الی حدّ الإهمال. وهذه الآفة أیضاً قلما ینفک عنها العباد وهو أنّه لو اسـتخف به مسـتخف أو آذاه مؤذ استبعد أن یغفر اللَّه له ولا یشک فی أنّه صـار ممقوتـاً عنـد اللَّه ولو آذی مسـلما آخر لم یسـتنکر ذلـک الاسـتنکار وذلک لعظم قـدر نفسه عنـده وهو جهل وجمع بین العجب والکبر والاغترار باللَّه وقد ینتهی الحمق والغباوة لبعضهم إلی أن یتحدّی ویقول سترون ما یجری علیه، وإذا اصیب بنکبة زعم أنّ ذلک من کراماته وأنّ اللَّه ما أراد به إلّاشـفاء علته والانتقام له. فما أعظم الفرق بین مثل هـذا الجاهل وبین بعض ما ورد عن أحد العباد الّذی قـال بعـد انصـرافه من عرفـات: کنت أرجو الرحمـة لجمیعهم لولا کونی فیهم، فانظر إلی الفرق بین الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸ الرجلین. ونختم هـذا البحث بحـدیث شـریف عن النبی الأکرم حیث ورد فی الروایات أنّه تحـدث بعض الأصـحاب عن رجل وذکروه بخیر للنبی صـلی الله علیه و آله فأقبل ذات یوم فقالوا: یارسول اللَّه هذا الّذی ذکرناه لک، فقال: إنی أری فی وجهه سـفعة من الشیطان فسـلم ووقف علی النبی صـلی الله علیه و آله وأصـحابه، فقـال النبی صـلی الله علیه و آله: «أسألـک باللَّه حـدّثتک نفسک أن لیس فی القوم أفضـل منک؟ فقال: اللهم نعم» «۱» ، فرأی رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله بنور النبوة ما اسـتکن فی قلبه سفعة فی وجهه. الثالث: التکبر بـالنسب والحسب فالّـذی له نسب شـریف یسـتحقر من لیس له ذلـک النسب وإن کان أرفع منه عملًا وعلماً وقـد یتکبر بعضـهم فیری أنّ الناس له موالٍ وعبید ویأنف من مجالسـتهم ومخالطتهم، والحال أنّ الإسلام لیس فیه تفاضل بالحسب والنسب، کما روی عن أبی ذر أنّه قـال: قـاولت رجلًا عنـد النبی صـلی الله علیه و آله فقلت له: یـا ابن السوداء فقال النبی صـلی الله علیه و آله: «یا أبا ذر طف الصّـاع لیس لابن بیضـاء علی ابن سوداء فضل». قال أبو ذر فاضـطجعت وقلت للرجل: قم فطأ علی خـدی» فانظر کیف نبهه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه رأی لنفسه فضـلًا بکونه ابن بیضاء وإن ذلک خطأ وجهل فانظر کیف تاب وکیف قلع من نفسه شـجرة الکبریاء خمص قـدم مـن تکبر علیه إذ عرف أنّ العزّ لاـ یقمعه إلّاالـذلّ «۲». وعلی أی حـال فقـد قرأنـا کثیراً من النصوص الشـریفة فی القرآن والروایـات تؤکـد لنـا أن لاـ فضـل لإنسـان علی آخر بـالنسب والعرق وأمثال ذلک، فهـذه کلها امور اعتباریـة تعرض علی الإنسان من

الخـارج، بينمـا تتقوم شخصـية الإنسـان وقيمته بمـا يتضـمنه من امتيـازات معنويـة فى محتواه الباطنى، وعلى فرض أنّ ارتباطه مع بعض العظماء بالنسب يوجب له فضـيلةً وامتيازاً على غيره، فلا ينبغى أن يكون ذلك سـبباً للاحساس بالغرور والتكبّر والتفاخر على الآخرين. وعنـدما نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام فى نهـج البلاغة، أو الإمام زين العابدين عليه السـلام فى الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٩ خطبته المعروفـة فى الشام يفتخران بنسـبهما فـذلك ليس من قبيل حبّ التفوق والتفاخر، بل بدافع آخر، حيث أرادا إظهار إمامتهما ورسالتهما الدينيـة الإلهيـة لبعض المغفلين والجهلاء، مثل ما يقوم به قائـد الجيش من تعريف نفسه للجنود وبيان مكانته ومقامه بهدف دعوتهم الى اطاعته وامتثال أوامره. الرابع: التفاخر بالجمال وذلك يجرى أكثره بين النساء ويـدعو ذلك التنقّص والثلب والغيبـة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روى عن عائشـة أنّها قالت: دخلت امرأة على النبى صـلى الله عليه و آله فلما خرجت فقلت بيدى- هكذا- أى أنّهـا قصـيرة، فقال النبى صـلى الله عليه و آله: «قـد اغتبتها» وهـذا منشؤه خفى الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصـيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنهـا أعجبت بقامتهـا واستقصـرت المرأة فى جنب نفسـها فقـالت مـا قـالت. الخـامس: الكبر بالمـال وذلـك يجرى بين الملوك فى الخزائن، وبين التجار فى بضائعهم، وبين الدهاقين فى أراضـيهم، وبين المتجملين فى لباسـهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويقول له أنت مكدّ ومسـكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واسـتخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالـك. ومن ذلـك تكبر قـارون اذ قـال تعـالى «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «١» وقـد ورد فى التواريـخ أنّه كـان يخرج على قومه من بنى إسـرائيل بجميع خـدمه وحشـمه البـالغ عددهم أربعة آلاف نفر وهم يركبون الجياد المزينة بالحلى وملابس الزينة ويصـحبون معهم الجوارى الجميلات وهنّ فى كامل الزينة من الجواهر والـذهب، ولكن كل ذلك ينتهى فى لحظة حيث خسـفت به الأرض بأمر اللّه وابتلعت ما كان له من ثروات وقصور ودفن قـارون معهـا أيضاً وصار عبرة لمن اعتبر «٢». السادس: القوة والقـدرة البدنيـة وشدة البطش أو الموقع السياسـى أو الاجتماعى، والتكبر الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ۴٠ به على أهل الضـعف، وغالباً ما يتوفر هذا الحال لدى الامراء والأقوياء وأصـحاب السلطة من الناس حيث يرون أنفسـهم «ظـل اللّه فى الأرضـين» ويتوقعون من الآـخرين أن يتعـاملوا معهم من موقع التعظيم والتكريم كمـا يفعـل الغلمـان والعبيـد. ولو صـدرت منهم أقل حركـة أو كلمة خاطئة لا تتفق ومقامهم العالى وشأنهم الكبير فسوف لا ينجو صاحبها من العقاب. وقد ذكر فى بعض حالاـت السـلاطين القـدماء أنّه كلمـا أراد النـاس الـدخول عليه فى مجلسه فيجب عليهم تكميم أفواههم بمنـديل أو أى شىء آخر لئلّا يتلوث معطف السـلطان ببخار أفواه الرعايا ورائحـة فمهم الكريهـة، وهـذا هو السـبب فى تفعيل عنصـر الكبر والغرور فى نفوس هؤلاء وما يتولـد منه من أخطاء كبيرة ومآثم شـنيعة تؤدى إلى الإسـراع فى زوال حكمهم وإنهيار دولتهم. السابع: التكبر بالأتباع والأنصـار والتلامـذة والعلمـاء والعشـيرة والأقـارب والبنيـن ويجرى ذلـك بين الملوك فى المكـاثرة بـالجنود وبين العلمـاء بالمكـاثرة بالمتنفـذين، وبالجملة فكلّ ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن فى نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به، حتّى أنّ المخنث يتكبر على أقرانه بزيـادة قـدرته ومعرفته فى صـنعة المخنثين لأـنّه يرى ذلـك كمالًـا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلّانكالًا وكـذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشـرب وكثرة الفجور بـالنسوان والغلمـان ويتكبر به لظنه أنّ ذلـك كمال وإن كان مخطأً فيه «١». هذه الامور السبعة هى امور قد يصاب الأشخاص بجميعها أو ببعض منها ويتطاولون على الآخرين بالفخر والتكبر، وبالطبع لا تنحصر الدوافع بهذه السبعة، فإنّ كلّ صـفة كمال أو نقطة قوّة معنويـة أو مادية سواءً واقعية أو خيالية يمكن أن تسـبب الغرور وتدفع بصاحبها إلى التكبر على الآخرين. وهـذا الكلاـم لاـ يعنى أنّ الإنسـان يجب عليه للتوقى من التكبّر والغرور أن يبتعـد عن أسـباب الكمـال ولاـ يتحرّك باتجـاه المعنويات والكمالات الإنسانية ويقتل فى نفسه عناصـر الخير والصلاح لكى لا تكون منشئاً للغرور والفخر، بل الغرض من ذلك إن الإنسان كلّما الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ۴١ إزداد فى علمه وعبادته وقوته وقدرته وثروته فعليه أن يسـعى ليكون أكثر تواضعاً وخشية وخضوعاً للحقّ، ويتفكر فى أنّ هـذه الكمالاـت والمواهب ليست ثابتـة له بالـذات وكلّهـا لا تعـدّ شـيئاً مقابل قـدرة اللّه تعالى وصـفاته وأسـمائه الحسنى

۵- جذور التكبّر

إن حالـة التكبر الذميمـة لها جـذور كما هو الحال فى سائر الرذائل الأخلاقيـة، فينبغى البحث عنها بدقة ومعرفتها، وفى غير هذه الصورة فـإنّ قلع هـذه الصـفة من أعمـاق النفس وتطهير القلب منهـا يكـون أمراً محالًا. ويـذكر بعض علمـاء الأخلاـق مثـل المرحوم (الفيض الكاشـانى) فى كتـابه المحجّـة البيضـاء أربعـة جـذور واصول للتكبر وهى: العجب، الحقـد، الحسـد، الرياء. ويرى الفيض الكاشانى أنّ جـذور التكبر الباطنيـة تتمثّل فى (العجب) فهـذه الحالة من رؤية الذات والإعجاب بها وتعظيمها هى السـبب فى أن يرى الإنسان نفسـه أعلى من الآـخرين وأفضـل منهم وبالتـالى يتحرّك فى التعامـل معهم من موقـع التفـاخر والتعـالى، وهنـاك أصـل آخر وهـو (الحقـد) والكراهية الّتى يشعر بها الإنسان تجاه الشخص الآخر حيث يتسبب ذلك فى أن يتظاهر بمواهبه وامتيازاته أمام ذلك الشخص، والثالث (الحسـد) الّذى يتسـبّب فى إيجاد هـذه الرذيلـة الأخلاقيـة، والرابع (الرياء) الّذى يؤدى إلى أن يتظاهر الإنسان بامتيازاته أمام الآخرين فيورثه ذلك حالة من التكبر عليهم. هذه الجذور الأربع تشكل الاصول والاسس لصفة التكبر، ولكن حسب الظاهر أنّ جذور التكبر لا تنحصر فى هذه الصفات الأربع بل هناك امور اخرى يمكنها أن تكون منشئاً ومصدراً للتكبر.

۶- النتائج والعلائم

إنّ الأمراض الأخلاقية هى مثل الأمراض النفسية والبدنية تكون مصحوبة دائماً بآثار وعلائم ظاهرية، فكما أنّ الإنسان إذا اشتكى مرضاً فى الكبـد ظهرت عليه آثار هذا المرض الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲ بصور مختلفـة على جلده ووجهه ولون عينه ولسانه وأمثال ذلك، فهكذا إذا ابتلى الشخص بمرض أخلاقى مزمن فتظهر آثاره وعلائمه فى أعماله وسلوكياته وكلماته. وقد أورد الكبار من علماء الأخلاـق آثـار الكبر وعلاـئمه فى كتبهم المفصّـلة، وهـذه الآثار والعلائم قـد تظهر على الوجه أحياناً مثل أن يقطب المتكبر وجهه فى مقابل الآخرين وينظر إليهم بنظرة الاسـتحقار والمهانة بل قد لا يكون مستعداً لأن يقابلهم بجميع وجهه. وأحياناً اخرى تظهر علائم هذا الخلق الـذميم على كلمـات الشـخص، فيتحـدّث بعبارات فيها نوع من المبالغـة عن نفسه ويـذكر نفسه بضـمير الجمع بل قـد يتغير لحن صوته لـدى تحـدّثه عن نفسه وعن الآـخرين بمـا يحكى عن حالـة الغرور والتكبر الّتى تعتمـل فى نفسه. فتارة يتجلّى الكبر فى أن يُبيح لنفسه التحدّث وقطع كلام الآخرين حيثما شاء ولا يسمح للآخرين بالحديث ولا يُصغى لحديثهم ويتوقع منهم الاصغاء لحديثه وكلامه فقـط، ويرى أنّ كلاـم الآخرين طويلًا مهما قصـر وكلامه الطويل والفارغ قصـيراً وضـرورياً. وأحياناً يتجلّى التكبر على حركاته وأعماله وسـلوكياته فيحب أن يقف الآخرون تعظيماً له بينما يجلس هو أمامهم ولا يقوم لأحد عندما يرد عليه. ونقرأ فى الحديث الشـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام قوله: «مَنْ ارَادَ انْ يَنْظُرَ الَى رَجُلٍ مِنْ اهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ الَى رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ قِيَامٌ» «۱». وكذلك يحب أن لا يكون وحيـداً عندما يمشـى فى الشارع وأمام الناس بل يسـير معه وخلفه جماعة، فقد ورد فى الحديث الشـريف «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي بَعْضِ الْاوْقَاتِ يَمشِي مَعَ الْاصْحَابِ فَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ وَيَمْشِي فِي غِمَارِهِمْ» «۲». وكذلك يحب المتكبر أن يأتى الآخرون لرؤيته دون أن يذهب هو لرؤية الآخرين، ويجتنب الجلوس مع الفقراء والمحتاجين ومن يظهر عليه انه من أهل المستويات الدانية فى المجتمع، ولو انه اتفق له أن سار معه مثل هؤلاء الأشـخاص فإنه يسـعى جاهـداً للتخلّص الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳ منهم فى أقرب فرصـة أو يوحى لهم بالإبتعاد عنه. ويحب أيضاً أن لا يعمل لأهل بيته شيئاً من السوق بيده ولا يقوم بعمل من أعمال البيت وتقوم زوجته وأولاده وخادمه بإظهار مراتب الخضوع أمامه والسعى لتلبية حوائجه وأطاعة أوامره. وأحياناً تظهر آثار التكبر على طريقة لباسه وكيفيّته وخاصّةً فى الألبسـة الغاليـة الّتى تجلب الإنتبـاه أو فى مركبه وسـيارته أو فى ظـاهر بيته ووسائل معيشـته، أو فى مكان كسـبه ومحله وتجارته بل حتّى فى لبـاس أولاده وأقربائه والمنتسبين إليه وطريقـة حياتهم حيث يكون هـدفه من كلّ ذلك أن يتفاخر على الآخرين بثروته ويبرز إليهم بنقاط قوته ليثبت لهم انه أفضل منهم وأكثر امتيازاً وعنواناً. وبالطبع فإنّ هـذا الكلام لا يعنى أن يمتنع الإنسان من لبس الجيّد من

الثياب ويلبس الرث منها بل كما ورد فى الحديث النبوى الشريف «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبِسُوا وَتَصَدَّقُوا فِى غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» «۱». وخلاصة الكلام أنّ ظهور هذا الخلق الذميم أى (التكبّر) يمكن أن يستوعب جميع مناحى وشؤون حياة الإنسان ولا يمكن أن يبتلى الإنسان بهذه الصفة الرذيلة مهما كانت طفيفة إلّاوظهرت على قسمات وجهه وفى طىّ كلماته وأعماله وسلوكياته.

۷- مفاسد التكبّر وعواقبه الوخيمة

إن هذا الخلق الذميم كما سبقت الإشارة إليه له آثار مخربة جداً وعواقب وخيمة تعرض على روح الإنسان ومعتقداته وأفكاره، وكذلك تعرض على المجتمع البشرى أيضاً بحيث يمكن القول انه ليس هناك جهة من جهات حياة الإنسان الفردية والإجتماعية تقع فى أمان من عواقب هذه الصفة الأخلاقية السلبية، ويمكن الإشارة إلى عدّة موارد منها فيما يلى: الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۴ ۱- التلوث بالشرك والكفر إنّ أوّل مفسدة وأخطرها هو أن يورث التكبر صاحبه التلوث بالشرك والكفر، فهل لكفر إبليس وانحرافه من مسير التوحيد بل حتّى اعتراضه على حكمة اللَّه تعالى وأمره، له أصل ومصدر غير الكبر فى نفس إبليس؟ وهل أنّ الفراعنة والنمروديين وغيرهم من الأقوام الطاغية الّذين رفضوا دعوة الأنبياء كان لهم دافع غير التكبر؟ أنّ التكبر لا يبيح للإنسان أن يستسلم ويذعن أمام الحقّ، لأن التكبر والغرور هو فى الحقيقة حجاب سميك على بصيرة الإنسان فيحجبه عن رؤية جمال الحقّ بل أحياناً يرى ملائكة الحقّ على شكل موجود مخيف وموحش، وهذا من أعظم الضرر الّذى يلحق بالإنسان من جراء التكبر، ولعلّه لهذا السبب ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله الراوى عن أقل درجة الإلحاد فقال له الإمام «إنَّ الْكِبْرَ ادْنَاهُ» «۱». ۲- الحرمان من العلم والمعرفة وأحد العواقب المشؤومة للتكبر هو أنّ الإنسان يحرم نفسه من العلم والمعرفة ويعيش حالة الجهل المركب دائماً لأن الإنسان إنّما يصل إلى حقيقة العلم والمعرفة فيما لو سعى لتحصيلها من أى شخص وأى طريق كما يبحث الشخص عن جوهرة ثمينة والحال أنّ المتكبر لا يكون مستعداً لتحصيل العلوم والمعارف من الأشخاص الّذين يراهم دونه أو فى مرتبته. الأشخاص الّذين يتحرّكون فى سبيل طلب العلم والمعرفة هم الّذى يعيشون التحرر فى أفكارهم من القوالب النفسانية فى حين أنّ صفة الكبر والغرور لا تسمح للإنسان أن يستوعب مطلباً مهماً. ولهذا نقرأ فى الحديث المعروف عن الإمام الكاظم عليه السلام فى كلامه لهشام بن الحكم يقول: «إنَّ الزَّرْعَ يَنْبُتُ فِى السَّهْلِ وَ لَايَنْبُتُ فِى الصَّفَا فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ فِى قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۵ وَلَا تَعْمُرُ فِى قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ، لِانَّ اللَّهَ جَعَلَ التَّوَاضُعَ آلَةَ الْعَقْلِ وَجَعَلَ التَّكَبُّرَ مِنْ آلَةِ الْجَهْلِ» «۱». ۳- التكبر المصدر الأساسى للكثير من الذنوب لو تأملنا فى حالات الأشخاص الّذين يعيشون الحسد، الحرص، بذاءة اللسان، والذنوب الاخرى لرأينا أنّ الأصل ومصدر جميع هذه الرذائل الأخلاقية تنشأ من صفة التكبر، فهؤلاء لا يجدون فى أنفسهم رغبة لرؤية من هو أفضل منهم، ولهذا فإنّ أيّة نعمة وموهبة وموفقية تكون من نصيب الآخرين فسوف يتعاملون معهم من موقع الحسد. إن هؤلاء ولغرض توطيد أركان حالة الفوقية لشخصياتهم فإنّهم يحرصون على جمع الأموال والثروات. ولغرض إظهار العلو على الآخرين يبيحون لأنفسهم تحقيرهم ويلوثون ألسنتهم بأنواع البذاءة فى الكلام والسبّ والشتم والهتك لإشباع هذه الحاجة والنقص فى أنفسهم ولإطفاء هذه النار المستعرة فى وجودهم. ونقرأ فى حديث عن أميرالمؤمنين قوله «الْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ الَى تَقَحُّم الذُّنُوبِ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أيضاً أنّه قال: «التَّكَبُّرُ يُظْهِرُ الرَّذِيلَةَ» «۳». ۴- التكبر مصدر النفرة والفرقة إن من البلايا المهمة الّتى ترد على المتكبرين هو الإنزواء الإجتماعى وتفرّق الناس من حولهم لأن شرف الإنسان وعزّته الذاتية لا تسمح له بالخضوع أمام الأشخاص المغرورين والمتكبرين والانصياع لأوامرهم، ولهذا السبب فإنّ الناس وحتّى المقرّبين سوف يتحرّكون بعيداً عن هؤلاء المتكبرين، وعلى فرض أنّ الآخرين يجدون أنفسهم مضطرين لمعاشرتهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۶ بسبب الروابط الإجتماعية وبعض الضرورات المعيشية فإنّهم يجدون فى أنفسهم التنفر والكراهية لهؤلاء. ونقرأ فى حديث عن الإمام أميرالمؤمنين أنّه قال: «مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «امْقَتُ النَّاسِ الْمُتَكَبِّرُ» «۲». وفى

حدیث آخر عن الإمام علی أنّه قال: «ثَمَرَةُ الْکِبْرُ الْمَسَبَّةُ» «۳». وهذا المضمون ورد أیضاً فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قـال: «لَیسَ لِلْمُتَکَبِّرِ صَدِیقٌ» «۴». وقـال أیضـاً فی حـدیث آخر: «مَا اجْتَلَبَ الْمَقْتَ بِمِثْلِ الْکِبْرِ» «۵». ۵- التکبر سـبب هدر المواهب الدنیویـة إن کلّ إنسان لا یکون موفقاً فی حیاته إلّاإذا اسـتطاع جـذب تعاون الآخرین وانسـجامهم معه من موقع توطیـد أواصـر المحبة والتعاون المشترک بین الأفراد، أما الشـخص الّذی یعیش الإنزواء ویسـلک فی حیاته ومعیشـته الوحدة فإمّا أن یفشل فی اطار المعیشـة الکریمة أو یکون له نصیب قلیل من الموفقیة فی حرکة الحیاة، وبما أنّ التکبر یدفع بالإنسان إلی زاویة الإنزواء والعزلة فإنّ توفیقاته فی حرکة الحیاة الإجتماعیة سـتکون قلیلة بالتبع. ونقرأ فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین أنّه قال «بِکَثْرَةِ التَّکَبُّرِ یَکُونَ التَّلَفُ» «۶» أی تلف وهدر عوامل التوفیق وعناصر النجاح فی الحیاة. ویمکن تفسیر هذا الحدیث بشـکل آخر وهو أن یقال بأن الکثیر من الحروب الدامیة والنزاعـات المـدمرة تنشـأ من حالـة التکبر والاسـتکبار، فـالبعض یسـتلم زمام الامور فی دول الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۷ العالم ویریـد أن یتحکم ویتسـلط علی الآخرین من موقع القوّة والقـدرة وهـذا بـدوره یکون سـبباً فی حصول النزاعات الدمویة الکثیرة فتهدر الطاقات وتُسـفک الـدماء الکثیرة فی هـذا الطریق وتتحول الـدیار إلی الخراب الشامل. وأحیاناً یتجلّی التکبر من خلال القومیة والعرقیة حیث یری البعض أنّهم أطهر عرقاً وأسـمی قومیـة من الأقوام الاخری وهـذه النظرة المتعالیـة تمثل أحد الأسـباب المهمة للحروب طیلة التاریـخ البشـری. فالنظرة الفوقیـة والاسـتعلائیة للجنس الآری هو أحـد العلل المهمـة فی حـدوث الحروب العالمیـة الّتی خلفت ملایین القتلی والمجروحین وأتلفت ملیارات الثروات والأموال وخلّفت اضـراراً لا تحصـی وخلاصة الکلام أنّه: إذا درسنا الخسائر الّتی تتسبّب بواسـطة التکبر علی روح وجسم الإنسان وفی حیاته الفردیة والإجتماعیة لرأینا أنّه لیس هناک صـفة من الصفات الذمیمة تکون هدّامة ومخربة إلی هذه الدرجة الّتی تنتجها حالة التکبر فی الإنسان.

۸- علاج التکبّر

لقد بحث علماء الأخلاق علاج التکبر فی دراسات مفصلة تدور أغلبها حول محور العلاج بطریقین: العلم والعمل. أمّا الطریق (العلمی) فیمکن تصویره بأن یتفکر الأشـخاص المتکبرین فی أنفسـهم أنّهم مَن هم وأین کانوا وإلی أین یـذهبون وما هو مصیرهم فی النهایة؟ ویتفکّرون کذلک فی عظمة اللَّه ویشاهدون أنفسـهم أمام قدرة اللَّه المطلقة ورحمته الواسعة. إن التاریخ ملیء بالعِبر والحوادث المثیرة عن مصـیر الفراعنـة والنمرودیین والجبـابرة من الأکاسـرة والقیاصـرة وأمثالهم بحیث لو أنّ الإنسان قرأ قلیلًا من هـذه الحوادث والوقائع التاریخیـة لعلم أنّ الانتصارات والملذات الدنیویة لا تعدّ شـیئاً یمکن الاعتماد علیه علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۸ مستوی بیان عظمـة الإنسان. عنـدما یکون الإنسان فی أوّله نطفة مهینة وفی آخره جیفة نتنة ویعیش بین هذین عدّة أیّام فلا یعدّ ذلک شـیئاً یسـتحق الفخر والتکبر والغرور. إنّ الإنسان فی بدایـة تولـده لیس سوی طفل ضـعیف جـدّاً وعاجز عن کلّ شـیء وحتّی انه لا یتمکن من حفظ الماء الملقّی فی فمه بشفاهه، وکذلک عندما یبلغ سن الشیخوخة یکون ضعیفاً إلی درجة أنّه إذا أراد المسیر عدّة خطوات وکان یتمتع بأقـدام سالمـة فـإنه لا یتمکن من ذلک إلّابأن یستریـح کُلما قَطّعَ کلّ عـدّة خطوات ویجـدد طاقته ثمّ ینهض لیکمل مسیره متوکأً علی عصـاه وقـد احنی الـدهر قـامته، ولو لم یکن ذا أقـدام سـلیمة فإمّا أن یکون قـد ابتلی ببعض عوارض الشـیخوخة الّتی یبتلی بهـا أکثر الأشـخاص فیجب أن یُنقل من جهـة إلی اخری بواسـطة الکرسـی المتحرک. ونقرأ فی حـدیث عن الإمام الباقر أنّه قال «عَجَباً لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ وَانَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ یَعُودُ جِیفَةً وَهُوَ فِیما بَیْنَ ذَلِکَ لَایَدْرِی مَا یُصْنَعُ بِهِ» «۱». إذا ذهبنا یوماً إلی المستشـفیات ورأینا الکثیر من الأقویاء والأصـحّاء یرقدون علی أسرّة المستشـفی بسـبب حادثة اصطدام أو مرض معیّن حیث لا قدرة لهم علی الحراک، فندرک حینئـذاک مقـدار قوّة الإنسان وقـدرته البدنیـة الّتی یفخر بها. ولو نظرنا إلی الأثریاء المعروفین الّـذین قـد اسـتولی علیهم حالـة الإنهیار الاقتصادی والإفلاس المادی بتغیر بسیط فتحوّل حالهم من أعلی المقامات إلی أسفل السافلین وحینئذٍ نعلم أنّ الثروة الطائلة لیست شیئاً یعتمـد علیه الإنسان ویفتخر به. ولو نظرنا إلی أصـحاب القـدرة والسـلطة فی العالم وکیف أنّهم مع حـدوث التغیر فی الوضع السیاسـی

یسقطون من کراسیهم وعروشهم ویفقدون قدرتهم أو یقبعون خلف قضبان السجن أو یحکم علیهم بالأعدام لرأینا القدرة الظاهریة لیست قابلة للاعتماد والفخر. إذاً فبأی شیء یفخر الإنسان؟ وکیف یستولی علیه الغرور ویباهی الآخرین ویفتخر علیهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۹ لقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام زین‌العابدین علیه السلام انه عندما وقع نزاع بین سلمان الفارسی وبین شخص مغرور ومتکبر، فقال ذلک الشخص لسلمان: مَنْ أنت؟ فقال له سلمان: أما اولای واولاک فنطفة قذرة، وأما اخرای واخراک فجیفة منتنة، فإذا کان یوم القیامة، ووضعت الموازین، فمن ثقل میزانه فهو کریم، ومن خف میزانه فهو اللئیم» «۱». والخلاصة أنّ الإنسان کلّما تفکر وتأمل فی هذه الامور أکثر هبط من مرکب الغرور والکبر ووجد نفسه من موقع الحقیقة الشاخصة وبعیداً عن الأوهام النفسانیة والحالات الشیطانیة. وأما علاج التکبر علی المستوی (العملی) فهو أن یسعی الإنسان فی دراسة سلوکیات المتواضعین ویتحرّک مثلهم فی تعامله الاجتماعی حتّی تترسخ هذه الفضیلة فی أعماق وجوده وتتجذر فی واقعه النفسانی فیکون متواضعاً أمام اللَّه والناس فیسجد علی التراب قائلًا: «لَا الَهَ إلَّااللَّهُ حَقّاً حَقّاً سَجَدْتُ لَکَ تَعَبُّداً وَرِقّاً لَامُسْتَنْکِفاً وَلَا مُسْتَکْبِراً». وأمثال هذه العبارات. وکذلک یلبس الملابس البسیطة ویأکل الأطعمة غیر الممنوعة ویجلس مع عماله أو خدامه علی مائدة واحدة ویتقدّم بالسلام علی الآخرین ولا یجلس صدر المجلس ولا- یتقدم علی الغیر فی مشیه. أن یتعامل فی علاقاته مع الصغیر والکبیر من موقع العاطفة الجیاشة والمحبّة الصمیمیة ویجتنب مجالسة المتکبرین والمغرورین ولا یری لنفسه أی امتیاز علی الآخرین، والخلاصة أن یتحرّک فی سلوکه بعلامات التواضع أو یسعی للتظاهر بمظاهر التواضع فی البدایة فی عمله وکلامه وحالاته الاخری حتّی تصیر لدیه عادة ثمّ ملکة التواضع. وجاء فی حالات نبی الإسلام أنّه کان یجلس علی الأرض ویأکل الطعام ویقول: «إنَّمَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۰ أَنَا عَبْدٌ آکُلُ کَمَا یَأْکُلُ الْعَبْدُ» «۱». وقد سمعنا الحدیث المعروف عن الإمام علی أنّه کان لدیه یوماً قمیصان اشتری أحدهما بأربعة دراهم والآخر بثلاث دراهم ثمّ قال لغلامه قنبر: اختر أحدهما، فاختار قنبر القمیص الّذی قیمته أربعة دراهم وأختار الإمام ما کان بثلاث دراهم «۲». وجاء فی خطبة ۱۶۰ من نهج البلاغة أنّ الإمام کان یتحدّث عن نبی الإسلام ویقول: «وَلَقَدْ کَانَ یَأْکُلُ عَلَی الْارْضِ وَیَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَیَخْصِفُ بِیَدِهِ نَعْلَهُ، وَیَرْقَعُ بِیَدِهِ ثَوْبَهُ وَیَرْکَبُ الْحِمارَ الْعَارِیَ وَیُرْدِفُ خَلْفَهُ». وطبعاً هذه الامور وبسبب تغیر الظروف الزمانیة والمکانیة لا- تُعتبر معمولًا بها فی هذا العصر ولا- یوصی باتباعها وسلوکها، ولکن الهدف هو أننا بمطالعة حالات هؤلاء العظام والتوجّه إلی مقامهم السامی نتعلم التواضع من سلوکیاتهم ونُبعد بذلک الکبر والغرور عن ذواتنا وأفعالنا. هذا کلّه من جهة، ومن جهة اخری: بما أنّ التکبر له أسباب وعلل مختلفة تمت الإشارة سابقاً إلی سبع علل منها ذکرها علماء الأخلاق، فلأجل إزالة کلّ واحدة من هذه العلل والأسباب هناک طرق وخطوات عملیة وعلمیة للتغلب علیها ومعالجتها منها: الأشخاص الّذین یجدون فی أنفسهم افتخاراً علی الناس بسبب نسبهم وعراقتهم الاسریة یجب أن یتأمّلوا فی هذه الحقیقة وهی أوّلًا: إن افتخارهم بکمالات الآخرین من الآباء والأجداد هو عین الجهل، فلو أنّ الأب کان إنساناً فاضلًا ولکن الابن یفتقد إلی أدنی فضل وکمال فلا ینتقل کمال الأب وفضله إلی الابن ولا یوجد فی الابن قیمة مشهودة، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۱ وثانیاً: إذا تأمل جیداً وجد أنّ أباه نطفة وجدّه الأعلی تراباً وهذه الامور لیست ذات قیمة یفتخر بها الإنسان ویری لنفسه امتیازاً علی الآخرین. وقد ورد فی الحدیث الشریف أنّ لقمان الحکیم قال لابنه «یَا بُنَیَّ وَیْلٌ لِمَنْ تَجَبَّرَ وَتَکَبَّرَ، کَیْفَ یَتَعَظَّمُ مَنْ خُلِقَ مِنْ طِینٍ، وَالَی طِینٍ یَعُودُ؟ لَایَدْری الَی مَاذَا یَصِیرُ؟ الَی الْجَنَّةِ فَقَدْ فَازَ أوْ الَی النَّارِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِیناً». وأمّا الأشخاص الّذین یتملکهم الغرور والتکبر بسبب جمالهم الظاهری فیجب أن یتأملوا جیّداً أنّهم وبسبب مرض بسیط یصیب الجلد والوجه سیتحول جمالهم الباهر إلی وجه مشوّه وقبیح وحتّی لو لم یصبهم ذلک المرض فإنّهم بعد أعوام قلیلة سیصلون إلی مرحلة الشیخوخة حیث یتراکم غبار السنین علی وجوههم ویغیّر من ملامحه الجمیلة ویحنی قامتهم المستقیمة ویدبُ فی مفاصلهم العجز والضعف فإذا کان ذلک الشیء المورث للفخر زائلًا بهذه السرعة، فکیف یکون سبباً للغرور والتفوق والتکبر علی الآخرین؟ وإذا کان سبب التکبر هو قوته البدنیة وقدرته الجسمانیة فیجب أن لا ینسی انه قد یصاب أحیاناً بعارضة قلبیة صغیرة أو سکتة دماغیة تکون نتیجتها أن یصاب قسم من بدنه بالشلل والعجز عن الحرکة تماماً بحیث لا یتمکن من دفع حتّی ویتوقف الذباب عن نفسه ولو

أصابه شوكـة أو وخزته ابرة لا يتمكن من إخراجها أو التخلص منها لوحـده. وأمّا لو كان سـبب التكبّر هو الثروة وكثرة المال والأعوان والأنصـار فيجب أن يعلم أوّلًا: أنّ هـذه الامـور خارجـة عن وجود الإنسـان ولا تمثل شـيئاً من ذاته وحينئـذٍ لا تكون من عناصـر الفخر والمباهاة، فكيف يفتخر الإنسان بشخصيته وعزّته الذاتية بامور من قبيل السيارة أو البيت أو الحصان وأمثال ذلك؟ وكيف يتصور شرفه وكرامته فى مثل هذه الامور المادية والأجنبية عن ذاته؟ هذه الامور يمكنها أن يمتلكها اللئيم من الناس واوضـعهم نسـباً وشـرفاً، الامور الّتى يسـتطيع اللصوص بكلّ سـهولة سـرقتها منه فما أهون الشـرف الّذى يسـتطيع اللصوص سـرقته فيفتقده صاحبه بين عشـية وضحاها. ومضافاً إلى ذلك فنحن نعلم أنّ الأموال والثروات الدنيويـة تنتقل من يد إلى يد دائماً فالثروات الطائلة لدى الأغنياء قد تكون يوماً من نصـيب الفقراء ويسـكن أصحاب القصور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۲ يوماً فى الأكواخ. فمثل هـذا الشـىء بمثل هـذا القدر من التزلزل والاهتزاز كيف يمكنه أن يكون عنصـر الافتخار للإنسان وسبباً لغفلته عن مصيره وكمالاته المعنوية فى حركة الإنسان والحياة؟ وإذا كان سـبب الكبر والغرور هو العلم الكثير ومع الأسف يُعتبر هذا من أقبح الآفات النفسانية الّتى تصـيب الإنسان وبهذه النسبة يكون علاجه أصـعب وأعقـد من العلل الاخرى وخاصـة مع ورود الكثير من الآيات والروايات فى فضل العلم والتعلم حيث يمكن أن يصاب الإنسـان بـالغرور والكبر بعـد قرائتهـا ومطالعتها، فيجب أن يتفكر أصـحاب العلم والمعرفـة أنّ القرآن الكريم وفى الآيـة (۵) من سورة الجمعة قد شـبّه العلماء الّذين لا يتحركون على مسـتوى تطبيق علمهم فى ممارساتهم وسلوكياتهم، شبّههم بالحمار الّذى يحمل الكتب والأسـفار على ظهره «كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسـفاراً». وأيضاً يتفكر فى أنّ الشـخص العالم سـتكون مسؤوليته ثقيلة بنفس نسبة علمه إلى الآـخرين ويمكن أن يغفر اللَّه تعـالى للجاهل سـبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحـد كما ورد فى الروايات الشـريفة. ولا ينبغى أن ننسـى أنّ حسابهم يوم القيامـة أصـعب وأشـد من حساب الآخرين، فكيف والحال هذه يكون العلم هذا سـبباً للمباهات والافتخار على الغير؟ وأخيراً إذا كان سـبب التكبّر هو العبادة وطاعة اللَّه تعالى فيجب على هذا الإنسان أن يتفكر فى أنّ اللَّه لا يقبل من العبادة ما كان خليطـاً بـالعجب والكبر ويعلم أنّ الجاهـل النـادم أقرب إلى النجـاة من العابـد المغرور. هـذا ولا سـيّما إذا أخـذنا بنظر الاعتبار أنّ قبول العبادة مشروط بأن يرى الإنسان فى نفسه الحقارة والدونية مقابل عظمة اللَّه وقدرته وفضله على العباد ولو انه جاء بجميع عبادات الجن والأنس لوجد أنّ عليه أن يعيش الخوف والخشية من اللَّه تعالى ولا يغفل عن ذلك طرفة عين.

۹- الاختبارات العلاجية

سبق وأن قلنـا إن الأـمراض الأخلاقيـة تشـبه إلى حـد كبير الأـمراض البدنيـة وأنّ المقارنـة بين هـاتين الظاهرتين كفيل بحل الكثير من المشاكل، ومنها أنّ الطبيب فى الأمراض البدنيـة وبعد معالجة المريض يرسـله مرّة اخرى إلى المختبر ليتأكد من شـفائه الكامل، ولو انه رأى بعض آثار المرض لازالت فى بدنه فإنه يسـتمر فى علاجه حتّى يحصل المريض على الشفاء الكامل. وقد استخدم علماء الأخلاق فى مناهجهم وتعليماتهم الأخلاقيـة لعلاج الأمراض الخطرة مثل (التكبر) هـذا المنهـج أيضاً بحيث إن الإنسان عندما يتحرّك فى سبيل علاـج التكبر ولأجـل الاطمئنـان من قلعه تماماً من وجوده ونفسه يجب أن يعرض على نفسه بعض الاـمور ويمتحنهـا لكى يطمئن إلى زوال جـذور هـذا المرض من أعمـاق نفسه. وقـد ذكر الفيض الكاشانى بالاسـتفادة من (احياء العلوم) للغزالى تجارب فى هـذا المجال ملفتة للنظر: الامتحان الأوّل: أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فإنّ ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاـعتراف به والشـكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحقّ فـذلك يـدل على أنّ فيه كـبراً دفينـاً. الامتحـان الثـانى: أن يجتمع مع الأقران والامثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشـى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم، فإنّ ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلّفاً حتّى يسـقط عنه ثقله فبـذلك يزايله الكبر، وهاهنـا للشـيطان مكيـدة وهى أن يجلس فى صف النعـال أو يجعـل بينه وبين الأـقران بعض الاـراذل فيظن أنّ ذلـك تواضـع وهو عين الكبـر فـإنّ ذلـك يخف على نفوس المتكـبرين إذ يوهمون أنّهم إنمـا تركوا مكانهم بالاسـتحقاق والتفضل فيكون قـد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغى أن يقـدم أقرانه ويجلس تحتهم ولا ينحط عنهم

إلى صف النعـال فـذلك هو الّـذى يخرج خبث الكبر من البـاطن. الامتحـان الثـالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقـاء والأقـارب فـإنّ ثقـل ذلـك عليه فهو كبر فإنّ هـذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۴ النفس عنها ليس إلّاالخبث فى الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف الّتى تزيل داء الكبر. الامتحان الرابع: أن يحمل حاجـة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت فإنّ أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإنّ كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر فإنّ كان يثقل إلّا عند مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب ومله المهلكة له إن لم تتـدارك. أقول ليس كل رياء مـذموماً بل قد يكون مستحباً بل واجباً إذ يجب على المؤمن صـيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بـذوى المروات أن يرتكبوا الامور السيئة بأنفسـهم عنـد مشاهـدة النـاس وإن جـاز لهم فى الخلوة إلّاأنّ ذلـك يختلف باختلاـف الأزمنـة والبلاـد والأشـخاص فلابـدّ من مراعاة ذلك، روى فى الكافى عن الصادق عليه السلام: «أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينـة قـد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحى منه، فقال عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملته إليهم أما واللَّه لولا أهـل المدينـة لأحببت أن أشـترى لعيـالى الشـىء ثم أحمله إليهم». أراد عليه السلام لولا مخافـة أن يعيبـوا على ذلـك، مع أنّ جـدّه أميرالمؤمنين عليه السـلام كـان يفعـل مثله إلّاأنّه لمـا لم يعيبوا عليه بمثله فى زمانه وفى شأنه جاز له أن يرتكبه وكان منقبـة له وتعليماً. الامتحـان الخـامس: أن يلبس ثياباً بذلـة فإنّ نفور النفس عن ذلك فى الملأ رياء وفى الخلو كبر، وقـد قال رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «ومن اعتقـل البعير ولبس الصوف فقـد برئ من الكبر» .ولكن لا ينبغى أن يكون الـدافع لـذلك هو التظـاهر بالتواضع فإنّ ذلك بنفسـه نـوع مـن الكـبر المقـترن مع الريـاء والشـرك الخفى. ونكرر مرةً اخرى بـأن هـذه الامور تختلـف باختلاـف الأزمنـة والأمكنة والاشـخاص. ولابـدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جميع هذه الظروف والعمل طبق مقتضياتها وما يناسـبها من دون التورط فى حبائل النفس وخـدع الشـيطان، ولذلك ينبغى الاسـتفادة أيضاً من حكم الآخرين وآرائهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۵ وهنا نثير هـذا السؤال وهـو أنّه لمـاذا يهتم النـاس كـثيراً بالصـحة البدنيـة والطب الجسـمانى ويتحركون فى طلب الـدواء والعلاجـات ليطمئنوا على سـلامتهم البدنيـة. والحال أنّهم لا يعيشون ذلك الاهتمام بأمر الطب الروحانى والأخلاقى الّـذى يضـمن لهم سـعادتهم الاخروية فى الحياة الباقية كما هو مدلول الآية الشريفة: «إلّامن أتى اللَّه بقلبٍ سليم». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۶

التواضع

تنويه:

من الواضـح أنّ التواضع يشـكل النقطة المقابلة للتكبر والغرور، ومن العسـير الفصل الكامل بين هذين البحثين، ولذلك نجد أنّ هذين البحثين متلازمين فى الآيات والروايات الإسـلامية وكـذلك فى كلمات علماء الأخلاق، فإنّ ذم أحـدهما يلازم مـدح الآخر، وكذلك العكس فإنّ عمليـة التمجيـد والثناء على التواضع يستلزم كذلك ذم التكبر، وهذا من قبيل مدح العلم والثناء على العالم والمتعلم الّذى يقترن دائماً مع ذمّ الجهـل وتوبيـخ الجاهل. وعلى كلّ حال فإنّ هـذا الكلام لا يعنى أنّ بحثنا المتعلق بالتواضع هـذا سيكون فى زاوية النسـيان ونكتفى بذم التكبر وبيان قبائح وعواقب هذه الصـفة الذميمة لا سيّما أن بين التكبر والتواضع نسبة الضدّين. لا النقيضين أى أنّ التكبر كما انه صـفة وجودية فكذلك التواضع صـفة وجودية نفسانية أيضاً ويقعان على الضد من الآخر فى واقع الإنسان ونفسه، وليسا من قبيل الوجود والعدم الّذى يسـتلزم بالضـرورة وجود أحدهما عدم الآخر بالتبع. وفى الروايات الإسـلامية نجد إشارة إلى هذا المعنى أيضاً ومن ذلك قول الإمام على عليه السلام: «ضَادُّوا الْكِبْرَ بِالتَّواضُعِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۸ مع هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنسـتوحى من آياته ما يتعلق بمسألـة التواضع ونختار منها ما يُلقى الضوء على هذا البحث المهم رغم وجود آيات كثيرة تبحث هذا الموضوع بالكناية أو بالملازمة. ۱- «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ اذِلَّةٍ

عَلَی الْمُؤْمِنِینَ اعِزَّةٍ عَلَی الْکَافِرِینَ ...» «۱» ۲- «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ۳- «وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ» «۳».

تفسیر واستنتاج:

«الآیة الاولی» من الآیات مورد البحث تتحدّث عن مجموعة من المؤمنین الّذین شملتهم رعایة اللَّه وعنایته فکانوا یحبون اللَّه ویحبهم، وإحدی الصفات البارزة لهؤلاء أنّهم یتعاملون مع أخوانهم المؤمنین من موقع التواضع والمودّة (اذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ) وکذلک فی المقابل (اعِزَّةٍ عَلَی الْکَافِرِینَ). (اذِلَّةٍ) جمع «ذلول» و «ذلیل»، ومن مادة «ذُل» علی وزن حُر، وهی فی الأصل بمعنی الملائمة والتسلیم واللیونة والإنعطاف فی حین أنّ کلمة «اعِزَّة» جمع «عزیز» ومن مادّة «عزة» وتأتی بمعنی الشدّة والصلابة، ویقال للحیوانات المطیعة «ذلول» لأنها ملائمة ومسلّمة للإنسان، و «تذلیل» فی الآیة الشریفة «ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِیلًا» إشارة إلی هذا المعنی، وهو سهولة اقتطاف ثمارها ثمار الجنّة، وأحیاناً تُستخدم کلمة «ذِلّة» فی موارد سلبیة وذلک إذا واجه الإنسان موقفاً یُجبر فیه علی شیء من غیره، وإلّا فإنّ المعنی السلبی لهذه الکلمة لا ـ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۹ یوجد فی بطنها ومفهومها فی الأصل. وعلی أیّة حال فإنّ الآیة الشریفة تدل بوضوح علی أهمیة التواضع وسمو مقام المتواضعین، ذلک التواضع الّذی ینبع من أعماق الإنسان ویمتد إلی وجدانه لیذیع فی النفس احترام الطرف الآخر المؤمن ویتحرّک معه من موقع المودّة والتسلیم والانعطاف مع الطرف الآخر. فی «الآیة الثانیة» نجد إشارة أیضاً إلی الصفات البارزة والفضائل الأخلاقیة لجماعة من عباد اللَّه تعالی الّذین وصلوا فی سلوکهم المعنوی إلی مرتبة عالیة من الکمال الإنسانی والإلهی، حیث نقرأ فی آیات سورة الفرقان من الآیة ۶۳ إلی الآیة ۷۴ اثنا عشر فضیلة مهمة وکبیرة لهؤلاء الأشخاص، والملفت للنظر أنّ أول صفة تذکرها الآیة لهؤلاء هی صفة التواضع، وهذا یدلّ علی أنّ التکبّر کما یمثل أخطر الرذائل الأخلاقیة فکذلک التواضع یمثل أهم الفضائل الأخلاقیة فی واقع الإنسان وحرکته الإجتماعیة والمعنویة حیث تقول الآیة «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْارْضِ هَوْناً». (هون) مصدر بمعنی الهدوء واللیونة والتواضع، واستعمال المصدر بمعنی اسم الفاعل هنا لغرض التأکید، أی أنّهم یعیشون التواضع والهدوء إلی درجة وکأنهم عین التواضع، ولهذا السبب تستمر الآیة فی سیاقها بالقول «وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»؛ أی لو واجههم الجهلاء والأراذل من الناس من موقع الشتیمة والکلام الباطل فإنّ جوابهم لا یکون إلّابعدم الاعتناء وغض الطرف من موقع عظمة شخصیتهم وکِبَر نفوسهم. وفی الآیة الّتی تلیها وبعد أن یتم الحدیث عن التواضع مع الآخرین من الناس یتحدّث القرآن الکریم عن تواضعهم أمام اللَّه تعالی ویقول «وَالَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِیَاماً». ویقول الراغب فی کتابه «مفردات القرآن»: الهوان علی وجهین، أحدهما: تذلل الإنسان فی نفسه لما لا یلحق به غضاضة، فیمدح به (ثم یورد الآیة محل البحث) ونحو ما روی عن الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۰ النبی صلی الله علیه و آله: «المؤمن هیّن لیّن» «۱». الثانی: أن یکون عن جهة متسلِّط مستخف به فیذمّ به «۲». ولا یخفی أنّ المقصود بقوله: «الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْارْضِ هوناً» لیس هو المشی فی حالة التواضع فحسب، بل المقصود نفی کلّ نوع من التکبّر والأنانیة والسلوکیات السلبیة النابعة من حالة التکبر السلبیة والّتی تتجلّی فی أعمال الإنسان وأفعاله الاخری، وذکرت الآیة المشی باعتباره نموذج عملی للدلالة علی وجود التواضع کملکة نفسانیة لدی هؤلاء، لأن الملکات الأخلاقیة تتجلّی دائماً علی کلمات الإنسان وحرکاته الخارجیة إلی درجة أنّه فی الکثیر من الحالات یُستدل علی وجود أنواع من الصفات الأخلاقیة فی الشخص بواسطة المشی. أجل فإنّ أول صفة لعباد الرحمان هی التواضع الّذی یملأ وجودهم وینفذ إلی أعمال نفوسهم فیتجلّی ویظهر علی حرکاتهم وسکناتهم وکلماتهم، وعندما نری أنّ اللَّه تعالی فی الآیة ۳۷ من سورة الإسراء یأمر نبیه الکریم بالقول «وَلَا تَمْشِ فِی الْارْضِ مَرَحاً» فالمقصود لیس هو النهی عن حالة المشی بصورة معینة، فحسب بل الهدف هو غرس التواضع فی جمیع الحالات والسلوکیات الاخری والّذی یُعد علامة علی عبودیة اللَّه تعالی. «الآیة الثالثة» تخاطب النبی الأکرم وتقول «وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ». «خفض» علی وزن «کرب» هو فی الأصل بمعنی السحب إلی الاسفل، وعلیه فجملة

«وَاخفِض جَناح» كنايـة عن التواضع المقرون بالمحبـة والحنان كما هو حال الطائر الّـذى يفتـح جناحه ويضم إليه فراخه إظهاراً للمحبّة وبدافع الحنان ولصونهم من الأخطار المحتملة وحفظهم من التفرّق، وعلى هذا الأساس فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مأمور بأن يتحرّك مـن هـذا الموقع ليحفـظ المـؤمنين تحت جنـاحه وظلّه. الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۱ وهـذا التعبير جميـل جـدّاً وملىء بالمعـانى والنكـات الدقيقـة الّتى جُمعت فى جملـة واحـدة. وعنـدما يُؤمر نبى الإسـلام بـالتواضع وإظهـار المحبّـة للمؤمنين فـإنّ وظيفة المؤمنين وتكليفهم الأخلاقى تجاه بعضـهم البعض واضـح، لأن النبى الأكرم يُعتبر قـدوة واسوة لجميع أفراد الامّـة الإسـلامية. وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى الآية ۸۸ من سورة الحجر حيث يقول تعالى «وَاخْفِضْ جَنَاحكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» وهنا نرى أنّ المخاطب فى هذه الآية هو النبى الأـكرم أيضـاً حيث أمره اللَّه تعـالى بخفض جناحه للمؤمنين أى بالتواضع المقرون بالمحبّـة فى تعامله مع اتباعه من المؤمنين. وشبيه هذه العبارة مع تفاوت بسيط ورد فى سورة الإسراء كتكليف للمسلم تجاه والديه حيث تقول الآية «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه نسـتوحى جيداً أنّ القرآن الكريم لم يكتف بذم التكبّر والاسـتكبار فى مجمل السلوك الأخلاقى للإنسان بل أكد على النقطة المقابلة له أى التواضع والانعطاف واثنى عليه بتعبيرات مختلفة.

التواضع فى الروايات الإسلامية:

اشارة

لقـد ورد فى المصادر الروائيـة لـدى الشـيعة وأهل السـنّة أحاديث كثيرة فى باب التواضع تبين أهميـة هـذه الصـفة الأخلاقية فى حركة الإنسان التكاملية والإجتماعية، وورد فى بعضها علامات المتواضعين ونتائج وثمار التواضع وحدوده وآدابه. أما عن أهمية التواضع فقد وردت تعبيرات جميلة وجذابة فى الروايات الشريفة منها: ۱- ورد فى الحديث الشريف أنّ رسول اللَّه قال يوماً مخاطباً أصحابه: «مَا لِى لَـاارى عَلَيْكُمْ حَلَـاوَةَ الْعِبَـادَةِ؟! قَـالُوا: وَمَا حَلَاوَةُ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: التَّوَاضُعُ!» «۱». الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۲ ولاـ يخفى أنّ حقيقة العبادة هى غايـة الخضوع امام اللَّه تعالى فالشـخص الّـذى ذاق حلاوة الخضوع والتواضع مقابل حقيقـة الالوهيـة والـذات المقدسة فإنه سيتحلّى أيضاً بالتواضع مع الخلق. ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام: «عَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ فَانَّهُ مِنْ اعْظَمِ الْعِبَادَةِ» «۱». ۳- وورد عن الإمـام الحسن العسـكرى عليه السـلام: «التَّوَاضُعُ نِعْمَـةٌ لَايُحْسَـدُ عَلَيْهَـا» «۲». ومن الطبيعى أنّ كـلّ نعمـة تصـيب الإنسـان فإنه سيتعرض فى الجهـة المقابلة لأذى الحساد حيث تتحرك فيهم عناصـر الحسد والكراهية أكثر بحيث يضـيق الفضاء على صاحب النعمة ويعيش فى حالة من التوتر الّذى يفرزه حالة الحسد فى الطرف المقابل ولكن التواضع مستثنى من هذه القاعدة فهو نعمة لا تتغير بحسد الحسـاد. ونختم هـذا البحث المفصـل بحـديث آخر عن النبى الأكرم: ۴- «يُبَاهِى اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَـةَ بِخَمْسَـةٍ: بِالْمُجَاهِـدِينَ، وَالْفُقَرَاء، وَالَّذِينَ يَتَوَاضَـعُون للَّهِ تَعَـالَى، وَالْغَنِيِّ الّـذى يُعْطِى الْفُقَرَاءَ وَلَـا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ، وَرَجُـلٍ يَبْكِى فِى الْخَلْوَةِ مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَـلَّ» «۳». وعن ثمرات التواضع ونتـائجه الإيجابيـة وردت روايـات كـثيرة عن المعصومين نكتفى بـذكر نمـاذج منهـا: ففى حـديث شـريف عن الإمـام أميرالمؤمنين: «ثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ الْمَحَبَّةُ وَثَمَرَةُ الْكِبْرِ الْمَسَبَّةُ» «۴». وفى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً: «بِخَفْضِ الْجَنَاحِ تَنْتَظِمُ الْامُورَ» «۵». ومن الواضح أنّ عملية تنظيم امور المجتمع لا تتسنّى إلّابالتعاون والتكاتف الإجتماعى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۳ والعاطفى بين الأفراد، وهذا التعاون والتكاتف لا يكون إلّابأن يكون المدير والمدبّر والقائم على امور المجتمع لا يتعامل مع الأفراد بالضـغط والإجبار أو بأن يتباهى ويتفاخر على الآخرين ويرى نفسه أفضل منهم، فإنّ المـدير الموفق فى عمله هو من يعيش حالة الحزم والقاطعية فى عين التواضـع والمحبـة مع الآـخرين. ونقرأ فى حـديث آخر عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «التَّوَاضُعُ لَايَزِيـدُ الْعَبْـدَ الّـا رَفْعَـةً فَتَوَاضَـعُوا يَرْفَعْكُمُ اللَّهُ» «۱». أحياناً يتصور الإنسان أنّ التواضع يقلل من قيمة الشخصيـة ويصـغر شخصيـة الفرد فى نظر الآخرين، فى حين أنّ هذا التصـوّر سـاذج ومجـانب للصـواب، فإننـا نرى أنّ الأشـخاص المتواضـعين فى المجتمـع يتمتعـون بالاـحترام البـالغ مـن قِبـل الآـخرين،

وتواضعهم لا ـ يزيدهم إلّا احتراماً وعزّة فی نفوس الناس. ويُستفاد من الأحاديث الإسلامية انّ التواضع شرط فی قبول العبادات والطاعات ومن ذلک ما ورد فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ اصْلُ کُلِّ خَيْرٍ نَفِيسٍ وَمَرْتَبَةٌ رَفِيعَةٌ ... وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَى کَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ... وَلَيْسَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ عِبَادَةٌ يَقْبَلُهَا وَيَرْضَاها الّا وَبَابُهَا التَّوَاضُعُ، وَلَا يَعْرِفُ مَا فِی مَعْنى حَقِيقَةِ التَّوَاضُعِ الَّا الْمُقَرَّبُونَ الْمُسْتَقِلِّينَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ونختم هذا البحث بحديث عن السيّد المسيح عليه السلام حيث قال: «بِالتَّوَاضُعِ تَعْمُرُ الْحِکْمَةَ لَا بِالتَّکَبُّرِ، کَذَلِکَ فِی السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعَ لَافِی الْجَبَلِ» «۳». والخلاصة أنّ التواضع فی حرکة الحياة العلمية والثقافية يؤثر إيجابياً فی حياة الإنسان (لأنّ الشخص المتکبر يکون محجوباً عن رؤية حقائق الامور بسبب تکبره) وکذلک يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فی حرکة الإنسان الإجتماعية (لأنّ الشخص المتواضع يزيده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۴ تواضعه محبة فی قلوب الناس ويحترمه الجميع لأخلاقه الحسنة والطيبة) وکذلک يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فی علاقة الإنسان بخالقه لأن التواضع يمثل روح العبادة ومفتاح قبول الأعمال والطاعات. وبالنسبة إلی علامات التواضع فقد وردت روايات لطيفة وجميلة فی الروايات الإسلامية، ففی حديث عن الإمام علی بن أبی طالب نقرأ: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَأْسُ التَّوَاضُعِ: انْ يَبْدَءَ بِالسَّلَامِ مَن لَقِيَهُ، وَيَرْضَى بِالدُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمجْلِسِ، وَيَکْرَهُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةَ» «۱». وفی بعض الروايات نقرأ علامات اخری أيضاً للتواضع منها ترک المراء والجدال، أی أنّ الإنسان لا يدخل فی مناقشة وجدل فکری من أجل اشباع رغبة التفوق علی الآخرين واظهار فضله عليهم، ومن العلامات الاخری عدم الرغبة فی ثناء الناس عليه ومدحهم له «۲».

۱– تعريف التواضع

«التواضع» من مادّة «وضع»، وهی فی الأصل بمعنی وضع الشیء إلی الأسفل. وهذا التعبير ورد بالنسبة إلی النساء الحوامل اللآتی يلدن حملهن فيقال «وضعت حملها» وکذلک بالنسبة إلی الخسارة والضرر الّذی قد يتحمله الإنسان فيقال «وضيعة»، وعندما تُطلق هذه الکلمة ويُراد بها صفة أخلاقية فی الإنسان فإنّ مفهومها أنّ الإنسان ينخفض بنفسه عن مکانته الإجتماعية، بعکس حالة التکبر الّتی يفهم منها استعلاء الإنسان عن واقعه الإجتماعی وطلب التفوق علی الآخرين. ويری البعض من أهل اللغة أنّ «التواضع» بمعنی «التذلل» والمقصود من التذلل هنا الخضوع والتسليم. وذکر المرحوم النراقی فی «معراج السعادة» فی تعريف التواضع أنّه قال (التواضع عبارة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۵ عن الإنکسار النفسی الّذی لا يری معه الإنسان نفسه أعلی من الآخرين ولازمه أن يتحرک الشخص تجاه الآخرين من موقع الاحترام والتعظيم لهم بکلماته وأفعاله) «۱». وفی حديث آخر عن الإمام علی بن موسی الرضا عليه السلام قال عندما سُئِل: «مَا حَدُّ التَّوَاضُعِ الّذی إذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ کَانَ مُتَوَاضِعاً؟ فَقَالَ: التَّوَاضُعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا انْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيُنْزِّلُهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لَايُحِبُّ انْ يَأْتِیَ الَی احَدٍ الّا مِثْلُ مَا يُؤْتَی الَيْهِ، انْ رَأَیَ سَيِّئَةً دَرَاهَا بِالْحَسَنَةِ، کَاظِمُ الْغَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «۲». وممّا ورد فی هذه الرواية الشريفة والمهمة هو فی الحقيقة علامات التواضع حيث يمکننا من خلالها التوصل إلی تعريف التواضع. وفی حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ الرِّضَا بِالْمَجْلِسِ دُونَ شَرَفِهِ وَانْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيتَ وَانْ تَتْرُکَ الْمِرَاءَ وَانْ کُنْتَ مُحِقّاً» «۳». والحقيقة هی أن تعريف التواضع لا ـ ينفصل عن علامات التواضع لأن من أفضل التعاريف للمفردات اللغوية والأخلاقية هو التعريف المشتمل علی علامات ذلک الموضوع المراد تعريفه.

۲– التواضع وکرامة الإنسان

عادة نری فی مثل هذه المباحث الأخلاقية أنّ البعض يسلک فيها مسلک الافراط والبعض الآخر مسلک التفريط، مثلًا يتصور البعض أنّ حقيقة التواضع هی أنّ الإنسان يستذل نفسه أمام الناس ولا يری لنفسه مقداراً وشأناً من الشؤون، وقد يقوم بأعمال واهنة يسقط

بسببها من أنظار الناس فيساء الظن به كما ذكر فى حالات الصوفية هذا المعنى أيضاً وأنّهم عندما يشتهرون فى منطقة بالصلاح والفضل فإنّهم يرتكبون أعمال قبيحة ومنافية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۶ للمروءة ليسقطوا فى أنظار الناس، مثلًا لا يهتمون بأمر العبادة وقد يرتكبون الخيانة فى أمانات الناس بحيث يتركهم الناس، وبهذه الطريقة يتصورون أنّ هذا الاسلوب هو نوع من التواضع ورياضة النفس. بينما نجد أنّ الإسلام لا يُبيح للإنسان تحقير نفسه وإذلالها باسم التواضع ولا يرضى بأن يتحرّك الإنسان لإسقاط شخصيته وكرامته وسحقها، فالمهم أنّ الإنسان فى عين ممارسة التواضع يحفظ شخصيته الإجتماعية ولا يذل نفسه، فلو أنّ الإنسان سعى للتحلى بالتواضع بصورته الصحيحة فليس لا يجد هذه الآثار السلبية فحسب بل على العكس من ذلك، فإنّ احترامه وشخصيته ستزداد وتتعمق فى أنظار الناس، ولهذا ورد فى الروايات الإسلامية عن أميرالمؤمنين أنّه قال «بِالتَّوَاضُعِ تَكُونُ الرِّفْعَةُ» «۱». ويقول الفيض الكاشانى تحت عنوان غاية الرياضة فى خلق التواضع: «اعلم إنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الّذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الّذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً، والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس، فإنّ كلا طرفى قصد الامور ذميم، وأحب إلى اللّه تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أى أنّه وضع شيئاً من قدره الّذى يستحقه، والعالم إذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند اللّه العدل وهو أن يعطى كل ذى حقّ حقّه، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال وإجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره وخاتمته» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۷ ۳ و ۴

الحرص والقناعة

تنويه:

سبق وأن قرأنا فى الفصل السابق الحديث الوارد عن الإمام على بن الحسين زين‌العابدين يذكر فيه أنّ أوّل مصدر للمعصية هو التكبر حيث تكبّر إبليس ورفض السجود لآدم بسبب تكبره وطغيانه، ثمّ ذكر الإمام زين العابدين (الحرص) بعنوان انه المصدر الثانى للمعصية حيث ذكر فيه ما صدر من الترك للأولى من قِبل آدم وحواء وأكلهما من الشجرة الممنوعة بدافع من الحرص، ثمّ ذكر (الحسد) الّذى يتمثل فى حسد قابيل لأخيه هابيل وقتله. إن افرازات الحرص السلبية لم تتجلّى فقط فى قصّة آدم بل فى قصص الأنبياء وتصدّيهم لسلوكيات أقوامهم المنحرفة طيلة التاريخ البشرى، فنحن نرى فى قصص الأقوام البشرية السالفة والمجتمعات المختلفة أنّ الحرص والطمع كان يمثل المصدر للكثير من الجرائم والحروب الدموية والغارات الوحشية وسحق المبادئ الإنسانية والفضائل الأخلاقية فى حركة الحياة البشرية والمجتمعات الإنسانية. والنقطة المقابلة لهذه الرذيلة الأخلاقية هى (القناعة) الّتى تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسى، العدالة، الصلح، الاخوة والصفاء فى دائرة العلاقات الإجتماعية، وبالنظر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۸ إلى المنهج المتّبع لترتيب الفضائل والرذائل الأخلاقية (المنهج الّذى يبتدئ فى دراسة واستعراض حالات الأنبياء من آدم إلى نبيّنا الكريم الواردة فى القرآن المجيد) فإنّ ثانى صفة من الصفات الرذيلة هى الحرص المتمثل فى قصّة آدم، وكذلك قصة شعيب وداود وبشكل عام اليهود، وسنتعرض كذلك ما ورد من الحوادث المتعلقة بالمسلمين والمشركين العرب فى عصر النزول أيضاً. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما ورد فى هذا المضمون الأخلاقى: ۱- «فَوَسْوَسَ الَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ ادُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى* فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «۱»». ۲- «وَالَى مَدْيَنَ اخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ الَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا

تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْیَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِی الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِکُمْ خَیْرٌ لَکَمْ انْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» «۲». ۳- «انَّ هَذَا اخِی لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِیَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ اکْفِلْنِیهَا وَعَزَّنِی فِی الْخِطَابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤآلِ نَعْجَتِکَ الَی نِعَاجِهِ وَانَّ کَثِیراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلَی بَعْضٍ الَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِیلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاکِعاً وَانَابَ» «۳». ۴- «وَلَتَجِدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَی حَیَاةٍ وَمِنَ الَّذِینَ اشْرَکُوا یَوَدُّ احَدُهُمْ لَوْ یُعَمَّرُ الْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ انْ یُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِیرُ بِمَا یَعْمَلُونَ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۹ ۵- «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً» «۱». ۶- «وَاذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا الَیْهَا وَتَرَکُوکَ قَائِماً قُل مَا عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَیْرُ الرَّازِقِینَ» «۲». ۷- «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الَّذِی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۳»

تفسیر واستنتاج:

تتحدّث «الآیة الاولی» من الآیات المذکورة آنفاً عن قصة آدم وزوجته حواء وما جری لهما مع الشیطان الرجیم، فطبقاً للآیات القرآنیة فإنّ اللَّه تعالی قد اسکن آدم وحواء الجنّة ونهاهما عن الاقتراب من الشجرة الممنوعة وحذرهما من إغواء إبلیس ووسوسته، ولکن الشیطان افلح فی إغوائه ووسوسته وارتکب آدم ترک الأولی وأکل من الشجرة الممنوعة، وبذلک طرد من الجنّة وغرق فی دوّامة البلایا والمشاکل الدنیویة فی هذه الحیاة. الآیات أعلاه تشیر إلی هذه الحادثة التاریخیة وتقول: «فَوَسْوَسَ الَیْهِ الشَّیْطَانُ قَالَ یَا آدَمُ هَلْ ادُلُّکَ عَلَی شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْکٍ لَایَبْلَی* فَاکَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا یَخْصِفَانِ عَلَیْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوی . وفی الواقع فإنّ الشیطان ذکر لآدم عن الشجرة الممنوعة بانّ کلّ من یأکل منها سوف یحظی بطول العمر ویغرق فی النعمة والسعادة الخالدة. ما هو السبب الّذی دفع آدم إلی قبول وسوسة الشیطان والاعتماد علی کلماته ووعوده ونسیان الأمر الإلهی ونهیه عن تناول ثمرة الشجرة الممنوعة؟ ألیس الحرص والطمع هو الّذی حجبه عن رؤیة حقائق الامور؟ وبهذا نری أنّ حالة التکبر هی الّتی أدّت إلی ضلال الشیطان وعصیانه لأوامر اللَّه تعالی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۰ فی بدایة الخلقة، وترتب علی ذلک أعظم المفاسد فی عالم الوجود، وهکذا نری أنّ حالة الحرص والطمع والرغبة فی الملّذات المادیة والدنیویة هی العامل الآخر لشقاء الإنسان وغرقه فی وحل المفاسد والمشاکل الکثیرة فی حیاته، ولهذا السبب فقد ورد فی النصوص الدینیة أنّ اصول الکفر ثلاثة: «التکبّر» الّذی أدّی إلی ضلال إبلیس وانحرافه عن طریق الحق، «الحرص» الّذی تسبب فی انحراف آدم وخروجه من الجنّة، و «الحسد» الّذی تسبب فی قتل هابیل علی ید أخیه قابیل. وصحیح أنّ النهی الإلهی المتوجه لآدم لم یکن نهیاً تحریمیاً ولذلک لم تکن مخالفته معصیة مطلقة بل کان من قبیل (الترک للأولی ، أو بتعبیر آخر کان نوعاً من النهی الإرشادی کما فی نهی الطبیب للمریض عن تناول بعض الأطعمة غیر الملائمة لصحته ومزاجه ولکن علی أیّة حال فقد کان المتوقع من آدم أن لا یرتکب هذا الترک الأولی، لکن صفة الحرص والطمع قد دفعت بآدم إلی هذا المنزلق الخطیر، وبالتالی أوقع نفسه وذریته من البشر فی دوّامة من المشاکل والشدائد والمصائب فی حرکة الحیاة. «الآیة الثانیة» تتحدّث عن قصّة قوم شعیب الّذین دفعهم الحرص علی المزید من الملذات الدنیویة والطمع فی التکاثر فی الأموال والثروات المادیة أن یدیروا ظهورهم عن الحقّ ویترکوا دعوة نبیهم شعیب وإنکار التعلیمات السماویة الّتی جاء بها هذا النبی الکریم لتهدیدهم وتخلیصهم من أدران الشهوات المادیة الرخیصة حیث تقول الآیة: «وَالَی مَدْیَنَ اخَاهُمْ شُعَیْباً قَالَ یَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَکُمْ مِنْ الَهٍ غَیْرُهُ قَدْ جَاءَتْکُمْ بَیِّنَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَاوْفُوا الْکَیْلَ وَالْمِیزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْیَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِی الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ انْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ». وطبقاً لهذه الآیة فإنّ انحراف قوم شعیب کان یتمثل أوّلًا فی الشرک وعبادة الأوثان ثمّ التطفیف فی المیزان وأکل أموال الناس بالباطل والغش والإفساد فی الأرض، وهکذا نری أنّ هؤلاء القوم کانوا حریصین علی الدنیا إلی درجة أنّهم قالوا لشعیب کما تصرّح الآیة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۱ «قَالُوا یَا شُعَیْبُ اصَلَاتُکَ تَأْمُرُکَ انْ نَتْرُکَ مَا یَعْبُدُ آبَائُنَا اوْ انْ نَفْعَلَ فِی امْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ...» «۱». هذا والحال أن غصب حقوق الناس والتطفیف فی المیزان لم یکن لیؤدی إلی عدم زیادة ثرواتهم وأموالهم

فحسب، بـل كمـا أشار القرآن الكريم ادّى إلى فساد المجتمع وإيجاد الخلل والارتباك فى مفاصـله وزوال الثقـة بين الأفراد فى عمليهٔ التفاعـل الإجتمـاعى واهـدار الطاقـات واتلاف الأموال وأمثال ذلك، وعليه فإنّ صـفهٔ الحرص أدّت إلى نتائـج معكوسـهٔ فى مسيرتهم الإجتماعيـهٔ والدنيويـهٔ. «الآيـهٔ الثالثهٔ» من الآيات محل البحث تسـتعرض الحادثهٔ الّتى حدثت لداود والّتى تعكس فى مضـمونها الصـفهٔ الذميمـهٔ للحرص وابعادهـا السـلبيهٔ فى حيـاهٔ الإنسـان وعلاقته مع الآخرين، وتتلخص هـذه القصـهٔ فى أخوين جاءا إلى النبى داود فقال أحـدهما «انَّ هَـذَا اخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَـهً وَلِىَ نَعْجَهٌ وَاحِدَهٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» «۲» وهكذا نجد أنّ صاحب التسع وتسـعين نعجـهٔ طمع فى ضم نعجهٔ أخيه الواحدهٔ إلى نعاجه وأصـرّ عليه بقبول هذا العرض والطلب، وعندما سـمع داود هذا الكلام تأثر كثيراً و «قَالَ لَقَـدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ»» ثمّ ذكر داود لهـذين الأخوين أنّ هذه الحالهٔ تكاد تكون طبيعيهٔ لدى بنى البشـر وخاصـهٔ فى حالـهٔ الشـركهٔ مع بعضـهم فيتحرك بعضـهم من موقع الظلم والاجحاد بحقّ البعض الآخر، باسـتثناء المؤمنين الّذين يمنعهم إيمانهم من سلوك طريق الباطل وقال لهما «وَانَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ». ونقرأ فى ذيل الآيـهٔ الكريمـهٔ «وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْـتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۲ ولكن مـاذا حـدث لـداود فى هـذه الفتنـهٔ وهـذا الامتحـان الإلـهى؟ هناك كلام كثير بين المفسّـرين، وأما ما ورد فى التوراهٔ المحرّفـهٔ الحاليهٔ فيتلخص فى أنّ داود كان قـد طمع فى زوجهٔ أحد قادته العسـكريين ويدعى «اوريای حتى» والّذى كانت له زوجهٔ جميله جدّاً فعشـقها داود واحتـال لتحريرهـا من قيـد زوجيتهـا مع اوريا ليتمكن من الزواج بها مع انه كانت له أزواج عديـدهٔ، وهكـذا نرى أنّ هـذه القصـهٔ المفتعلـهٔ لا ـ تتنـاسب مطلقاً مع قداسـهٔ الأنبياء الإلهيين بل لا تتناسب مع الأخلاق الإنسانيـهٔ لـدى أىّ إنسان فى المسـتوى المتوسط من الأخلاق، فانّ كلّ إنسان يسـتقبح هـذه الحالهٔ فى نفسه وفى غيره من البشـر. والمشـهور بين المفسّـرين الإسـلاميين هو أنّ امتحان داود كان يتعلق بمسألـهٔ القضاء وانه اسـتعجل فى حكمه وقبل أن يسـمع حجّهٔ الطرف الآخر حكم بينهما وقضـى للأوّل على الثانى، وبالرغم من أنّ حكمه وقضائه كان مصـيباً للحقّ فإنّ اللّه تعالى وبّخه على تركه للأولى فى هذه القضـيهٔ، ثمّ إنّ داود التفت إلى ذنبه وتاب منه. وعلى أيّهٔ حال فمقصودنا من اسـتعراض هذه القصهٔ هو أنّ الإنسان عندما يسـتولى عليه الحرص والطمع فإنه يتحرّك من موقع ارتكاب الظلم والجور حتّى بالنسبـهٔ إلى أخيه الضـعيف والمسكين ولا يأبى عن غصب حقّه وحرمانه من أبسط لوازم الحياهٔ والمعيشهٔ. أجل فإنّ الحرص على الـدنيا وملـذاتها لا يعرف حـدّاً وحدوداً بل يجرّ الإنسان إلى ارتكاب أشـنع الظلم والجور فى حقّ الآخرين. «الآيهٔ الرابعهٔ» من الآيـات التى جاءت فى البحث وتشـير إلى حرص اليهود على الحياهٔ الـدنيا، وتنطلق الآيـهٔ من موقع الـذم لهؤلاء فتقول: «وَلَتَجِـدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاهٍٔ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا». هؤلاء حريصون على جمع الأموال والثروات، حريصون على الملك والتسلط على الدنيا، حريصون على التمسّك بزمام الامور، والعجيب أنّهم احرص من المشركين الّذين لا يلتزمون بأىّ دين ولا يعتقدون بأيّهٔ شريعهٔ سماويهٔ فى حيـن أنّ التعليمـات السـماويهٔ تـذم الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۳ هـذه الحالـهٔ الأخلاقيهٔ السـلبيهٔ والمفروض بالإنسان الملتزم بالـدين والشـريعهٔ أن تؤثر فيه هـذه التعليمـات السـماويهٔ وتحـدد من حرصه على الـدنيا وزخارفهـا الزائلـهٔ ولكننا نجـد أنّ اليهود كانوا أحرص من المشـركين عليهـا. وكما تقول الآيـهٔ «يَوَدُّ احَـدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ الْفَ سَنَهٍٔ». فهؤلاء و من أجل جمع الثروات وبـدافع الخوف من العذاب الإلهى الّذى ينتظرهم بسبب ظلمهم وعدوانهم وغصبهم لحقوق الآخرين وسفكهم لدماء الأبرياء فإنّهم كانوا يتمنون هذا العمر الطويل. والملفت للنظر أنّ حالهٔ اليهود فى هذا العصر لم تختلف عنها فى العصور السابقهٔ فنراهم يعيشون حالهٔ الحرص الشديد هذه بل وأشد من السابق، فإنّ التاريخ المعاصـر يشهد بأن اليهود لا يمتنعون من ارتكاب أيّهٔ جنايهٔ فى سبيل المزيد من جمع الثروات والأموال، فما أكثر الحروب الداميهٔ الّتى أشعلوها بين المجتمعات البشريهٔ، وما أكثر دماء الأبرياء الّتى سفكوها، وما أكثر الفتن الّتى أوقدوا نيرانها بين الشـعوب، وما أكثر الأسـلحهٔ والمواد المخـدّرهٔ الّتى تاجروا بها لإفساد وتـدمير العلاقات الإجتماعيـهٔ بين أبناء البشـر، كلّ ذلك من أجـل تحكيم اركـان سـيطرتهم على مقـدّرات الامـم والشـعوب، ومـا أكثر الكـذب والـدجل والـذى يروجونه بين الناس من الإذاعات العالميـهٔ الّتى يقف الصـهاينهٔ واليهود من ورائها. إذا أردنا أن نسـتعرض النتائج السـلبيهٔ والعواقب الوخيمهٔ لحالهٔ الحرص والطمع وحب

الـدنیا علی الإنسان فینبغی أن نسـتعرض أعمال هؤلاء علی هذا المسـتوی وتعبیر «حیاة» الّذی جاء فی الآیة بصورة نکرة لعله إشارة إلی هـذه الحقیقة، وهی أنّ هؤلاء القوم یریدون ویطلبون الحیاة لأجل اللّذة فقط ولکن أیّة حیاة؟ هل هی حیاة إنسانیة، أو حیاة حیوانیة، أو حیاة الوحوش فی البراری والغابات؟ کلّ ذلک غیر مهم فی نظر هؤلاء. وکما قال بعض المفسّـرین أنّ هـذه الآیة لا تتحدّث عن الیهود فقط بل تمثل تحـذیراً لجمیع أفراد البشـر تحـذرهم من الحرص وعواقب حبّ الدنیا لکیلا یبتلوا بما ابتُلی به الیهود فی حیاتهم الدنیویة وسلوکیاتهم الأخلاقیة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۴ وقد ورد فی الآیات القرآنیة والروایات الشـریفة عن الیهود أنّهم قتلوا الکثیر من الأنبیاء الإلهیین لمجرّد مخالفتهم لهم ونهیهم عن سلوکیاتهم المنحرفة ورغباتهم اللامشـروعة فی هـذه الحیاة، وکـذلک تحریفهم لآیات اللّه وکتبه السـماویة وکلّ ذلک کان بسبب حرصـهم وحبهم للـدنیا. «الآیـة الخامسة» تتحرّک علی مستوی اسـتعراض صـفات الإنسـان وحالـاته السلبیة من الحرص والجزع والبخـل وأمثـال ذلـک وتقول: «انَّ الْانْسَـ انَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً». وقد ذکر المفسّرون وأرباب اللغة لکلمة «هلوع» معان کثیرة، وفی الواقع أکثرها من باب اللازم والملزوم ومتقاربة المعنی، ومن ذلـک مـا ذکره صـاحب لسـان العرب من المعـانی الأربعـة لهـذه الکلمـة وهی: الحرص، الجزع، الضـجر، وقلـة الصبر، وأورد فی «مجمع البیان» أیضاً لمعنی الهلوع: «ضـجور» و «شـحیح» و «جزع» و «شدید الحرص». وذهب صاحب کتاب التحقیق أنّ الجذر الأصلی لهـذه الکلمـة هو رغبـة الإنسـان فی الاسـتمتاع بـالنعم والملـذات، أما الجزع والحرص وقلّـة الصبر فکلّها من آثار هـذه الکلمـة ومعناها الأصـلی. ومن مجموع ما تقـدّم یظهر أنّ هذه الکلمة تتضـمن ثلاث نقاط سـلبیة فی دائرة الأخلاق وهی: الحرص، الجزع والبخل. وفی الواقع فـإنّ تفسیر کلمـة «هلوع» ورد فی نفس السورة بعـد هـذه الآیـة حیث یمکن اسـتفادة المفهوم الواقعی لهـا بحیث تتضـمن هـذه المعـانی الثلاثـة لأـن «جزوع» من مادة «جزع» و «منوع» من مادّة «منع»، ویـدخل فی معناها البخل والحرص. وعلی أیّـة حال فإنّ الآیات المـذکورة وردت فی مقـام ذم الأشـخاص الّـذین یسـتولی علیهم الحرص والبخـل والجزع. ویمکن القـول أنّ «الحرص» هـو المصـدر الأسـاس للبخـل، لأـن الحریص یریـد الاحتفاظ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۵ بکـلّ شـیء لنفسه ومنه ینشأ البخل، وکـذلک فإنّ الحرص أحیاناً یسبب الجزع وقلّة الصبر، لأن الحریص إذا فقد بعض ممتلکاته ومتعلقاته فسوف یتألم کثیراً ویتعامل مع الامور من موقع الجزع والحـدّة. فالآیـة الشـریفة تقرر بأن الإنسان قـد خُلق بهـذه الصـفات، ولکن قد یُثار فی الذهن هذا التساؤل، وهو أنّ اللّه تعالی قد خلق الإنسان من أجل السـعادة الخالـدة ونیل المقامات والکمالات المعنویـة، فکیف یخلقه بهـذه النقائص ونقاط الضـعف الّتی تحجبه عن سـلوک طریق الحقّ وتصـدّه عن السـیر فی طریق الکمال والسـعادة؟ وقد أجاب البعض علی هذا السؤال بأن هذه الصـفات السـلبیة تتعلق بالإنسـان الفاقـد للإیمان، فإنّ طبع الإنسان المؤمن یتناغم مع الصبر والمثابرة والکرم وأمثال ذلک ولکن عنـدما ینفصل عن دائرة الإیمان، فمن الطبیعی أن یجزع مقابل أقل مشـکلة وأدنی شدّة لأنّه یفتقد السند والدعامة الأساسیة فی حیاته العملیة ویجد نفسه وحیداً فی مقابل تحدّیات الواقع الصـعبة، فلذلک یتعامل مع الحیاة من موقع الحرص والبخل ولا یجد فی نفسه اعتماداً وتوکلًا علی اللّه تعالی الّذی بیده مفاتح الغیب وبالتالی لا یطمئن إلی غده وما سـیواجهه فی المسـتقبل من حوادث وأزمات. والشاهد علی هذا هو أنّ الآیات الّتی جاءت بعد هذه الآیة استثنت المصلین من هذا الحکم العام علی الإنسان، ویحتمل أیضاً أنّ الآیات محل البحث کما هو الحال فی کثیر من الآیات الشـریفة الّتی تصف الإنسان بأنه «ظلوم» و «جهول» و «یؤوس» و «کفور» و «طغی وأمثال ذلک، فتشیر هذه الآیات إلی وجود بُعـدین فی کیان الإنسان: البُعـد الّـذی یأخـذ بالإنسان ویصـعد به إلی أعلی علّیین، وهو ما یصـطلح علیه بقوس الصـعود، والبُعد الآخر ما یجره إلی أسفل السافلین وهو قوس النزول. ویری العلّامة الطباطبائی فی «المیزان» رأیاً آخر فی هذا الصدد، فیقول بأن الحرص صفـة من الصـفات الذاتیـة للإنسان ومتفرعـة علی حبّ الذات، وهی فی الأصل لیست من الرذائل لأن حبّ الذات الّذی تتولد منه هذه الصـفات هو المحور الأساس الّذی یسوق الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۶ الإنسان إلی الکمال المعنوی ویدفعه نحو طریق السـعادة الخالـدة، فهـذه الصـفات إنّما تکون ذمیمـة وقبیحـة فیما لو لم یسـتخدمها الإنسان فی الطریق الصـحیح واللائق، وفی الحقیقـة أنّ هـذه الصفات مثل سائر الصفات النفسانیة الّتی إذا لزمت حدّ الاعتدال تُعدّ فضیلة وإذا تجاوزت إلی جهة الافراط أو التفریط فإنّها تکون من

الرذائل. وعلى أيّة حال فالآيات أعلاه تبين أنّ القرآن الكريم دعا جميع الناس إلى الإيمان والصلاة والدعاء والإنفاق فى سبيل اللّه لإطفاء نار الحرص والبخل والجزع فى وجوده وواقعه النفسانى. «الآية السادسة» تستعرض واقعة من الوقائع الّتى جرت فى زمان صدر الإسلام حينما كان المسلمون يعيشون القحط والجوع وغلاء الأسعار، وهناك وردت قافلة إلى المدينة محملة بالبضائع والمواد الغذائية من الشام وقد صادف دخول هذه القافلة الظهر من يوم الجمعة حيث كان النبى يخطب فى الناس خطبتى الجمعة. وقد كان المتعارف فى ذلك الزمان أنّه عندما تَرد قافلة إلى مدينة معيّنة تُدق الطبول ويُعزف على آلات الموسيقى حتّى يجتمع الناس بسرعة لشراء ما يحتاجونه من هذه القافلة، وعندما سمع المصلون صوت القافلة الواردة إلى المدينة ترك بعضهم من الّذين أسلموا حديثاً صلاة الجمعة وتوجّهوا إلى السوق لشراء البضاعة من القافلة فى حين لم يكن لذلك ضرورة لازمة وكان من الممكن التوجّه إلى القافلة بعد إتمام صلاه الجمعة، وعلى أيّة حال فلم يبق فى المسجد سوى اثنا عشر رجلًا وامرأة واحدة، فنزلت الآيات أعلاه تذم هؤلاء الّذين تركوا صلاة الجمعة بدافع الحرص على زخارف الدنيا، وقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى قال حينها: لو لم يبق هؤلاء النفر لأمطرت السماء حجارة على الناس. ويُستفاد من سياق الآية أعلاه أنّ التوجّه إلى السوق والقافلة لم يكن بدافع من تأمين الحاجات الضرورية للمعيشة بل بدافع من الهوى وسُماع الألحان الموسيقية لدى البعض، وقد يكون بدافع من التجارة والربح المادى لدى البعض الآخر. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۷ وعلى أىّ حال فإنّ القرآن الكريم يبين هذه الواقعة بهذه العبارة «وَاِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً». ثمّ يخاطب النبى الكريم بالقول «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». ويُحتمل أنّ البعض ترك الصلاة والنبى الأكرم وتوجّه إلى السوق والقافلة لتأمين حاجاته الضرورية للحياة (بالرغم من وجود الوقت الكافى لتهيئتها بعد الصلاة) ولكن التعبير أعلاه يبين بوضوح أنّ فئة من هؤلاء توجّهوا إلى القافلة بدافع من الحرص على شراء السع والبضائع بقيمة زهيدة ثمّ بيعها بأعلى الأثمان طمعاً فى الثروة والمال الكثير، وجماعة توجّهوا إلى القافلة بوحى الأهواء والنوازع النفسانية وبذلك حرموا أنفسهم من السعادة العظمى فى حضور الصلاه مع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. وجاءت الآية السابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث لتتحدّث عن الأشخاص الّذين يتحركون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع السخرية والاستهزاء وذلك بدافع من الغرور لما يعيشونه من حالة الثراء ويتصورون أنّ ذلك يسوّغ لهم الاستهزاء بالمؤمنين الفقراء. فتقول الآية «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الّذى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» فمثل هذا الشخص الّذى يجمع الأموال بدون حساب للحلال والحرام ويتصور أنّ هذه الأموال تؤدى إلى بقائه وخلوده وابتعاد الموت عنه أنّ هذه الثروة تُبيح له السخرية بالآخرين من الفقراء والمُعدمين. جملة «عَدَّده» الناظرة إلى حساب الأموال من قِبَل أصحاب الثروة تشير إلى شدّة حرصهم وولعهم بهذه الأموال والثروات بحيث إنه كلّما ازدادت أموالهم ازدادوا حبّاً وشغفاً بها ولذلك فهم يعدّدونها دائماً ويجدون فى ذلك لذّة كبيرة. وجملة «الّذى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» هى فى الواقع بمثابة العلّة للهمز واللمز المذكور فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۸ الآية الاولى، أى أنّ الثروة الدنيوية الطائلة ادّت بهم إلى درجة من الغرور والسكر بحيث إنّهم كانوا ينطلقون من موقع السخرية والاستهزاء بفقراء المؤمنين وكانوا يتصورون انه ليس فقط هذه الأموال والثروات هى الخالدة مدى الدهر بل أصحاب الثروة كذلك. إنّ دراسة حال أصحاب الدنيا العجيب وتعاملهم الغريب مع الواقع يرشدنا إلى ما يحيّر العقول من عجيب سلوكياتهم، فترى البعض منهم رغم احاطتهم الوافرة بالعلوم المادية والطبيعية ليس لهم هدف سوى جمع الأموال والثروات، وعندما يُسألون هؤلاء عن هدفهم من جمع المال رغم أنّهم لا يمتلكون عائلة ولا ينطلقون فى سفرات ترفيهية وسياحية، فيجيبون بأننا نفرح بإضافة صفر أمام أرقام الأموال المؤدعة لنا فى البنوك!

النتيجة النهائية:

من مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة وما ذكر لها من تفسير نستنتج أنّ مسألة الحرص والطمع وحبّ الدنيا والشغف بجمع الأموال والثروات أمر خطير جدّاً فى دائرة المفاهيم القرآنية، وهو مصدر لكثير من أشكال الشر والفساد ويُعد من أقوى الموانع فى مسيرة

تهذیب النفس وفی خط التکامل الأخلاقی والمعنوی.

الحرص وحبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیهٔ:

اشارهٔ

إن مفردهٔ «الحرص» والکلمات المرادفهٔ لها وردت فی الأحادیث الإسلامیهٔ بشکل واسع علی مستوی أبعادها ودوافعها ونتائجها السلبیهٔ حیث نختار منها نماذج معدودهٔ: ۱- نقرأ فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم یخاطب فیه أمیرالمؤمنین فیقول: «اعْلَم یَا عَلِیُّ! انَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِیزَهٌ وَاحِدَهٌ یُجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۹ ۲- وهذا المعنی والمضمون نجده بصورهٔ اخری فی نهج البلاغهٔ فی عهد أمیرالمؤمنین لمالک الأشتر حیث أوصاه الإمام أن یحذر ویتجنب من استشارهٔ البخلاء والجبناء وأهل الحرص والطمع فقال «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ شَتَّی یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ» «۱». فالشخص الّذی یحسن الظن باللَّه تعالی وقدرته المطلقهٔ علی الوفاء بالعهد وتأمین الرزق للعباد فإنه سوف لا یحرص أبداً علی جمع الأموال والثروات. الإنسان الّذی یعیش حالهٔ التوکّل علی اللَّه ویؤمن بألطافه وعنایاته فإنه لا یخشی غیره ولا یخاف أیّهٔ قوّهٔ غیر قوته المطلقهٔ. والإنسان الّذی یأمل دائماً برحمهٔ اللَّه تعالی ولطفه فإنه لا یجد فی نفسه بخلًا اطلاقاً. أجل فإنّ المؤمن الکامل فی توحیده وإیمانه باللَّه تعالی وبأسمائه وصفاته الحسنی فإنه لا یمکن أن یتلوث بهذه الخصال الثلاثهٔ القبیحهٔ والرذیلهٔ رغم انها تشترک فی الباطل بأصل واحد (ولهذا السبب نجد أحیاناً انها تسمّی باسم غریزهٔ واحدهٔ وأحیاناً اخری بأسماء مختلفهٔ لأنها متعدّدهٔ فی الظاهر ولکنها متحّدهٔ فی الباطن). ۳- إنّ الحرص علی الدنیا وملذاتها وزخارفها بإمکانه أن یورث الإنسان التعب والشقاء ویورّطه فی السعی الدائب لتأمین رغباته الوهمیهٔ، وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین أنّه قال «الْحِرْصُ مَطِیَّهُ التَّعَبِ» «۲». ۴- وفی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین أیضاً أنّه قال: «الْحِرْصُ عَنَاءٌ مُؤَبَّدٍ» «۳». وعندما ندرس حالات الّذین یعیشون الحرص والطمع فی حرکهٔ الحیاهٔ نری مدی التعب والشقاء الّذی یعیشه هؤلاء لیل نهار فی سبیل جمع الأموال والزخارف الدنیویهٔ من دون الاستفادهٔ منها، وهذا شاهد صدق علی الحدیث المذکور آنفاً. ۵- الإنسان الحریص لا یجد طعم الشبع أبداً، ولهذا السبب فهو دائماً یسعی لجمع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۰ الأموال واکتناز الثروات حتّی لو لم ینتفع بها، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «الْحَرِیصُ فَقِیرٌ وَلَوْ مَلَکَ الدُّنْیَا بِحَذَافِیرِهَا» «۱». ۶- وقد ورد فی الأحادیث الشریفهٔ أنّ الأشخاص الّذین یتخلصون من شراک الحرص ولا یقعون اسری الطمع هم الّذین یتمتعون بالغنی الباطنی، ومن ذلک قول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حدیث آخر «اغْنَی الْغِنَی مَنْ لَمْ یَکُنْ لِلْحِرْصِ أَسِیراً» «۲». ۷- الحرص علی جمع الأموال والمادیات یُفضی بالإنسان إلی الوقوع فی الهلکهٔ، ولیست الهلکهٔ المعنویهٔ فقط بل فی کثیر من الأحیان تکون مصحوبهٔ بالهلکهٔ المادیهٔ أیضاً، حیث نقرأ فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه قوله: «انَّ الدِّینَارَ وَالدِّرْهَمَ اهْلَکَا مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ وَهُما مُهْلِکَاکُمْ» «۳». ۸- إنّ الإنسان الحریص یُکبِّل نفسه بالقیود یوماً بعد آخر إلی أن یوصد أمامه طریق النجاهٔ والفلاح، کما نقرأ فی المثال الّذی ورد عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «مَثَلُ الْحَرِیصِ عَلَی الدُّنْیَا مَثَلُ دُودَهِ الْقَزِّ، کُلَّمَا ازْدَادَتْ مِنَ الْقَزِّ عَلَی نَفْسِهَا لَفّاً کَانَ ابْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ! حَتَّی تَمُوتَ غَمّاً!» «۴». ۹- إنّ الحرص والطمع یهدم شخصیهٔ الإنسان ویسحق کلّ قیمهٔ له فی أنظار الناس کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْحِرْصُ یَنْقُصُ قَدْرَ الرَّجُلِ، فَلَا یُزِیدُ فِی رِزْقِهِ!» «۵». ۱۰- إنّ الحرص من الامور الّتی تؤدی إلی الکثیر من الذنوب والخطایا والقبائح منها عدم مراعاهٔ الحلال والحرام وترک احترام حقوق الآخرین والتلوث بأنواع الظلم والجور والعدوان، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام من جملهٔ ما أوصی به مالک الأشتر فی عهده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۱ المعروف أنّه قال «لَاتُدْخِلَنَّ فِی مَشْوَرَتِکَ حَرِیصاً یُزَیِّنُ لَکَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ» «۱». وعلی هذا الأساس فإنّ عواقب الحرص ونتائجه وخیمهٔ جداً فی حیاهٔ الإنسان حیث یورثه البعد عن اللَّه تعالی ویهدم مروئته ویکسر شخصیته ویسلب منه الراحهٔ والطمأنینهٔ وبالتالی یُفضی به الحرص

إلى الوقوع فى وحل الـذنوب الكبيرة الاخرى فيبتعـد يوماً بعـد آخر عن السـعادة والكمال المعنوى ويغدو أسـيراً وذليلًا فى قيود النفس الأمارة وأحابيل الشيطان، وبكلمة واحدة انه يفقد دينه ودنياه.

١– تعريف الحرص

بالرغم من أنّ معنى ومفهوم (الحرص) واضـح للجميع إجمالًا، ولكن الدقـة والتوجه إلى مضـمونه العميق يكشف لنا نقاط جديـدة فى دائرة هذا المفهوم. يقول الراغب فى مفرداته فى تعريف الحرص بأنه بمعنى شدّة الرغبة والميل إلى شـىء معيّن، ويرى أنّ هذه الكلمة فى الأصـل تأتى بمعنى الضـغط على اللباس عنـد غسـله بالماء بواسـطة ضـربه بالخشـبة وأمثال ذلک. وقـد ورد عن أميرالمؤمنين تعبير جميـل جـداً فى تعريف الحرص عنـدما سُـئل: مـا هو الحرص؟ فقـال «هُوَ طَلَبُ الْقَلِيـلِ بِاضَاعَـةِ الْكَثِيرِ) «٢» ويرى علمـاء الأخلاـق أنّ الحرص من الرذائل الأخلاقية المتعلّقة بقوّة الشـهوة وذكروا فى تعريفه (أنّ الحرص صفة من الصفات النفسانية تدفع الإنسان إلى جمع ما هو أكثر من حاجته، وهو من شُـعب حبّ الدنيا ومن الصفات المهلكة والأخلاق الفاسدة) ويمثلون للحرص بأنه كالصحراء المترامية الأـطراف وكالأرض الموحشـة الّتى لا حـدود لها فكلّما سار فيها الحريص لا يصل إلى غايتها ومنتهاها. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٨٢ (الحريص) يُقال لشـخص مبتلياً بمرض، مثل مرض الاستسقاء حيث كلّما شرب من الماء فإنّ عطشه لا ينطفأ. إنّ الشخص الحريص لا يقبل أى دليلٍ منطقى على سلوكياته، فلو قيل له مثلًا إنک بلغت من العمر ثمانين سنة ولم يبق من عمرک إلّاالقليل، فلماذا هذا الولع والشوق لجمع الأموال والثروات؟ وبالرغم من انه يفتقد الجواب الصـحيح لهذا السؤال ولكنه يستمر فى سلوكه الطفولى ولا ينتهى منه، بـل على العكس من ذلک حيث نرى أنّ بعض الناس يزداد حرصاً وطمعاً كلّما ازداد سـناً وأوغل فى مرحلـة الشـيخوخة، كما ورد فى الحديث المعروف عن النبى الأكرم أنّه قال: «يُشِيبُ بْنُ آدَمَ وَيَشُبُّ فِيهِ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الْامَلِ» «١».

٢– النتائج السلبية للحرص فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية

رأينا فى الآيات والروايات الشريفة المذكورة سابقاً مدى النتائج السلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص فى واقع الإنسان، ولذلک فإنّ مطالعتها تغنينا عن أى شـرح وتفسـير آخر فى هـذا المجال ومن ذلک: ١– إنّ الحريص مُبتلى فى التعب المسـتمر والعسـر والحرج فى حركة الحياة. ٢– إنّ الحريص لا يشـبع أبـداً، ولهـذا فإنه لو ملک الدنيا بأجمعها فإنه يعيش عيشة الفقراء أيضاً. ٣– إنّ الحريص يعيش عيّش الفقراء ويموت موت الفقراء ولكنه يحـاسب فى الآخرة حساب الأغنياء. ۴– إنّ الحرص يفضـى بالإنسان إلى الهلكة لأن الإنسان الحريص وبسبب عشقه للدنيا ولزخارفها فانه لا يرى آفاق الخطر المحيطة بها بل يسارع إليها بكلّ عجلة وهلع. ۵– إنّ الإنسان الحريص يكبل نفسه بقيود الماديات وأحابيلها ويزداد قربه من هـذه القيود يوماً بعـد آخر حتّى يوصد أمامه سبيل النجاة. ۶– إنّ الحرص يذهب بشـرف الإنسـان ومـاء وجهه ويسـقط حرمته ومروءته فى أنظار الناس، لأن الحريص ولغرض الحصول على مقصوده لا يلتزم بالاعراف الاجتماعيـة ولا الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٨٣ يتقيد بالقيم والمُثل والسـلوكيات المعتبرة فى المجتمع الانسانى بل يعيش كالأسـير المقيـد بسلسـلة من رقبته يقـوده الحرص من هنـا إلى هنـاک. ٧– إنّ الحرص يـؤدى بالإنسـان إلى التلوث بـأنواع الـذنوب كالكـذب، الخيانـة، الظلم والعـدوان وغصب حقوق الآـخرين وأمثال ذلک، لأنّه إذا أراد مراعاة الحلال والحرام فإنه سوف لن يصل إلى مقصوده فى حياته الدنيويـة. ٨– إنّ الحرص يتسـبّب فى إبعاد الإنسان عن اللَّه تعالى ويورثه الصـغار فى أنظار عباده ويسـلبه الطمأنينة والسـكينة والهدوء النفسى فيعيش حياته مع العذاب الروحى والقلق المزمن. ٩– إنّ الحريص يجمع الأموال والثروات الّتى يتحمل مسؤوليتها فقط بينمـا ينتفع بها الآخرون. ١٠– إنّ الحرص إنّمـا هو نتيجـة من نتائـج سوء الظن بـاللَّه وفى نفس الوقت يعمق هـذه الحالـة لـدى الإنسان ويؤكد فى نفسه سوء الظن هذا

۳- غنی النفس

والملفت للنظر أنّ الإنسان الحریص یطلب الغنی من خارج ذاته ووجوده فی حین أنّ أصل الغنی وحقیقته یجب أن یحصل علیها الإنسان من داخله. وقد سُئل أحد العلماء عن حقیقة الغنی وعدم الحاجة والفقر فقال: أن تقصر من آمالك وترضی بما قسم لك. وفی الحدیث الشریف الوارد عن رسول اللّه وكذلك عن أمیرالمؤمنین أیضاً نقرأ هذا المضمون السامی فی دائرة القیم الأخلاقیة والمعنویة «خَیْرُ الْغِنیَ غِنَی النَّفْسِ» «۱». وفی روایة اخری عن رسول اللّه أنّه قال: «الْغِنَی فِی الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فِی الْقَلْبِ» «۲». أجل فإذا كانت روح الإنسان تعیش الجوع المعنوی بسبب الحرص فإنه لو ملك هذا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۴ الإنسان الدنیا بحذافیرها فإنه یعیش فقیراً كذلك، ولو أنّ روحه كانت تعیش الغنی الذاتی ولم یجد فی نفسه الحاجة والطمع فإنه لو سُلِب منه جمیع ما فی الدنیا فإنه یعیش الغنی كذلك.

۴- الحرص المذموم والممدوح

إنّ مفردة (الحرص) تأتی فی الموارد السلبیة فعندما تُطلق هذه الكلمة یراد منها الحرص علی الأموال والثروة والمقام وسائر الشهوات المادیة والدنیویة، وذلك بسبب أنّ هذه الكلمة تستعمل غالباً فی هذه الموارد المذمومة والقبیحة. ولكن أحیاناً تستخدم هذه الكلمة فی موارد إیجابیة ونافعة وبذلك تستحق المدح ولا تكون من الأخلاق الرذیلة بل تُعد من الفضائل أیضاً وذلك عندما تتحكم هذه الصفة فی الإنسان فی موارد الشوق والرغبة الشدیدة فی أعمال الخیر والصلاح. ومن جملة ما ذكر القرآن الكریم من فضائل نبی الإسلام هو حرصه علی هدایة الناس وانقاذهم من الضلال حیث یقول: «لَقَدْ جَائَكُمْ رَسُولٌ مِنْ انْفُسِكُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ مَا عَنِتُّم حَرِیصٌ عَلَیْكُمْ بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» «۱». ویقول فی مكان آخر: «انْ تَحْرِصْ عَلَی هُدَاهُمْ فَانَّ اللَّهَ لَایَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِینَ» «۲». وقد ورد ما یشبه هذا المعنی والمضمون فی آیات اخری من القرآن الكریم أیضاً «۳». وطبعاً وردت هذه الكلمة فی القرآن الكریم فی مصادیق سلبیة أیضاً. أما فی الروایات الإسلامیة فإنّ كلمة «الحرص» وردت فی موارد كثیرة إیجابیة وفی ذلك یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی خطبته المعروفة فی بیان صفات المتقین مخاطباً لهمّام الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۵ «فَمِنْ عَلَامَةِ احَدِهِمْ انَّكَ تَری لَهُ قُوَّةً فِی دِینٍ وَحِرْصاً فِی عِلْمٍ» «۱». وورد فی الروایات الشریفة موارد متعددة أنّ من علامات المؤمن هو حرصه علی التفقه فی الدین أو حرصه علی الجهاد فی سبیل اللّه أو الحرص علی التقوی وأمثال ذلك «۲». ونختم هذا البحث بحدیث شریف عن الإمام الباقر یقول «لَا حِرْصَ كَالْمُنَافِسَةِ فِی الدَّرَجَاتِ» «۳». وعلی هذا فإنّ للحرص مفهوم واسع ویأتی بمعنی شدّة العلاقة والرغبة بشیء معین بحیث یسعی جاهداً لتحصیله، فلو وقع هذا الشیء فی طریق الخیر والسعادة والصلاح لكان ممدوحاً، ولكن إذا وقع فی طریق الدنیا وتحصیل المال والثروة والملذات الرخیصة فإنه یكون مذموماً كذلك، ولكن الغالب فی استعمال هذه الكلمة هو فی الموارد السلبیة والسلوكیات الذمیمة.

۵- علاج الحرص

من المعلوم أنه وفی علاج الأمراض البدنیة لزوم الرجوع إلی الأسباب والجذور، لأن العلاج بدون قطع جذور المرض لا ینفع علی المدی الطویل وستبقی النتائج والآثار السلبیة فی وجوده، وحتّی لو تمّ العلاج من خلال استخدام المهدئات والعلاجات المؤقتة فإنّ المرض سوف یتجلّی ویظهر بعد مدّة. وهكذا الحال فی الأمراض الأخلاقیة، فلابدّ أوّلًا من التوغل لمعرفة جذور المرض ثمّ قطعها من الأساس. وكما تقدّمت الإشارة إلیه، (وورد فی الأحادیث الإسلامیة أیضاً) أنّ أحد جذور الحرص هو سوء الظن باللّه وعدم التوكل علیه، وكلّ ذلك یعود إلی اهتزاز اركان التوحید الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۶ الأفعالی لدی الإنسان. فالشخص الّذی یعتقد بأن

اللَّه قادر ورازق وأنّ مفتاح الخيرات بيده فقط «بِيَدِكَ الْخَيْرُ انَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۱» فسوف لا يجد فى نفسه حالة الحرص على جمع الأموال والنعم المادية الاخرى. إنّ الشخص الّذى يعيش الإيمان الكامل بوعد اللَّه تعالى وقوله: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...» «۲» فبدلًا من الحرص على جمع الأموال فإنه سيحرص على انفاقها فى سبيل اللَّه. وعندما تهتز أركان الإيمان فى وجود الإنسان وخاصّة التوحيد الأفعالى فإنّ الصفات الرذيلة سوف تتجذر فى نفس الإنسان وأخطرها الحرص، وحينئذٍ فلابدّ من تقوية أركان الإيمان لمنع تفشى هذه الصفة ورسوخ هذه الحالة السلبية فى باطن الإنسان. وأحد الأسباب الاخرى للحرص هو الجهل وعدم الاطلاع على حقائق الامور وما يترتب عليها من نتائج وآثار فى الواقع العملى. فإذا علم الإنسان أنّ الحرص يتسبّب فى سلب طمأنينته وهدوئه فى حركة الحياة وانه سيوقعه فى العسر والشقاء والتعب الدائم، وأنّ الحرص سوف يُهدم مروءته ويحطّم شخصيّته ويسقطه فى أنظار الناس، وأنّ الحرص يتسبب فى أن يعيش عيشة الفقراء بالرغم من غناه الظاهرى وأنّ ما جمعه من الأموال والثروات سينتفع به الآخرين ولكنه سيُسأل عنها يوم القيامة بالرغم من أنّ الآخرين هم الّذين ينتفعون بها فى الدنيا. أجل فإنّ الحريص إذا فكر فى هذه النتائج والعواقب الوخيمة فإنّ ذلك سيؤثر فى نفسه وروحه تأثيراً ايجابياً. ويقول الفيض الكاشانى فى المحجّة البيضاء: إعلم أنّ هذا الدواء مركّب من ثلاثة أركان «الصبر» و «العلم» و «العمل» ومجموع ذلك خمسة امور: الأوّل وهو العمل: الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق، فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۷ جهد ويمكن معه الإجمال فى الطلب، فالاقتصاد فى المعيشة هو الأصل فى القناعة ونعنى به الرّفق فى الإنفاق وترك الفرق فيه. قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من اقتصد أغناه اللَّه، ومن بذّر أفقره اللَّه، ومن ذكر اللَّه عزّوجلّ أحبّه اللَّه» «۱». الثانى: أنّه إذا تيسّر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقّق بأنّ الرّزق الّذى قدّر له لابدّ وأن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه، قال تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ» «۲». الثالث: أن يعرف ما فى القناعة من عزّ الاستغناء وما فى الطمع والحرص من الذل فإذا تحقّق له ذلك إزدادت رغبته فى القناعة لأنّه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل، قال النبى صلى الله عليه و آله: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس» «۳». الرابع: أن يكثر تأمّله فى تاريخ بعض اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويقارن بينهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند اللَّه حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير. الخامس: أن يفكر فى مخاطر جمع المال والثروة من دون قيد أو شرط، وكذلك فى عواقب هذا العمل فى الدنيا والآخرة، وكذلك عليه أن يفكر فى العواقب الحميدة التى تأتى من القناعة. وعليه أن يفكر دائماً فى أمور دنياه وينظر الى مادونه من الخق، لا أن ينظر الى من هم أعلى منه فى الغنى لأن الشيطان يسوّل للانسان دائماً ويدعوه للنظر الى مافوقه، ويقول له فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۸ وساوسه: ماذا ينقصك حتى يكون فلاناً أغنى منك؟ لماذا لا تسعى لكى تصل الى ما هم فيه؟ أُنظر الى هؤلاء وقد غرقوا بالخير والنعمة وتمتعوا بلذائذ الدنيا؟! وأنت تفكر فقط فى الخوف من الله، وقد ضيقت على نفسك بالتزامك المستمر بالحلال والحرام، هل أنت اكثر تديناً من هؤلاء ام أنت أخوف منهم من الله؟! قال أبوذر: «أوصانى خليلى أن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى- أى فى الدنيا-».

۶- إجابة عن شبهة

وهنا يمكن أن يتصور البعض أنّ الإسلام ومن خلال هذه الآيات والروايات المذكورة فى هذا الباب لا يتلائم مع تطور الحياة المادية والدنيوية للناس أو أنّه ينظر إلى اصول التمدن المادى والتطور العلمى على مستوى الطبيعة بنظرة سلبية، من خلال دعوته لاتباعه إلى التجرد عن الدنيا وعدم التعلّق بها، فى حين أنّ هذا التصور اشتباه كبير، فالإسلام يتصدّى لمحاربة الحالات الأخلاقية السلبية فى واقع الإنسان الّتى تنطلق من الحرص وحب الدنيا والتضحية بالقيم الأخلاقية والإنسانية من أجل الرفاهية الدنيوية واشباع الملذات الرخيصة،

لا أنّه يقف أمام استخدام الطاقات الفكرية والمواهب الطبيعية فى عملية التطور العلمى فى خط الكرامة الإنسانية وتوكيد حرية الإنسان من النوازع والأهواء النفسانية وتقوية القيم المعنوية. وتوضيح ذلك: أنّ المواهب المادية فى حد ذاتها هى أدوات ووسائل للوصول إلى المقاصد الاخرى وتحقيق طموحات الإنسان فى حركة الحياة وليستفيد منها فى الصعود فى مدارج الكمال المعنوى والإنسانى، فلو انه استخدمها فى غير هذا الغرض وتحرّك معها من موقع الأهواء والشهوات الرخيصة فسوف يبتعد بذلك عن الهدف من الخلقة ويسقط فى مهاوى الرذيلة والانحطاط والتسافل الأخلاقى، وهذه الامور تتقاطع مع التعاليم الإسلامية. ومثلها كمثل الأدوات الصناعية والمنتوجات المادية الّتى يمكن الاستفادة منها بوجهين، فالطائرة يمكن الاستفادة منها للتنقل السريع وتسهيل وصول الإنسان إلى مقصده والتوسع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۹ فى العمران وتأمين المعيشة ومساعدة الفقراء والمحتاجين وأمثال ذلك، كما يمكن الاستفادة منها بطريقة اخرى وذلك بجعلها أداة حربية لقتل البشر وإلقاء القنابل على الأبرياء وتخريب المدن والقرى وإحراق الأخضر واليابس وإتلاف مواهب الطبيعة. وعليه فلا ينبغى النظر إلى موقف الإسلام السلبى من حالة الحرص والطمع وحبّ الدنيا لدى الإنسان كذريعة لترك النشاطات الاقتصادية والتطور العلمى والصناعى وبالتالى يتحول معها الإنسان إلى شخص خامل وكسول ويتعامل مع الأحداث والمجتمع من موقع الانزواء والعزلة كما نلاحظ ذلك لدى بعض المتصوفة حيث يسلكون هذا المسلك بالتوسل بأمثال هذه المفاهيم الدينية والنصوص الإسلامية.

حبّ الدنيا

تنويه:

إنّ أحد جذور (الحرص) وما يترتب عليه من عواقب وخيمة سبق أن ذكرناها فى الفصل السابق، هو حبّ الدنيا والتعلق بزخارفها وزبارجها. فعندما تتقد نار هذا الحب الدنيوى فى أعماق الإنسان فسوف تقوده إلى أنواع الحرص والولع بالنسبة إلى المواهب المادية والدنيوية من قبيل سائر أنواع العشق الّذى يغطى على فكر الإنسان وعقله ويسوقه يوماً بعد آخر إلى السقوط فى لجّة التلوث بالخطايا والالتصاق بالعالم السفلى. ولهذا السبب فإنّ القرآن الكريم ومن أجل قطع جذور الحرص والولع قد تحرّك فى آياته الكريمة من موقع ذمّ حبّ الدنيا والافراط فى التوغل فى ملذاتها والتشبّث بزخارفها والّذى يمثل الجذور الأصلية للحرص والطمع فى بُعدهما السلبى، ونقرأ فى المفاهيم القرآنية تعبيرات مختلفة تحط من قدر الدنيا وقيمتها لكى يخفف ذلك من حب أهل الدنيا لها ويتحركوا بعيداً عن أجوائها ويتخلصوا بذلك من الحرص والطمع ولا يضحوا بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية على مذبحها. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحى من تعبيراتها الدقيقة ما يضىء لنا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۹۲ الطريق لدراسة هذه المبادئ والمواقف الأخلاقية المهمة: ۱- إنّ القرآن الكريم يرى أنّ الدنيا ما هى إلّالعب ولهو كما يلهو ويلعب الأطفال، وقد ورد وصف ذلك فى آيات متعددة، ففى قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...» «۱». وفى آية اخرى قوله تعالى «اعْلَمُوا انَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْامْوَالِ وَالْاوْلَادِ ...» «۲». وفى الحقيقة أنّ هذه الآيات الكريمة تشبّه أصحاب الدنيا بأنّهم كالأطفال الّذين يعيشون الغفلة والجهل عمّا يدور حولهم ولا همّ لهم إلّاالاشتغال بالتوافه والسفاسف من الامور فلا يرون حتّى الخطر القريب المحدق بهم. بعض المفسّرين قسّم حياة الإنسان إلى خمس مراحل (من الطفولة إلى أن يبلغ مرحلة الكهولة فى سن الأربعين) وذكر أنّ لكلّ مرحلة ثمان سنوات وقال: إنّ السنوات الثمانية الاولى من عمر الإنسان هى مرحلة اللعب، والسنوات الثمانية الثانية هى مرحلة اللهو، والسنوات الثمانية الثالثة حيث يعيش الإنسان فى فترة الشباب فإنه يتجه إلى الزينة والالتذاذ بالجمال، والسنوات الثمانية الرابعة يقضى وقته وطاقاته فى التفاخر، وأخيراً فى السنوات الثمانية الخامسة يهتم بالتكاثر فى الأموال والأولاد، وهنا يثبت شخصية الإنسان ويستمر على هذه الحالة إلى آخر عمره، وبالتالى فإنّ أصحاب الدنيا لا يبقى لهم مجال للتفكر فى الحياة المعنوية والقيم

الإنسانیة السامیة. ۲- ومن الآیات الاخری فی هـذا المجال نری مفهوم «متاع الغرور» بالنسبة إلی الحیاة الدنیا حیث یقول تعالی «... وَمَا الْحَیَاةُ الدُّنْیا الّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۳ ویقول فی مکان آخر «... فَلَا تَغُرَّنَکُمُ الْحَیَاةُ الـدُّنْیا وَلَا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّه الْغَرُورُ» «۱». وهـذه التعبیرات تـدلّ علی أنّ زخـارف الـدنیا وبریقهـا الخادع یُعـد أحـد الموانع المهمـة للتکامل المعنوی والصـعود فی درجات الکمال الإلهی للإنسان وما دام هـذا المانع موجوداً فإنه لا یصل إلی شـیء من هـذه الکمالات المعنویـة. إنّ الحیاة الدنیا مثلها کمثل السـراب الّذی یجـذب العطاشـی نحوه فی الصـحراء المحرقـة ولکنهم لا یحصـلون علی شـیء منه أخیراً، وهکذا حال التعلقات المادیـة الدنیویـة فإنّها تجـذب أصـحاب الـدنیا نحوها طمعاً فی إرواء ظمأهم وعطشـهم إلّاأنّهم لا یجـدون ما یطلبونه فی هـذا المسیر المنحرف بـل یزدادون ظمـأً وحُرقـة، وکمـا أنّ السـراب یبتعـد عن الإنسـان کلّما مشـی نحوه وهکـذا یظل یرکض وراء السراب حتّی یهلـک، فکـذلک الـدنیا تبتعـد عن الإنسـان کلّمـا اتّجه نحوها فتزیـده عطشاً لها وارهاقاً حتّی یهلک. ونری هـذه الحالـة فی الکثیر من أصـحاب الدنیا الّذین یرکضون وراء متاع الدنیا وزخارفها سـنوات مدیدة من عمرهم وعندما یحصـلوا علی شـیء منها فانهم یصرّحون بأنّهم لم یجدوا ضالّتهم إلّاوهی (الهدوء النفسی والطمأنینة الروحیة) بل یعیشون الجفاف الروحی أکثر ویجدون أنّ ملذات الحیاة الدنیا تقترن دائمـاً مع الاـشواک والمنغصـات وبـدلًا من أن تورثهم الهـدوء والطمأنینـة فإنّهـا تعمـل علی إذکاء حالـة القلق والإضـطراب فی جوانحهم وأعماق وجودهم وبـذلک لا یجدون مبتغاهم فیها. ۳- وهناک طائفـة اخری من الآیات الکریمة الّتی تقرر لنا هذه الحقیقة، وهی أنّ الانجذاب نحو زخارف الدنیا وزبارجها یؤدی إلی أن یعیش الإنسان الغفلة عن الآخرة، أی أن یکون الشـغل الشاغل له وهمه الوحیـد هو تحصـیل هـذه الزخارف الخادعـة، فتقول الآیـة الشـریفة: «یَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَیَاةِ الـدُّنْیا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» «۲». الاخلاـق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۴ فهؤلاء یجهلون حتّی الحیاة الـدنیا أیضاً وبـدلًا من أن یجعلونها مزرعـة الآخرة وقنطرة للوصول إلی الحیاة الخالـدة ونیل المقامات المعنویـة ومیـداناً لممارسـة السـلوکیات الّتی تصـعد بهم فی سُلّم الفضائل الأخلاقیـة ومدارج الإنسانیة، یتخـذون الـدنیا بعنوان انهـا الهـدف النهائی والمطلوب الحقیقی والمعبود الواقعی لهم، ومن الطبیعی أنّ مثل هؤلاء الأشـخاص یعیشون الغفلـة عن الحیاة الاخری. ویقول القرآن الکریم فی آیـة اخری: «ارَضِـیتُمْ بِالْحَیَاةِ الـدُّنْیا مِنَ الْآخِرَةِ»» ثمّ تضـیف الآیـة «فَمَا مَتَاعُ الْحَیَاةِ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ الّا قَلِیلٌ» «۲» أجل فإنّ الأشـخاص الّذین یعیشون ضیق الافق ومحدودیة الفکر فانهم یرون الدنیا کبیرة وواسعة وخالدة وینسون الحیاة الاخری الأبدیـة الّتی قرّرها اللَّه تعالی لحیاة الإنسان الکریمة والملیئة بالمواهب الإلهیة والنعیم الخالد. ۴- ونقرأ فی قسم آخر من الآیات الکریمـة أنّ الـدنیا هی (عرض) علی وزن (غرض) بمعنی الموجود المتزلزل والّـذی یعیش الاهتزاز والتغیر والتبدل فی جمیع جوانبه وحالاـته، ومن ذلـک قوله تعـالی «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیَـاةِ الـدُّنْیا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ کَثِیرَةٌ» «۳». وتقول الآیـات فی مکـان آخر مخاطبـة لأصـحاب النبی الأکرم «... یُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیا وَاللَّهُ یُرِیدُ الْآخِرَةَ ...» «۴». وفی آیات اخری نجـد هذا التعبیر أیضاً حیث یدلّ علی أنّ جماعـة من المسـلمین أو غیر المسـلمین وبـدافع من الحرص والطمع ترکوا الاهتمام بالمواهب الإلهیـة الخالدة والحیاة الاخری والقیم الإنسانیة العالیة واشـتغلوا فی جمع زخارف الدنیا الزائله واشـباع الملذات الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۵ الرخیصة فی حرکة الحیاة الـدنیا. أجل فان النعمة الحقیقیة هی ما عند اللَّه تعالی وما بقی فکلها (عرض) یقبل الزوال والاندثار. وهذا التعبیر هو فی الحقیقة انـذار لجمیع طلاـب الـدنیا بـأنّهم ینبغی علیهم الاهتمـام بمـا لـدیهم من طاقات ورأس مال عظیم وبإمکانهم اسـتخدامها فی سبیل حیاة کریمـة وخالدة فلا یضـیعونها فی الامور الرخیصة والزائلة. ۵- ونقرأ فی قسم آخر من الآیـات التعبیر عن المواهب المادیـة بأنّهـا «زِینَةُ الْحَیَاةِ الدُّنْیا» «۱». ووردت تعبیرات مشابهـة لهـذه الآیـة فی آیات اخری أیضاً فی قوله (مَنْ کَانَ یُرِیـدُ الْحَیَاةَ الـدُّنْیا وَزِینَتَهَا نُوَفِّ الَیْهِمْ اعْمَالَهُمْ فِیها وَهُمْ فِیهَا لَایُبْخَسُونَ» «۲». وفی مکان آخر یخاطب القرآن الکریم نساء النبی صلی الله علیه و آله ویقول: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِازْوَاجِکَ انْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیَاةَ الـدُّنْیا وَزِینَتَهَا فَتَعَالَیْنَ امَتِّعْکُنَّ وَاسَرِّحْکُنَّ سَـرَاحاً جَمِیلًا» «۳». وهـذه التعبیرات توضح بصورة جیدة أنّ هذا البریق لزخارف الحیاة الدنیا ما هو إلّازینة للحیاة المادیة، وبدیهی أنّ الإنسان لا یُعبّر عن الامور الحیاتیة والمصیریة بتعبیر (زینة) أو (زینـة الحیاة الـدنیا) أی الحیاة السـفلی والتافهـة. ومن الجـدیر بالـذکر انه حتّی أنّ مفهوم (الزینة) نجده فی آیات اخری مبنیاً للمجهول

حیث ورد تعبیر (زُیّن) وهـذا یـدلّ علی أنّ هـذه الزینـة غیر حقیقیـة بل خیالیـة ووهمیة. مثلًا نقرأ فی سورة البقرة الآیة ۲۱۲ قوله تعالی: «زُیِّنَ لِلَّذِیـنَ کَفَرُوا الْحَیَاةُ الـدُّنْیا ...». ونقرأ فی سـورة آل عمران الآیـة ۱۴ قـوله تعـالی: «زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِینَ وَالْقَنَاطِیرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۶ هـذه التعبیرات وتعبیرات اخری مماثله تشیر إلی أنّه حتّی مفهوم (الزینـة) فی مثل هـذه الموارد ما هی إلّازینـة وهمیـة وخیالیـة حیث یتوهم الناس من طلاب الدنیا انها زینة حقیقیة وواقعیة. وهنا یتبادر سؤال مهم، وهو انه لماذا جعل اللَّه تعالی مثل هذه الامور زینة فی أنظار الناس؟ ومن المعلوم أنّ الدنیا إنما جُعلت لتربیة الإنسان واختباره وامتحانه لأن الإنسان إذا ترک مثل هـذه الزینـة الجمیلة والخادعة والّتی تکون مقرونة بالحرام والإثم غالباً من أجل اللَّه تعالی والسیر فی خط التقوی والإیمـان فـإنّ ذلک من شأنه أن یعمق فی نفسه روح التقوی والقیم الأخلاقیـة ویصـعد به فی مـدارج الکمال المعنوی وإلّا فإنّ صرف النظر عن هذه الامور المخادعة بمجرّده لا یُعدّ افتخاراً ومکرمة للإنسان. وبعبارة أدق فإنّ التمایلات والرغبات الباطنیـة والأهواء النفسانیـة تزین للإنسان الامور المادیـة بزینـة جمیلـة لکی تـدعوه إلی ارتکاب الاثم وممارسة الحرام، وعلیه فإنّ هذه الزینة تنبع من ذات الإنسان ومن باطنه، وعندما نری فی الآیات الکریمة نسبة التزین إلی اللَّه تعالی فذلک بسبب أنّ اللَّه تعالی هو الّذی خلق هذه التمایلات والرغبات والأهواء الطاغیة، وعندما نقرأ فی بعض الآیات نسبتها إلی الشیطان الرجیم فی قوله تعالی: «... وَزَیِّنَ لَهُمُ الشَّیْطَانُ اعْمَالَهُم ...» «۱» فـذلک بسـبب أنّ عملیـة التزیین هـذه بالرغم من انها من جهة منسوبة إلی اللَّه تعالی بسـبب القانون العام فی عالم الخِلقة، إلّاأن إتّباع هذه الأهواء والشـهوات من جهة هو عمل الشـیطان الرجیم الّذی یسوّل للإنسان هذه الامور الخاطئة لیوقعه فی الاثم والـذنب. وعلی أیّـة حال فإنّ المسـتفاد من مجموع الآیات المـذکورة أعلاه أنّ «حبّ الـدنیا» إذا اسـتقر فی قلب الإنسان وبصورة مفرطة فإنه سیؤدی به إلی الابتعاد عن اللَّه تعالی والغفلة عن الآخرة.

حبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیة:

وقـد ورد ذمّ الـدنیا وحبهـا فی الروایات الإسـلامیة کثیراً ولاسـیّما ما ورد فی کلمات النبی الأکرم وخطب نهـج البلاغـة بصورة واسـعة ومفصّلة ومن ذلک: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عندما سُئل عن سبب تسمیة الدنیا بالدنیا فقال «لِانَّ الـدُّنْیا دَنِیَّةٌ خُلِقَتْ مِنْ دُونِ الْآخِرَةِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أیضاً أنّه قال: «اکْبَرُ الْکَبَائِرِ حُبُّ الدُّنْیَا» «۲». ۳- ونفس هـذا المعنی ورد فی کلمـات أمیرالمؤمنین حیث قال: «حُبُّ الـدُّنْیا رَأْسُ الْفِتَنِ وَاصْلُ الْمِحَنِ» «۳». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر أیضاً عن الإمام علی علیه السـلام قوله: «انَّ الدُّنْیا لَمُفْسِدَةُ الدِّینِ وَمُسْلِبَةُ الْیَقِینِ» «۴». ۵- وورد فی حدیث آخر عن الإمام الصـادق علیه السـلام أنّه قـال: «انَّ اوَّلَ مَا عُصِیَ اللَّهُ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الـدُّنْیَا وَحُبُّ الرِّئَاسَـةِ وَحُبُّ الطَّعَامِ وَحُبُّ النَّوْمِ وَحُبُّ الرَّاحَـةِ» «۵». واغلب هـذه الامور الستـة أو جمیعها نجدها متوفرة فی قصة طغیان الشـیطان الرجیم ومعصـیته وترک الأولی لآدم ومعصـیة قابیل، ولذا ذُکرت بأنّها أول الخطایا والمعاصی. ۶- ونقرأ فی حدیث آخر أنّه سـئل الإمام علی بن الحسین علیهما السلام: «ایُّ الْاعْمَالِ افْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟» قال: «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِ افْضَلُ مِنْ بُغْضِ الدُّنْیَا وَانَّ لِذَلِکَ لَشُعَباً کَثِیرَةً وَلِلْمَعَاصِی شُعَباً». ثمّ یذکر الإمام علیه السلام اصول المعاصی الثلاث وهی «الکبر» لدی إبلیس، و «الحرص» الّذی سبب فی اخراج آدم وحواء من الجنة، و «الحسـد» الّذی دفع قابیل لأن یقتل أخاه، ثمّ أضاف: «فتشـعب من ذلک حبّ النساء وحبّ الـدنیا وحبّ الرئاسة وحبّ الراحة وحبّ الکلام وحبّ العلو والثروة، فصـرن سـبع خصال، فاجتمعن کلهنّ فی «حبّ الـدنیا» فقال الأنبیاء والعلماء بعـد معرفـة ذلک: «حبّ الـدنیا رأس کلّ خطیئة». ثمّ إنّ الإمام ومن أجل التمییز بین الدنیا الممدوحة والمذمومة ذکر فی نهایة الحدیث «وَالدُّنْیَا دُنْیَا بَلَاغٍ وَدُنْیَا مَلْعُونَةٌ» «۱». ۷- ونقرأ فی حـدیث آخر عن الإمام علی بن أبی طالب قوله «ارْفُضِ الدُّنْیَا فَانَّ حُبَّ الدُّنْیَا یُعمِی وَیُصِمُّ وَیُبْکِمُ وَیُذِلُّ الرِّقَابَ» «۲». ومن الطبیعی انه عندما یتجذر العشق لشـیء من الأشیاء فی وجود الإنسان فانه یجعله غافلًا عن أوضح الأشیاء، فتراه یتمتع بعین ولکنه لا یری الوقائع، وله اذن ولکنه لا یسمع، وله لسان ولکنه لا یتحرّک إلّابما یهیم فی قلبه من العشق لذلک الشیء، فتراه ومن أجل الوصول

إلى محبوبه أى الدنيا فانه مستعد لأنّ يخضع إلى كلّ ذلة ومهانة. ۸- وأيضاً نقرأ فى الحديث الشريف بالنسبة إلى بيان الموارد السلبية لحبّ الدنيا قول أميرالمؤمنين عليه السلام فى الحكمة من هذا الحكم الإلهى «حُبُّ الدُّنْيَا يُفْسِدُ الْعَقْلَ، وَيُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سُمَاعِ الْحِكْمَةِ وَيُوجِبُ الِيمَ الْعِقَابِ» «۳». ۹- ونقرأ فى حديث آخر فى بيان الآثار الضارة والمفاسد الكثيرة لحبّ الدنيا ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ الدُّنْيَا مُشْغِلَةٌ لِلْقُلُوبِ وَالْابْدَانِ» «۴». ۱۰- ونختم هذه البحث بحديث شريف آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو: «انَّهُ مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ الّا الْتَاطَ بِثَلَاثٍ: شُغْلٍ لَايُنْفَدُ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٌ لَايُدْرَكُ غِنَاهُ، وَأمَلٍ لَايَنَالُ مُنْتَهَاهُ» «۵».

الدنيا المطلوبة والدنيا المذمومة:

قلنا كراراً أن المقصود من حبّ الدنيا فى هذا البحث هو ما يساوى العشق للدنيا لا الاستفادة المعقولة من المواهب المادية والطبيعية للتوصل بها إلى الكمال المعنوى فإنّ ذلك ليس من حبّ الدنيا قطعاً بل من حبّ الآخرة، وبعبارة اخرى أنّ الكثير من البرامج المعنوية للسير فى خطّ التكامل الإنسانى لا تتسنّى بدون الامكانات المادية، وفى الواقع أنّ هذه الامكانات المادية من قبيل مقدمة الواجب الّتى إذا أتى بها الإنسان بنيّة مقدمة الواجب، فمضافاً إلى أنّها لا تكون عيباً فإنّها تكون مشمولة بالثواب الإلهى أيضاً. ولهذا السبب نجد فى الآيات القرآنية الكثيرة تعبيرات ايجابية عن مواهب الدنيا، ومن ذلك: ما ورد فى آية الوصية من التعبير عن مال الدنيا به «خير» أى الخير المطلق حيث تقول الآية: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ اذَا حَضَرَ احَدَكُمُ الْمَوْتُ انْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْاقْرِبينَ بِالْمَعْرُوفِ» «۱». ۲- ويقول فى مكان آخر «بركات السماء والأرض» عن مواهب الطبيعة الّتى فتحها اللّه تعالى للمؤمنين وذلك فى قوله تعالى: «وَلَوْ انَّ اهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْارْضِ ...» «۲». ۳- ونقرأ فى مكان آخر التعبير عن المال والثروة بأنّها «فضل اللّه» كما ورد فى سورة الجمعة: «فَاذَا قُضِيَتِ الصَّلَوةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْارْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ...» «۳». ۴- وفى آية اخرى ورد أنّ كثرة الأموال والثروات بأنّها ثواب من اللّه تعالى للتائبين كما ورد فى قصة نوح: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِامْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ انْهَاراً» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۰ وفى مكان آخر يقرر أنّ الأموال هى وسيلة للحياة ومحور للنشاطات الدنيوية للأقوام البشرية وتؤكد الآيات على عدم وضعها بيد السفهاء وتقول: «وَلَاتُؤْتُوا السُّفَهَاءَ امْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً» «۱». ۵- وفى مورد آخر يتحدّث القرآن الكريم عن وعد اللّه تعالى للمجاهدين فى سبيله بالغنائم الكثيرة ويعدها من أنواع الثواب الإلهى لهم ويقول: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ...» «۲». ۶- وفى موضع آخر من الآيات القرآنية الكريمة يتحدّث القرآن عن النعم المادية الدنيوية ويعبّر عنها ب (الطيبات) كما نقرأ فى سورة الأعراف الآية ۳۲ قوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى اخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...». وفى مورد آخر يقول: «وَاذْكُرُوا اذْ انْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْارْضِ تَخَافُونَ انْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَايَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ» «۳». هذه التعبيرات العميقة وأمثالها من تعبيرات القرآن الكريم يُستفاد منها جيداً أنّ المواهب المادية والدنيوية فى ظلّ ظروف خاصّة وأجواء متناسبة ليست فقط غير مطلوبة بل هى طيبة وطاهرة وباعثة على طيب البشر وطهارتهم. ۷- ونقرأ فى آيات اخرى عبارات تقرر أنّ الامكانات المادية مضافاً إلى انها من فضل اللّه على الإنسان يمكنها أن تكون سبباً للصعود بالإنسان إلى مرتبة الصالحين كما ورد فى الآية ۷۵ من سورة التوبة: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ». هذه الآية الشريفة وبالنظر إلى شأن نزولها كما ورد فى التفاسير انها نزلت فى أحد الأنصار يُدعى «ثعلبة بن حاطب» الّذى طلب من النبى صلى الله عليه و آله أن يدعو له بكثرة المال لينفق الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۱ منه فى سبيل اللّه وليكون من الصالحين ففى البداية لم يستجب النبى لطلبه لما يعرف من مزاجه وروحيته ولكن بعد إصراره دعا له النبى بذلك وكانت النتيجة معروفة، فهذه الآية توضح على أنّ الامكانات المادية يمكنها أن تكون وسيلة للصعود بالإنسان فى مدارج الكمال المعنوى ونيل السعادة الحقيقية والوصول إلى مرتبة الصالحين والمقربين. ومن مجموع العناوين السبعة الواردة بالآيات أعلاه يتضح جيداً أنّ النعم المادية والمواهب الدنيوية ليست مذمومة وقبيحة بالذات بل هى تابعة لكيفية استخدامها

واستعمالها والطريقة الّتى يسلك بها الإنسان فى الاستفادة منها، فلو انه استفاد منها بصورة صحيحة لأضحت مطلوبة وجميلة ونقيّة وطاهرة، وفى غير هذه الصورة فهى ذميمة وسلبية ومضرّة. والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الروايات الكثيرة فى كتاب وسائل الشيعة فى باب (اسْتِحْبَابُ الاستِعَانَةِ بِالدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ) «۱». وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملى فى هذا الباب إحدى عشر رواية كلّها شاهدة على انه يمكن الاستفادة من المواهب المادية والدنيوية فى سبيل تحقيق السعادة الأُخروية ومن جملة ما أورده العاملى حديثاً عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْغِنَى» «۲». وفى حديث آخر فى هذا الباب عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «غِناً يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ عَلَى الْاثْمِ» وورد فى حديث آخر عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال للإمام: واللّه إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال عليه السلام: «تحبّ أن تصنع بها ماذا؟» قال: أعود بها على نفسى وعيالى، وأصل بها وأتصدق بها وأحجّ وأعتمر، فقال أبو عبداللّه عليه السلام: «ليس هذا طلب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۲ الدنيا، هذا طلب الآخرة» «۱». ونختم هذا البحث بكلام لأميرالمؤمنين فى الخطبة ۲۰۹ من نهج البلاغة حيث يقول عندما دخل مع جماعة لعيادة «العلاء بن زياد الحارثى» وهو من الشخصيات المعروفة فى البصره ومن أصحاب الإمام حيث كان قد اشترى داراً وسيعة فقال له الإمام «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيا وَانْتَ الَيْهَا فِى الْآخِرَةِ كُنْتَ احْوَجُ». ثمّ إنّ الإمام أكمل كلامه بهذه العبارة «وَبَلَى انْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تُقْرِى فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ» «۲» النتيجة: هى أنّ المواهب المادية والدنيوية متى ما أصبحت وسيلة للوصول إلى الكمال المعنوى وبناء الآخرة ومساعدة الضعفاء وحماية المحرومين وترويج وتقوية دعائم الحقّ والعدالة فليس هناك أفضل منها، وإذا سلك بها الإنسان فى مسير الذنوب والحرص والتكاثر بدون ملاحظة الحلال والحرام فليس هناك شىء أسوء منها، أجل فمثل هؤلاء الناس من أتباع الدنيا الّذين يتحركون فى استخدام هذه النعم والمواهب فى طريق اشباع الغرائز المادية فإنّهم يجمعون فى واقعهم النفسانى مجموعة من الصفات الرذيلة والرغبات القبيحة والدنيئة. ويروى أحد أصحاب الإمام على بن موسى الرضا ويُدعى محمّد بن إسماعيل بن بزيغ حيث يقول: سمعت من الإمام الرضا أنّه قال: «لَا يَجْتَمِعُ الْمَالُ الّا بِخِصَالٍ خَمْسٍ بِبُخْلٍ شَدِيدٍ وَامَلٍ طَوِيلٍ وَحِرْصٍ غالبٍ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَايثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» «۳».

الحسد

تنويه:

إن أحد الرذائل الأخلاقية الاخرى الّتى اقترنت مع نتائج سلبية كبيرة فى حياة الفرد والمجتمع هى صفة (الحسد) ويعنى كما ذكر علماء الأخلاق (الحزن على رؤية النعمة لدى الآخرين وتمنى زوالها بل السعى فى طريق رفعها عن الطرف الآخر). إن الحسد يملأ أجواء الروح الإنسانية بالظلمة ويشوّه معالم النفس ويثير فى المجتمع البشرى عدم الأمن والقلق والتوتر الناشىء من حالات الصراع النفسى بسبب دوافع الحسد. إنّ الحسود ليس له راحة فى الدنيا ولا يتنعم فى الآخرة، وبما أنّ سعيه فى حركة الحياة هو إزالة آثار النعمة عن الطرف المحسود فسوف يتلوث بأنواع الجرائم النفسية والعملية ومن بين ذلك: الكذب، الغيبة، ارتكاب أنواع الظلم والعدوان بل قد يؤدى به الأمر فى حالات الحسد الشديدة إلى القتل وسفك الدماء أيضاً. وفى الحقيقة يمكن القول إن الحسد هو أحد الجذور الأصلية لجميع أنواع الفساد والسيّئات ومن أشنع فخاخ الشيطان وأخطر شراكه وهو المصيدة الّتى وقع فيها الإنسان الأوّل المتمثل بابن آدم (قابيل) حيث تلوثت يده بدم أخيه (هابيل) بدافع من الحسد، ولهذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۴ السبب نجد فى الروايات الإسلامية والمفاهيم الدينية أنّ الحسد يُعد أحد الاصول الثلاثة للكفر أى (التكبر، الحرص، الحسد). إنّ الشخص الحسود فى الواقع يعترض على حكمة اللّه تعالى، ولهذا السبب فالحسد نوع من الكفر والشرك الخفى. والنقطة المقابلة للحسد هو (حب الخير)

للآخرين، أى أن يحب الإنسان أن يرى نعمة اللَّه تصيب الآخرين من أفراد المجتمع ويلتذ بذلك ويسعى لحفظها ويرى أنّ سعادته مقرونة بسعادة الآخرين ومصالحه فى خط واحد مع مصالح الآخرين ومنافعهم. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنقرأ فى أجوائها معطيات هذه المسألة: ١- «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ ا لْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَ نَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ ا لْعَلَمِينَ* إِنّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَا لِكَ جَزَا ؤُاْ ا لظَّلِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ» «١». ٢- «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا ابَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سجِدِينَ* قَالَ يَابُنَىَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». «٢» ٣- «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ ا لْكِتَابَ وَا لْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيما» .۴- «وَدَّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ ا لْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۵ ۵- «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «١» ۶- «وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» «٢» ٧- «وَنَزَعْنَا مَافِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» «٣».

تفسير واستنتاج:

نار الحسد المحرقة

«الطائفة الاولى من الآيات محل البحث تتحدّث عن قصة ابنى آدم وأنّ أحدهما قد ملكه الحسد على الآخر بحيث أدّى به إلى أن يقتل أخاه، وبذلك وقعت أوّل جريمة قتل على الأرض وكانت فى الحقيقة بداية للجرائم البشرية الاخرى. تقول الآية الكريمة «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ ا لْمُتَّقِينَ» «۴». أى اننى لم أقصد أن اسىء إليك لتصمّم على قتلى فإنّ مشكلتك هى من باطنك لأنّ عملك غير خالص ولم يقترب بالتقوى، ولذلك لم يتقبل اللَّه منك لأن اللَّه تعالى لا يتقبل إلّا ما كان طاهراً نقياً. ثمّ تقول الآية «لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَ نَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ ا لْعَلَمِينَ» «۵». ثمّ إن قابيل وبسبب نار الحقد والحسد المتأججة فى قلبه صمّم على قتل أخيه هابيل وتمزيق أواصر الاخوّة بينهما بحيث إنّ الحقد والحسد حجبا عن عينه كلّ القيم الأخلاقية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۶ والمثل الإنسانية وارتكب تلك الجناية الشنيعة كما تقول الآية «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ» «١». أجل لقد أصبح من الخاسرين فى الدنيا والآخرة، فقد خسر اخوه وخسر نعمة الأمن والاستقرار النفسى والهدوء الروحى، لأن القاتل لو بقيت له ذرة من الوجدان فسوف يعيش عذاب الوجدان باستمرار ولا يجد طعم الهدوء والراحة فى الدنيا، وكذلك حاله فى الآخرة حيث يستقر فى جهنم وبئس المصير. وقد ورد فى الروايات انه قتل أخاه وهو نائم «٢»، وتُعد هذه جناية مضاعفة تدلّ على أنّ الحسد إذا ما استعر فى قلب الإنسان فسوف يحول كلّ نعيم إلى رماد تذروه الرياح. ولكنّ قابيل ندم بسرعة على فعلته الشنيعة وملكهُ الحزن العميق، وكلّما نظر إلى جسد أخيه الدامى سرت فى نفسه قشعريرة وتملكه الخوف والقلق، فما كان منه إلّاأن حمل جسد أخيه ولم يعلم ما يصنع به واين يذهب به بحيث يغطى على آثار جنايته؟ مضافاً إلى أنّ هذا المنظر الموحش يقلقه ويزعجه فلم يكن يدرى ما يصنع فى هذه اللحظة، وعلى رغم جنايته العظيمة وذنبه الكبير فإنّ لطف اللَّه قد شمله كما تقول الآية «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَا رِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا ا لْغُرَابِ فَأُوَا رِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» «٣». وقد جاء فى بعض الروايات أنّ قابيل رأى أمام عينه غرابين يتقاتلان فقتل أحدهما الآخر ثمّ حفر له حفرة فى الأرض ودفن فيها جسد الغراب المقتول. وقال بعض إن غراباً جاء بجسد غراب ميت ودفنه، وقيل أيضاً أنّ قابيل رأى غراباً يدفن بعض المواد الغذائية ليحفظها كما هو ديدن الغربان فتعلم من ذلك دفن الموتى «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۷ وعلى أيّة حال فقد ندم قابيل بشدة ولكن ندمه لم يكن

مستقراً ومن موقع التوبة والانابة إلى اللَّه تعالى حتّى يكون من شأنه تطهيره من الذنوب. وهنا يطرح سؤالان، الأوّل: ما المقصود من «القربان» فى قوله تعالى «إذ قرّبا قرباناً»؟ والآخر: هو انه من اين عَلِما أنّ اللَّه تعالى تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل؟ ولم يرد فى القرآن الكريم ما يشير إلى جواب عن هذين السؤالين، واما الروايات فهى مختلفة على مستوى السند أو المتن والدلالة، ولكن ما يتطابق مع المنطق والعقل ويتلائم مع القرائن الموجودة هو ما ورد فى الرواية عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام جعلت فداك إن الناس يزعمون أنّ آدم زوج ابنته من ابنه؟ فقال أبو عبداللَّه عليه السلام: «قد قال الناس فى ذلك ولكن يا سليمان أما علمت أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لو علمت أنّ آدم زوج ابنته من ابنه لزوجت زينب من القاسم، وما كنت لارغب عن دين آدم. فقلت جعلت فداك إنهم يزعمون أنّ قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تغايرا على اختهما، فقال له: يا سليمان تقول هذا! أما تستحيى أنّ تروى هذا على نبى اللَّه آدم؟ فقلت: جعلت فداك فبم قتل قابيل هابيل؟ فقال: فى الوصية ثم قال لى: يا سليمان أنّ اللَّه تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم اللَّه الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر منه، فبلغ ذلك قابيل، فغضب فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية. فأمرهما أن يقربا قرباناً بوحى من اللَّه إليه، ففعلا فقبل اللَّه قربان هابيل فحسده قابيل فقتله» «۱». وعلى أيّة حال فإنّ قابيل وجد نفسه فى مفترق طريقين لإنهاء حالة القلق والإضطراب الّتى يعيش فيها: أحدهما التوبة إلى اللَّه تعالى والسعى لجبران ما صدر منه من الاثم بالعمل الصالح والخالص والتحرك فى خط التقوى والاستقامة والانفتاح على اللَّه (وهو العمل الّذى يسمّيه علماء الأخلاق ب «الغبطة» وهى حالة ممدوحة وبناءة) ولكن قابيل اختار الطريق الآخر، أى السعى لإزالة النعمة من أخيه، وبذلك أوقع نفسه فى أسوء طريق وانتخب أشنع وسيلة بذلك وتلوثت يده بدم أخيه البرىء ليطفىء نار الحسد فى قلبه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۸ إذا تسبب «تكبر» إبليس لأن يقع طريد رحمة اللَّه إلى الأبد، وتسبب «الحرص» فى أن يحرم آدم من الجنّة، فإنّ «الحسد» قد جعل قابيل ملعوناً ومطروداً من رحمة اللَّه إلى الأبد بسبب قتله لأخيه، وكلّ قتل يقع فى الدنيا فإنّ قابيل له سهم من تلك الجناية باعتباره المؤسس لها. فالتاريخ البشرى مليء بالجنايات والفجائع المختلفة الّتى تنطلق بدافع من (الحسد). «الطائفة الثانية» من الآيات الكريمة التى تحدثت عن جانب آخر من هذه الصفة الذميمة فى حالات الإنسان وهى «الحسد» وآثارها المدمرة فى حياة الفرد والمجتمع، وتستعرض فى ذلك قصة النبى يوسف واخوته. «النبى يوسف» لم يكن صاحب الجمال فى وجهه وملامحه البدنية فحسب بل كان يتمتع بمنتهى الجمال فى أخلاقه وسيرته الحميدة، وهذا الأمر هو الّذى اخبر عن مستقبله العظيم كما توقع له أبوه يعقوب وأحبه ذلك الحبّ الشديد، وكان هو السبب فى غرس عامل (الحسد) فى قلوب أخوته الّذين كانوا أكبر منه سناً. وهذا الموضوع تجلّى بوضوح عندما حكى يوسف لأبيه حلماً كان قد رآه حيث تقول الآية: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا ابَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سجِدِينَ» «۱». وكان النبى يعقوب يعلم أنّ مثل هذه الرؤيا ليست رؤيا عادية ومن افرازات الخيال للأطفال بل هى علامة على مستقبل مشرق ينتظر ابنه يوسف فقال له كما تتحدث الآية: «قَالَ يَابُنَىَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» «۲». ولكن هل أنّ اخوة يوسف علموا بمضمون رؤيا يوسف العجيبة الّتى تتحدّث عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۹ مستقبله الزاهر أم لا؟ لا نعلم بذلك على وجه الدقة، ولو أنّهم كانوا قد علموا بذلك لكانت هذه بمثابة البذرة الثانية لحالة (الحسد) الّتى اعتمرت قلوبهم، ولكن على أيّة حال فإنّ الأب كان يعلم انه إذا علم الاخوة بمضمون هذه الرؤيا العجيبة فانهم سوف يتحركون ضد أخيهم يوسف من موقع العداوة والخصومة، ولهذا أصرّ عليه بكتمان هذا الخبر عنهم. وجاء فى بعض الروايات أنّ يعقوب ومن فرط فرحه وسروره بهذه الرؤيا قد أخبر زوجته بذلك على أساس انها تكتم الخبر، ولكن بما أنّ السر إذا تجاوز الاثنين فشا، فإنّ هذه الحكاية انتشرت وعلم بها اخوة يوسف، وجاء فى رواية اخرى أنّ يوسف لم يستطع كتمان خبر هذه الرؤيا، (فتصوّر أن نهى أبيه هو نهى ارشادى لا نهى تحريمى) فعندما علم اخوته بخبر الرؤيا قالوا أنّ يوسف يطمح أن يكون ملكاً «۱». ولكن إذا لم يعلم الاخوة بخبر الرؤيا فانهم على الأقل كانوا يرون تعامل أبيهم مع يوسف وسلوكه الّذى ينبىء عن عظيم حبّه له وخاصة انه كان بقية امّه راحيل الّتى ماتت وهو فى طفولته. القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد «إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ

عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ» «۲». وبهذه الصورة اصدروا حکمهم بضلالة أبیهم، وبعد ذلک صمّموا علی رفع هذا المانع الکبیر، أی یوسف، من طریقهم لیبقی لهم حبّ أبیهم ومودّته، وضمن البحث فی (جلسة شیطانیة) قرروا ما یلی «اقْتُلُواْ یُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا یَخْلُ لَکُمْ وَجْهُ أَبِیکُمْ وَتَکُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِینَ» «۳». وکما نعلم انه لم یتم لهم قتل أخیهم یوسف بل قد توسّط أحد الاخوة فی ذلک وتم القرار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۰ بإبعاده إلی أرض بعیدة ومنطقة نائیة، وبالرغم من أنّ هذا النفی والتبعید لیوسف قد سبّب الحزن الشدید لأبیه یعقوب بحیث ابیضّت عیناه من الحزن وصار بصیراً من کثرة البکاء، ولکن هذا العمل وعلی خلاف توقع الاخوة اصبح مقدمة لینال یوسف مقام القدرة والسلطنة علی بلاد مصر الّتی کانت تعتبر من أعظم البلدان فی ذلک الزمان وکذلک لم یحظوا بحبّ أبیهم أیضاً. أجل فإنّ الامواج الخطیرة للحسد قویة وعظیمة إلی درجة أنّها دفعت الاخوة إلی قتل أخیهم وتسبّبت فی أن یحملوا أوزاراً کبیرة اخری منها الکذب وکتمان الجریمة ونسبت أبیهم إلی الضلالة واهانة نبی من الأنبیاء وأمثال ذلک. «الآیة الثالثة» تشیر إلی قصة الیهود وتتحدث عن سلوکیاتهم الذمیمة، ونعلم أنّ طائفة عظیمة من بنی إسرائیل قد قرأوا علامات النبی فی آخر الزمان ومنطقة ظهوره، فرحلوا من (الشامات) إلی (المدینة) لیحظوا بصحبة ذلک النبی ویؤمنوا به، ولذلک کانوا ینتظرونه دائماً. ولکن بعد ظهور هذا النبی فإنّ الکثیر منهم لم یبقوا علی تعهدهم والتزامهم المسبق بحمایته ونصرته والإیمان به، بل أصبحوا فی صف المخالفین له والمحاربین لدعوته، والسبب الأهم فی ذلک هو عنصر «الحسد» والآخر هو ماتوهموا من وقوع منافعهم ومصالحهم فی الخطر. القرآن الکریم یتحدّث لنا عن هذه الحالة للیهود فیقول «أَمْ یَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَی مَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَیْنَآ آلَ إِبْرَاهِیمَ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَآتَیْنَاهُم مُّلْکًا عَظِیمًا» «۱». أجل فإنّ المشیئة الإلهیة قد تعلقت فی أن یملک آل إبراهیم والّذین کان الیهود من ذریتهم وأن تکون لهم النبوة والعلم، ولکن المشیئة الإلهیة قررت فی زمان لاحق أن تتعلق النبوة والعلم بمحمّد وآله الکرام وکلّ ذلک وفقاً للمصالح الّتی تتعلق بها المشیئة الإلهیة، فهل أنّ الیهود کانوا یقبلون أن یحسدهم الناس علی ما آتاهم اللَّه من فضله فی الزمان السالف؟ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۱ إذن فلماذا استعرت فی قلوبهم نیران الحسد عندما یرون أنّ نعمة اللَّه قد صارت من نصیب آخرین وبذلک تحرکوا فی خط الباطل. «الآیة الرابعة» تتحدّث عن طائفة من أهل الکتاب الّذین یتعاملون مع المسلمین من موقع الحسد، والظاهر انها ناظرة إلی الیهود وتقول «وَدَّ کَثِیرٌ مِّنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَوْ یَرُدُّونَکُم مِّن بَعْدِ إِیمَانِکُمْ کُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَاتَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» «۱». إن الحسد قد یصل بالإنسان إلی درجة أن لا ینحصر تأثیره فی الامور المادیة مورد التنازع بین الناس عادة فحسب بل قد یتجاوز ذلک إلی الامور المعنویة الّتی لا تتزاحم بطبعها فی تواجدها بین أفراد البشر کافة بخلاف حال الامور المادیة الّتی تتزاحم بالذات بین الأفراد، وهؤلاء یحسدون المؤمنین من موقع العناد والاصرار ویسحقون علی سعادتهم ویدیرون ظهورهم للحقّ بسبب امور موهومة، ونفس هذا الحسد یتسبّب أن یضعف فی الآخرین أیضاً الدافع لسلوک طریق السعادة والتحرّک فی خط الإیمان والتقوی، وهذا من عجائب الحسد. وقد ذکر الکثیر من المفسّرین أنّ جملة «حَسَداً مِنْ عِنْدِ انْفُسِهِمْ» إشارة إلی أنّ العامل لهذه الحالة فی نفوسهم هو عنصر الحسد المتجذر فی باطنهم والّذی یتفرع من جهلهم وعدم اطلاعهم علی حقائق الامور بل حتّی بعد اطلاعهم علی الحقیقة یسلکون هذا المسلک المنحرف کما تقول الآیة بعد ذلک «مِّن بَعْدِ مَاتَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ». ولکنّ القرآن الکریم یخاطب المسلمین من موقع الأمر إلی أن یترکوا هؤلاء الحسّاد لحالهم (لأن نار الحسد المستعرة فی قلوبهم هی أفضل جزاء لهم) ولکن لا یتصوروا أنّ هذا العفو والصفح من قِبل المسلمین یستمر إلی ما لا نهایة وأنّهم أحرار فی سلوک أیّ عدوان واضرار بالآخرین، کلّا. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۲ إنّ الزمان سوف یُثبت علی انّ العذاب الإلهی سوف یُحیط بهؤلاء المنحرفین والظالمین إما فی الدنیا بواسطة جیش الحقّ فیعذبهم اللَّه ویریهم جزاء مؤامراتهم الخبیثة وممارساتهم المنحرفة تجاه أصحاب الحقّ، أو یذیقهم العذاب فی الآخرة. وعلی أیّة حال فهذه الآیة تشیر إلی أنّ المسلمین الّذین اعتنقوا الإسلام حدیثاً علیهم أن لا یستسلموا لوساوس الیهود وغیرهم من المنحرفین وقوی الضلال لأنهم ینطلقون فی تعاملهم مع المسلمین من موقع الحسد ولا یریدون سعادتهم بل یتألمون لما یروا من سعادة المسلمین فی ظلّ التقوی

والإيمان. «الآية الخامسة» وهى الآية الخامسة من سورة الفلق تشير إلى شرّ الحاسدين وتخاطب النبى بأن يتعوذ باللّه تعالى من شرّ كلّ حاسد وتقول «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «۱». وفى بداية هذه السورة تخاطب النبى بالقول «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ ا لْفَلَقِ* مِن شَرّ مَا خَلَقَ». ثمّ تقسم المخلوقات الشريرة إلى ثلاثة أقسام وتقرر أنّ أساس الشرّ والعامل الأصلى له فى العالم هى هذه الامور الثلاثة: الأوّل: المخلوقات الشريرة الّتى تستغل ظلمة الليل وتهجم على الإنسان فى حال نومه ويقظته، والتعبير بكلمة (غاسق) (ويعنى الموجود الشرير الّذى يهجم فى الليل) وذلك لأن الحيوانات الوحشية والحشرات المؤذية تخرج ليلًا من آجامها وجحورها بل إنّ الأشخاص من أهل الشرّ والخبث والدنائة يستغلّون ظلمة الليل غالباً للوصول إلى مقاصدهم الشريرة. ولكن الظلام هنا يمكن أن يكون له معنىً واسع بحيث يشمل كلّ أنواع الجهل والغفلة والمؤامرات الخبيثة وأمثال ذلك لأن قطّاع طريق الحقّ يستغلون جهل الناس عادة ويهجمون على المؤمنين واصفياء القلوب من موقع التآمر عليهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۳ ثمّ تشير السورة إلى الأشرار الّذين ينفخون فى العقد، وهو تعبير يشير إلى النساء اللواتى يسلكن طريق الإنحراف كما هو حال الساحرات الّذين يقرأن بعض الأوراد والتماتم فى حال عملية السحر ثمّ ينفخن فى العُقد ويقرأن على البسطاء والسذّج من الناس مطالب وكلمات غير مفهومة، وبهذه الوساوس يسعين إلى ايجاد عنصر الخذلان فى إرادتهم ويجرّونهم إلى حال الترديد والتشكيك، فعندما تضعف الإرادة فى الإنسان يتسنّى حينئذٍ لجيش الشيطان أن يهجم ويتسلط عليه. ثمّ تشير الآيات إلى الطائفة الثالثة والأخيرة من طوائف الشرّ وتقول «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ». وهنا يتضح أنّ أحد عوامل التخريب والفساد فى العالم هو عامل الحسد والتخريب الّذى ينشأ من فعل الحسّاد، وعليه فالآية فى حديثها عن المنابع الثلاثة للشرّ والفساد (وهى: المهاجمون فى ظلمة الليل، والموسوسون الّذين يتحركون من خلال الإعلام لهدف تضعيف عقائد الناس وايمانهم وايجاد الخلل فى العلاقات الاجتماعية، والحاسدون الّذين يتحركون بين الناس من موقع التخريب) فهذه الآيات شاهد ناطق على المراد أى الأضرار الوخيمة للحسد. أمّا ما ورد فى الآية من هذه السورة من الصفة الإلهية (بِرَبِّ الْفَلَقِ) يمكن أن يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الطوائف الشريرة الثلاثة تستغل دائماً الظلمة والجهل والاختلاف والكفر، فلو أنّ هذه الظلمات تبدّلت إلى نور العلم والاتحاد والايمان فإنّ قوى الانحراف هذه سوف لا تستطيع أن تعمل شيئاً. «الآية السادسة» من الآيات مورد البحث بعد أن مدحت الأنصار مدحاً بليغاً (وهم الّذين دعوا نبى الإسلام إلى يثرب ونصروه واستقبلوه أحسن استقبال وجعلوا جميع ما لديهم من امكانات تحت اختياره) تحدّثت عن (التابعين) وهم الّذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار والتزموا خطّ الايمان واعتنقوا الإسلام واستمروا فى خط الايمان، تقول الآية «وَالَّذِينَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۴ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» «۱». وعلى هذا الأساس يقول هؤلاء بعد طلبهم المغفرة لهم ولمن تقدّمهم فى الإيمان (المهاجرين والأنصار) حيث يطلبون من اللّه تعالى أن يُزيل أى شكل من أشكال (الغِل والحقد والحسد) فى قلوبهم بالنسبة إلى المؤمنين، لأنهم يعلمون انّه مادامت هذه الامور تعيش فى قلب الإنسان فإنّ روابط المحبّة والاخوّة والإتحاد لا يمكن أن تؤثر أثراً وبالتالى لا ينال الفرد التوفيق فى حركته الدينية والاجتماعية. كلمة (غِل) المأخوذة من مادّة (غلل) وكما يقول الراغب فى كتابه (المفردات) هى فى الأصل بمعنى الشىء الخفى الّذى ينفذ تدريجياً وبخفاء، ولهذا يُقال للماء الجارى (غلل) لأنّه ينفذ إلى الأشجار تدريجياً. ثمّ استُعمل الغلول فى (الخيانة) لأنها تنفذ بخفاء وتدرّج، وكذلك استُعملت فى (الحقد والحسد) حيث ينفذان إلى القلب بشكل خفى وتدريجى. وجاء فى (لسان العرب) أنّ الحسد نوع من (الغلّ) كما أنّ من مصاديقه هو الحقد والعداوة أيضاً. والكثير من المفسّرين يرون فى تفسير الغِل بمعنى الحسد كالفخر الرازى فى (التفسير الكبير) والمراغى فى تفسيره والقرطبى فى (الجامع لأحكام القرآن) فى ذيل هذه الآية محل البحث. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث تتحدّث عن صفات أهل الجنّة وتقول بعد تصريحها باستقبال الملائكة لهم فى القيامة ودعائهم لهم بالسلامة والأمن «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۵ أجل فإنّ أهل الجنّة طاهرون من كلّ أشكال الحسد والحقد والعداوة الّتى يتصف بها أهل النار، وإذا رأينا أنّهم يعيشون حالة الأخوة والسلامة والأمن فى الجنّة فإنما هو

بسبب زوال هـذه الامور السلبیّة من وجودهم وقلوبهم (وذلک بلطف اللَّه وببرکة أعمالهم الصالحة فی الدنیا). ولا شکّ أنّ الناس فی الـدنیا لو عاشوا بحیاة خالیـة من الحقد والعداوة والحسد فی تفاعلهم الاجتماعی فیما بینهم لأضـحت حیاتهم الدنیویة کحیاة أهل الجنّة حیث یعیشون الأمن والأمان والاخوة والصفاء أیضاً.

النتیجة:

ومن مجموع ما تقدّم من الآیات المـذکورة آنفاً تتضـح الآثار السـلبیّة الوخیمـة لحالـة الحسـد فی حرکـة الحیاة الفردیـة والاجتماعیة، ویتضـح کذلک موقف القرآن السـلبی والشدید من هذه الصـفة الأخلاقیة الذمیمة، فالحسد هو الّذی تسبب فی أن یقتل الإنسان أخاه وأن یُغمض عینه عن رؤیة الحقّ ویُسدل علی عقله حجاباً کثیفاً یمنعه عن رؤیة الحقیقة ویُثیر فی أجواء المجتمع الظلمة، ویقطع أواصـر المحبّة والود بین الأفراد، ویحوّل المجتمع البشری إلی جهنم محرقة تحرق المتلوثین بهذه الصفة الذمیمة.

الحسد فی الروایات الإسلامیة:

ونقرأ فی الروایـات الإسـلامیة الـذمّ الشدیـد لحالـة الحسـد بحیث قلّما نجـد صـفة من الصـفات الرذیلـة قـد ورد ذمّها بهـذه الشـدّة فی النصوص الدینیـة، وعلی سبیـل المثـال وکنمـاذج وعیّنـات من ذلـک نکتفی بإسـتعراض عـدّة روایـات تتحـدّث حول هـذا الموضوع: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۶ ۱- ورد فی الحدیث الشـریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الْحَسَدُ یَأْکُلُ الْحَسَنَاتِ کَمَـا تَأْکُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۱». والتعبیر أعلاه یشـیر إشارة واضـحة إلی انّ نار الحسـد یمکنها أن تأتی علی جمیع عناصـر السـعادة لـدی الإنسان وتحرق حسـناته وأتعابه طیله عمره وتهدر ثمرات اتعابه بحیث یخرج من الدنیا صفر الیدین. ۲- وهذا المعنی ورد بصورة أشد فی الحـدیث الشـریف عن الإمام الباقر والصادق علیهما السـلام حیث قالا: «انَّ الْحَسَدَ یَأْکُلُ الْایمانَ کَمَا تَأْکُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۲». أجل فإنّ الصـفة الرذیلـة للحسـد لا تحرق الحسـنات فقط بل تحرق الإیمان أیضاً وتبـدّله إلی رماد، وسـیأتی تفصـیل الکلام فی شـرح هـذا الحدیث الشریف. ۳- وفی حـدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قال: «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاضِ» «۳». وطبقاً لهذا الحدیث فإنه لیس هناک من الأمراض الأخلاقیـة أسوء وأشـر من الحسد. ۴- وقـد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أیضاً قوله: «رَأْسُ الرَّذَائِلِ الْحَسَدُ» «۴». ۵- وکـذلک ورد عن هـذا الإمام فی تعبیره الکنائی عن الحسد «للَّهِ دَرُّ الْحَسَدِ مَا اعْدَلَهُ بَدَءَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ» «۵». ۶- وأیضاً ورد عن هـذا الإمام قوله: «ثَمَرَةُ الْحَسَـدِ شَـقَاءُ الدُّنْیَا وَالْآخِرَة» «۶». ۷- وفی حـدیث آخر عن الإمـام الصادق علیه السـلام أنّه قال: «آفَةُ الدِّینِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱۷ ۸- وعن الإمام الصادق علیه السـلام أیضاً أنّه قال: عندما کان موسـی بن عمران ینـاجی اللَّه عزّوجـلّ إذ نظر إلی رجـل فی ظلّ العرش، فقال: «یَا رَبِّ مَنْ هَـذَا الّـذی قَـدْ اظَلَّهُ عَرْشُکَ» «۱» فقال: «یَا مُوسَی هَذَا مِمَّنْ لَمْ یَحْسُدُ النَّاسَ عَلَی مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ». ۹- وفی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «سِتَّةٌ یَـدْخُلُونَ النَّارَ قَبْـلَ الْحِسَـابِ بِسِـتَّةٍ». «قِیـلَ یَـا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟» «قَـالَ: الْـامَرَاءُ بِالْجَوْرِ، وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِیَّةِ، وَالـدَّهَاقِینُ بِالتَّکَبُّرِ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِیَانَةِ، وَأَهْلُ الرُّسْـتَاقِ بِالْجَهَالَةِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ» «۲». وعلیه فإنّ الحسـد یمثل بلاء العلماء بالدرجـة الاولی. ۱۰- ونختم هذا البحث بحـدیث آخر عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله (رغم وجود أحـادیث کثیرة فی هـذا الباب) أنّه قال: «انَّهُ سَیُصِـیبُ امَّتِی دَاءُ الْامَمِ! قَالُوا: وَمَاذَا دَاءُ الْامَمِ؟! قَالَ: الْاشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّکَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِی الدُّنْیا، والتَّبَاعُدُ والتَّحَاسُدُ حَتَّی یَکُونَ الْبَغْیُ، ثُمَّ یَکُونُ الْهَرْجُ!» «۳».

امور مهمة:

اشارة

بعـد أن اتضـح موقف القرآن الكريم والروايات الإسـلامية من هـذه الرذيلـة الأخلاقيـة (الحسـد) وعمق الفاجعـة المترتبة عليه فى حياة الإنسان والمجتمع البشـرى بقيت عـدّة نقاط مهمّـة فى هـذا البحث لابـدّ من استعراضـها لتتضـح الأبعاد المختلفة لموضوع الحسد وهى عبارة عن: ۱- معنى ومفهوم الحسـد. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۸ ۲- دوافع الحسد. ۳- علامات وآثار الحسد. ۴- المعطيات الفردية والاجتماعية للحسد. ۵- طرق الوقاية من الحسد وعلاجه.

۱- مفهوم الحسد والغبطة

ذكر علماء الأخلاق فى تعريف الحسد انه: تمنى زوال النعمة عن الآخرين سواءاً وصلت هذه النعمة إلى الحاسد أم لا. وعليه فإنّ عمل الحسود هو التخريب أو تمنّى التخريب وزوال آثار النعم والمواهب الإلهية عن الآخرين سواءاً انتقلت إليه تلك النعمة أم لا. وعلى هذا الأساس فإنّ أشـد أنواع الحسـد هو أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الآخر ويتحرّك فى هذا المسـير أيضاً سواءً عن طريق ايجاد سوء الظن بالنسبة إلى المحسـود، أو عن طريـق ايجـاد الموانع لعمله فى حركـة الحيـاة والمعيشـة، وهـذا النوع من الحسـد يحكى عن خبث البـاطن الشديـد للحسود. والمرتبـة الأدنى منها هى أن يكون هـدف الحاسـد هو تحصـيل تلك النعمـة عن طريق سـلبها من الآخرين، وبالرغم من انّ هـذه الحالة هى من الرذائل الأخلاقية ولكنها ليست فى الشدّة كما رأينا فى المرتبة الاولى منها. وهناك مرتبة أدنى من ذلك أيضاً حيث يتمنّى فيها الحاسـد زوال النعمة عن الآخر بدون أن يتحرّك فى هذا السبيل على مستوى الكلام أو الخطوات العملية الاخرى. وهـذه الحالة الذميمة إذا حصـلت للإنسان بدون اختيار منه كما قد يحصل لدى الكثير، فلا يترتب عليها إثم، ولكن إذا كانت بمحض ارادته بحيث حصـلت له بسـبب بعض المقـدمات الاختياريـة وبإمكانه إزالـة هـذه المقـدّمات، فبلاشك تُعتبر هذه من الرذائل الأخلاقيـة أيضـاً ولكن هـل يترتب على ذلك إثم أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۹ وهنا تأمّل فى هذا الموضوع ناشـىء من هذه الحقيقة، وهى هل أنّ الصـفات الباطنية حتّى لو كانت اختيارية هى محرمة حتّى لو لم تظهر فى عمل الإنسان وفعله، أو تُعتبر صـفة أخلاقية تكشف عن انحطاط أخلاقى لذلك الشخص بدون أن تستتبعها حرمة فى البين؟ وعلى أيّة حال فإنّ النقطة المقابلة للحسد هى (الغِبطـة) وهى أن يتمنّى الإنسـان أن تكون له نعمـة مثلمـا للآخرين أو أكثر منها بـدون أن يتمنّى زوال تلك النعمـة عن الآخر. ولكن البعض يرى انّ (الغبطـة) نوع من الحسـد أيضاً ويستشـهد لذلك بحديث شـريف عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أيضاً» .ولكن من الواضـح أنّ هـذا المعنى ينسـجم مع تفسـيرنا للحسـد بمفهومه الواسع بحيث يشـمل كـلّ مقارنـة لمـا لـدى الفرد من النعم مع مـا لـدى الآخرين منها، وهو فى الواقع نزاع لفظى، والمعروف هو ما تقـدّم آنفاً من تعريف الحسـد. وعلى أيّـة حال فالحسد صـفة ذميمة وقبيحة فى دائرة الأخلاق، فى حين انّ (الغِبطة) ليس فقط غير مذمومة، بل محمودة ومطلوبة أيضاً، وتعتبر سـبباً لترقى المجتمع والصعود به فى مـدارج الكمال كما ذكر ذلك الطريحى فى (مجمع البحرين) فى مادّة (حَسَـدَ). ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السـلام قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبُطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبُطُ» «۲».

۲- دوافع الحسد

من المعلوم أنّ الكثير من الصـفات الرذيلة تتناغم مع بعضـها وبينها تأثير متقابل، والحسد أيضاً من هذه الصـفات حيث ينشأ من صفات قبيحـة اخرى، وهو بنفسه يُعد منبعاً ومصدراً لرذائل كثيرة أيضاً. ويذكر علماء الأخلاق للحسد منابع كثيرة منها: العداوة والحقد بالنسـبة إلى الآخرين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۰ حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسـان زوال النعمـة عن الطرف الآخر الّذى يحمل له العـداء ويبطن له الحقـد. والآخر هو الكِبر والغرور، ولهـذا إذا رأى المتكبر غيره يتمتّع بنعم أكثر منه فـإنه يتمنّى زوالهـا بل يسعى فى إزالتها أيضاً لكى يُحرز تفوّقه على الآخرين. الثالث: حبّ الرئاسة حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسان زوال نعمة الآخرين لكى يستطيع

بـذلك من تحكيم سيطرته وحكومته عليهم، لأنّه إذا لم تكن قدرته وثروته وامكاناته الاخرى أكثر من الآخرين فإنه قد لا يستطيع أن يثبت أركان حكومته عليهم. الرابع من أسباب الحسد: الخوف من عدم الوصول إلى المقاصد الدنيوية، لأن الإنسان يتصور أحياناً أنّ النعم الإلهية محدودة فلو أنّ الآخرين حصلوا عليها فيمكن أن يُحرم منها أو لا يصل إليه منها إلّاالقليل. الخامس: الاحساس بالحقارة والدونية، فالأشخاص الّذين لا يجدون فى أنفسهم اللياقة للوصول إلى المقامات العليا وحيازة المراتب السامية فإنّ ذلك يتسبب فى ابتلائهم بعقدة الحقارة الّتى تدفعهم إلى تمنى زوال النعمة من الآخرين وأن لا ينال الآخرون مكانة اجتماعية مهمة ليكونوا معهم سواء. السادس: من أسباب الحسد هو البخل وخبث الباطن لأن البخيل ليس فقط غير مستعد لأن يبذل ما فى يده إلى الآخرين، بل يتألم عندما يرى نِعم اللّه تعالى تصل إلى غيره، أجل فإنّ ضيق الافق ودنائة الطبع وخساسة النفس تقود الإنسان إلى أن يعيش الحسد فى واقع النفس، وأحياناً تتوفر جميع هذه الأسباب والدوافع الستة للحسد لدى الفرد، وأحياناً اخرى اثنان أو ثلاثة منها، فتشتد خطورة الحسد بنفس النسبة. ولكن الأهم من ذلك فإنّ الحسد يمكن أن يمتد بجذوره إلى عنصر العقيدة ومكامن الدين، فمن كان يؤمن باللّه تعالى وقدرته ولطفه ورحمته وعدالته وحكمته، كيف يمكنه أن يجد فى نفسه حالة الحسد للآخرين؟ إن الشخص الحسود يكاد يعترض على اللّه تعالى بلسان حاله وأنّه لماذا رزقت فلاناً الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۱ تلك النعمة؟ وأين العدالة؟ وأين الحكمة؟ ولماذا لا تعطينى مثله؟ بل قد يتصور نسبة العجز إلى اللّه تعالى عندما يعطى غيره ولا يعطيه هو ولهذا يفضل أن تسلب تلك النعمة من ذلك الشخص وتصل إليه. وعلى هذا الأساس فالحاسد فى الحقيقة يعيش فى حالة من اهتزاز دعائم الإيمان والتوحيد الأفعالى فى واقعه الروحى، لأن الإنسان المؤمن بأصل التوحيد الأفعالى يعلم جيداً أن تقسيم النعم الإلهية على العباد لا يكون اعتباطياً، بل وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، ويعلم كذلك أنّ اللّه تعالى يملك القدرة فى أن يرزقه أكثر وافضل من ذلك الشخص فيما لو كان يتمتع باللياقة لمثل هذه النعم والمواهب، إذن عليه أن يسعى لتحصيل القابلية واللياقة لذلك. ولهذا نقرأ فى الحديث القدسى حيث يخاطب اللّه تعالى نبيه زكريا: «الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي، غَيْر رَاضٍ لِقِسْمَتِيَ الَّتِى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى» «۱». وقد ورد شبيه هذا المضمون عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله حيث قال: «إنّ اللّه تعالى أوحى إلى موسى بن عمران: «لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسُ عَلَى مَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلِى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ الَى ذَلِكَ، وَلَا تَتَّبِعُهُ نَفْسَكَ، فَانَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعَمِى، ضَادٌّ لِقَسْمِيَ الّذى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى وَمَنْ يَكُ كَذَلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنّى!» «۲». والخلاصة أنّ الحسود لا يتمتع فى الحقيقة بدعائم إيمانية وعقائدية راسخة وإلّا فإنه يعلم أنّ حسده ما هو إلّانوع من أنواع الإنحراف عن خط التوحيد وعن الحقّ. ويقول الشاعر فى هذا المجال: الا قل لمن كان لى حاسداً اتدرى على من اسأت الأدب؟! اسأت على اللّه فى فعله إذا أنت لم ترض لى ما وهب! «۳»

۳- علامات الحسد

إنّ هذه الصفة الرذيلة كسائر الصفات الأخلاقية الذميمة الاخرى تارة تكون صريحة واخرى خفية، ولهذا لابدّ من تتبع كلمات علماء الأخلاق وعلماء النفس فى استعراضهم لحالات الحسد وعلاماته أو ما استفدناه بالتجربة، فلابدّ من معرفة الحسد ووجوده فى مراحله الأوّلية قبل أن يتجذّر فى باطن الإنسان وتستحكم دعائمه ويصعب علاجه حينئذٍ. ومن جملة العلائم الّتى ذُكرت للحسد امور: ۱- أنّ الحاسد يحزن ويتألم عندما يسمع بنعمة تصيب الآخر حتّى لو لم تظهر آثار الحزن على محياه. ۲- أحياناً يتجاوز هذه المرحلة وينطلق لسانه بالتعرض للطرف الآخر بذكر معايبه وانتقاده من موقع التنقيص والتسقيط. ۳- وأحياناً يتجاوز هذه المرحلة أيضاً ويتحرّك فى تعامله مع الآخر من موقع الخصومة والعداوة. ۴- وأحياناً يكتفى هذا الشخص بإظهار عدم اهتمامه للطرف الآخر أو يقطع رابطته وعلاقته معه ويسعى إلى اجتنابه وعدم رؤيته وأن لا يسمع شيئاً عنه، فلو اتفق وأن دار الحديث عنه سعى لتغيير موضوع الحديث وقطع على القائل مقولته، وإذا اجبر يوماً على التحدّث عنه بأمر من الامور فإنه يسعى لإخفاء صفاته البارزة ونقاط قوّته أو اكتفى بالسكوت. وكلّ واحدة من هذه الامور تدلّ على وجود حالة الحسد الخبيثة. وفى الأحاديث الشريفة الواردة، من مصادر أهل بيت العصمة

والطهارة اشارات واضحة على هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في كلام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ انَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِكَ» «١». الاخلاق في القرآن، ج٢، ص: ١٢٣ وبعكس ذلك عندما يواجه الطرف الآخر ضرراً أو يقع في مشكلة فإنّ الشخص الحسود سيفرح لذلك كما ورد في الآية ٥٠ من سورة التوبة «انْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَانْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ اخَذْنَا امْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ». وهناك آيات متعددة اخرى تشير إلى هذا التصرّف السلبي والسلوك الذميم من قِبل الكفّار الّذين يواجهون ما أنعم اللَّه تعالى على المؤمنين من موقع الحسد والكراهية. وقد وردت في الأحاديث الشريفة اشارات مكررة إلى هذه المسألة وأنّ الحاسد يفرح من زوال النعمة على المحسود ويغتم لما يصيبه من النعم، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ يَفْرَحُ بِالشُّرُورِ وَيَغْتَمُّ بِالسُّرُورِ» «١».

۴- النتائج السلبية للحسد

إن الحسد يتميز بنتائج سلبية كثيرة على المستوى الفردي والاجتماعي والمادي والمعنوي في حركة حياة الإنسان، بحيث يقلّ نظيره من الصفات الأخلاقية السلبية الّتي تترتب عليها مثل هذه النتائج السلبية والأضرار الكثيرة، وأهمها: الأوّل: إن الحسود يعيش الغم والهم دائماً، وهذا الأمر يتسبب في أن يبتلى بالأمراض الجسمية والنفسية. فكلّما ينال الطرف الآخر من التوفيق والنعمة أكثر فإنّ الحاسد يتألم لذلك أكثر حتّى قد يناله الأرق الشديد ويسلبه ذلك هدوئه واستقراره وبالتالي تضعف بنيته ويغدو نحيفاً مريضاً، في حين انه يتمتع بامكانات مادية جيّدة ولو انه أبعد هذه الصفة الرذيلة عن نفسه لأمكنه أن يعيش عيشة طيّبة ومرفّهة. وقد ورد في الأحاديث الشريفة إشارة إلى هذه النكتة بالذات حيث حذّر الأئمّة المعصومين من هذه الحالة، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «اسْوَءُ النَّاسِ عَيْشاً الْحَسُود» «٢». الاخلاق في القرآن، ج٢، ص: ١٢۴ ونفس هذا المعنى ورد في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام حيث قال: «لَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ» «١». ونجد هذا التعبير أيضاً في حديث آخر عنه عليه السلام «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاض» «٢». وجاء في تعبير آخر: «الْعَجَبُ لِغفلَةِ الْحُسَّادِ عَنْ سَلَامَةِ الْاجْسَادِ» «٣». ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن هذا الإمام رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب حيث قال «الْحَسَدُ لَايَجْلِبُ الّا مَضَرَّةً وَغَيْظاً، يُوهِنُ قَلْبَكَ، وَيَمْرُضُ جِسْمَكَ» «۴». والآخر: أنّ الأضرار المعنوية للحسد أكثر بمراتب من الأضرار المادية والبدنية للإنسان، لأن الحسد يأكل دعائم الإيمان ويمزق علاقة الإنسان مع ربّه بحيث يجعل الإنسان يُسيء الظنّ باللَّه تعالى وحكمته، لأن الحسود في أعماق قلبه يعترض على اللَّه تعالى على ما وهب للآخرين من نعمه ورزقهم من فضله. ونقرأ في الحديث المعروف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا تَحَاسَدُوا فَإنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْايمانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۵». ونفس هذا المعنى ورد عن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله أيضاً وعن حفيده الإمام الباقر عليه السلام كذلك. وقد أورد المرحوم الكليني في الكافي حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «آفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۶». وورد عن هذا الإمام أيضاً قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبِطُ» «٧» . ويُستفاد جيداً من هذا الحديث أنّ الحسد يتقاطع مع روح الإيمان ويتناغم مع الاخلاق في القرآن، ج٢، ص: ١٢۵ النفاق في واقع الإنسان. وقد سبق وإن ذكرنا في الأبحاث الماضية الحديث القدسي الشريف حيث خاطب اللَّه تعالى نبيه زكريا وقال: «الحاسد عدوّ لنعمتي، متسخّط لقضائي، غير راضٍ لقسمتي الّتي قسمت بين عبادي». الثالث: من الآثار السلبيّة والنتائج المضرة للحسد هو انه يسدلّ على عقل الإنسان وبصيرته حجاباً سميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ومعرفة الواقعيات، لأن الحسود لا يستطيع أن يرى نقاط القوّة في المحسود حتّى لو كان استاذاً كبيراً ومصلحاً اجتماعياً جليلًا بل انه يبحث دائماً عن نقاط ضعفه وعيوبه، وأحياناً يرى نقاط قوّته بمنظار نقاط ضعفه ويشاهد ايجابياته من موقع النظر السلبي، ولهذا السبب قال أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسَدُ حَبْسُ الرُّوحِ» «١» فإنّ الإنسان يحبس روحه في حالة الحسد عن إدراك حقائق الامور. الرابع: من أضرار الحسد هو انه يسلب الإنسان اصدقائه ورفاقه، لأن كلّ فرد من الأفراد يتمتع بنعمه أو نعم خاصّة قد لا تكون لدى الآخرين، فلو عاش الإنسان هذه الحالة الرذيلة وهي الحسد بالنسبة إلى ما يراه

من نعمة على الآخرين فانه سيحسد جميع الناس، وهذا الأمر يتسبّب فى أن يبتعد الناس عنه ويعمل على تمزيق روابط المحبة والمودة معهم. والشاهد على هذا الكلام ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَسُودُ لَاخُلَّةَ لَهُ» «۲». الخامس: من الآثار السيئة للحسد هى انّ الحسد يمنع الإنسان من الوصول إلى المقامات العالية والمراتب السامية فى حركة التكامل الأخلاقى والمعنوى والاجتماعى، بحيث إنّ الشخص الحسود لا يستطيع أبداً أن يحصل على منصب خطير من المناصب والمقامات الاجتماعية، لأنّه بحسده هذا سيعمل على تفريق الآخرين وإبعادهم من حوله، والشخص الّذى تقوى فيه القوّة الدافعة لا ينال مرتبة عالية فى الدائرة الاجتماعية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۶ والشاهد على ذلك هو قول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسُودُ لَايَسُودُ» «۱». السادس: هو أنّ الحسد يؤدى إلى تلوث صاحبه بأنواع الذنوب الاخرى، لأن الحسود ولغرض الوصول إلى مقصده وهدفه أى إزالة النعمة عن الآخرين يستخدم كلّ الوسائل ويرتكب أنواع الظلم والعدوان من الغيبة والتهمة والكذب والنميمة وغيرها لتسقيط الطرف الآخر، وبذلك يفتح الحسد له أبواب السلوكيات الخاطئة والتحرّك فى خط الظلم والباطل. وهنا يوجد شاهد آخر على هذا الكلام وهو ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسُودُ كَثِيرُ الحَسَرَاتِ، وَمُتَضَاعَفُ السَيِّئَاتِ» «۲». السابع: إن من شقاء الحسود انه يضر بنفسه أكثر ممّا يضر الطرف الآخر لأنّه يعيش حالة من العذاب النفسى والروحى فى حياته الدنيا بغض النظر عمّا يترتب على ذلك من العذاب الأخروى يوم القيامة. وقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلى هذه الحقيقة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ مُضِرٌّ بِنَفْسِهِ قَبْلَ انْ يَضُرَّ بِالْمحْسُودِ، كَابْلِيسِ اورثَ بِحَسَدِهِ بِنَفْسِهِ اللَّعْنَةُ، وَلِآدَمَ الْاجْتِبَاءُ وَالْهُدَى» «۳».

۵– مراتب الحسد:

لقد ذكر علماء الأخلاق للحسد مراتب ومراحل مختلفة، ومن ذلك أنّ الحسد يمرّ بمرحلتين متميّزتين تماماً: ۱– وجود الحسد فى أعماق النفس بحيث يسيطر عليه الإنسان فلا يظهر فى كلماته وأفعاله وسلوكياته. ۲– وجود الحسد فى أعماق النفس بحيث يخرج عن سيطرة الإنسان ويظهر فى أقواله الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۷ وأفعاله من موقع السعى للانتقام من المحسود وإزالة النعمة الّتى عليه. ويستفاد من بعض الروايات أنّ جميع الناس (أو غالبيتهم) يعيشون الحسد فى نفوسهم، ولكن ما لم يظهر على أقوالهم وأفعالهم فإنه لا يترتب على ذلك إثم ومعصية. ومن ذلك ما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله: «ثَلَاثٌ لَايَنْجُو مِنْهُنَّ احَدٌ: الظَّنُّ، وَالطِّيَرَةُ، وَالْحَسَدُ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، اذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّق، وَاذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ، وَاذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وورد فى حديث آخر قوله: «قَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أنّ هذا الحكم ليس عاماً ولا يشمل الأنبياء والأولياء، لأنهم ما لم يطهر ظاهرهم وباطنهم من الحسد فإنّهم لا يصلوا إلى المقامات السامية ولا يصعدون فى معارج الكمالات المعنوية، ولذلك ورد فى تفسير الحديث الشريف الّذى يقول (إنّ الحسد لا يخلو منه أىّ إنسان حتّى الأنبياء) فقد فُسّر بعنوان (محسود) أىّ انّ الحسّاد يحسدون كلّ شخص حتّى الأنبياء الإلهيين فيحسدونهم على مقامهم العالى ومرتبتهم المعنوية السامية لدى اللَّه تعالى. وعلى أيّة حال فلا شكّ فى أنّ صفة الحسد هى من الرذائل الأخلاقية سواءً وصلت إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا، والكلام هنا فى انه هل يترتب على الحسد إثم وعقوبة فيما لو لم يصل إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا؟ والظاهر انه لا دليل على كون هذه الحالة من الإثم والذنب رغم انها من الصفات الذميمة. ولكن المرحوم النراقى فى (معراج السعادة) يقول: (إذا دفع الحسد صاحبه لأن يرتكب بعض الأفعال والأقوال الذميمة من قبيل الغيبة والشتم للطرف الآخر فإنه يرتكب بذلك إثماً، وكذلك إذا امتنع من إظهار مثل هذه السلوكيات وتجنّب الأفعال الّتى تدلّ على الحسد ولكنه كان طالباً فى باطنه زوال نعمة المحسود وراغباً فى ذلك ولم يشعر بالامتعاظ من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۸ وجود هذه الحالة فى نفسه ولم يغضب عليها فإنه مذنبٌ أيضاً) «۱». ولكن الظاهر انه لا دليل على حرمة القسم الثانى من حالات الحسد هذه. وعليه فإنّ مرحلة عدم الظهور والبروز بدورها لها حالتين: الاولى الحالة الّتى لا يشعر الشخص فيها بالتأثر والانزعاج من وجود هذه الحالة فى نفسه ولا يسعى لرفعها بل ينسجم معها أيضاً، والثانية: أن لا يكون كذلك. ولا يبعدُ أن يأثم

الشخص فى الحالة الاولى رغم عدم وجود الدليل القاطع على ذلك.

۶- علاج الحسد:

رأينا فى الأبحاث السابقة أنّ (الحسد) عبارة عن مرض أخلاقى خطير بحيث انه لو لم يتحرّك الإنسان لعلاجه فإنه سيتلف ويدمّر دينه ودنياه. وعلاج هذا المرض الأخلاقى كسائر علاج الصفات الرذيلة الاخرى يقوم على دعامتين: ۱- الطريق العلمى. ۲- الطريق العملى. امّا بالنسبة إلى الطريق (العلمى) فينبغى للشخص الحسود أن يتأمل جيداً فى أمرين: أحدهما النتائج السلبيّة والعواقب الضارة للحسد على المستوى الروحى والبدنى، والآخر يتأمل فى جذور ودوافع حصول هذه الحالة فى النفس. إن على الحاسد أن يرى نفسه كالشخص المعتاد على المخدرات والمدمن على الهيروئين، فعليه أن يتدبر فى أمر هؤلاء المدمنين وكيف أنّهم فقدوا سلامتهم البدنية والنفسية وفقدوا حيثيّتهم الاجتماعية واسرتهم وابناءهم، وكيف أنّهم يعيشون فى أسوء الحالات النفسية ويموتون فى سن الشباب ولا يحزن عليهم أىّ شخص لموتهم بل إنّ موتهم يتسبب فى سعادة أسرتهم واصدقائهم، فكذلك يجب على الحسود أن يعلم انّ هذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۹ المرض الأخلاقى سوف يعمل على إهلاكه، فيأكل معنوياته ويُحرق نقاط قوته وصفاته الايجابية ويسلب منه راحته ونومه ويهيمن بسحابة من الحزن على قلبه وروحه، بل سيؤدى به إلى ما هو اشنع من ذلك حيث يكون طريد رحمة اللّه ويكون مصيره مصير إبليس وقابيل، وبالتالى مع كلّ ذلك فسوف لن يصل إلى هدفه ومقصوده وهو زوال النعمة عن المحسود. ولاشكّ أنّ التفكّر بهذه الآثار والعواقب السلبيّة ومشاهدة الحوادث ذات العبرة وقراءة الأحاديث الشريفة فى هذا الباب، والّتى مرّت الإشارة إليها آنفاً، سيكون له تأثير ايجابى كبير فى علاج هذا المرض الأخلاقى. إن (الحسود) يجب أن يعلم أنّه إذا كانت المواد المخدرة كالهيروئين تهدد سلامة الروح والجسم للشخص وتُسرع فى أجله، فهو أيضاً يمرّ فى هذه الحالة الذميمة ويورثه الحسد الأمراض الجسمية والنفسية ويخسر بذلك دنياه وآخرته، لانه يعترض عملًا على حكمة اللّه تعالى، وبذلك يسقط فى وادى الشرك والكفر، هذا من جهة. ومن جهة اخرى عليه أن يتفكر فى بواعث الحسد وجذوره ويسعى إلى قطعها وإزالتها، فلو كان من ذلك اختلاطه ومجالسته مع رفاق السوء وتأثّره بوساوسهم، فعليه أن يقطع الإرتباط معهم، وإذا كان الباعث لذلك حالة البخل وضيق النظر فعليه أن يسعى لعلاج هذه الحالة فى نفسه، وإذا كان السبب هو ضعف الإيمان باللّه وعدم معرفته بالتوحيد الأفعالى فعليه أن يتحرّك من موقع تقوية مبانى الإيمان وتعميق أُسس التوحيد فى قلبه، وإذا كان الباعث لذلك انه يعيش الجهل بطاقاته وامكاناته الذاتية وبالتالى فإنه يعيش عقدة الحقارة والدونيّة الّتى من شأنها أن تفضى به إلى الحسد فعليه أن يسعى لعلاج ذلك فى ظلّ التوكل على اللّه تعالى والاعتماد على النفس والقضاء على عقدة الحقارة هذه، وبذلك سيتحرّك بعيداً عن حالة الحسد تجاه الآخرين. والأفضل أن يسجّل الحسود خلاصة هذه الامور على صفحة أو صفحات ويحاول قراءتها كلّ يوم مرّة واحدة، بل يقرأها بصوت عالٍ عبارةً عبارة ويتفكّر فى كلّ عبارة منها الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۰ ويمعن النظر خاصّة فى الروايات الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام فى هذا الباب والّتى سبقت الإشارة إلى جملة منها، ولا شكّ أنّ كلّ إنسان يعيش حالة الحسد فى نفسه إذا تابع هذا السلوك والبرنامج بشكل جدّى فإنه سيرى آثاره الإيجابية فى مدّة قصيرة، وستتخلص روحه وجسمه من شر الحسد تدريجياً، وتنفتح أمامه افق السلامة والسعادة فى حركة الحياة والواقع. وينبغى على الحسود خاصّة التفكير فى هذه النقطة بالذات، وهى أنّه لو صرف وقته وطاقاته الّتى يهدرها بالحسد فى ترميم شخصيته وتقوية بُنيته النفسية والاهتمام بموفقّيته وتكامله فإنه من المحتمل جدّاً أن يتساوى أو يتفوق على المحسود وينال بذلك الراحة والرضا. وبتعبير آخر: يجب عليه أن يستبدل دوافع الحسد بدوافع الغبطة ويعمل على تبديل القوى المخربة إلى قوى بنّاءة فى حركة الذات والشخصية. وقد ورد هذا المضمون فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «احْتَرِسُوا مِنْ سُورَةِ البُخْل وَالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْحَسَد وَاعِدُّوا لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عِدَّةً تُجَاهِدُونَ بِهَا مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعَاقِبَةِ وَمَنْعِ الرَّذِيلَةِ وَطَلَبِ الْفَضِيلَةِ» «۱». أمّا من الناحية (العملية) فتعلم أنّ تكرار العمل المعيّن يؤدى تدريجياً إلى صيرورته عادة فى

النفس، والاستمرار على العادة يبدّلها إلى ملكة وصفة باطنية، فلو أنّ الحسود وبدلًا من سعيه إلى تسقيط اعتبار وشخصية الغير تحرّك على مستوى تقوية شخصيته هو، وبدلًا من التحدّث بالغيبة وذم الطرف الآخر يسعى إلى ذكر صفاته الإيجابية ومدحه أمام الآخرين، وبدلًا من السعى فى تخريب حياة الطرف الآخر المادية يسعى إلى بذل المعونة والمساعدة له ويذكره بالخير ما أمكنه ذلك، أو يتحرّك من موقع المحبة والمودة تجاه ذلك الشخص ويريد له الخير والسعادة ويدعو له بالموفقية ويوصى الآخرين بذلك أيضاً، فمن المعلوم أنّ تكرار مثل هذه الأعمال والسلوكيات بإمكانه إزالة آثار الحسد من واقع النفس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۱ والروح وتثبيت النقطه المقابلة لها وهى حالة (حبّ الخير للآخرين) فيعيش الإنسان فى أجواء النور والصفاء والمعنويات الإنسانية. علماء الأخلاق يوصون الشخص الجبان بأن يتحرّك لإزالة هذه الرذيلة الأخلاقية من نفسه من موقع التواجد فى ميدان الخطر ليكتسب بذلك حالة الشجاعة ويحمّل نفسه هذه الصفه الإيجابية حتّى ترتفع من نفسه حالة الخوف والجُبن وتكون الشجاعة بصفة عادة وحالة فى نفسه وبالتالى تكون ملكة. فكذلك الحسود يجب عليه الاستفادة لعلاج هذه الحالة من ضدّها، فكلّ حالة معينة تُعالَج بضدّها. وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله «اذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «انَّ الْمُؤْمِنَ لَايَسْتَعْمِلُ حَسَدَهُ» «۲». ومن جملة الامور المؤثرة كثيراً فى علاج الحسد هو أن يرضى العبد برضى اللَّه تعالى ويسلّم لمشيئته ويقنع من حياته بما أنعم اللَّه عليه، فقد ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَضِىَ بِحَالِهِ لَمْ يَعْتَوِرَهُ الْحَسَد» «۳».

۷- النُصح وحبّ الخير للآخرين

النقطة المقابلة للحسد هى (النصح وحبّ الخير للآخرين) بمعنى أنّ الإنسان ليس فقط لا يحبّ زوال النعمة من الآخر بل يطلب بقائها وزيادته عليه وعلى جميع الناس الأخيار والصالحين، أو بتعبير آخر: إنّ ما يحبّه لنفسه ويطلبه لذاته من السعادة والخير المعنوى والمادى يريده ويحبّه للآخرين، وهذه الصفة والحالة النفسية تعد من الفضائل الأخلاقية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۲ المعروفة والّتى وردت الإشارة إليها فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إنّ الأنبياء كانوا ناصحين مشفقين على أقوامهم وكانوا يحبّون الخير لهم، وهذه الحالة تعتبر من صفاتهم البارزة كما يقول القرآن الكريم على لسان (نوح) شيخ الأنبياء: «ابَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَانْصَحُ لَكُمْ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱». فهنا نرى انه بعد مسألة إبلاغ الرسالة تتحدّث الآية الكريمة عن النُصح وحبّ الخير للُامّة وهى النقطة المقابلة للحسد والبخل والخيانة. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير ورد عن النبى هود عليه السلام حيث يقول: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» «۲». وهذا المعنى ورد أيضاً عن النبى صالح (الأعراف الآية ۷۹) والنبى شعيب (الأعراف الآية ۹۳). ومن البديهى أنّ حبّ الخير للآخرين لا ينحصر بهؤلاء الأنبياء الأربعة، بل يشمل جميع الأنبياء الإلهيين والأولياء المعصومين الّذين كانوا يتّصفون بهذه الصفة الإيجابية، وكذلك يجب على أتباعهم أيضاً أن يكونوا من محبى الخير للآخرين ويطهرون أنفسهم من الحسد والبخل. وفى حديث شريف عميق المضمون ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال عن رجل من الأنصار انه من أهل الجنّة، وعندما تحقّقوا فى سيرته وعمله فلم يروا انه كان كثير العبادة مثلًا، بل كان حينما يأخذ مضجعه فى منامه يذكر اللَّه تعالى ثمّ ينام حتّى صلاة الصبح، فأثار فيهم حاله هذا التساؤل والاستغراب، فسألوا منه عن السبب فى أنّه صار من أهل الجنّة فقال «مَاهُوَ الّا مَا تَرَوْنَ غَيْرَ انِّى لَااجِدُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِى نَفْسِى غِشّاً وَلَا حَسَداً عَلَى خَيْرٍ اعْطَاهُ اللَّهُ ايَّاهُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۳ وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ اعْظَمَ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ امْشَاهُمْ فِى ارْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ» «۱». وفى رواية اخرى وردت عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أيضاً ذكر فيها المعيار لحبّ الخير للناس وأنّه أن يرى منافع الآخرين كمنافع نفسه ويدافع عنها كما يدافع عن منافعه حيث قال «لِيَنْصَحُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ اخَاهُ كَنَصِيحَتِهِ لِنَفْسِهِ» «۲». ويقول الراغب فى كتابه (مفردات القرآن): النصح، تحرّى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، وهو من قولهم نصحت له الودّ، أى أخلصته، وناصح العسل أى

خالصه أو من قولهم: نصحت الجلد خطته، والناصح يقال للخياط. (لأنّه يصلح القماش ويخيطه) وبما أنّ الشخص الخيّر يسعى إلى اصلاح عمل الآخرين من موقع الاخلاص والخلوص استعملت فى حقّه هذه المفردة، وأساساً فإنّ كلّ شيء خالص من الشوائب سواءاً فى الامور الماديـة أو المعنويـة، فى الكلام أو العمل، يقال له: ناصح. وعلى هذا الأساس فعندما يرد بحث النصيحة فى أجواء البحوث الأخلاقية فإنّ المقصود منه ترك أيّ شكل من أشكال الحسد والحقد والبخل والخيانة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۴

الغرور والعُجُب

تنويه:

إن أحـد الرذائـل الأخلاقيـة المشـهورة ليس عنـد علماء الأخلاق فحسب بل عنـد سائر أفراد الناس هى (الغرور)، وهـذه الصـفة الرذيلة تتسبّب فى انفصام الشخصيـة والجهل بالنسبـة إلى الـذات والآخرين والغفلـة عن مكانته الفردية والإجتماعية والتخبّط فى دوّامة الجهل والعجـب وعـدم الإطلاع على حقـائق الامور. إنّ الغرور يفضـى بالإنسـان أن يبتعـد عـن اللّه تعـالى ويسـير فى خـطّ الشـيطان، ويقلب الواقعيات فى نظره، وهذا الأمر يتسبب فى اضرار كثيرة على المستوى المادى والمعنوى للإنسان. الشخص المغرور يعيش فى المجتمع مكروهـاً من الآخرين حيث يتعامل معهم من موقع التوقعات الكثيرة الّتى تُفضـى به إلى الإنزواء والعزلـة الإجتماعيـة. والغرور يُعتبر من الدوافع والمصادر لصـفات رذيلة اخرى من قبيل التكبّر والانانية والعُجب والحقد والحسد بالنسبة إلى الآخرين والتعامل معهم من موقع التحقير والإزدراء. ونعلم أنّ أحد العوامل الأصلية لطرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهى هو (الغرور) الّذى كان يعيشه الشيطان، وأحـد الأسـباب فى عـدم انقيـاد الكثير من الأقوام السالفـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۶ لـدعوات الأنبياء السـماوية وجود هذه الصـفة الذميمة فى واقعهم وأنفسـهم. إن الفراعنة والنماردة ابتعدوا عن اللّه تعالى بسـبب غرورهم وبالتالى أصبح مصيرهم الأسود عِبرة للبشـرية. (الغرور) أحيانـاً يتجلّى فى فرد معيـن، واخرى فى قـوم ومجتمـع أو عِرقٍ بشـرى، ولا شـكّ أنّ القِسم الثانى اخطر على واقع الإنسـان والمجتمع لأنّه قـد يـدمّر بلـد كامـل أو يُحرق العـالم بنـاره، كما حصل فى الحرب العالميـة الاولى والثانيـة حيث كان الغرور والتعصّب العِرقى للألمان على الأقل أحـد العوامل المهمّـة لنشوب هـذين الحربين وبهذه الإشارة نسـتعرض أوّلًا تفسير مفردة (الغرور) ومفهومها فى منابع اللغة وكتب علماء الأخلاق، ثمّ نعود إلى الآيات والروايات الشريفة لإستجلاء أسباب الغرور وآثاره وافرازاته وطرق علاجه والوقاية منه.

۱- مفهوم الغرور

إن هـذه المفردة وردت بشـكل واسع فى كلمات العرب ولاسـيّما فى الآيات القرآنيـة الكريمـة والروايات الإسـلامية. يقول الراغب فى مفرداته عن هـذه الكلمـة: فـالغرور (بفتـح الغين ليتضـمن معنىً وصـفياً) كـلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشـهوة وشـيطان، وقـد فسّر بالشـيطان إذ هو أخبث الغارّين. وفى (صـحاح اللغـة) عن كلمة (غُرور) انها بمعنى الامور الّتى تجعل الإنسان غافلًا (سواءاً المال والثروة أو الجاه والمقام أو العلم والمعرفـة). ويقول بعض أرباب اللغـة كما يـذكر الطريحى فى (مجمع البحرين): إن الغُرور هو ما كان جـذاباً وجميلًا فى ظاهره ولكنه مظلم ومجهول فى باطنه. وجاء فى كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) بعـد نقل كلمات أرباب اللغـة: أنّ الجـذر الأصـلى لهـذه المفردة هى بمعنى اصول الغفلـة بسـبب التأثر بشـيء آخر لـدى الإنسان ومن لوازمها وآثارها الجهل والغفلة والنقصـان والإنخـداع و ... الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۷ وجاء فى (المحجّـة البيضاء فى تهذيب الأحياء) الّذى يُعتبر من أفضـل كتب الأخلاق وعبارة عن تهـذيب لكتاب (إحياء العلوم) للغزالى: «فالغرور هو سـكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسـهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم

واختلفت درجاتهم» «۱». وجاء فى (التفسیر الأمثل) فی معنى هذه المفردة أنّ (غَرور) على وزن (جسور)، صیغة مبالغة بمعنى الموجود الشدید الخُداع والحیلة والمکر ولذلک سُمّی الشیطان ب (غَرور) حیث یوسوس للإنسان ویخدعه ویستغفله، وفی الحقیقة هو من قبیل بیان المصداق الواضح، وإلّا فإنّ کلّ إنسان أو کتاب یمکن أن یقع فی مقام الوسوسة وکلّ موجود إذا عمل على إضلال الإنسان فإنه یدخل فی مصادیق کلمة (غَرور).

الغَرور فى القرآن الکریم:

لقد وردت هذه المفردة فی القرآن الکریم مرّات عدیدة، وکذلک ورد مضمونها فی آیات اخرى أیضاً: ۱- «قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِینٍ» «۲». ۲- «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرَیکَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَیکَ اتَّبَعَکَ إِلَّا الَّذِینَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِیَ الرَّأْیِ وَمَانَرَى لَکُمْ عَلَیْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کَاذِبِینَ .... قَالُواْ یَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَکْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ» «۳». ۳- «قَالُواْ یَاشُعَیْبُ مَانَفْقَهُ کَثِیرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاکَ فِینَا ضَعِیفًا وَلَوْلَا رَهْطُکَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۸ لَرَجَمْنَاکَ وَمَآأَنتَ عَلَیْنَا بِعَزِیزٍ» «۱». ۴- «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قَالَ یَاقَوْمِ أَلَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِی مِن تَحْتِی أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَیْرٌ مِنْ هذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَلَا یَکَادُ یُبِینُ» «۲». ۵- «ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِی دِینِهِم مَّاکَانُواْ یَفْتَرُونَ» «۳». ۶- «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ یَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ کُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ» «۴». ۷- «یُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَکُن مَّعَکُمْ قَالُواْ بَلَى وَلکِنَّکُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَکُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْکُمُ الْأَمَانِیُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّکُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۵». ۸- «هُمُ الَّذِینَ یَقُولُونَ لَاتُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى یَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلکِنَّ الْمُنَافِقِینَ لَایَفْقَهُونَ* یَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِینَةِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِینَ وَلکِنَّ الْمُنَافِقِینَ لَا یَعْلَمُونَ» «۶». ۹- «فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلیهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَکْرَمَنِ» «۷». ۱۰- «أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُّنتَصِرٌ* سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَیُوَلُّونَ الدُّبُرَ». «۸» ۱۱- «وَذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُواْ دِینَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا ...» «۹». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۹ ۱۲- «یأَیُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا وَلَا یَغُرَّنَّکُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۱».

تفسیر واستنتاج:

إن أوّل شرارة للغرور کما أشرنا إلى ذلک سابقاً کانت فی بدایة خلق الإنسان وتجلّت فی إبلیس کما تتحدّث عن هذه الواقعة «الآیة الاولى» من الآیات مورد البحث عندما سَأل اللَّه تعالى إبلیس عن السبب فی امتناعه عن السجود لآدم «قَالَ مَا مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ ...» «۲». قال الشیطان الّذی تملّکه الغرور والعُجب «قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِینٍ» «۳». أجل فإنّ حجاب الغرور والعجب قد أسدل على عین بصیرته حجاباً سمیکاً إلى درجة أنّه لم یسوّغ له سلوک طریق السعادة وامتثال الأمر الإلهی الصریح، فسقط فی هُوَّة العصیان والتمرد وأصبح مطروداً وملعوناً إلى الأبد، وعلى هذا یمکن القول انه کما أنّ قائد المستکبرین فی العالم هو إبلیس، فکذلک قائد المغرورین فی العالم إبلیس أیضاً، وهذان المفهومان أیّ الغرور والإستکبار بمثابة اللازم والملزوم. إن إبلیس وبسبب الغرور والإستکبار لم یستطع أن یرى حقیقة کرامة التراب على النار وأفضلیة التوبة على العناد والإصرار على الذنب، فکان من ذلک أن سلک فی خط الضلال والتیه وبقی کذلک إلى الأبد. «الآیة الثانیة» تتحدّث عن قصة نوح أیْ أوّل أنبیاء اولو العزم وتوضح جیداً أنّ أحد العوامل المهمّة فی عناد قومه ووقوفهم ضد دعوته وارشاداته المخلصة من موقع الغرور هو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۰ هذه الصفة الرذیلة (الغرور) حیث تقول الآیة «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرَاکَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاکَ اتَّبَعَکَ إِلَّا الَّذِینَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِیَ الرَّأْیِ وَمَانَرَى لَکُمْ عَلَیْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کَاذِبِینَ» «۱». وبعد عدّة آیات یستعرض القرآن الکریم حالة الغرور والعُجب أکثر لدى هؤلاء الضالین حیث قالوا لنوح بصراحة «قَالُواْ یَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَکْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ کُنتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ» «۲». عادهٔ يتخذ الإنسان طريقاً يُبعده عن الأضرار المحتملهٔ بحكم العقل ويتجنب عن سلوك الطريق الّذى يُحتمل أن يواجه الخطر فيه، ولكن هؤلاء القوم المغرورين وبالرغم من مشاهدتهم لآثار حقّانيهٔ دعوهٔ هذا النبى الكريم من خلال معجزاته ووجود احتمال نزول العذاب الإلهى فإنّهم لم يكتفوا بعدم الإهتمام والإعتناء بدعوته بل تحرّكوا مع دعوهٔ نوح من موقع طلبهم لنزول العذاب الإلهى. أجل فإنّ ذلك الغرور الّذى صار حجاباً على بصيرهٔ الشيطان قد أصبح حجاباً لقوم نوح عن رؤيهٔ الحقيقهٔ، وبالتالى ذاقوا العذاب الإلهى الشديد وهلكوا عن آخرهم، وهذا هو مصير المغرورين على طول التاريخ. وتأتى «الآيهٔ الثالثهٔ» لتتحدّث عن قوم شعيب الّذين جاءوا بعد قوم نوح وتورطوا فى الغرور والعُجب أيضاً فكان مصيرهم هو نفس ذلك المصير المؤلم حيث تقول الآيهٔ «قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَافْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآأَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» «۳». هؤلاء فى الحقيقهٔ لن يجدوا جواباً منطقياً أمام البراهين العقليهٔ والدعوهٔ السماويهٔ الحكيمهٔ والمعجزات الإلهيهٔ الّتى جاء بها شعيب، ولكنّ غرورهم وأنفتهم لم تبح لهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۱ الإستسلام أمام دعوهٔ الحقّ وبالتالى غشيهم العذاب الإلهى وأصابتهم الصاعقهٔ السماويهٔ والصيحهٔ المهولهٔ، فدمّرت كلّ ما لديهم فى طرفهٔ عين، ولم تبق لهم سوى أجساد متمزقهٔ وآثار خاويهٔ. «الآيهٔ الرابعهٔ» ناظرهٔ إلى قصهٔ فرعون وتستعرض بُعداً آخر من أبعاد هذه الصفهٔ الرذيلهٔ، وتشير إلى أنّ الغرور والعُجب قد يمتد إلى باطن الإنسان ويستولى على عقله وروحه بحيث انه ليس فقط لا يهتم بالأدلهٔ الواضحهٔ على نبوهٔ موسى عليه السلام بل يواجهها بكلمات طفوليهٔ تنطلق من موقع العناد والغرور حيث تقول الآيهٔ «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ ا لْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «۱». ثمّ تمادى فرعون فى مواجهته لموسى وتمسّك بكلمات واهيهٔ وغير منطقيهٔ من قبيل أنّ موسى إذا كان صادقاً فلماذا لا يلبس الأسورهٔ من الذهب؟ ولماذا لم تنزل الملائكهٔ معه؟ وهكذا نجد أنّ الأشخاص المغرورين كالفراعنهٔ والنمروديين وبسبب إهمالهم لدعوهٔ الحقّ وغرورهم لا يدركون جيداً ماذا يقولون ولا يهتمون لذلك حيث نجد كثيراً أنّ مثل هؤلاء يتكلمون بكلمات سخيفهٔ بحيث يسخر منها حتّى المقربون منهم فى أنفسهم، ومن المعلوم أنّ هذه الحالهٔ تتسبّب فى غلق جميع نوافذ المعرفهٔ الإلهيهٔ أمام الإنسان، وايصاد جميع الطرق لسلوك سبيل الكمال المعنوى والتعالى الأخلاقى. واللطيف أنّ موسى الّذى كان يشكو من لُكنهٔ فى لسانه تتعلق بمرحلهٔ الطفولهٔ ولكنه عندما بُعث إلى النبوهٔ وطلب من اللّه تعالى أن يحلُل عقدهً من لسانه فإنّ اللّه تعالى استجاب له ذلك ولكنّ فرعون لم يهتم لهذه الظاهرهٔ العجيبهٔ وبقى مصراً على وضعه السابق حيث أشار فى كلامه إلى تلك اللكنهٔ الّتى كانت لدى موسى فى الصغر. «الآيهٔ الخامسهٔ» تشير إلى اليهود الّذين كانوا يرون فى أنفسهم حالهٔ من التشخّص الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۲ والغرور والعُجب بتصورهم مميزات مختصهٔ بهم تجعلهم يتفوقون ويمتازون على غيرهم من أفراد البشر، وهذا التفكير الخاطىء هو السبب فى ضلالهم وطغيانهم حيث تقول الآيهٔ «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَا تٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّاكَانُواْ يَفْتَرُونَ» «۱». أى أنّ اللّه إذا أراد أن يعذبنا فإنّ عذابه سيكون خفيفاً ولأيّام معدودهٔ وذلك بسبب اننا قوم ممتازون. إن تاريخ بنى إسرائيل يشير إلى انّ هؤلاء القوم كانوا أكثر الأقوام والشعوب طغياناً وذنوباً، وأحد العوامل والأسباب المهمهٔ فى سلوكهم الخاطىء هذا هو الغرور والعُجب لديهم. ومع الأسف إننا نجد أنّ طائفهٔ منهم باسم (الصهاينهٔ) يرتكبون كلّ يوم جرائم بشعهٔ ضدّ الشعوب البشريهٔ بسبب ما دخلهم من الغرور الكبير بعرقهم وامتيازاتهم الزائفهٔ، وفى ذلك شوّهوا تاريخهم السيّء أكثر من السابق. هؤلاء يريدون كلّ شىء لهم ولا يرون للآخرين الحقّ فى أىّ شىء، فهم يرون أنّهم قوم متميزون على سائر البشر وينظرون إلى الآخرين نظر الاحتقار والدونيهٔ. «الآيهٔ السادسهٔ» ناظرهٔ إلى قوم صالح، الّذين قد أسكرهم الغرور إلى درجهٔ أنّهم طلبوا من نبيّهم نزول العذاب الإلهى عليهم، بالرغم من رؤيتهم المعجزات الإلهيهٔ على يد نبيّهم صالح فتقول الآيهٔ «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ ا لْمُرْسَلِينَ» «۲». ويتابع القرآن الكريم ما حدث لهؤلاء القوم الظالمين ويتحدّث عن مصيرهم المأساوى ويقول: «فأخذتهم الرجفهٔ فأصبحوا فى دارهم جاثمين» وهكذا كانت عاقبهٔ القوم المغرورين. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۳ «الآيهٔ السابعهٔ» تتحدّث عن أهل النار الّذين يعيشون العذاب والظلمهٔ الشديدهٔ يوم القيامهٔ فى حين يعيش المؤمنون بنور الإيمان

ويردون عرصات المحشر مسرعين، فينـاديهم هؤلاء المنافقون وأهل النار: «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ا لْأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ ا لْغَرُورُ» «۱». ثمّ تقول الآية الّتى بعدها بصـراحة انه يُقال لهم «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الّذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير». وهنا يتجلّى بصورة واضحة أنّ أحد الصفات البارزة لهؤلاء المنافقين من أهل النار هى الغرور والإبتلاء بحبال الأمانى الطويلـة والتوهمات الزائفـة فى حركة الحياة الدنيوية. وكما ذكرنا فى بدايـة البحث أنّ كلمـة (غَرور) تتضـمن معنى الخـداع والمكر، ولكن أحياناً يخـدع الإنسان نفسه أيضاً ويكون مغروراً بذلك، وأحياناً اخرى ينخدع بوساوس الشيطان أو الأفراد الّذين يعيشون حالة الشيطنة والمكر. «الآية الثامنة» تتحدّث عن المنافقين المغرورين فى هذه الـدنيا وكيف أنّهم ينظرون إلى فقراء المؤمنين الحقيقيين من موقع الحقـارة والإزدراء ويتظـاهرون أمـامهم بـالثروة والمال حيث تقول الآيـة متحدّثـة عنهم وعن حالـة الغرور المسيطرة عليهم «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِنـدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَا تِ وَا لْأَرْضِ وَلكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ» «۲». ثمّ يصل بهم الغرور إلى ذروته بحيث يصرّحون بأنه إذا رجعنا من ميدان الحرب إلى المدينـة فسـوف نُثبت لهؤلاء الفقراء والمعـدمين مَن نحنُ «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ا لْمَدِينَةِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۴ لَيُخْرِجَنَّ ا لْأَعَزُّ مِنْهَا ا لْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ا لْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» «۱». إذا لم يكن المنافقون يعيشون حالة (الغرور) فلا داعى لأن يتبجّحوا بثروتهم وأموالهم أمام المؤمنين وينظروا إليهم نظر الاحتقار والإزدراء وبالتالى ينزلقون فى وادى الكفر والنفاق والضـلال. «الآيـة التاسـعة» تتحدّث عن طبيعة الإنسان، أو بعبارة اخرى: طبيعة الإنسان الّذى لم يتكامل فى مدارج الكمال الأخلاقى بل بقى فى حالـة عـدم النُضـج النفسـى والروحى، فمثل هذا الإنسان عندما يجد اللَّه قد أنعم عليه نعمة فإنه يتملكه الغرور والطغيان بسـبب ضيق افقه وتفكيره فتقول الآيـة «فَأَمَّا ا لْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ» «۲». إذا كان هـذا الكلام صادراً من موقع الشـكر والثناء للَّه‌تعالى فإنه يـدلّ على التواضع قطعاً ويـدفع الإنسان بالتالى إلى مساعـدة الأيتام والمساكين، ولكن كما هو الظاهر من جوّ الآيات أنّ هذا الإنسان بعد ذلك يتحدّث من موقع الغرور والعجب، وبهذا فإنّ هذا الكلام ليس فقط لا يترتب عليه أثراً إيجابياً ومطلوباً بل سيكون مصدراً لطغيانه وتكبره على الحقّ. «الآية العاشـرة» تتحدّث عن المشركين الأنانيين والمغرورين فى مكّة وتقول «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ» «۳». ولكن اللَّه تعالى بعـد ذلك يحذر هؤلاء المغرورين وينذرهم بالعذاب القريب ويقول «سَيُهْزَمُ ا لْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» «۴». وفى جميع هـذه الموارد نلاحـظ جيـداً أنّ الغرور يمثـل عاملًا مهماً فى تورط الإنسان فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۵ دوّامـة الـذنوب والشـقاء والتعاسـة، والقرآن الكريم يُخبرنا بخبر إعجازى عن إنهزام هؤلاء المغرورين وسـرعان ما تلحق بهم الهزيمة والدمار ويكونون عبرة للآخرين. «الآية الحادى عشر» تتحدّث عن المشـركين الّذين اتخذوا الدين السـماوى لعباً ولهواً بسـبب الغرور الّـذى أصابهم والّذى ادّى بهم إلى الكفر والعناد مع الحقّ فتقول الآيـة «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ا لْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» «۱». ولعلّ هـذا التعبير يشـير إلى أنّ هؤلاء لا يقبلون الهدايـة وغير جـديرين بها، لأن الغرور قـد اسـكرهم إلى درجـة أنّهم خُـدعوا بزخارف الدنيا وبريقها المادى، فهم لا يجدون فى أنفسهم استعداداً للتسليم والإذعان للحقّ ولا يواجهون الحقّ إلّاعلى مستوى السخرية والاسـتهزاء، وهـذا يعنى عمق الفاجعـة الّتى تورطوا فيها بسـبب غرورهم وعُجبهم. وعبارة (دينهم) هى إشارة إلى فطريـة الـدين الإلهى حيث يشترك فيه جميع أفراد البشر حتّى المشركين، أو هو إشارة إلى الأشخاص الّذين اتخذوا دينهم الوثنى سخرية بسبب الغرور، فلا يجـدون فى أنفسـهم إلتزاماً بأحكام الوثنية ولا يتحركون مع الأوثان من موقع الانضـباط والإلتزام، أو إشارة إلى الدين الإسـلامى الّذى أنزله اللَّه تعـالى من أجلهم ولمصـلحتهم. «الآيـة الثانيـة عشـر» تتحرّك من موقع التحـذير لجميع النـاس بـأن لا ينخـدعوا بالحياة الـدنيا وبزخارفها ولا يغتروا بجمالها المادى ولا يقعوا فى مصائد الشـيطان وتقول «يأَيُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۲». واللطيف أنّ هـذه الآيـة ذكرت من أسـباب الغرور سـببين: أحـدهما زخارف الـدنيا، والثانى الشـيطان، وهذا التعبير يـدلّ على أنّ الإنسان أحياناً يغتر بالأوهام وبالتصورات الواهيـة بـدون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۶ أن يحظى بشىء من الحياة الماديـة المرفهـة ويتصور لنفسه مقاماً ومنزلـة غير واقعيـة، وبذلك يطغى أمام الحقّ ويواجه اللَّه والدين من موقع الطغيان والتكبر

ويقع فى شراك الشيطان، وصحيح أنّ زخارف الدنيا وجمالها وبريقها هو أحد مصائد الشيطان، ولكن أحياناً يكون الخيال والتصوّرات الذهنية نافذة يعبر منها الشيطان ويستقر فى فكره ويوسوس له ما يغتر به.

النتيجة النهائية:

اشارة

ومن مجموع ما تقدّم من الآيات الكريمة وتفسيرها تتبيّن لنا هذه الحقيقة، وهى أنّ مسألة الغرور والعُجب والأنفة كانت من العوامل الأصلية للفساد والإنحراف والكفر والنفاق منذ أن وضع آدم قدمه على هذه الكرة الأرضيه وحتّى فى جميع أدوار التاريخ البشرى وعصور الأنبياء والأقوام السالفة وإلى هذا اليوم، وقراءة هذه الشواهد ومطالعة هذه الآيات يشير إلى أيّة درجة كانت هذه الصفة الرذيلة مصدر شقاء طائفه عظيمة من الشعوب والمجتمعات البشرية، ولو لم يكن دليلًا على قبح هذه الرذيلة الأخلاقية سوى هذه الآيات لكفى ذلك.

۱- الغرور فى الروايات الإسلامية

إنّ الموقف السلبى والشديد من الغرور فى الروايات الإسلامية ينعكس فى أبواب كثيرة وطوائف متعددة من الروايات: ۱- ففى حديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ ابْعَدُ افَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخَمُورِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «جِمَاعُ الشَّرِّ فِى الْاغرَارِ بِالْمَهَلِ وَالْاتِّكَالِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۷ عَلَى الْعَمَلِ» «۱». فالإنسان المغرور هو الّذى يأتى بعمل بسيط ويتصور بذلك انه من أهل النجاة يوم القيامة ويتحرّك فى حياته الدنيا بكامل الحرية بسبب هذا الغرور، أو انه يكون قد ارتكب بعض الذنوب والمعاصى ولكنه يجد فى امهال اللّه تعالى له امتيازاً لنفسه وبذلك يغتر بهذا الإمهال. ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام أنّ الغرور يتقاطع مع العقل حيث يقول «لَا يُلْقَى الْعَاقِلُ مَغْرُوراً» «۲». ۴- ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً أنّ الغرور يوقع الإنسان فى دوّامة من الخيالات والتصورات الزائفة ويقطع عنه أسباب النجاة حيث يقول: «مَنْ غَرَّهُ السَّرَابُ تَقْطَعَتْ بِهِ الْاسْبَابُ» «۳». ۵- ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً فى تعبير جميل حول طائفة من المنحرفين: «زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ» «۴». ۶- وفى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه يعدّ الغرور والعُجب أحد الموانع لقبول الإنسان للموعظة والنصيحة ويقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حَجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ» «۵». ۷- وورد فى الحديث الشريف عن هذا الإمام أيضاً فى جملة قصيرة وعميقة المحتوى «طُوبَى لِمَنْ لمْ تَقْتُلُهُ قَاتِلَاتِ الْغَرُورِ» «۶». إن ما ورد أعلاه من الروايات الشريفة لا يُعدّ إلّانماذج قليلة ممّا ورد من النصوص الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۸ الكثيرة حول بيان أخطار الغرور والعُجب، ولكن مطالعة هذه النماذج القليلة من الروايات فى هذا الباب يكفى لبيان الأضرار الوخيمة والآفاق السلبية للغرور.

۲- أسباب الغرور

ذكر بعض علماء الأخلاق أنّ الغرور من الصفات القبيحة الّتى يبتلى بها كلّ طائفة من الناس بشكل من الأشكال رغم تعدّد أسبابه ومراتبه ودرجاته. فقد ذكروا أنّ أسباب الغرور والعجب كثيرة جدّاً، وقسّموا المغرورين إلى طوائف مختلفة: طائفة المغرورين بالعلم والمعرفة وهم الأشخاص الّذين يتملكهم الغرور عندما يصلوا إلى مرتبة معيّنة من العلم، فيتصورون أنّهم ملكوا الحقيقة فلا يرون سوى أفكارهم وعلومهم ولا يهتمون بأفكار الآخرين ولايعتبرون لها قيمة، وأحياناً يرون أنفسهم من المقربين عند اللّه تعالى ومن أهل النجاة

قطعاً، ولو انّ البعض واجههم بقليل من النقد فإنّهم سوف يجدون الألم يعتصر قلوبهم لأنهم يتوقعون من الجميع احترامهم وقبول كلامهم. وأحياناً يصيب الغرور بعض الأشخاص الضيقى الافق الّذين تعلّموا عدّة كلمات وقرأوا عدّة كتب وتصوّروا أنّهم فتحوا بلاد الصين وحلّوا المشكلات العويصة فى العلم لمجرّد أنّهم قرأوا الكتاب الفلانى، وهذا من أسوأ أنواع الغرور الّذى يجر العالم إلى منزلقات السقوط والإنحطاط العلمى والإجتماعى. ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول لابن مسعود: «يَاابْنَ مَسْعُود! لَاتَغْتَرَّنَّ بِاللَّهِ وَلَا تَغْتَرَّنَّ بِصَلَاحِكَ وَعِلْمِكَ وَعَمَلِكَ وَبِرِّكَ وَعِبَادَتِكَ» «۱». فنرى فى هذا الحديث الشريف إشارة لعوامل وأسباب اخرى للغرور منها: الأعمال الصالحة، الإنفاق فى سبيل اللّه، العبادات، والّتى يمثل كلّ واحدٍ منها عاملًا من عوامل الغرور. وقد نرى بعض الأشخاص الصالحين الّذين عندما يُوفّقون لأداء بعض العبادات أو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۹ الأعمال الصالحة يتملكهم الشعور بالغرور بسبب ضيق افقهم وصغر نفوسهم فيتصوّرون أنّهم من أهل النجاة والسعاده ويرون سائر الناس بمنظار الإستهانة والتصغير، وهذا قد يؤدى بهم إلى الهلاك والسقوط فى وادى الضلالة والإنحراف. وأحد العوامل الاخرى للغرور هو أن يغتر الإنسان بلطف اللّه وكرمه ومغفرته، حيث نجد بعض الأشخاص يرتكبون الذنوب بجرأة وبدون أىّ تردّد، وعندما يُسأل منهم عن سبب ارتكابهم لهذه الأعمال القبيحة، يقولون: اللّه كريم وغفور ورحيم، فنحن نعرف أنّ اللّه أكبر وأسمى من أن يؤاخذ بهذه الذنوب ويعاقبنا بسبب هذه التصرفات، وأساساً فنحن لو لم نُذنب فلا معنى لعفو اللّه ومغفرته. إنّ مثل هذه الأفكار المنحرفة والكلمات غير المنطقية تزيد من جرأتهم على ارتكاب الذنوب وبالتالى تؤدى بهم إلى السقوط والهلاك. ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم والروايات الإسلامية قد ذمّت هذا النوع من الغرور بشدّة ونهت عنه نهياً مؤكداً كما نقرأ فى الآية السادسة من سورة الإنفطار قوله تعالى «يَا ايُّهَا الْانْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ». ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآية الكريمة «يَا ايُّهَا الْانْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ؟ وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ؟ وَمَا انَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟!» «۱» وفرق بين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه مع ذلك يعيش الجرأة ولا يجد فى نفسه غضاضة لذلك وكأنه يطلب اللّه شيئاً، وبين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه يعيش الخجل والندم ويأمل أن يشمله اللّه تعالى برحمته وعطفه، فالأوّل قد ركب مَطِيَّة الغرور، والثانى هو المتّصل بحبلٍ من اللّه ولطفه والأمل برحمته الواسعة. ومن العوامل والأسباب الاخرى للغرور هو الجهل وعدم الإطلاع والمعرفة، كما أنّ العلم والمعرفة أحياناً يكون سبباً للغرور، فكذلك عدم المعرفة أيضاً قد يسبب الغرور فى الكثير من الأشخاص الجهّال، ولذلك ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۰ قوله «مَنْ جَهِلَ اغَرَّ بِنَفْسِهِ وَكَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ امْسِهِ» «۱». والآخر من أسباب الغرور والّذى يبتلى به الكثير من الناس هو الإغترار بزخارف الدنيا وبريقها من المال والمقام والشباب والجمال والقدرة وأمثال ذلك. إنّ بعض الأشخاص الّذين يعيشون ضيق الافق وصِغَر النفس إذا وجدوا أحياناً أنّهم على شىءٍ من الثروة والمال أو المقام، فسوف ينسون أنّ هذه عارية بأيديهم وأنّها فى معرض الزوال والفناء، وهذا النسيان يتسبّب لهم فى العُجب والوقوع فى دوّامة الغرور، وهذا الغرور يتسبّب لهم فى الابتعاد عن اللّه تعالى والاقتراب من الشيطان والتلوث بكثير من الذنوب. ونقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الدُّنْيَا حُلُمٌ وَالْاغْتِرَارُ بِهَا نَدَمٌ» «۲». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «لَاتَغُرَّنَّكَ الْعَاجِلَةُ بِزُورِ الْمَلَاهِى، فَانَّ اللَّهْوَ يَنْقَطِعُ، وَيُلْزِمُكَ مَا اكْتَسَبْتَ مِنَ الْمَآثِمِ» «۳». ومن العجائب أنّ جميع الناس يرون بامّ أعينهم ظاهرة الزوال السريع للنعم المادية والدنيوية وتلاشى الأموال والثروات وسقوط الحكومات والقدرات الدنيوية كلّ يوم، ولكن عندما تصل النوبة إليهم يتملكهم الغرور الشديد بحيث يتصوّرون انّ ما يتعلق بهم مخلّد وسيبقى إلى الأبد ولا يزول عنهم إطلاقاً. أجل فإنّ أسباب الغرور متنوعة بشكل كبير، والخلاص من هذه المصيدة صعبٌ جداً ولا يتسنّى للإنسان إلّافى إطار التقوى والتوكل على اللّه والإلتفات إلى انّ جميع هذه الامور سريعة الزوال وفانية.

۳- علائم الغرور

إن علامات الغرور تارة تكون واضحة جداً بحيث إنّ الإنسان يدركها فوراً وفى أوّل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۱ بادرة

ویـدرک أنّ الشـخص الفلانی مصاب بـداء الغرور والعُجب، من قبیل عدم اهتمامه بالآخرین، عدم اهتمامه بالحلال والحرام والأحکام الشرعیة، عـدم مراعـاة الأدب مع الکبـار وترک المودّة والمحبّـة مع الأصـدقاء والأقربـاء، التعامـل مع الأقـل منه شأناً من موقع القساوة والخشونـة، التحـدّث بکلام مرتبـک وبعیـد عن الأدب، الضـحک العالی والقهقهـة، قطع کلام الآخرین، النظر إلی الصالحین والأخیار والعلمـاء بعین الحقارة والإزدراء، وکـذلک المشـی بصورة غیر متعارفـة، ضـرب الأقـدام علی الأرض عنـد المشـی، تحریک الکتفین، النظرات غیر المتعارفـة إلی الأرض والسـماء، وحتّی أحیاناً یصـدر منه بعض سـلوکیات المجانین والسـفهاء من الناس، وکلّ ذلک من علائـم الغرور والفخر. ولکن أحیانـاً اخری تکون علائم الغرور خفیـة ومسـتورة، فلا یمکن إدراکها بسـهولة بل تحتاج إلی دقّة وتأمل للعثور علی هذه الصـفة فی واقع النفس أو لدی الآخرین، من قبیل أنّ بعض الأشـخاص وبعد مدّة قصـیرة من الدرس یترکون استاذهم ویرون أنّهم مستغنون عن الدرس والاستاذ، أو من قبیل الشخص الّذی یجد فی نفسه علاقة شدیدة للإنزواء والعزلة عن الناس، ویمکن أن یبرّر ذلـک بعـدم حضور مجالس الغیبـة والتلوث بالـذنوب وأمثال ذلک، فی حین أنّه مع قلیل من الدقـة نجـد أنّ السـبب الحقیقی لـذلک هو الغرور والفخر والعجب حیث یری نفسه طـاهراً ومؤمنـاً ویری الآخرین أقلّ من ذلک شأناً لتلوّثهم وجهلهم. أجل لیس فقط صفـة الغرور هی الّتی تختفی أحیانـاً فی زوایـا النفس، بـل هنـاک الکثیر من الصـفات الرذیلـة تعیش فی واقع الإنسان فی حالـة کمون وخفاء ولا یعلمُ بها الشخص بل قد تظهر هذه الصفات الرذیلة بمظهر حسن وتلبس لباس الفضیلة بحیث یعتقد صاحبها بأنّها فضائل ولا یستطیع تشخیص ذلک إلّاللأساتذة والأساطین من علماء الأخلاق وأصحاب السلوک وأرباب المعرفة.

۴- المعطیات الفردیة والإجتماعیة للغرور

قلّما نجد لسائر الصـفات الرذیلة من الآثار السـیئة والنتائج السـلبیة والمضـرة مثلما نجده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۲ فی الغرور والفخر. إن افرازات الغرور السلبیة تکاد تستوعب جمیع حیاة الإنسان الدنیویة والآخرویة علی مستوی الضرر والفساد، ومن بین الأضرار المترتبة علی الغرور ما یلی: ۱- إن الغرور یسدلّ علی عقل الإنسان وبصیرته حجاباً سـمیکاً یمنعه من إدراک حقائق الامور ولا یسمح له برؤیة نفسه والآخرین کما هو الواقع ولا یسـمح له أن یقیّم الحوادث الإجتماعیة تقییماً سلیماً ویتخذ منها موقفاً صحیحاً. وقد سبق أن ذکرنا الحدیث الشـریف الوارد عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قال: «سُکْرُ الغَفلةِ والغُرور أبْعدُ إفاقةً مِن سُکْرِ الخُمور». ۲- إن الغرور یُعـد عاملًا مهمـاً للفشـل والتخلّف الفکری والجفـاء النفسـی فی حرکـة الحیاة. فالجیش المغرور من السـهل أن یقع فی حبائل الهزیمة والفشـل الـذریع، والسیاسـی المغرور من الیسـیر أن یسـقط فی حرکته السیاسـیة ویخسـر نفوذه الإجتمـاعی ومقـامه السیاسـی، والطالب المغرور یفشل فی الامتحان، والریاضـی المغرور سوف یخسـر اللعبة مع الطرف المقابل، وأخیراً فالمسلم المغرور سیکون مورد الغضب الإلهی، والتعبیر بقوله (قاتلات الغرور) فی الروایات الإسـلامیة یمکن أن یکون إشارة إلی هذا المعنی. ۳- إنّ الغرور یعمل علی توقف حرکـة الإنسـان التکاملیّـة بـل قـد یؤدی به إلی الإنحطـاط والتخلّف، لأـن الإنسـان عنـدما یُصـاب بالغرور فإنه لا یری نقائصه ومعایبه، وبالتالی فالشـخص الّذی لا یشـعر بالنقصان فسوف لا یتحرّک باتّجاه الکمال وإصـلاح الخلل. وهذا ما نقرأه فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام حیث قـال: «مَنْ جَهِـلَ أغرّ بنفسهِ وکان یَومه شـرّاً من أمْسِهِ». ۴- إن الغرور یتسـبّب فی حبـط الأعمال وفساد الطاعـات، لأنّه لا یسـمح للإنسان بأعمال الدقـة فی عمله وبالتالی یتسـبّب فی خراب العمل، فالطبیب المغرور یمکن أن یبعث بمریضـه إلی الموت أو یؤدی به إلی تلف أحـد الأعضاء، والسائق المغرور سـیبتلی بالحوادث الخطرة، وهکـذا المؤمن المغرور قـد یبتلی بالریاء والعُجب وسائر الامور الّتی تفسـد العمل وتحبط الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۳ الحسنات کما ورد فی الحدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قال «غَرُورُ الْاَمَلِ یُفْسِـدُ الْعَمَلَ» «۱». ۵- إن الغرور یمنـع من التفکّر فی عواقب الامور کمـا ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام قوله «لَمْ یُفَکِّرْ فِی عَوَاقِبِ الْاُمُورِ مَنْ وَثِقَ بِزُورِ الْغُرُورِ» «۲». ۶- انّ الغرور غالباً ما یتسـبّب فی الندم وذلک لأن الإنسان المغرور لا یسـتطیع التقییم الصـحیح للحوادث بالنسـبة له وللآخرین وسـیقع فی محاسـباته الفردیـة والإجتماعیة فی الخطأ والاشـتباه، وهذا الأمر

یُفضـی به إلی الندم، وفی هذا المجال یقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام: «الدنیا حلم والأغترار بها ندمٌ» «۳». ۷- ویمکن القول فی جملة واحـدة: إن الأشـخاص الّـذین یعیشون حالة الغرور هُم فی الواقع فقراء ومساکین فی الدنیا والآخرة کما ورد فی الحدیث الشـریف عن الإمام الصادق علیه السلام «الْمَغْرُورُ فِی الدُّنْیَا مِسْکِینٌ وفِی الْآخِرَةِ، مَغْبُونٌ لِاَنَّهُ بَاعَ الْاَفْضلَ بِالْاَدْنَی» «۴».

۵- طرق علاج الغرور

بمـا أنّ الغرور ینشأ غالبـاً من الجهـل وعـدم المعرفـة بـالنفس وعـدم تقییم الـذات بشـکل صـحیح فإنّ أوّل خطوة لعلاج هـذا المرض الأخلاقی هو معرفـة النفس ومعرفـة اللَّه تعالی وکذلک معرفة الاسـتعدادات والقابلیات لدی الأشـخاص الآخرین. إذا رجع الإنسان فی ذکریاته إلی مرحلة الطفولة وجد نفسه عاجزاً عن کلّ شیء، وإذا تفکّر الإنسان فی المراحل المتقدّمة من عمره وجد نفسه عاجزاً أیضاً عن عمل أیّ شـیء، وإذا تفکّر فیما لدیه من القدرة والمال والثروة والشباب والجمال، لوجد انّ جمیع هذه الامور الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۴ تتعرض للتلف والزوال وتصـیبها الآفات المختلفة. وکذلک إذا عاد لینظر فی تاریخ الأقوام السالفة والمجتمعات البشریه الماضـیة وسرعة زوال قدراتها وتلف أموالها وثرواتها وإندثار ما تبقی من امکاناتها وحضارتها وشموخها، لما أصابه الغرور. کیف یغتر الإنسـان بعلمه والحـال انه من المحتمـل أن یُصـاب بضـربة علی رأسه فینسـی جمیع علومه بل ینسـی حتّی اسـمه؟ وکیف یغتر الإنسان بأمواله فی حین أنّ تغییراً بسـیطاً فی السوق أو وقوع حادثة مهمة اجتماعیة أو سیاسـیة أو عسـکریة بامکانها أن تُبید جمیع أمواله بل قد یغرق فی الدین والقرض أیضاً. وعلی أیّة حال فإنّ ممّا یزیل عن الإنسان حالة الغرور والفخر والسـکر بزخارف الدنیا وبریقها هو معرفة النفس وأوضـاع العـالم الـدنیوی المتحرکـة وعـدم ثباتهـا وکثرة تغیرهـا وتبـدلّها. والقرآن الکریم یخـاطب هؤلاء المغرورین من موقع التحـذیر والإنـذار ویقـول: «أَوَلَمْ یَسِیرُواْ فِی الْأَرْضِ فَیَنظُرُواْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الَّذِینَ مِن قَبْلِهِمْ کَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَکْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَیِّنَاتِ فَمَا کَانَ اللَّهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَلکِن کَانُواْ أَنفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ» «۱». وشبیه هذا المعنی ورد فی سورة غافر الآیة ۲۱ و ۸۲ أیضاً إذا تفکر الإنسان جیداً فی معالم وأعضاء جسـمه وکوامن روحه ونفسه لوجد الضـعف مهیمناً علی أجواء کیانه وکیف أنّ الحوادث الجزئیـة والتوافة بإمکانها أن تهدم حیاته وتشل حرکته فسوف لا یصاب بسـکر الغرور أبداً کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام «مِسْکِینُ بْنُ آدَمَ مَکْتُومُ الْاَجَلِ، مَکْنُونُ الْعِلَلِ مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۵ ونقرأ فی حالات (عیّاض) الوزیر المعروف والمقتدر للسـلطان محمود الغزنوی حیث ورد انه کان یـدخل کـلّ یوم فی غرفـة خاصّـة ویغلق البـاب من ورائه وبعـد لحظات یخرج منها، فلفت هـذا السـلوک نظر البعض وتعجّبوا من هـذا السلوک وتصوروا أن سرّاً خطیراً کامناً فی هذه الغرفة، وبعد التحقیق اتّضح لهم انه اخفی ملابسه الّتی کان یلبسها أیّام کان راعیاً للغنم فی هـذه الغرفـة، وکلّ یوم یـدخل إلی هـذه الغرفـة لینظر إلی تلک الملابس الرثّة ویقول لنفسه: لقد کنتَ یا عیاض راعیاً للغنم والآن سلّمک اللَّه مقام الوزارة، فلا تغتر بـذلک وعلیک أن تخشـی غـداً عنـدما تفقـد هذا المقام وعلیک دینٌ ولا تسـتطیع الوفاء به. ولو أنّ جمیع أرباب القدرة والسـلطة سلکوا هذا المسلک فی تربیة نفوسهم فإنّ الغرور لا یجد طریقاً للنفوذ إلی قلوبهم، ولکن مع الأسف فإنّ کلّ إنسان لا یکون مثل عیّاض.

طول الأمل

تنویه:

إن (طول الأمل) یُعد من أهم الرذائل الأخلاقیة الّتی تجر الإنسان إلی ارتکاب أنواع الذنوب والخطایا وتبعده عن اللَّه تعالی وتسلک به فی خـط الشـیطان وبالتـالی یترتب علی ذلک الکثیر من العواقب الوخیمـة. وبالطبع فإنّ أصل (الأمل) لیس فقط غیر مـذموم بل له دور

مهم فی إدامهٔ حرکهٔ الحیاهٔ والتطور البشری فی الأبعاد المادیهٔ والمعنویهٔ. إذا سُلِب الأمل من قلب (الامّ) فإنّها لا تجد دافعاً لإرضاع طفلها وتحمل أنواع المشقهٔ والألم بتربیته وتنشئته کما ورد هذا المعنی فی الحدیث النبوی الشریف «الْاَمَلُ رَحْمَهٌٔ لِامَّتِی وَلَوْلَا الْاَمَلُ مَارَضِعَتْ وَالِدَهٌٔ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرَهَا» «۱». إن من یعلم مثلًا بأن هذا الیوم هو آخر یوم من حیاته أو أنّه سیموت بعد أیّام قلیلهٔ ویغادر الدنیا فإنه سیترک جمیع ما فی یده من أعمال ونشاطات فی دائرهٔ المعیشهٔ والعلاقات الإجتماعیهٔ، وفی الحقیقهٔ فإنّ ذلک یعنی انطفاء شعلهٔ الحیاهٔ ولعلّ أحد الأسباب لخفاء الأجل هو أن یبقی الإنسان فی حالهٔ الأمل والرجاء ویعیش الحرکهٔ الطبیعیهٔ فی امور المعیشهٔ. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۸ کما نقرأ هذا المعنی فی ما ورد عن المسیح علیه السلام (انه کان جالساً یوماً فی مکان وشاهد شیخاً کبیراً یحرث الأرض بمسحاته ویعمل علی سقی الأرض وزراعتها، فطلب المسیح علیه السلام من اللَّه تعالی أن یسلب منه الأمل فی الحیاهٔ: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشیخ المسحاهٔ واضطجع فلبث ساعهٔ فقال عیسی اللّهم أردد إلیه الأمل فقام وجعل یعمل فسأله عیسی عن ذلک فقال بینما أنا أعمل إذ قالت لی نفسی إلی متی تعمل وأنت شیخ کبیر فألقیت المسحاهٔ واضطجعت ثمّ قالت لی نفسی واللَّه لابدّ لک من عیشٍ ما بقیت فقمت إلی مسحاتی «۱». ولهذا السبب فإنّ الأمل ضروریٌّ فی ایجاد التحرّک أکثر لدی أفراد المجتمع من موقع النظر إلی المستقبل فی حرکهٔ الحیاهٔ. ولکنّ نفس هذا الأمل الّذی یُعدّ رمز حرکهٔ الإنسان وسعیه فی حیاته الدنیویهٔ والماء الّذی یسقی أرض حیاته المیّتهٔ ویُنعش احساساته وعواطفه بغدٍ أفضل، نفس هذا الأمل إذا تجاوز عن حدّه المرسوم أصبح علی شکل سیل مدمّر یأتی علی الأخضر والیابس ویُغرق الإنسان فی وحل حبّ الدنیا والظلم والجریمهٔ والإثم. ولهذا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یری فی (طول الأمل) أحد العدوّین الشرسین للإنسان ویقول: «إنّ أشد ما أخاف علیکم خِصْلَتَانٌ اتِّبَاعُ الْهَوی وَطُولُ الْاَمَلِ، فَامَّا اتِّبَاعُ الْهَوی فَانَّهُ یَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ، امَّا طُولُ الْاَمَلِ فَانَّهُ یُحبب الدُّنْیا» «۲». وشبیه هذا المعنی بتفاوت یسیر ورد أیضاً عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغهٔ. وبهذه الإشارهٔ نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها نتیجهٔ طول الأمل وأثره فی مصیر الأقوام السالفهٔ والمجتمعات البشریه بشکل عام: ۱- «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۹ قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ا لْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَا ءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «أَتَبْنُونَ بِکُلّ رِیعٍ ءَایَهً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». ۳- «یُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَکُن مَّعَکُمْ قَالُواْ بَلَی وَلکِنَّکُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَکُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْکُمُ ا لْأَمَانِیُّ حَتَّی جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّکُم بِاللَّهِ ا لْغَرُورُ» «۳». ۴- «أَلَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ا لْحَقّ وَلَا یَکُونُواْ کَالَّذِینَ أُوتُواْ ا لْکِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَیْهِمُ ا لْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَکَثِیرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۴» ۵- «ذَرْهُمْ یَأْکُلُواْ وَیَتَمَتَّعُواْ وَیُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» «۵». ۶- «أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّی فَلِلَّهِ ا لْأَخِرَهُٔ وَا لْأُولَی «۶». ۷- «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَهٍٔ لُّمَزَهٍٔ* الّذی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۷». ۸- «إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّواْ عَلَی أَدْبَارِهِم مّن بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُمُ ا لْهُدَی الشَّیْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَی لَهُمْ» «۸».

تفسیر واستنتاج:

منابع طول الأمل

«الآیهٔ الاولی والثانیهٔ» تتحدّثان عن قوم عادٍ وثمود حیث بعث اللَّه لهم (هود) و (صالح) وکانوا یعیشون الوضع الاقتصادی المزدهر فی زراعتهم وصناعتهم وبالتالی تسبب ذلک فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۰ تعلّقهم الشدید بالدنیا وعاشوا طول الأمل فیها ممّا أورثهم ذلک الغرور والکبر والفخر إلی درجهٔ أنّهم لیس فقط لم یهتمّوا لدعوهٔ أنبیائهم هود وصالح، بل إنّهم تصدوا لهم بالمخالفهٔ والعدوان. القرآن الکریم یذکر فی الآیات الاولی علی لسان النبی صالح علیه السلام مخاطباً لقومه «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ا لْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَا ءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». وفی «الآیهٔ الثانیهٔ» یستعرض القرآن حالهٔ قوم (عاد) والّذی سبقت الإشارهٔ إلیها فی الآیهٔ السابقهٔ فی الحدیث عن قوم ثمود. وتتحدث الآیهٔ

الکریمهٔ علی لسان النبی هود علیه السلام مخاطباً قومه «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». وهنا أراد هو بهذا الکلام أن یُفهم قومه أنّ أحد العلل المهمّهٔ لإنحرافهم عن جادهٔ الصواب وسلوکهم فی خطّ الباطل هو اتباعهم للأهواء واعتمادهم علی الآمال العریضهٔ والطویلهٔ والّتی أدّت بهم إلی الغفلهٔ عن اللّه تعالی والفرق فی زخارف الدنیا والإبتلاء بزبارجها. (مصانع) جمع مصنع، بمعنی البناء العظیم والقصر الشامخ والمستحکم، والأصل لهذه المفردهٔ هی مادّهٔ (صَنَعَ) والّتی تأتی بمعنی أداء العمل الحسن، وعلیه فإنّ (صنع) لا یقال لکلّ عمل، بل یُطلق علی الأعمال الّتی لها امتیاز خاص. إن قوم عاد وثمود تصوّروا بأنّهم وبسبب هذه الأبنیهٔ القویهٔ والمجلّلهٔ والقصور الفخمهٔ الّتی أوجدوها فی قلب الجبال أنّهم بإمکانهم أن یصونوا أنفسهم من الآفات والحوادث الطبیعیهٔ ویخلدوا فیها لسنوات متمادیهٔ بعیداً عن کلّ اشکال الشقاء والبؤس. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۱ ونفس هذا المعنی ورد عن قوم ثمود فی آیات اخری أیضاً حیث نقرأ علی لسان صالح علیه السلام قوله «أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَآ ءَامِنِينَ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» «۱». ولاشکّ أنّ الغرور والغفلهٔ الّتی حصلت لهم من طول الأمل لا تنحصر بقوم عاد وثمود، ولکن القرآن الکریم یذکر هذه الصفهٔ والحالهٔ النفسیهٔ لهؤلاء القوم کصفهٔ بارزهٔ من صفاتهم الأخلاقیهٔ. «الآیهٔ الثالثهٔ» تتحدّث عن جدال المؤمنین والمنافقین یوم القیامهٔ حیث یجد المنافقون أنفسهم یعیشون فی ظلمهٔ المحشر فی حین أنّ المؤمنین یتحرکون نحو الجنّهٔ بنور الإیمان، وهنا یطلب المنافقون من المؤمنین أن یستفیدوا من نورهم وینتفعوا من ضیاءهم، ولکنه یُقام حاجز بینهما یحجب کلّ طائفهٔ عن الاخری. وهنا یصرخ المنافقون «... أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...» «۲» إذن فلماذا أنفصلتم عنّا؟ فیجیب المؤمنون «... قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ ...» «۳». وعلیه فالآیهٔ أعلاه تبین أربع عوامل لشقاء المنافقین، والرابع منها طول الأمل والإغترار بالأمانی الطویلهٔ والعریضهٔ. (امانی) جمع (أمنیهٔ)، وهی من مادّهٔ (مَنی علی وزن (مَغز) وهی فی الأصل بمعنی المقیاس والمیزان، لأن الإنسان فی عالم الخیال وأحلام الیقظهٔ یقیس الامور لنفسه وما یترتب علیها من معطیات، ولهذا السبب یُقال للخیالات الباطلهٔ والکلام الزائف والآمال العریضهٔ (امنیهٔ) وجمعها (أمانی). الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۲ وورد فی تفسیر منهج الصادقین وتفسیر القرطبی فی ذیل هذه الآیهٔ حدیثاً عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأنّ رسول اللّه کان أحد الأیّام یعظ أصحابه فرسم لهم خطوط متوازیهٔ علی الأرض ثمّ خطّ لهم خطاً عمودیاً ثمّ قال: اتعلمون ما معنی هذه الخطوط؟ فقالوا: لا یا رسول اللّه! فقال: هذه الخطوط هی من قبیل الآمال والتمنیات للناس (والّتی لا حدّ لها ولا حصر) وامّا ذلک الخط العمودی فهو الموت ونهایهٔ الحیاهٔ الدنیا الّذی خُطّ علی بنی آدم جمیعاً والّذی سوف یُبطل جمیع هذه الآمال والتمنیات. ونفس هذا المعنی مع تفاوت یسیر نقله (ابن مسعود) عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله حیث قال: «خطّ لنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله خطاً مربعاً، وخطّ وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخطّ عن یمینه ویساره خطوطاً صغاراً، فقال: هذا ابن آدم وهذا أجله محیط به وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإنّ اخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» «۱». «الآیهٔ الرابعهٔ» تخاطب المؤمنین بصورهٔ غیر مباشرهٔ وتحذرهم بأن یکونوا علی وعیٍ کامل بوضعهم وحالهم لکی لا تأخذهم الآمال والتمنیات وتُفضی بهم إلی المصیر المؤلم للأقوام السالفهٔ وتقول «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۲». والمفهوم من هذه الآیهٔ انّ ما یبعث علی لین قلب الإنسان وانعطافه وتوجهه إلی الحقّ وتحرّکه فی خطّ الإیمان والانفتاح علی اللّه هو ذکر اللّه تعالی، أجل فإنّ ذکر اللّه من شأنه أن یُزیل جمیع الآمال الطویلهٔ والعریضهٔ ویجعل الإنسان ملتفتاً إلی مسؤولیاته وواقعه ویُجلی قلب الإنسان ویضیئه، ویتسبّب فی أن یتحرّک الإنسان فی تصوراته وتفکیره من رؤیهٔ الواقع وحقیقهٔ الحیاهٔ الدنیا فیری عدم ثباتها وعدم استقرارها جلیاً أمام ناظریه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۳ «الآیهٔ الخامسهٔ» تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله مشیرهً إلی الکفّار والمشرکین وتقول «ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» «۱». أجل أنّ هؤلاء مثلهم کمثل الدواب والأنعام لا یفهمون من الحیاهٔ الدنیا سوی المأکل والمشرب والتمتع بإشباع الشهوات البدنیهٔ، وعلیه فهم أضل من الأنعام واسوأ حالًا بسبب أنّهم یعیشون طول الأمل فی حیاتهم وأفکارهم بحیث

إن طول الأمـل هـذا يمنعهم من التفكير بمسـتقبلهم ومـا ينتظرهم فى الغـد حتى ينشب الموت مخالبه فى أرواحهم. وهنا نجـد أنّ الآية توضح الأثر السلبى للآمال الطويلة على حياة الإنسان وتبين إلى أيّة درجة تجعل هذه الآمال الإنسان مشغولًا بنفسه ودنياه وغافلًا عن اللّه تعـالى. وجملـة (ذرهم) تبين بوضوح انه لاـ أمـل فى هدايـة هؤلاـء وإلّا فإنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله فى الأصل مأمورٌ بهـداية جميع الناس فلا معنى لأن يتركهم مع احتمال الهدايـة فيهم. وكيف يصـحّ توقّع الهدايـة من طائفة من الناس فى حين أنّ هدفها النهائى فى حركـة الحياة هو الأكل والشـرب والنوم والحياة فى الـدنيا كما تعيش الحيوانات، لأن هـذه الآمال الطويلة لا تدعهم يفكرون لحظة فى نهايـة هـذه الحياة وخالقها والواهب لكلّ هـذه المواهب فى عالم الوجود وما هى الغايـة من هذا الخلق العظيم؟ «الآية السادسة» من الآيـات مورد البحث والتى تشير إلى هـذه الحقيقـة، وهى انّ الآمـال الطويلـة الّتى لا يحصل عليها الإنسان غالباً تحيط بالإنسان وتؤسر جميع امكاناته وقابلياته وتحجزه عن سـلوك طريق السـعادة وبالتالى سـتمنعه من سـلوك طريق الكمال المعنوى والإنسانى وتقول: «أَمْ لِلْإِنسَـانِ مَا تَمَنَّى «۲». وهـذا الاسـتفهام فى الحقيقـة هو نوع من الاسـتفهام الإنكـارى، فكيف يمكن أن يعيش الإنسان كلّ هـذه الآمال والتمنيـات وينالهـا ويصـل إلى مقاصـده فى حين أنّ طول هـذه الآمال الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۴ يسـتغرق أحياناً عشرات أو مئات الأضـعاف من عمر الإنسان الطبيعى، وأحياناً تقع هـذه التمنيات فى خطّ اللانهاية بحيث كلّما وصل الإنسان فى حركة الحياة إلى مقدار معيّن منها تجلّت له آمال اخرى تدعوه إلى مواصـلة الحركة. ويجب الانتباه إلى أنّ هذه الآية وردت بعد آيات تشـير إلى اصنام المشـركين الّذين كانوا يعيشون الأمل بشـفاعتها والقرب من اللّه تعالى بواسـطتها، فالقرآن يقول: إنّ هذا الأمل لا يتحقّق إطلاقاً، ولكن مع ذلك فإنّ مفهوم الآية عام، وكما فى الإصطلاح أنّ المورد لا يخصّص الوارد. «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل الدنيا الّذين يعيشون الآمال الطويلـة والتمنيات العريضـة وتقول: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الّذى جَمَعَ مَالًا وَعدَّدَهُ «۱»* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۲». وفى الواقع أنّ هـذه الآيات الثلاثـة بمثابة العلّة والمعلول، لأن الإنسان الأنانى والإنتهازى سوف يتحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الإسـتهزاء بسبب الثروة الكبيرة والمال الكثير عنده والّذى جَمَعه بطرق غير مشروعة، لأنه جَمَع مثل هذه الثروة بدافع من تصوّره أنّ هذه الثروة من شأنهـا أن تكتب له الخلود فى هـذه الحياة، فهـذا التصوّر المصـحوب ب (طول الأمل) وكثرة التمنيات الدنيويـة تسـبب لهـذا الشـخص الغرور والإسـتعلاء والعجب، وهذا بدوره يتسـبب فى أن يتحرّك مع الآخرين من موقع الإستهزاء والسخرية «۳». ويُستفاد جيداً من هذه الآيـة أنّ الآمال والتمنيات الطويلـة والعريضـة تارةً تصل إلى حـدّ ينسـى الإنسان معها الموت تماماً ويتصوّر انه مخلّـد أبـد الدهر، وهذا الأمـر يؤدى به إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۵ الطغيان ويقوّى فيه حالـة الإسـتكبار والفوقية وبالتالى تورثه هذه الحالة الوقوع فى الكثير من الذنوب الاخرى. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث: تتحدّث عن طائفة من الأشخاص الّذين عرفوا الحقّ من موقع الوعى ولكنهم أداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه بعـد ذلـك وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَـدُّواْ عَلَى أَدْبَـارِهِم مّن بَعْـدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُـدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» «۱». (أَمْلَى لهم) من مادّة إملاء، بمعنى ظهور الآمال البعيـدة والطويلـة الّتى تشـغل الإنسان بنفسه. وهذه الآيـة فى الحقيقـة نـاظرة إلى هـذا المعنى وهو انه كيف يمكن أن يكون الإنسـان عارفاً للحقّ ومصـدّقاً به فى البدايـة ثمّ يتجاهل هـذه العقيـدة ويعرض عنهـا ويوصـد أبواب النجـاة أمـامه ويسـلك فى خطّ الإنـحراف والزيغ. هـل يمكن للإنسـان العاقل أن يسـلك هـذا المسـلك؟ أجَل فعندما تحيط الوساوس الشـيطانية بالإنسان وتصوّر له القبائح حسنات وتوقعه فى منزلقات الآمال والتمنيات الطويلة فلا يبعـد أن ينسـى ما كان عليه من الحقّ ويعرض عنه بسبب ذلك. ومن هنا يمكن إدراك البلاء العظيم الّذى تنزله الآمال الطويلـة على الإنسـان وكيف أنّ الإنسـان العاقـل يفقـد عقله معهـا تماماً ويصـبح غريباً عن ذاته ويترك عقله لمجموعـة من الأوهام والخيالات الّتى تقوده فى خـط الباطل وتبتعـد به عن اللّه تعالى. ومن مجموع الآيات المـذكورة آنفاً والّتى تحـدّثت عن مصير بعض الأقوام الماضـين وبعض المعاصـرين لعصـر النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، وبعض الآيات تحـدّثت بشـكل قانون عام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۶ يمكن اسـتخلاص هـذه النتيجـة، وهى انّ طول الأمـل وكثرة التمنيـات تُعـدّ من أخطر أعـداء الإنسـان فى صـياغة حياته السـعيدة، وبإمكانها أن توقع أفراد البشر بل المجتمعات البشرية فى هوّة السقوط والإندثار والشقاء.

طول الأمل فی الروایات الإسلامیة:

بما أنّ طول الأمل له تأثیر مخرب جداً علی حیاة الإنسان المعنویة والأخلاقیة وحتّی الدنیویة والمادیة أیضاً، فإنّ الروایات الإسلامیة قد ذمت هذه الخصلة بتعبیرات مختلفة، وأشارت إلی أسباب منطقیة لذلک، وعلی سبیل المثال نشیر إلی نماذج من هذه الروایات: ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قوله: «ارْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ جُمُودُ الْعَیْنِ وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ وَطُولُ الْامَلِ وَالْحِرْصِ عَلَی الدُّنْیا» «۱». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ اطَالَ امَلَهُ سَاءَ عَمَلُهُ» «۲». وهذا المعنی ورد بصورة أوضح فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أنّه قال «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۳». ۳- وورد فی نهج البلاغة فی الخطبة ۱۴۷ تعبیراً عمیقاً فی هذا المجال قال: «انَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَیُّبِ آجَالِهِمْ حَتَّی نَزَلَ بِهِمْ الْمَوْعُودُ الَّذی تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ». ۴- وفی حدیث آخر عن فاطمة بنت الحسین علیهما السلام عن أبیها الإمام الحسین علیه السلام عن جدّه رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «انَّ صَلَاحَ اوَّلِ هَذِهِ الْامَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْیَقِینِ وَهَلَاکَ آخِرِهَا بِالشُّحِّ (بِالشَّکِّ) وَالْامَلِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۷ وبدیهی أنّ من العوامل المهمة لانتصار المسلمین فی صدر الإسلام هو الإیمان والیقین الراسخ بالإضافة إلی عدم اهتمامهم بزخارف الدنیا وبریقها، حیث تسبب ذلک فی أن یرد المسلمون الأوائل إلی میدان القتال والجهاد بشجاعة فائقة وشوق بالغ فلم یکونوا یرون إلّا اللّه تعالی ولا یتحرکون إلّافی خط الطاعة والتقوی ولا یدیرون ظهورهم إلی الأعداء من موقع الهزیمة والتخاذل. ولکن عندما امتدت إلیهم الآمال الطویلة وملکتهم العلائق الدنیویة وخدعتهم ظواهر الدنیا حلّ الشک والتردید محلّ الیقین، والشغف بأُمور الدنیا محلّ الزهد، وبدأوا یتراجعون أمام أعدائهم ویسلکون سبیل التخلف والإنحطاط الحضاری والثقافی، فلا سبیل لهم الیوم لتجدید عظمتهم الاولی سوی احیاء تیْنَک الأصلین الرئیسیّین. ۵- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «الْامَلُ سُلْطَانُ الشَّیَاطِینِ عَلَی قُلُوبِ الْغَافِلِینَ» «۱». ۶- وجاء فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً انه وصف مثل هؤلاء الأشخاص بعنوان شرّ الناس وقال: «شَرُّ النَّاسِ الطَّوِیلُ الْامَلِ، السَّیِّءُ الْعَمَلِ» «۲». وکذلک ورد فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً قوله: «انَّ الْمَرْءَ یُشْرِفُ عَلَی امَلِهِ فَیَقْطَعُهُ حُضُورُ اجَلِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ لَاامَلٌ یُدْرَکُ وَلَا مُؤَمَّلٌ یُتْرَکُ» «۳». ۷- وفی حدیث شریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «اشْرَفُ الْغِنَی تَرْکُ الْمُنَی» «۴». لأن التمنیات الطویلة والعریضة تتسبّب فی أن یعیش الإنسان الحاجة والفقر فی نفسه دائماً ویمدّ یده فی سبیل إشباع هذه الحاجة إلی أیّ شخص وبذلک یحقق شخصیته ویسحق حیثیّته الإنسانیة من أجل هدف لن یصل إلیه أبداً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۸ ۸- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام قوله: «کَذَّبَ مَنِ ادَّعَی الْایمَانَ وَهُوَ مَشْغُوفٌ مِنَ الدُّنْیَا بِخِدَعِ الْامَانِیِّ وَزُورِ الْمَلَاهِیِّ» «۱». ومن الواضح أنّ المتعلق بالدنیا والمشغوف بزخارفها وملذاتها فإنه ومن أجل الوصول إلی کلّ شیء منها لابدّ له أن ینسی کلّ شیء یشدّه إلی الحقیقة والواقع ومن ذلک سوف یُصاب الإیمان بالإهتزاز والضعف. ۹- وکذلک ورد عن هذا الإمام فی حدیث قصیر وملیء بالمعنی أنّه قال: «الْامَانِیُّ تُعْمَی عُیُونَ الْبَصَائِرِ» «۲». ۱۰- وورد فی حدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال یوماً لأصحابه «اکُلُّکُمْ یُحِبُّ انْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟». «قَالُوا نَعَمْ یَا رَسُولَ اللَّهِ» قال: «قَصِّرُوا مِنَ الْامَلِ وَاجْعَلُوا آجَالَکُمْ بَیْنَ ابْصَارِکُمْ وَاسْتَحْیُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَیَاءِ» «۳». ۱۱- وأیضاً نقرأ فی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «انَّ الْامَلَ یُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَیُکَذِّبُ الْوَعْدَ، وَیَحِثُّ عَلَی الْغَفْلَةِ وَیُورِثُ الْحَسْرَةَ» «۴». ۱۲- ونختم هذا البحث بروایة اخری عن رسول اللّه بعنوان (مسک الختام)، فقد ورد فی هذا الحدیث أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أخذ ثلاثة أعواد فغرس عوداً بین یدیه والآخر إلی جانبه وأما الثالث فأبعده وقال: هلا تدرون ما هذا؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «هَذَا الْانْسَانُ! وَهَذَا الْاجَلُ! وَهَذَا الْامَلُ یَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَیَخْتَلِجَهُ الْاجَلُ دُونَ الْامَلُ!» «۵». الأحادیث الشریفة أعلاه والّتی هی غیض من فیض الروایات المذکورة فی المصادر الإسلامیة فی باب طول الأمل تبین بوضوح سعة دائرة الخطر وعمق الفاجعة المترتبة علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۹ هذه الرذیلة الأخلاقیة، وتؤکد علی أنّ الآمال الطویلة والتمنیات العریضة تُعد من أشد أعداء سعادة الإنسان والمانع القوی أمام حرکته

فی خط القرب الإلهی والإیمان والانفتاح علی اللَّه.

الآثار السلبیهٔ لطول الأمل:

اشارهٔ

إن للآمـال والتمنیـات الواسـعهٔ آثـار مخربـهٔ کثیرهٔ فی حیـاهٔ الإنسـان المعنویـهٔ والمادیـهٔ والّتی اشـارت إلیهـا الروایات المـذکورهٔ آنفاً، وکـذلک مـا ورد فی الآیـات القرآنیـهٔ المـذکورهٔ فی صـدر البحث، وبشـکل عام یمکن القول: أنّ طول الأمل یترتب علیه آثار مخرّبهٔ ونتائج مدمّرهٔ کالتالی:

۱- طول الأمل مصدر الکثیر من الذنوب

إن أحـد أسوأ الآثار السـلبیهٔ لطول الأمل والتمنیات العریضـهٔ هی أنّها تـدعو الإنسان للتورط بأنواع الذنوب لأن الحصول علی متعلقات هـذه الآمال والتمنیات لا تتسـنّی عادهٔ إلّا بطرق غیر مشـروعهٔ، وعلیه فإنّ من یعیش هذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ یجد نفسه مضـطراً إلی الغض عن الکثیر من مسائل الحلال والحرام فی سبیل تحقیق أمنیاته وأن لا یُراعی فی ذلک حقوق الآخرین ولا ممنوعات الشـریعهٔ المقدسهٔ، فیتحرک من موقع غصب حقوق النـاس، أکـل أموال الیتامی التطفیف فی المیزان، أکل الربا، الرشوهٔ وأمثال ذلک. ولهـذا السـبب فقد ورد فی الحدیث المعروف فی (غرر الحکم) «مَنْ طَالَ امَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ» «۱». وورد أیضاً «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۷۰ وجاء فی النقطهٔ المقابلـهٔ لـذلک: «مَنْ قَصَّرَ امَلُهُ حَسُنَ عَمَلُهُ» «۱». وکلّ من هـذه الأحادیث الثلاثـهٔ وردت عن مولانا أمیرالمؤمنین الّذی نفدیه بأنفسنا ونفدی کلامه النورانی البنّاء.

۲- طول الأمل وقساوهٔ القلب

وکما رأینا فی الآیات القرآنیـهٔ المـذکورهٔ فی بدایـهٔ البحث انها تتحـدّث عن أحـد الأقوام الماضـیهٔ وتقول: «فطال علیهم الأمد فقسـت قلوبهم». والسـبب فی ذلک واضـح، لأن طول الأمل یورث الإنسان الغفلهٔ عن اللَّه تعالی ویقوی فیه عنصـر الحرص ویُبعده عن الآخرهٔ، وکلّ هذه من الأسـباب المهمهٔ لقساوهٔ القلب. ولهذا السـبب ورد فی الحدیث الشـریف أنّ اللَّه تعالی خاطب موسـی وقال: «یَا مُوسَی لَا تُطَوِّلْ فِی الـدُّنْیَا امَلَکَ فَیَقْسُوا قَلْبَکَ، وَالْقَاسِـی الْقَلْبِ مِنِّی بَعِیدٌ» «۲». ونفس هـذا المعنی ورد فی حـدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال: «مَنْ یَأْمُلُ انْ یَعِیشَ ابَداً یَقْسُو قَلْبُهُ وَیَرْغَبُ فِی الدُّنْیَا» «۳».

۳- طول الأمل ونسیان الأجل

وهذا الأثر السـلبی لا یحتاج إلی مزید شرح وبسط، ویمکن فهمه بوضوح علی مستوی الأشخاص الّذین یعیشون هذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ حیث لا تجـدهم یـذکرون الموت أبـداً ویفکرون بالآخرهٔ بل یعیشون الغفلـهٔ التامّـهٔ عن هـذه الامور المصـیریهٔ. وقـد جاء فی الحـدیث المعروف عن النبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله وکـذلک عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام القول: «طُولُ الْامَـلِ یُنْسِـی الْـاخِرَهِٔ» «۴». «اکْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ لِلْمَوْتِ ذِکْراً» «۵».

۴- طول الأمل والعُسر فی الحیاهٔ

ومن البديهى انه كلّما امتدت آمال الإنسان وقويت جذورها فى واقع النفس فإنّها تتطلّب موارد ومقدّمات أكثر، وكذلك تدعو صاحبها للإقتصاد أكثر فى الأموال والثروات لغرض التوصل إلى تحقيق تلك الآمال والتمنيات، ونتيجة هذين الأمرين هى أن يعيش الإنسان فى ضنكٍ من العيش وتعب من زحمة العمل وصعوبة المشكلات الّتى يواجهها هو وعائلته حيث يجد نفسه مضطراً إلى العمل ليل نهار وبدون توقف. وفى ذلك وردت أحاديث عن أميرالمؤمنين تقول: «مَنْ كَثُرَ مُنَاهُ كَثُرَ عَنَائُهُ». وقال أيضاً: «مَنِ اسْتَعَانَ بِالْاَمَانِىِّ افْلَسَ». (حتّى لو عاش حياة الأغنياء فى كثرة المال والثروة). وقال أيضاً: «الرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ» «۱».

۵- طول الأمل والذلّة فى الحياة

إنّ الأشخاص الّذين يعيشون الآمال الطويلة مضافاً إلى كدحهم وتعبهم الدائم فإنّهم يعيشون فى شخصيّتهم الإنسانية الشعور بالذلّة والحقارة حيث يضطرون إلى سحق حيثيّتهم لغرض التوصل إلى هدفهم الموهوم والخيالى ويذعنون ويخضعون أمام كلّ أحد ويمدّوا أيديهم لأىّ شخص كما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «ذُلُّ الرِّجَالِ فِى خَيْبَةِ الْاَمَالِ» «۲».

۶- الحرمان من النعم والمواهب

وكما تقدّمت الإشارة إليه فى الأشخاص المتورطون فى دوّامة الأمل ومستنقع التمنيات فإنّهم يجدون أنفسهم مضطرون إلى الاقتصاد والتقتير على أنفسهم فى الحياة وعدم الإستفادة من المواهب الكثيرة والنعم الوفيرة الّتى لديهم كلّ ذلك من أجل تحقيق تلك الآمال البعيدة، ولهذا السبب فإنّهم يقترون ويقتصدون فى كلّ شىء حتّى على أنفسهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۲ وعائلتهم، وهذا هو البخل أو الشح الّذى يحرم الإنسان من النعم والمواهب الإلهية فى عين تملكه للإمكانات والثروات الوفيرة فيعيش عيشة الفقراء وهو غنى. وقد نرى فى زماننا هذا بعض الأشخاص الّذين يبتلون بطول الأمل ويتحركون فى سبيل تأمين حياتهم وأبناءهم تحت عنوان (التأمين على الحياة) ويُحرموا بذلك أنفسهم وأبناءهم من المواهب والنعم الإلهية الكثيرة!!

۷- طول الأمل وعدم إدراك الحقائق

إنّ الآمال والتمنيات البعيدة حالها حال السراب الّذى يخدع الضمآن فى الصحراء المحرقة ويجرّه إليه ليعيش الضمأ والعطش أكثر دون أن يصل إلى مقصوده، فهذه الآمال والتمنيات تُظهر الامور الواقعية بأقنعة مزيّفة ولذلك لا يُدرك الإنسان أين يذهب وإلى أين يتجّه؟ وما هى وظيفته فى قِبال الامور المصيرية؟ ومن ذلك ورد فى الحديث الشريف الّذى سبقت الإشارة إليه، عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الْاَمَانِىُّ تُعْمِى عُيُونَ الْبَصَائِرِ» «۱». وخلاصة الكلام انّ الشخص الّذى يمكنه إدراك وجه الحقيقة الجميل كما هو عليه هو الشخص الّذى لا يغطى عقله بحجاب الآمال والتمنيات ولا يعيش وسط السُحُب المظلمة والمظلّلة لطول الأمل.

۸- طول الأمل وكفران النعمة

ومن البديهى أنّ طول الأمل يقود الإنسان لأن يتعلق قلبه بما لا يحصل عليه أبداً ولهذا فإنه يرى نعمة اللّه عليه قليلة ومواهبه حقيرة فلا يتعامل مع ما لديه من هذه المواهب العظيمة من موقع الإهتمام والعناية وهذا هو عين كفران النعمة ممّا يترتب عليه عواقب سيّئة فى الدنيا والآخرة. وقد ورد فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَانَّهَا تُذْهِبُ بِبَهْجَةِ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، وَتُلْزِمُ اسْتِصْغَارَهَا لَدَيْكُمْ، وَعَلَى قِلَّةِ الشُّكْرِ مِنْكُمْ» «۲».

دوافع طول الأمل وأسبابه:

إن العمـدة فى دوافع طول الأمل هو الجهل وعدم الإطلاع على حال الدنيا وما فيها من التغيرات والإبتلاءات وعناصـر التضاد فى حركـة الحيـاة، وكـذلك الجهـل بقـدرة اللَّه ولطفه وثوابه العظيم فى الآخرة، فمجموع هـذه الجهالات تـدفع الإنسان إلى منزلقات طول الأمل والتمنيات العريضـة. وتوضـيح ذلك: إن الإنسان وبسـبب جهله بنفسه وعدم الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّه قد يحين أجله فى كلّ لحظة ويرحل عن هذه الدنيا، فقد تعترض جلطة من الدم فى شـرايين قلبه أو دماغه فيُصاب بالسكتة القلبية أو الدماغية أو يُصاب بزلزلة أو حريق أو حادثة سيارة وأمثال ذلك ممّا يُنهى حياته الدنيوية، نعم وبسبب جهله بهذه الامور فإنه يتورط فى شراك الآمال والتمنيات البعيـدة ويحسب أنّ عمره طويـلٌ جـداً ثمّ يحيـط نفسه بطائفه من التصورات الواهيـة والآمال البعيـدة الّتى لا تسـمح له أن يفكر بالواقع وبالحقـائق المحيطـة حوله فى واقع الحياة. وهكـذا بالنسـبة إلى جهله بحال الـدنيا وعـدم وفائها لا بالصـغير ولا بالكبير، ولا بالشاب ولا بالشـيخ، فنرى أحيانـاً أنّ مئات الصبيان يموتون قبل أن يموت شـيخ واحـد، واخرى قبل أن يموت المريض بالسـرطان يموت عشـرات الأشـخاص السالمين. وأحياناً تجر السـلاطين إلى أن يعيشوا الذلّة والمهانة ويستبدلوا عروشهم وقصورهم بزنزانات السجن، وقد يصبح الثرى الغـارق فى النعمـة بين عشـية وضـحاها فقيراً معـدِماً لا يجـد عشاء يومه، أجل فالجهل بهـذه الامور من شأنه أن يوقع الإنسان فى دوامـة طول الأمل. وهنا يقول سـلمان الفارسـى التلميـذ الكبير لمدرسـة الوحى: «ثَلَاثٌ اعْجَبَتْنِى حَتَّى اضْحَكَتْنِى: مُؤَمِّلُ الـدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلِبُهُ، وَغَافِـلٌ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِـكٌ بمـل فِيهِ لَـا يَـدْرِى اسَاخِـطٌ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ امْ رَاضٍ عَنْهُ» «۱». وفى الروايات الإسـلامية اشـارات واضـحة على هـذا المعنى حيث يقـول الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۴ أميرالمـؤمنين عليه السـلام: «مَنْ ايْقَنَ انَّهُ يُفَارِقُ الْاحْبَابَ وَيَسْـكُنُ التُّرَابَ وَيُوَاجِهُ الْحِسَابَ وَيَسْـتَغْنِى عَمَّا خَلَّفَ، ويَفْتَقِرُ الَى مَا قَـدَّمَ كَانَ حَرِيّاً بِقَصْـرِ الْامَلِ وَطُولِ الْعَمَلِ» «۱». وجاء فى حـديث آخر عن هـذا الإمام أيضاً: «اتَّقُوا خِدَاعَ الْآمَالِ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلِ يَوْمٍ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَبَانِى بَنَاءٍ لَمْ يَسْـكُنْهُ، وَجَامِعِ مَالٍ لَمْ يَأْكُلْهُ» «۲». وأحيانـاً يكون الجهل بالآخرة والثواب العظيم الخالـد الّـذى أعـدّه اللَّه للمؤمنين سـبباً فى أن يتصور الإنسان الخلود لهـذه الحياة الـدنيا ويغرق فى الأوهـام والتمنيات والآمال الدنيويـة وأحياناً يتسـبب جهله بالسـعادة الكامنـة فى الزهـد والتحرر من أسـر الشـهوات والنوازع الدنيويـة إلى أن يُحرق نفسه بنار طول الأمل. وقـد ورد فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السـلام قوله: «اسْـتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقَصْـرِ الْامَلِ» «۳». وأحياناً يغفل الإنسان عن قدرة اللَّه تعالى وينسـى هذه الحقيقة الحاسـمة فى واقع الحياة أو يكون جاهلًا بها ولا يعلم أنّ اللَّه تعـالى ومنـذ انعقـاد نطفته فى رحم امّه فـإنه بعين اللَّه ومحطُّ عنايته ورعايته فى كلّ اموره فى حين انه كان يعيش الضـعف بمنتهاه ولا تصل إليه يد أحد من الناس لتُعينه وتوصل إليه رزقه فى ظلمات الرحم، وتسـتمر عناية اللَّه به إلى آخر حياته، وكذلك حال أولاده إذا كانوا يسيرون فى خط الإيمان والصلاح فإنّ اللَّه تعالى لا يتركهم لوحدهم، وإن كانوا من أعداء اللَّه فلا مسوّغ لأن يتعب الإنسان نفسه فى سبيلهم وخـدمتهم. أجـل فـإنّ الجهـل بهـذه الامور يؤدى بالإنسـان إلى أن يُسـجّل اسـمه فى دائرة (التأمين على الحياة له ولأبناءه) وهكـذا يتورط بمصـيدة طول الأمـل. إن جميع حالاـت الجهل هـذه (جهل الإنسان بنفسه، جهله بالـدنيا، جهله بقـدرة اللَّه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۵ تعالى، جهله بالآخرة ونعيمها الخالد) يتسـبب فى أن يعيش الإنسان الحيرة والضـياع فى صـحراء الحياة المحرقة أسير الآمال والتمنيات العريضة.

علاج طول الأمل:

لابـدّ فى علاج الأمراض من التوجّه إلى الجـذور وقلعها من الأساس ليتسـنّى للإنسان التخلص من المرض بشـكل حاسم، كما لم يقطع جذور المرض فإنّ العلاج السطحى والظاهرى سوف لا ينفعه على المدى الطويل، وبعبارة اخرى: انه حالة من حالات التسكين للمرض لا علاجه. وبالنظر إلى هذا الأصل الأساس ومع الإلتفات إلى جذور الآمال والتمنيات فى واقع الإنسان يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة، وهى أنّه لابـدّ من التفكّر والتأمـل بجدّيـة فى جـذور هـذا المرض الأخلاـقى. فمن جهـة يجب على الإنسـان أن يعلم بأنه كائن مُعرّض

للتلف والموت وأنّ الفاصلة بينه وبين الموت قليلة جدّاً، فهذا اليوم يعيش السلامة والصحّة والنشاط ولكن قد نجده غداً وهو متورط بأنواع الأمراض الصعبة أو المصائب المحزنة، واليوم هو قوى وغنى ومتمكن، وغداً يمكن أن يبدو ضعيفاً ومن أفقر الناس، والنماذج على ذلك كثيرة فى صفحات تاريخ البشرية. ومن جهة اخرى يجب أن يتفكر فى إهتزاز الدنيا وتغيّرها الدائم وعدم اعتبارها. أجل فإنّها لا تثبت لأحدٍ من الناس إطلاقاً. ومن جهة ثالثة عليه أن يتدبّر ويتأمل بهذه الحقيقة، وهى اننا نعتقد بالمعاد واليوم الآخر والحساب الإلهى فى عرصات المحشر والثواب والعقاب على الأعمال والأفعال فى الدنيا وأنّ هذا العالم ما هو إلّاقنطرة وجسر يعبر عليه الإنسان إلى تلك الحياة الخالدة فعليه أن يتزوّد من هذه الحياة ولا يتصور أنّها حياة خالدة وانها هى الأصل والهدف من الخلقة. وكذلك يتفكّر فى أنّ الحرص على جمع الأموال والثروات واكتنازها لغرض تحقيق تلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۶ الآمال والتمنيات الواسعة فى الحياة الدنيا لا يجلب له السعادة أبداً، بل سيزيده شقاءاً ومحنةً أيضاً، ويتفكّر أيضاً فى أنّ أهم حالات الهدوء والطمأنينة هى هدوء الروح وسعادة الوجدان الّتى لم يحصل عليها الإنسان، إلّاإذا سار فى خطّ التقوى والتوكل على اللَّه من موقع الإيمان به ومعرفة حال الدنيا لا من موقع الحرص والولع فى تحصيل نعيمها الفانى وإمكاناتها المادية. وأنّ أفضل الطرق للوصول لهذا الهدف هو ما ورد فى الحديث النبوى المعروف: «خُذْ مِنْ دُنْيٰاكَ لِاخِرَتِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسُقْمِكَ، فَانّكَ لَاتَدْرِى مَا اسْمُكَ غَداً» «۱». أى ماذا يحصل لك فى الغد وهل أنت من الأموات أم الأحياء، من المرضى أم الأصحّاء؟ والعامل الآخر الّذى يُربّى الآمال والتمنيات ويقوى جذورها فى نفس الإنسان هو الأهواء النفسية والعشق للدنيا والتعلق بها، فكلّما سعى المرء فى التقليل من تعلّقاته الدنيوية فإنّ أمله فى الحياة سيكون أقصر، وعلى العكس من ذلك كلّما تعلّق الإنسان بالدنيا أكثر كلّما ازدادت آماله وكثرت تمنياته. ولغرض تحصيل هذا الهدف أى تقصير الأمل فى الدنيا فإنّ من أقوى العوامل المؤثرة فى ذلك هو ذكر الموت الّذى يُزيل عن بصيرة الإنسان حجُب الغفلة فيرى حقائق الامور كما هى ويُشاهد الواقعيات الكامنة خلف المظاهر البراقة والظواهر الزائفة. ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة فى الخطبة ۹۹ قوله: «الَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الْامْنِيَّاتِ». ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ضمن خطبة له: «عُدَّ نَفْسَكَ فِى اصْحَابِ الْقُبُورِ» «۲» . وذلك لكى لا تبتلى بطول الأمل. ونقرأ فى النقطة المقابلة لذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين أنّه قال: «اكْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۷ لِلْمَوْتِ ذِكْراً» «۱». والطريق الآخر للتصدى لطول الأمل وتضعيفه فى واقع النفس هو مطالعة الآثار السلبية المترتبة عليه. أجل فالإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ طول الأمل يُعد مصدراً للكثير من الذنوب والرذائل الأخلاقية، ومن الأسباب المهمة لقساوة القلب ونسيان الآخرة، وأن يعيش الإنسان حياة التعب والذلّة والحرمان من النعم والمواهب الإلهية، وتسدل على بصيرته وعقله حجاباً سميكاً لا يدعه يرى الحقيقة من موقع الوضوح فى الرؤية، كلّ ذلك يتسبب فى أن يتحرّك الإنسان على مستوى التفكير الجدى فى علاج هذه الحالة السلبية قبل أن يدمّر سيل الأمل بيت سعادته وبذلك يقوم بتحديد آماله وتهذيب تمنياته ليعود إلى صف العقلاء والسعداء الّذين يعيشون الأمل بشكل معقول ومنطقى. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى ذلك: «حَاصِلُ الْمُنَى الْاسَفُ وَثَمَرَتُهُ التَّلَفُ» «۲». أى تلف إمكانات الإنسان وعمره الثمين. ويقول عليه السلام فى حديث آخر: «احْذَرُوا الْامَانِىَّ فَانَّهَا مَنَايَا مُحَقَّقَةٌ» «۳».

وهنا نقطتان:

الاولى: إن الطب المادى يتحرّك فى اسلوبه العلاجى للأمراض الجسمية والنفسية من موقع ايجاد البديل، أى انه يستبدل رغبات الإنسان الّتى تقوده إلى المرض برغبات اخرى أقوى منها تجره إلى ساحل السلامة والصحّة، مثلًا الشخص الّذى يعيش الرغبة الشديدة فى تناول الأطعمة الدسمة والسكريات بحيث تسبب له أمراض مختلفة، فيوصى بتناول مقدار كبير من الفاكهة والخضروات، أو الأشخاص المدمنين على المواد المخدّرة فإنّ الأطباء يوصونهم باستبدال هذه العادة بعادات اخرى سليمة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۸ وهذه النقطة صادقة أيضاً فى الأمراض الأخلاقية، وذلك بأن يقوم معلم الأخلاق باستبدال الآمال الطويلة فى الامور المادية

بالآمال الطویلة المعنویة فی دائرة الثواب الإلهی فی الآخرة أو الرغبة الشدیدة إلی العلم والمعرفة والتقرب إلی اللَّه تعالی بدلًا من العشق للمـال والجـاه و .... وأمثال ذلک. النقطـة الاخری أنّ للآمال بـدورها مراتب، فأحیاناً یتمنّی الإنسان أن یکون له عمراً طویلًا أو مخلّداً، کما یتحـدّث القرآن الکریم عن طائفـة من الیهود ویقول: «... یَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ یُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ...» «۱». وهذا الطلب لعدد ألف سـنة إذا کـان المراد به هو هـذا المقـدار بالـذات فیـدلّ علی طلبهم للعمر الطویل جـدّاً، ولو کان المراد منه بیان الکثرة فیـدلّ علی طلبهم للعمر اللامتناهی واللامحدود. بعض الناس یعیشون التمنیات والآمال فی مراحل أدنی من ذلک، کأن یتمنّی أن یعیش مائة سـنة، أو خمسـین سنة، أو عشـر سـنوات أو أقل، ویُستفاد من الروایات انّ کلّ هذه تُعدْ من الآمال الطویلة (وطبعاً إذا کان الهدف من ذلک هو نیْل المتع المادیـة وتحصـیل الامکانات الدنیویـة فحسب لا الأبعاد المعنویـة والإلهیـة والتحرّک فی خطّ تقدّم البشـریة وخدمة الناس). ومن جهة اخری فـإنّ الآمال والتمنیات لها أنواع مختلفـة، فأحیاناً یکون الهـدف منها هو الجهـة المادیـة، واخری المقام، وثالثـة الشـهوات، ورابعة جمیع ذلک. وجمیع هـذه الأقسام للآمال والتمنیات الطویلـة والعریضـة مذمومـة فی الـدائرة الأخلاقیـة رغم أن بعضـها أقبح من البعض الآخر.

الآمال والتمنیات الإیجابیة والبنّاءة:

وآخر مـا یمکن أن یُقـال فی بحث طـول الأمـل هـو أنّ الآمـال والتمنیـات لیست بأجمعهـا الاخلاـق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۷۹ سلبیة وعلامة انحطاط الشخصیة والسقوط الأخلاقی، لأن هذه الآمال والتمنیات إذا کانت متجهة نحو القیم الأخلاقیة والمُثل الإنسانیة الرفیعة، أو تصب فی دائرة الخدمـة الإجتماعیـة وتتحرّک فی خـطّ تکامـل المجتمع وتطوره الحضـاری فی مراتب الکمـال وتقود الإنسـان إلی السـعی وبـذل الجهد أکثر فی هذه المسائل، فلا شکّ فی أنّ مثل هذه الآمال والتمنیات حتّی لو کانت طویلة وعریضة فإنّها لیست فقط غیر مذمومـة بـل من علامـات الکمـال الإنسـانی للفرد. وأساسـاً کما تقـدّم فی بدایـة البحث أنّ الأمل بالمسـتقبل یمثل القوّة المحرکة للإنسان لبذل الجهد والسعی فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة فإذا انطفأ نور الأمل والرجاء فی قلب الإنسان فإنه یصبح کالدُمیة بلا روح ویتلاشـی عنه عنصـر النشاط والحرکـة ویتحول الإنسان إلی کائن جاف وبارد ومن دون هدف معیّن. وفی الواقع فإنّ الآمال علی قسـمین: أحدها (الآمال الکاذبة) والّتی هی کالسـراب فی صحراء الحیاة حیث تدعو العطاشی إلیها وتجرّهم نحوها دون أن ینالون شیئاً بـل یزدادون عطشـاً إلی أن تهلکهم. والآخـر (الآمـال الصادقـة) والإیجابیـة والبنّاءة والّتی هی کالماء الّـذی یسـقی کلّ حی ویقوّی فی الإنسـان روح الحیـاة والسـعی والنشـاط، وکلّمـا ازداد نشاطاً وحرکـة ازدادت معنویّته وصـعد فی معراج الکمال. وهـذا هو ما أشار إلیه القرآن الکریم بقوله: «ا لْمَالُ وَا لْبَنُونَ زِینَةُ ا لْحَیَا ةِ الدُّنْیَا وَا لْبَاقِیَاتُ الصَّالِحَاتُ خَیْرٌ عِنـدَ رَبِّکَ ثَوَابًا وَخَیْرٌ أَمَلًا» «۱». وقد اشارت هذه الآیـة إلی کلا القسـمین من الآمال: الإیجابیة والسـلبیة. وهناک اشارات دقیقة فی الروایات الإسـلامیة إلی الآمال الإیجابیة والبنّاءة ومن ذلک ما ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «انَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِیرَ لَیَقُولُ یَا رَبِّ ارْزُقْنِی حَتَّی افْعَلَ کَذَا وَکَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهُ الْخَیْرِ، فَاذَا عَلِمَ اللَّهُ ذَلِکَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِیَّتِهِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۰ کَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْاجْرِ مِثْلَ مَا یَکْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ، انَّ اللَّهَ وَاسِعٌ کَرِیمٌ» «۱». وأساساً فإنّ عزم الإنسان وهمّته بمقدار آماله الإیجابیة، فکلّما اتسـعت دائرة هذه الآمال فإنّ عزمه وهمّته ستزداد أیضاً، واللطیف انه یُستفاد من الروایات الإسلامیة جیداً أنّ اللَّه تعالی یُعطی الثواب للأشخاص المؤمنین بمقدار ما لدیهم من الأمل والرجاء، لأن ذلک من علامات قابلیة الروح والجسم لأداء الأعمال الصالحة أکثر، وحتّی انه یُسـتفاد من الروایات أنّ الإنسان إذا کان یرجو ویأمل أملًا جمیلًا وایجابیاً لغرض تحصـیل رضا اللَّه تعالی فإنه لا یرحل من هـذه الـدنیا إلّاویوفّق لنیل هذا الأمل وتحقیقه کما ورد فی الحـدیث الشـریف عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ تَمَنَّی شَـیْئاً وَهُوَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ رِضاً، لَمْ یَخْرُجْ مِنَ الدُّنْیَا حَتَّی یُعْطَاهُ» «۲». وطبعـاً یمکن أن تکون هناک بعض الموارد الّتی تسـتوجب المصـلحة أن لا یصل الإنسان إلی ذلک الأمل ولا یناله، لأنّه إذا حصل علیه فسوف تترتب علی ذلک بعض الآثار السـلبیة من قبیل الغرور والغفلـة والعشق للـدنیا وأمثال ذلک ولذلک فإنّ اللَّه

تعـالی بألطـافه الخفیـة لا ـ یوفقه للوصول إلی هـذه الآمـال والتمنیـات. ونختم هـذا البحث بالإشـارة إلی نکتـة اخری وهی أنّ التمنیـات الإیجابیـة تدعو الإنسان إلی بناء شخصـیته وتتسبب فی تکامله المعنوی والروحی، لأنّه یعلم أنّ الشخصـیات الکبیرة لن تبلغ هذا المبلغ من الکمال إلّامن خلال تهیئة أسباب الکمال هذا وکما یقول الشاعر: اعَلِّلُ النّفس بالآمال ادرکُهَا مَا اضْیَقَ الْعَیْشَ لَولَاٌفسحَةُ الْامَلِ

التعصّب والعناد

تنویه

لاشـکّ أنّ أساس العبودیـة والطاعـة للّه‌تعالی یکمن فی عنصـر التسـلیم والتواضع والخضوع مقابل الحقّ، وعلی العکس من ذلک فإنّ کلّ اشـکال (التعصب واللجاجـة) تورث الإنسان البعد عن الحقّ والحرمان من السـعادة. (التعصب) بمعنی الإرتباط غیر المنطقی بشـیء معیّن إلی درجـة أنّ الإنسـان یضـحی بالحقّ من أجل ذلک، أمّا (العناد) فیعنی الإصـرار علی شـیء معیّن بحیث یسـحق تعلیمات العقل والمنطق تحت قدمه من أجل ذلک، والثمرة لهاتین الشـجرتین الخبیثتین هو (التقلید الأعمی) الّذی یُعد من أقوی الموانع والسدود أمام تکامـل الإنسـان وحرکته فی خطّ المعنویـات والإیمان والکمال الأخلاقی. عنـدما نراجع سـیرة الأنبیاء العظام وأسـباب انحراف الأقوام السالفه عن سـلوک طریق الحقّ والـدعوة الإلهیة یتضّح لنا جیداً أنّ هذه الامور الثلاثة (التعصب والعناد والتقلید الأعمی لها دورٌ أساس فی عملیـة الانحراف هذه، وفی القرآن الکریم اشارات کثیرة إلی هذه المسألة بالذات حیث ینبغی دراسـتها والتدبّر فیها: ونبدأ من قوم نوح علیه السلام حیث یقول القرآن الکریم: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۲ ۱- «وَإِنّی کُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِیَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَکْبَرُواْ اسْتِکْبَارًا» «۱». ۲- «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَکُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا یَغُوثَ وَیَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». ثمّ یـورد القرآن الکریم قصـة هود ویقول: ۳- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُـدَ اللَّهَ وَحْـدَهُ وَنَـذَرَ مَاکَانَ یَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ» «۳». ثمّ تصل النوبـة إلی قصة إبراهیم علیه السـلام حیث یقول القرآن الکریم: ۴- «إِذْ قَالَ لِأَبِیهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِیلُ الَّتِی أَنتُمْ لَهَا عَاکِفُونَ* قَالُواْ وَجَـدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِینَ» «۴». ۵- «قَالَ هَلْ یَسْـمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ یَنفَعُونَکُمْ أَوْ یَضُرُّونَ* قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا کَذَلِکَ یَفْعَلُونَ» «۵». ثمّ تصل النوبة إلی قوم موسی وفرعون فیقول: ۶- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَیْهِ ءَابَآءَنَا وَتَکُونَ لَکُمَا الْکِبْرِیَآءُ فِی الْأَرْضِ وَمَـا نَحْنُ لَکُمَا بِمُؤْمِنِینَ» «۶». ثـمّ یصـل إلی عصـر النـبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله حیث نری نفس الأعمـال والسـلوکیات تصدر من أعدائه حیث یقول عنهم القرآن الکریم: ۷- «وَإِذَا قِیـلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآأَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآأَلْفَیْنَا عَلَیْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ کَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَایَعْقِلُونَ شَـیْئًا وَلَا یَهْتَدُونَ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۳ ۸- «إِذْ جَعَـلَ الَّذِینَ کَفَرُواْ فِی قُلُوبِهِمُ ا لْحَمِیَّةَ حَمِیَّةَ ا لْجَـاهِلِیَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَـکِینَتَهُ عَلَی رَسُولِهِ وَعَلَی ا لْمُؤْمِنِینَ وَأَلْزَمَهُمْ کَلِمَـةَ التَّقْوَی وَکَـانُواْ أَحَقَّ بِهَـا وَأَهْلَهَـآ وَکَـانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَـیْءٍ عَلِیمًا» «۱». ۹- وکـذلک یقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَی بَعْضِ الْأَعْجَمِینَ* فَقَرَأَهُ عَلَیْهِم مَّا کَـانُواْ بِهِ مُؤْمِنِینَ» «۲». وأحیاناً یـذکر تعصب الأقوام السالفة بعضها ضد البعض الآخر ویقول: ۱۰- «وَقَالَتِ ا لْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصَارَی عَلَی شَیْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَی لَیْسَتِ ا لْیَهُودُ عَلَی شَیْءٍ وَهُمْ یَتْلُونَ ا لْکِتَـابَ کَـذَلِکَ قَـالَ الَّذِینَ لَـایَعْلَمُونَ مِثْـلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ ا لْقِیَامَـةِ فِیما کَانُواْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ» «۳». وفی مکـان آخر یستعرض مسألة التقلید الأعمی والتعصب واللجاجة بعنوانها برنامج عام لجمیع الأقوام الذین یتحرکون فی خط الضلالة والباطل ویقول: ۱۱- «وَکَـذَلِکَ مَآ أَرْسَـلْنَا مِن قَبْلِکَ فِی قَرْیَـةٍ مِّن نَّذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَـدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۴». ۱۲- «وَیَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِکُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُون» «۵».

تفسیر واستنتاج:

المنهج العام للأقوام المنحرفین

كما تقدم فإنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث، (أيْ التعصب والعناد والتقليد الأعمى تُعد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۴ منهجاً عاماً فى سلوك جميع الأقوام الّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف والضلال والزيغ، فهؤلاء وبسبب تعصبهم الشديد للأفكار الخرافية والتقاليد الزائفة، وعنادهم وإصرارهم على اعتناقها وعدم التخلى عنها، وبالتالى اتباعهم لآبائهم وأسلافهم إتباعاً أعمى وبذلك انتقلت الخرافات والعقائد الزائفة جيلًا بعد جيل حيث ضاعت دعوة رجال الحقّ والأنبياء الإلهيين الّذين جاءوا لهدايتهم فى زَحمة النعرات الجاهلية لهؤلاء الأقوام المنحرفين. ونبدأ قبل كلّ شيء بقصة نوح مع قومه لنرى أنّ هؤلاء الّذين كانوا يعبدون الأوثان كانوا إلى درجة من التعصب والعناد فى مقابل دعوة نبى عظيم من اولى العزم حتّى أنّهم كانوا يستوحشون من سماع صوته ودعوته إلى اللّه كما تتحدّث «الآية الاولى من الآيات مورد البحث على لسان نوح فتقول: «وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا» «۱». أجل فإنّ تعصّبهم وعنادهم كان من الشدّة والقوّة إلى درجة أنّهم لن يسمحوا لآذانهم أن تسمع صوت نوح الحامل للنداء الإلهى، وكذلك لم يسمحوا لعيونهم أن ترى وجهه وسيماءه، وبهذه الطريقة العجيبة كانوا يتهربون من الحقيقة، فما أخطر هذه الحالة الّتى يعيشها الإنسان الجاهل والمتعصب!! وتأتى «الآية الثانية» لتكشف عن بُعدٍ آخر من هذه الرذائل الأخلاقية المتجذّرة فى قوم نوح وتقول: «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». أما لماذا لم يكونوا على استعداد لترك هذه الاصنام التى صنعوها بأيديهم، بل كانوا يرون أنّها حاكمة على مصيرهم ومصير العالم؟ لا دليل لذلك سوى التعصب والتقليد الأعمى للتقاليد الزائفة والعقائد البالية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۵ وفى «الآية الثالثة» يتحدّث القرآن الكريم عن قوم عاد وجدالهم مع نبيّهم هود ويقول: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَاكَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». فهؤلاء كانوا إلى درجة من العناد والجهل والتعصّب بحيث أنّهم لم يطيقوا دعوة هذا النبى إلى التوحيد الخالص واعترضوا عليه فى دعوته لترك ما كانوا يعبدونه من الأوثان حتّى أنّهم كانوا مستعدين لاستقبال امواج البلاء بدلًا من التنازل عن عقائدهم المنحرفة. وعلى هذا الأساس وبسبب التعصب والاصرار والتقليد الأعمى فإنّ التوحيد الخالص الّذى هو روح عالم الوجود كان فى نظرهم أمراً موحشاً وغريباً، وبالعكس فإنّ عبادة الأوثان الّتى لا عقل لها ولا شعور كان أمراً معتبراً ومعقولًا لديهم، بل حتّى أنّهم سلكوا على خلاف مقتضى قانون دفع الضرر المحتمل الّذى يحكم به العقل حيث لم يهتموا أدنى اهتمام باحتمال نزول العذاب الإلهى عليهم وكانوا يصرّون على نبيّهم أن يدعو ربه بتعجيل نزول العذاب عليهم، وهذه الحماقة من هؤلاء ليست سوى حصيلة للتعصب والعناد. أجل فهؤلاء ولأجل الفرار من الحقّ والإستمرار على سلوكهم الجاهلى فى تقليدهم الأعمى للآباء كانوا يسرعون نحو هلاكهم والعقاب الإلهى عليهم وبالتالى تحقّق ما كانوا يطلبونه من نبيّهم واحترقوا بأجمعهم فى عذاب اللّه، وهذه هى نتيجة العناد والتعصب الجاف والتقليد الخاطىء. وتتعرض «الآية الرابعة» إلى إحدى الإفرازات المشؤومة لهذه الرذائل الأخلاقية على الإنسان، وتتحدّث عن (نمرود) وقومه وتقول عن النبى إبراهيم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الَّتَمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» «۲». ولكنه لم يسمع جواباً منهم على كلامه إلّاأنّهم قالوا: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۶ وعندما قال لهم إبراهيم بصراحة حاسمة: إنكم أنتم وآبائكم فى ضلال مبين، لم يستيقظوا من غفلتهم، فلم يكن من إبراهيم إلّاأن بين لهم تفاهة هذه التماثيل والأصنام من موقع العمل والممارسة، فحطّم هذه الأصنام لكى يثوبوا إلى عقولهم، ولكنهم بدلًا من الانتباه من سكرتهم وجهالتهم وبدلًا من أن يمزّقوا حجب الجهل والتعصب واللجاجة فقد هدّدوا إبراهيم بالحرق بالنار، وألبسوا تهديدهم لباس الفعل وترجموه على أرض الواقع، وقذفوا بإبراهيم وسطأمواج النيران الملتهبة، وعندما رأوا أنّ هذه النار تحوّلت إلى نعيم وجنّة وكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وشاهدوا أكبر معجزة إلهية بامّ أعينهم استمروا مع ذلك فى سلوكهم الأحمق بتأثير قيود الجهل والتعصب والاصرار، وادّعوا أنّ ذلك كان من قبيل السحر. كلّ ذلك يدلّ على أنّ هذه الرذائل الأخلاقية إلى أيّة درجة هى خطرة على الإنسان ومانعة من التحرّر فى الفكر والوصول إلى الحقّ، وأنّ الأشخاص الّذين يقعون أسرى فى براثن هذه الرذائل فإنّهم يعيشون الذلّة والحقارة إلى غايتها وبذلك يحطّمون عزّتهم الإنسانية ويهبطون من مقام الإنسانية الشامخ ويقبلون بكلّ ذلك بدلًا من التسليم

والإذعان إلى الحقّ. وتشير «الآيـة الخامسة» أيضاً إلى عبادة الأوثان لدى قوم (نمرود) عندما واجههم إبراهيم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على سخافة هذه العقيدة من خلال الحوار العقلى والمنطقى حيث تقول الآية: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ» «١». ولكن هؤلاء لم يكن لـديهم أيّ جواب منطقى فى مقابل هـذه التساؤلات الحاسـمة إلّا أنّهم لاذوا بكهف التقليد الأعمى كما تقول الآيـة: «قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» «٢». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٨٧ فى حين أنّ الإنسان إذا أراد أن يسلك فى خطّ التقليد فعلى الأقل يجب أن يقلد ويتبع العالم والخبير بالوقائع ليشير عليه ما ينفعه فى هـذا السبيل لا أن يقلد الجاهل والأحمق، ولكنّ حجاب التعصب واللجاجة كان سميكاً إلى درجة انه لن يسمح لأقل شعاع من نور شمس الهداية والمنطق والدليل العقلى فى النفوذ إلى أعماقهم ووجدانهم ليضىء باطنهم بنور الحقّ. «الآيـة السادسة» تتحدّث عن لجاجة الفراعنة وعنادهم فى مقابل المعجزات الواضحة والآيات البيّنة لموسى حيث فضّلوا البقاء على عقائدهم الوثنية الّتى ورثوها من أسلافهم بدافع من اللجاجة والإصرار والعناد حيث تقول الآية: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» «١». هؤلاء لم يسألوا من أنفسهم عن دين موسى هل هو حقّ أم باطل، وماذا يمتاز على دين الأسلاف؟ بل كان كلامهم يدور فقط فى اننا يجب أن نحفظ دين الآباء والأجداد سواءاً كان حقّاً أم باطلًا، فالقيمة الواقعية لنا تكمن فى هـذا المنهج فقط، ثمّ قالوا مع كثير من سوء الظن أنّ ما جاء به موسى من الدين الإلهى هو فى الواقع مقدّمة لتحصيل مقاصده السياسية وبسط سيطرته وحكومته على الناس، فلا ـ إله فى البين ولا ـ الوحى الإلهى، وهكـذا كانوا يتحركون من موقع سوء الظن هـذا وبسبب ذلك التعصب والعناد فى طريق الابتعاد عن الحقّ والإعتذار بتبريرات واهية فى سبيل تحكيم موقعيّتهم مقابل دعوة موسى ولعلّهم كانوا يخافون من أنّه إذا تجلّى نور الهداية الإلهية لشعب مصر عن طريق شريعة موسى فإنّهم سيفقدون بذلك دينهم الخرافى الّذى ورثوه من الآباء وكذلك يفقدون حكومتهم المبنية على هـذا الأساس، ولهـذا فإنّهم تصدّوا لموسى ودعوته بكلّ ما اوتوا من قوة وتحركوا من موقع تشجيع الناس وتعميق حالة التعصب والعناد فيهم، وبما أنّ الملأ من الفراعنة كانوا يريدون كلّ شىء فى سبيل تعزيز حكومتهم وسيطرتهم على الناس فتصوّروا الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٨٨ أنّ موسى وهارون كـذلك يريدون الدين كوسيلة واداة للتوصل إلى الحكومة والسيطرة. وهذا المرض الأخلاقى يستمر مع البشر على طول التاريخ إلى أن نصل إلى زمن الإسلام وعصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وفى «الآية السابعة» نرى أيضاً أنّ العامل الأساس فى انحراف المشركين العرب هو التقليد الأعمى والتعصب لتراث الآباء والأجداد والّذى يوصد أبواب المعرفة من كلّ جانب على أصحاب هذه الصفة الرذيلة فتقول الآية: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ...» «١». ولكن القرآن الكريم يجيبهم على هذا التصور الباطل بجواب حاسم وقاطع ويقول: «... أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» «٢». ويتضح من سياق هـذه الآيـة أنّ هؤلاء المشركين لم يُنكروا على النبى صلى الله عليه و آله دعوته السماوية وأنّه يتحدّث من قِبل اللَّه تعالى (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ)، ولكنهم كانوا غارقين فى مستنقع التعصب والعناد والجهل إلى درجة أنّهم يفضلون دينهم الّذى ورثوه عن الآباء والأجداد على دين اللَّه وهم يعلمون بأن أسلافهم كانوا يعيشون الجهل والضلالة. وبهـذا نجد أنّ الجهل والتعصب يتسبب فى أنّ الإنسان يترك بسهولة (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ) ويدير له ظهره ويتجه نحو الباطل رغم انه يميز بين الحقّ والباطل من موقع الوضوح فى الرؤية. وتستعرض «الآيـة الثامنة» قصة الحُديبية حيث يذكر اللَّه تعالى المسلمين بما جرى من حوادث مهمة وأنّ الكفّار رغم رؤيتهم لعلائم حقانيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّهم وبسبب التعصّبات الجاهلية لم يتحرّكوا فى خطّ الإيمان، وكانت هـذه الرذيلة الأخلاقية قد منعتهم من سلوك طريق السعادة العظمى فتقول الآيـة: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٨٩ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً» «١». (الحميّة) من مادّة (حَمى (على وزن حَمَد) بمعنى الحرارة الّتى يشعر بها الإنسان فى بدنه بسبب العوامل الخارجية أو الأشياء الاخرى، ولهذا السبب اطلقت على الحُمّى أيضاً وهى حرارة المرض. ثمّ اطلقت هذه المفردة على الحالات الروحية والأخلاقية من قبيل: الغضب والتكبر والتعصب وأمثال ذلك وأنّها بمثابة حالات يعيشها الإنسان فى حرارة باطنية

كالنار المستعرة فى قلب الإنسان. والملفت للنظر أنّ هذه الآية أضافت الحميّة إلى الجاهلية، وذلك للإشارة إلى التعصبات المنطلقة من موقع الجهل وعدم العلم، وفى نفس الوقت اضافت السكينة الّتى تقع فى النقطة المقابلة لها إلى اللّه تعالى، وهى الحالة من الهدوء والراحة النفسية الّتى يعيشها الإنسان من موقع الإيمان والوضوح والإنسياق مع الحقيقة. وسيأتى فى البحوث اللاحقة الكلام حول التعصّب الإيجابى والسلبى وحول إضافة الحمية إلى الجاهلية. «الآية التاسعة» تشير إلى نكتة اخرى فى هذا المجال، وتكشف النقاب عن جانب آخر من التعصب الشديد للعرب فى عصر الجاهلية وتقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُؤْمِنِينَ» «۲». يعنى انّ التعصب القومى والعِرقى لهؤلاء العرب كان إلى درجة من الشدّة بحيث إنّ القرآن مع جميع المعارف السامية والفصاحة والبلاغة والمضامين العظيمة لو كان قد نزل على غير العرب فإنّ تعصبّهم العِرقى يمنعهم من الإيمان به ويسدل عليهم حجاباً يُبعدهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۰ عن إدراك الحقيقة والوصول إلى المقصود. ورغم أنّ بعض المفسّرين قد ذكر لهذه الآية تفسيرات اخرى، ولكن أوضح التفاسير وأنسبها لسياق هذه الآية هو ما ذُكر آنفاً. وعلى هذا الأساس ورد فى بعض الروايات الإسلامية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ الأشخاص الّذين يعيشون التعصّب والعناد هم شركاء لأعراب الجاهلية حيث يقول: «مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ اعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» «۱» . وحبّةٌ من خردل يُضرب بها المثل بالصغر لدى العرب. وتأتى «الآية العاشرة» لتكشف النقاب عن هذه الرذيلة الأخلاقية فى أقوام بشرية اخرى وأنّ كلّ قوم وطائفة يرون أنفسهم أنّهم الأفضل بدافع التعصب واللجاجة ويتحركوا فى تعاملهم مع الآخرين من موقع الإبعاد والنفى ويحسبون أنفسهم أنّهم عباد اللّه المتميزون على سائر الأقوام والشعوب البشرية، وهذا الأمر هو الّذى تسبب فى نزاعات مستمرة وصراعات دائمة بين الأقوام البشرية حيث تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» «۲». ويُستفاد من سياق هذه الآية أنّ هذا اللون من التعصّبات وأشكال الغرور ينبع من الجهل وعدم المعرفة وأنّ كلّ فئة من الناس تعيش الجهل وعدم المعرفة سوف يتورطون فى هذه الرذيلة الأخلاقية. وعبارة (الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) لها مفهوم واسع وأحد مصاديقها هم المشركون العرب، ولذلك فسّرها بعض المفسّرين بأنّهم قوم نوح، أو ذكروا فى تفسيرها أنّ المراد منها جميع الامم البشرية الّتى عاشت التعصب والعناد بسبب الجهل وعدم المعرفة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۱ «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن أصل كلّى وعام وتبيّن أنّ حالة التعصب والاصرار على طول التاريخ البشرى كان لها الدور المهم فى استمرار الأقوام البشرية فى سلوكهم فى خطّ الكفر ومحاربة التوحيد وتقول: «وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۱». وسياق الآية يوحى إلى أنّ أهم مانع فى مقابل الإيمان واتباع الأنبياء الإلهيين هو التعصب والتقليد الأعمى الناشىء من حالة الجهل الّتى يعيشها الإنسان. وهنا تتضح الأبعاد الخطيرة لهذه الرذيلة الأخلاقية. ونقرأ فى «الآية الثانية عشر» والأخيرة أنّ الجاهليين وبسبب حالة التعصب واللجاجة كانوا يتهمون أكبر الأنبياء الإلهيين بالجنون ويجعلون ذلك ذريعة لمخالفتهم للدعوات السماوية وتقول: «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» «۲». والعجيب أنّ هؤلاء كانوا غارقين فى دوّامة الجهل والتعصّب الأعمى إلى درجة أنّهم لم يكونوا يُدركون أنّ كلامهم هذا متناقض، فإنّ كونه (شاعراً) يدلّ على الذوق السليم والقريحة والتأمّل والتفكر والإطلاع الوافى على دقائق الكلام (والملاحظ أنّ كلمة الشاعر من مادّة الشعور) وهذا ما يتقاطع مع كونه مجنوناً كما هو واضح. وأحياناً يتهمون الأنبياء بالسحر والجنون كلاهما فى حين أنّ السحر يحتاج إلى الإطلاع الواسع على بعض العلوم والمعارف ويستبطن ذكاءاً خاصاً، وكلّ هذا يتقاطع مع الجنون، وهذا يوضّح أنّ كلام هؤلاء المتناقض لم يكن بوحيٍ من العقل والتفكر الهادىء والمنسجم بل بدافع من الجهل والتعصب والعقدة.

النتيجة النهائية:

وبمرور إجمالى على الآيات الكريمة المذكورة آنفاً والّتى هى نموذج من كثير من الآيات القرآنية فى هذا المجال تتضح هذه الحقيقة

وهى انّ أهم موانع المعرفة والوصول إلى الحقيقة هو حالة التقليد الأعمى الناشىء من التعصب واللجاجة والتحرّك من موقع الرغبات النفسية وبدافع من الأهواء والنوازع الباطنية الّتى تحبس الإنسان فى سجن مظلم من الجهل المطبق. إن الأضرار والخسائر الكثيرة المترتبة على هذه الرذيلة الأخلاقية قد سوّدت صفحات التاريخ البشرى وواجه الأنبياء الإلهيين بسببها مشاكل كثيرة فى طريق هداية الناس إلى اللّه والحقّ وسُفكت بسببها الكثير من الدماء، وهذا يكفى فى إدراك شناعة هذه الحالة الذميمة فى السلوك الإنسانى. لولم تكن هذه الرذيلة الأخلاقية موجودة فى باطن الإنسان فإنّ تاريخ البشرية سيلبس ثوباً آخر ويسطع بوجهٍ جديد فى حركة التكامل الحضارى والتقدّم العلمى ولفُتحت الأبواب أمام البشرية للصعود إلى مدارج عالية من الكمال المعنوى وبدلًا من أن تتحوّل طاقاته وامكانياته الكبيرة إلى سيلٍ مخرب بسبب الجهل والتعصب فإنّ من شأنها أن تتحول إلى منظومة واسعة من المعارف الإلهية والسلوكيات الأخلاقية الحميدة والمُثل الإنسانية الّتى تقود الإنسان فى كلّ بُعدٍ من أبعاد حياته الدنيوية إلى العمران والتكامل المادى والمعنوى.

التعصب والعناد فى الأحاديث الإسلامية:

اشارهٔ

وقبل أن نستعرض فى بحثنا هذا مفهوم التعصب ودوافعه ونتائجه الوخيمة على حياة الإنسان نرى من اللازم أوّلًا استعراض الأحاديث الإسلامية فى هذا الباب لأنها تتضمن الكثير من الامور المتعلقة بهذا الموضوع بصوره إجمالية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۳ والأحاديث الشريفة فى هذا الموضوع كثيرة ونشير إلى نماذج منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: مَنْ كانَ فِى قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَعَ اعْرابِ الْجاهِلِيَّةِ» «۱». وهذا التعبير يشير إلى أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية إلى درجة من الخطورة بحيث إنّ أدنى درجة منها تتقاطع مع الإيمان الخالص. ۲- وورد فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «انَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ السِّتَّةَ بالسِّتَّةِ، الْعَرَبَ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهاقِينَ بِالْكِبْرِ، وَالْامَراءَ بِالْجَوْرِ، وَالْفُقَهاءَ بِالْحَسَدِ، وَالتُّجّارَ بِالْخِيانَةِ، وَاهْلَ الرَّساتِيقِ بِالْجَهْلِ» «۲». والملفت للنظر أنّ هذا الحديث الشريف يذكر التعصب على رأس هذه الامور الستة فى حين أنّها جميعاً من الذنوب الكبيرة. ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «لَيْسَ مِنّا مَنْ دَعا الَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنّا مَنْ قاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنّا مَنْ ماتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ» «۳». ۴- وجاء فى الخطبة المعروفة بالقاصعة عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى نفى التكبر والتعصّب وأنّ هذه الحالات هى السبب الأساس فى إنحراف إبليس وشقائه وأنّ اللّه تعالى عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلّاإبليس فإنه يقول: «اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِاصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللَّهِ امامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذى وَضَعَ اساسَ الْعَصَبِيَّةِ» «۴». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبَقَ الْايمانِ مِنْ عُنُقِهِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۴ ونعلم أنّ التعصّب والعناد هُما لازم وملزوم، ولهذا السبب أوردناهما تحت عنوان واحد، وأما بالنسبة إلى حالة العناد والاصرار فى السلوك البشرى وآثارها السلبية فلدينا الكثير من الروايات فى هذا الباب، منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ايّاكَ وَاللِّجاجَةَ، فَانَّ اوَّلَها جَهْلٌ وَآخِرَها نَدامَةٌ» «۱». ۲- وجاء فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «اللِّجاجُ اكْثَرُ الْاشْياءِ مَضَرَّةً فِى الْعاجِلِ وَالْآجِلِ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «اللِّجاجُ بَذْرُ الشَّرِّ» «۳». ۴- وجاء فى نهج البلاغة قوله: «اللِّجاجَةُ تَسِلُّ الرَّأْىَ» «۴». ۵- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «لَيْسَ لِلَجُوجٍ تَدْبِيرٌ» «۵». ومع ملاحظة هذه الروايات الشريفة يتضح التأثير المخرب لهاتين الرذيلتين الأخلاقيتين (التعصّب واللجاجة) فى الحياة الفردية والإجتماعية للناس بحيث إنهما يدفعان الإنسان بعيداً عن الإيمان والإسلام ويجعلانه غريباً عن الأجواء الروحية المنفتحة على اللّه تعالى ويقودانه إلى الكفر والشرك والإقتداء بالشيطان وترك حبل الإيمان، وسوف يأتى لاحقاً

الدوافع الكامنة فى هذه الحالة الأخلاقية.

۱- مفهوم التعصّب ودوافعه

(التعصّب) من مادّة (عَصَبَ) وهى فى الأصل بمعنى الخيوط العصبية والعضلية الّتى تربط بين مفاصل العظام والعضلات، ثمّ استُعملت هذه الكلمة لُيراد بها كلّ نوع من الارتباط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۵ الشديد الفكرى والعملى والّذى يستبطن غالباً معنىً ومفهوماً سلبياً رغم وجود بعض العلائق الإيجابية أيضاً فى مفهومها حيث سيأتى تفصيل ذلك فى الأبحاث اللاحقة إن شاء اللَّه. وبديهى أنّ التعلّقات غير المنطقية بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معيّنة أو شىء من الأشياء فإنه يقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشىء أو الشخص، وبالتالى سيكون العامل المهم فى بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر. وكلّما تحرك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنسانى فإنّ الناس سوف يتعاملون فى ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادىء والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيّم على المجتمع الإنسانى ويعيش الإنسان فى حركته الإجتماعية بكلّ أشكال الطمأنينة والمحبّة والاخوة. إن مثل هذا التعصب الّذى يتولد مباشرة من حالة اللجاجة والتقليد الأعمى ينبع من الامور التالية: ۱- حُبّ الذات والتعلّق الشديد بالأسلاف إن الإفراط فى حبّ الذات يتسبب فى أن يتعلّق الإنسان بالامور المنسوبة إليه بشدّة ويعتبرها جزءاً من شخصيته وكيانه ومن ذلك الرابطة مع الآباء والأجداد والتقاليد المرسومة فى مجتمعه. إنّ هذا التعلّق الشديد يؤدى إلى نقل الكثير من الخرافات والقبائح إلى الأجيال الاخرى بذريعة حفظ الآداب والسنن والرسوم الإجتماعية وبالتالى فسيخلق حجاباً يصدّ الإنسان عن أيّة معرفة جديدة وارتباط بالحقائق والواقعيات. إن الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أن أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة فى هذه القبيلة تتحول فى نظر الأشخاص المتعصبين إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۶ إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، فى حين أنّ أفضل أفراد القبيلة الاخرى وأسمى الآداب والسنن فى تلك القبيلة تكون هى الأسوأ والأقبح فى نظر هذا الإنسان. ۲- انخفاض المستوى الثقافى والفكرى وكلّما انخفض المستوى الثقافى للناس وعاش أفراد المجتمع فى اهتزاز على مستوى الفكر والثقافة فإنّ التعصبات الجاهلية وأشكال العناد والتقليد الأعمى ستكون حاكمة على هؤلاء الأشخاص، بخلاف إذا ارتفع المستوى الثقافى فى المجتمع وعاش الناس فى علاقاتهم المنطق والعقل والإلتزام الفكرى، فإنّ ذلك من شأنه أن ينفى التعصّب واللجاجة وتستبد حالة التقليد الأعمى بالتحقيق والدراسة والحوار الفكرى النافع للوصول إلى الحقيقة. ۳- ضعف الشخصية والعامل الآخر للتعصّب والتقليد الأعمى هو أنّ الإنسان يعيش أحياناً ضعف الشخصية بالنسبة إلى بعض الشخصيات الّذين يوحون إليه بالقداسة فى أفعالهم وأقوالهم وبذلك يصعدون عن مستوى دائرة النقد حتّى لو كان النقد علمياً وأخلاقياً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يتبعهم بعض العوام بعيون مُغمضة وآذان صمّاء ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الدفاع عن هؤلاء الّذين يرتدون لباس القداسة الزائفة بدون أن يتفكر الإنسان فى مضمون كلامهم وبباطن أفعالهم وسلوكياتهم وآثارها على المدى البعيد. ۴- الإنزواء الإجتماعى والفكرى: والعامل الآخر من عوامل التعصّب هو أنّ الإنسان عندما ينفرد بأفكاره أو بمحيطه الإجتماعى الخاصّ وينفصل عن الجماعات الاخرى والأفكار المخالفة والمتنوعة ويعيش الجهل بالنسبة إلى سائر التيارات الفكرية والثقافية فى المجتمعات البشرية الاخرى، فإنّ ذلك من شأنه أن يُفعّل حالة التعصّب والإلتزام الشديد بما لديه من أفكار وعقائد، فى حين انه لو انفتح على الآخرين وتلاقح فكره مع أفكارهم وقارن بين هذه الأفكار من موضع استكشاف نقاط الضعف والقوّة واستجلاء العناصر الإيجابية والسلبية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۷ فى كلٍّ منها، فإنّ ذلك يقوده إلى انتخاب الأفضل منها من موقع الوضوح والإختيار الحرّ.

۲- الآثار السلبية للتعصّب والعناد

إن الآثار السلبية والنتائج المخربة للتعصّب والاصرار فى حركة حياة الإنسان المتعصّب تتجلّى فى الكثير من الموارد: ۱- إن التعصّب يعنى الإرتباط غير المنطقى بشخص معيّن أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة فى الامور وبالتالى يُحرمه من العثور على طريق للحل والنجاة. ولهذا رأينا فى الأحاديث السابقة أنّ اللجوج لا يتمتع بمديرية سليمة، ورأينا أيضاً فى حالات الشيطان انه لم يتمكن من إدراك البديهيات واوضح الحقائق بسبب تعصبه وعناده، ولذلك قطع عن رقبته طوق العبودية للّه‌تعالى فطرد من ساحة القرب الإلهى إلى الأبد. ۲- إن العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة الّتى من شأنها تمزيق العلائق الإجتماعية فى المجتمع وتسلب منه روح الوحدة والالفة وتنثر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البنّاءة الّتى يجب أن تُصرف فى سبيل إعمار المجتمع فى حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتى فيما بينها، كما نقرأ هذا المعنى فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اللِّجَاجُ يُنْتِجُ الْحُرُوبَ وَيُوغِرُ الْقُلُوبَ» «۱». ۳- إن التعصّب والعناد يتسبّبان فى ابتعاد الأحبّة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد. ۴- إن التعصّب والعناد من الأسباب والعوامل المهمّة للكفر، وانطلاقاً من هذه الحالة نجد أن أكثر الشعوب والامم السالفة وبسبب التعصّب والعناد كانت تسير فى خطّ الباطل والكفر برسالات السماء والإمتناع عن قبول الحقّ بدافع من المحافظة على السنن البالية والتقاليد الزائفة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۸ (وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى فى تفسير الآيات السابقة). ۵- إنهما يورثان صاحبهما الألم والتعب والوقوع فى زحمة المشاكل الكثيرة، لأنهما يتسببان بالإنسان أن يعيش مدّة طويلة ولسنوات عديدة أحياناً فى حالة من الحيرة والضلال، وعندما يصل إلى طريق مسدود فإنه عند ذاك يشعر بالتعب واليأس من هذا الطريق الموحش. ومن هذا الموقع نقرأ فى الحديث الوارد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «ثَمَرةُ اللِّجَاجِ الْعَطَبَ» «۱». ولهذا السبب فإننا نجد أنّ التعصّب غالباً ما يورث الندم كما تقدّمت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة. ۶- انهما يُفقدان الشخص توازنه فى اختيار الامور ويجرانه إلى مواقع لن يرغب الولوج فيها، ولهذا ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا مَرْكَبَ اجْمَحَ مِنَ اللِّجاجِ» «۲». ۷- وأخيراً فإنّ التعصّب واللجاجة يحوّلان حياة الإنسان فى دنياه وآخرته إلى دمار وخراب، لأنهما يورثانه فى حياته الدنيا العداوة والفرقة والاخطاء الكثيرة وفقدان الراحة والهدوء والإستقرار، وفى الآخرة يتسببان فى ابتعاده عن رحمة اللّه، وهذا هو ما ورد فى الرواية عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «اللِّجَاجُ اكْثَرُ الْاشْيَاءِ مَضَرَّةً فِى الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» ومرّة اخرى نرى من الضرورى الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث (التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى رغم أنّها تختلف فى دائرة المفهوم والمحتوى إلّاأنّها تتحد فى دائرة المصداق وترتبط برابطة وثيقة، وفى الإصطلاح: بينهما علاقة اللازم والملزوم، ولذلك أوردناها جميعاً فى بحث واحد. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۹ أمّا الدوافع على التعصّب واللجاجة فواضحة أيضاً، لأن أشكال التعصّب الأعمى والمخرّب ينطلق قبل كلّ شىء من الجهل بالامور، ولهذا السبب فإنّ كلّ طائفة تعيش الجهل أكثر فإنّها تعيش حالة التعصّب والتقليد الأعمى أكثر إلى درجة أنّ الإنسان على هذا المستوى غير مستعد لإيجاد التحول والتغيير نحو الأفضل فى وضعه وحالته النفسية والإجتماعية، ولذلك كانت العصبية دائماً سبباً للتخلف الحضارى والإجتماعى. وقد قرأنا فى الأخبار السابقة أيضاً ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إياك واللجاجة، فإنّ أولها جهل وآخرها ندامة». والعامل الآخر الّذى يدفع الإنسان باتجاه التعصّب واللجاج هو الأنانية وحبّ الذات، لأن الشخص الأنانى يحبّ كلّما لديه من العلائق والامور الّتى تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الاصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائد ويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أىّ تحرّك فكرى واستقلال عقلى. وأحياناً يكون التقاعس وحبّ الراحة من الدوافع الاخرى الّتى تقود الإنسان للتعصّب واللجاجة، لأن الانتقال من حالة إلى اخرى يحتاج فى كثير من الأحيان إلى بذل الجهد والسعى ومواجهة الموانع والتحديات الّتى يفرضها الواقع، وأنّى للكسول والمتقاعس أن يتحرك فى هذا السبيل، ولهذا السبب نجده يتمسك دائماً بما لديه من الأفكار والعقائد والأوهام المختلفة.

۳- التعصّب الإیجابی والسلبی

هناک ثلاث مفاهیم متقاربـهٔ فی المعنی وهی: التعصّب، الحمیّهٔ، التقلیـد، وکلّ واحـدٍ من هذه الامور تنقسم إلی: إیجابی وسـلبی. أو: ممـدوح ومذموم، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۰ رغم أنّ مفردهٔ (التعصّب) ترد غالباً فی المعنی المـذموم والسـلبی. وبشـکل عام فإنّ الإنسان إذا ارتبط بالامور غیر المنطقیـهٔ وتحرّک فی سـلوکه من موقع قبولها والـدفاع عنها فهو من التعصّب المـذموم، وهـذا هو ما ورد فی القرآن الکریم بعنوان (العصبیـهٔ الجاهلیـهٔ) ولکن إذا خضـعت علاقـهٔ الإنسـان مع هـذه الامور للمنطق والعقـل وکـانت النتائج المترتبـهٔ علیها مفیـدهٔ وبنّاءهٔ وتعصّب لها الإنسان فهو من التعصّب الممـدوح والإیجابی. ونقرأ فی نهـج البلاغـهٔ فی الخطبـهٔ (القاصـعهٔ) لأـمیرالمؤمنین علیه السـلام إشـارهٔ إلی هـذا المعنی حیث یقول: «فَاطْفِئُوا مَا کَمَنَ فِی قُلُوبِکُمْ مِنْ نِیرَانِ الْعَصَبِیَّهِٔ، وَاحْقَادِ الْجَاهِلِیَّهِٔ، فَانَّمَا تِلْـکَ الْحَمِیَّهُٔ تَکُونُ فِی الْمُسْـلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّیْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ» «۱». فنجـد فی هذه الخطبهٔ انها تقوم علی أساس من ذمّ الکِبر والغرور والتعصّب واللجاجـهٔ، ویقول الإمـام فی مکـان آخر أیضـاً: «فَانْ کَانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِیَّهِٔ فَلْیَکُنْ تَعَصُّبُکُمْ لِمَکَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِـدِ الْافْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْامُورِ الَّتِی تَفَاضَـلَتْ فِیهَا الْمُجَدَاءُ وَالُّنَجَدَاءُ مِنْ بُیُوتَاتِ الْعَرَبِ ... فَتَعَصَّبُوا لِخَلَالِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَهِٔ لِلْبِرِّ، وَ الْمَعْصِیَهِٔ لِلْکِبْرِ، وَالْاخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْکَفِّ عَنِ الْبَغْیِ» «۲». فعلیه فالإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام یشیر فی هذه الخطبهٔ إلی (التعصّب) بکلا قسـمیه، وعندما سُأل الإمام زین العابدین علیه السلام عن معنی العصبیهٔ ذکر کلا القسمین أیضاً وقال: «الْعَصَبِیّـهُٔ الَّتِی یَـأْثِمُ عَلَیْهَا صَاحِبُهَا انْ یَرَی الرَّجُلُ شِـرَارَ قَوْمِهِ خَیْراً مِنْ خِیَارِ قَوْمِ آخِرِین! وَلَیَس مِنَ الْعَصَبِیَّهِٔ انْ یُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَکِنْ مِنَ الْعَصَبِیِّـهِٔ أنْ یُعِینَ قَوْمَهُ عَلَی الظُّلْمِ» «۳». وطبقاً لهـذا الحـدیث فإنّ العصبیهٔ الّتی یعیشـها أفراد القوم أو القبیلهٔ مادامت تسـیر فی خطّ الخیر والصـلاح فهی إیجابیـهٔ وممدوحـهٔ، لأن هذه العصبیهٔ والارتباط الشدید لا یدفع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۱ الإنسان إلی ارتکاب الممنوعات ولا یقوده نحو الخطیئات بل یُعمق فیه أواصـر المحبّـهٔ ویؤکـد وشائج المودّهٔ بین الأفراد، امّا التعصّب المذموم فهو أن یسـحق العدالـهٔ والحقّ تحت قـدمه من أجل قومه ویضـحی بالقیم الأخلاقیـهٔ والشـرعیهٔ للحفاظ علی القیم الخرافیهٔ والتقالید الزائفهٔ. وورد فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً قوله «لَمْ یَدْخُلِ الْجَنَّهَٔ حَمِیَّهٌٔ غَیْرُ حَمِیَّهِٔ حَمْزَهِٔ ابْنِ عَبْدِالْمُطِّلِبِ، وَذَلِکَ حِینَ اسْـلَمَ غَضَباً لِلنَّبِیِّ فِی حَدیثِ السَّلَا الّذی الْقِیَ عَلَی النَّبِیّ صـلی الله علیه و آله» «۱». وبدیهی أن تعصّب حمزهٔ فی الدفاع عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله فی مقابل المشـرکین الّـذین یعیشون العصبیـهٔ الحمقاء والجاهلیـهٔ الزائفهٔ لم یکن تعصّـباً خارجاً عن حدود العقل والمنطق والعدالهٔ، ولـذلک فهو من التعصّب الممـدوح، ولو أنّ حمزهٔ قـد سـلک فی تعصـبه هـذا فی خط الباطل وارتکب ما یخالف الحقّ والعدالـهٔ فإنّ ذلک یقع فی دائرهٔ التعصّب المذموم والسلبی أیضاً.

۴- التقلید البنّاء والأعمی

إن (التقلیـد) ینقسم کالتعصّب إلی قسـمین: ایجابی وسـلبی. وبعبارهٔ أدّق، یمکن تقسـیم التقلیـد إلی أربعـهٔ أنحاء وأشـکال، ثلاثه منها سلبیـهٔ وواحـد ایجـابی. الأـوّل: (تقلیـد الجاهل للجاهل) وهو أن یتحرک بعض الجهلاء والسـذّج من الناس فی أفکارهم وسـلوکیاتهم بدافع من تقلید طائفهٔ اخری من الجهال ویسـتوحون منهم اعتقاداتهم وسـننهم وتقالیدهم، فمثل هذا التقلید هو الّذی ورد الذمّ والتوبیخ علیه بشدّهٔ فی القرآن الکریم حیث یُعد من أسباب الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۲ التعصّب واللجاجهٔ وأحیاناً من نتائجهما المترتبهٔ علیهما، وهـذا هو العامل المهم فی انتقال الخرافات من قوم إلی قوم آخرین، وهـذا هو ما تصدّی له الأنبیاء والدعاهٔ إلی الحقّ من موقع إبطـاله ودحوه. الثانی: (تقلیـد العالِم للجاهل) وهو أشـنع أنواع التقلیـد، وهو أن یتحرک الإنسان بالرغم من علمه ومعرفته فی السـیر فی خط الباطل ویتبع الجهلاء فی ذلک بسـبب ما علق علی قلبه من حالات التعصّب الـذمیم. إن مسألهٔ (الاسـتعوام) واستسـلام العلماء أمام

أفكـار الجهـال والعامّـة من الناس هو نوع من تقليـد العالم للجاهل. الثالث: (تقليـد العالِم للعالم) ويكون بصورة أن يتقاعس العالم عن البحث والتحقيق فى أمر من الامـور ويستسـلم للنتائـج الّتى توصل إليها عالم آخر من دون دراسـة ونظر فاحص، ومن الواضـح أنّ هـذا النوع من التقليـد مـذموم أيضـاً رغم انه ليس بشـناعة القسم الأوّل والثانى، لأنّه ينبغى على العلماء وأهل المعرفـة فى كلّ قوم وامّـة أن يبذلوا ما لديهم من الجهود فى دائرة التحقيق والبحث العلمى فى كلّ مسألة لإستخلاص النتائج الّذى يفرضها البحث العلمى، ومع توفر الاسـتعداد والقابلية للتحقيق والبحث فإنّ الاستسلام الأعمى إلى الآخرين ليس من شأن العالم، ولهذا ورد فى الفقه الإسلامى أنّ التقليد حرام على المجتهد. وقد ورد فى التعبيرات المعروفة فى اجازات الاجتهاد هذه العبارة (يُحرم عليه التقليد)، إلّاأن يكونا متخصصـين فى مجال التخصص العلمى (كالطبيب المتخصّص فى أمراض القلب مثلًا يراجع الطبيب المتخصّص بأمراض العين فى هذا المورد بالذات) أو يرجع المتخصّـص لاستاذه، فهو فى الواقع من قبيـل القسم الرابع الّـذى سـتأتى الإشـارة إليه. الرابع: (تقليـد الجاهل للعالم) بما يتعلق بعلمه، وبعبارة اخرى: أن يراجع غير المتخصص إلى المتخصص فى كلّ فن، وبعبارة ثالثة أيضاً: إن ما لا يحيط به الإنسان عِلماً عليه أن يرجع فى ذلـك لأهـل العلم الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۳ والخِبرة ليقتبس منهـم (كمـا فى رجـوع المرضـى إلى الأطبـاء فى الأمراض المختلفـة) وهـذه المسألـة تُعـد من الاسـس والدعائم للحياة الفردية والإجتماعية للإنسان. وتوضـيح ذلك: أنّ العلوم والفنون والمعارف البشـرية إلى درجـة من السـعة والكثرة بحيث إنّ كلّ واحـد من البشـر لا يمكنه الإحاطة بها جميعاً، وقد كان هذا الحال من قـديم الأيّام وقد تجلّى هذا المعنى أكثر فى عصـرنا الحاضـر حيث تشـعّبت العلوم والمعارف وتطوّرت بشـكل كبير جدّاً بحيث إنّ كلّ إنسان لا يسـتطيع حتّى فى الإحاطـة بجميع فروع علم واحـد من العلوم كالطب مثلًا أو الهندسـة فكيف الحال بالعلوم الاخرى ومع هـذا الحـال فلاـ مفر أمـام الناس إلّابأن يرجع الجاهل منهم إلى العالم، وهـذا أصل مسلّم فى حركـة الحياة وقـد بنيت عليه سـيرة العقلاء فى جميع العالم، والسير بخلاف هذا المنهج يؤدى قطعاً إلى تخلخل مفاصل المجتمع واهتزاز أركانه وبالتالى انحطاطه الحضارى والثقافى. وهكـذا الحال فى المسائل المعنويـة والأخلاقيـة والعلوم الدينية، فلا يمكن أن يتوقع من جميع الناس أن يكونوا أصـحاب فكر واجتهاد فى جميع العلوم والمعارف الإسلامية، فبعض هذه الفروع العلمية إلى درجة من السعة بحيث تحتاج لدراستها والإحاطة بها إلى خمسين سنـة من البحث والتحقيق (من قبيل علم الفقه). فمن الطبيعى أن يرجع الأشـخاص المنشـغلين عن هـذه العلوم والجاهلين بها إلى العالم والخبير بها، ولكن بالنسـبة إلى اصول الـدين والعقائـد المذهبيـة الّتى تشـكّل دعائم المنظومـة فى الفكر الدينى فإنّ على كلّ إنسان أن يحيط بها بمقـدار ما يمكنه ذلك منها ولا يقبل من العقائـد إلّاما كان مسـتنداً إلى دليل وبرهان، فالتقليد فى مثل هذه الامور غير جائز، بل لابـدّ من التحقيق والفحص وعـدم قبول المعتقدات الدينية الأساسـية إلّاعن دليل وبرهان. وعلى أيّة حال فإنّ مثل هذا التقليد لا يُعد من القسم المذموم ولا يدخل فى دائرة التقليد السـلبى بل هو مصداق قوله تعالى: «... فَاسْئَلُوا اهْلَ الذِّكْرِ انْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» «۱». وليس من الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۴ قبيـل قوله تعـالى «... انَّا وَجَـدْنَا آبَائَنَا عَلَى امَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَـدُونَ» «۱». وهذا لا يرتبط بمسألة التعصّب المذموم الّذى هو الدافع للإنسان إلى سلوك طريق اللجاجة والتقليد الأعمى

۵- طرق العلاج

إن الطريق لعلاج هـذه الرذيلـة الأخلاقية هو كسائر علاج الرذائل الأخلاقية الاخرى فإنه يتطلب فى المرتبة الاولى الإلتفات إلى الدوافع والجـذور والسـعى لإزالتهـا من واقع الإنسان وباطنه، ومع العلم بأنّ جـذور التعصّب هو ما تقـدّم من الانانيـة والافراط فى حبّ الـذات، انخفاض المسـتوى الثقافى، ضعف الشخصية، العزلة الاجتماعية والفكرية، وأمثال ذلك. ولابدّ لإزالة هذه الصفة الرذيلة وتطهير النفس منها من الصـعود بالمستوى العلمى والثقافى للأفراد والسعى للتعرف على الأقوام والشعوب الاخرى والاطلاع على أفكارهم وعقائدهم، وكـذلك تعـديل حبّ الـذات فى شخصـية الإنسان وقلع الميول والاتجاهات المضـرة فى نفسه والّتى تورثه التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى وكـذلك يجب الالتفات إلى الآثار السـلبية لهـذه الحالات الذميمـة من أجل إصـلاح النفس وتهـذيبها وتطهير القلب من هذه

الشوائب والأدران المحيطة بها. وعندما يدرك الإنسان أنّ التعصّب واللجاجة تسدل على فكره وعقله حجاباً وستاراً مضمراً يمنعه من إدراك الحقائق وفهم الواقعيات وكذلك من شأنه أن يمزق العلائق الإجتماعية بين أفراد المجتمع ويبذر بذور النفاق والاختلاف والفرقة بينهم، ويُفضى إلى الشقاء والتعاسة ويورث الإنسان التعب والدرك وحتّى انه قد يؤدى به إلى الإنزلاق فى دوّامة من المشاكل لم يكن يتوقعها أبداً. فمطالعة هذه الامور من شأنها أن تقلّل من شدّة العصبية والعناد وتساعد الإنسان فى النزول عن مركب الغرور والتعصّب والتقليد الأعمى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۵ وأن يسلك بالتالى فى خطّ السعادة والإنصاف ويسلك المنهج العقلانى فى التفكير والمعتقد. وأحد الامور الاخرى فى طريق علاج هذه الرذائل الأخلاقية هو تغيير شكلها ومحتواها، بمعنى أنّ الإنسان يقوم بعملية استبدال الدوافع السلبية بدوافع اخرى ايجابية. مثلًا: الشخص الّذى يعيش التعصّب الشديد بالنسبة إلى الامور غير المنطقية أو الخرافية، فبدلًا من أن يسعى إلى قتل الدافع لهذا التعصب فى نفسه يقوم بتحويله إلى الجهة الإيجابية فيتعصب للُامور الحقّة. وهذا هو ما قرأناه فى الخطبة القاصعة للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «فإنّ كان لابدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الامور» «۱». وإذا كان المفروض على الإنسان أن يتعصب لشىء فى علاقاته وتفاعله مع الآخرين فالأفضل أن يكون تعصبه للقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

۶- التسليم مقابل الحق

النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى هو التسليم مقابل الحقّ الّذى يُعد من الفضائل المهمة الأخلاقية، أىّ أنّ الإنسان يقبل بالحقّ من أىّ شخص كان حتّى لو رآه أبعد الناس وأصغرهم فيسلّم له. وهذه الفضيلة الأخلاقية هى السبب فى التقدّم العلمى والتطور الحضارى للبشرية وتورث الإنسان الحصانة من الوقوع فى الضلالة وسلوك طريق الباطل. ولايتحلّى بهذه الصفة الأخلاقية الحميدة إلّاأهل الإيمان والصالحون من الناس والّذين يبتعدون عن الافراط فى حبّ الذات والتعلقات القومية الذميمة ويجتنبون الميول الذاتية فى دائرة الفضيلة والمعتقد. إن التسليم مقابل الحقّ هو من علامات الإيمان، وسلامة الفكر والروح، وارتفاع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۶ المستوى الثقافى لدى الإنسان، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الخصلة الحميدة مخاطباً النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى انْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» «۱». ويقول فى مكان آخر: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ اذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ امْراً انْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ امْرِهِمْ» «۲». وطبعاً فإنّ التسليم (بعنوان فضيلة أخلاقية) يُستعمل على معنيين: أحدهما: التسليم مقابل الحقّ والّذى يقع فى النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى والآخر: هو التسليم مقابل القضاء والقدر الإلهيين فيعيش الإنسان فى حالة الشكر والرضا بما قسم اللَّه ولا يعيش السخط والكفران. وموضع البحث فى هذا الفصل هو ما يتعلق بالمعنى الأوّل، امّا المعنى الثانى فسوف يأتى الكلام عنه فى بحث (الرضا والتسليم). ۱۰ و ۱۱

الجُبن والشجاعة

تنويه:

ومن الرذائل الأخلاقية الاخرى فى منظومة القيم هى صفة (الجُبن) والخوف غير المنطقى والّذى يورث الإنسان الذلّة والمهانة والسقوط ويحطّ من قدر صاحبه ويتلف طاقاته ما كان منها بالفعل أو بالقوة ويفضى به إلى أن يتسلط عدوه عليه. والنقطة المقابلة لهذه الصفة الذميمة هى (الشجاعة) والشهامة والجرأة والّتى تُعد مفتاحاً للنصر والفلاح فى حركة الإنسان الإجتماعية وعنصر العزّة والعظمة للمجتمع البشرى سواءاً فى ميدان الحرب والجهاد أو فى ميدان السياسة والاجتماع وحتّى فى الميادين العلمية فإنّ الشجاعة تُعتبر مفتاحاً للورود إلى هذه الميادين، ومن هذا المنطلق نجد أنّ علماء الأخلاق أطنبوا فى ذكر هاتين الصفتين (الجبن والشجاعة) وبيّنوا أسبابها

ونتائجها وآثارها على حياة الفرد والمجتمع. وورد فى كتب القدماء من علماء الأخلاق أنّ الشجاعة هى أحد الأركان للفضائل الأربعة، وبالمقابل ذكروا الجبن باعتباره أحد الرذائل الأربع أيضاً. وورد فى سيرة الأنبياء العظام واتباعهم الحقيقيين ما يجسد هذه الصفة وأنّ هؤلاء العظماء كانوا مظهراً من مظاهر الشجاعة واسطورة للمقاومة والتصدى للباطل وقوى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۸ الانحراف وخير قدوة لجميع الناس فى هذا الطريق. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى دروساً فى هذه الفضيلة الأخلاقية وما يترتب من الآثار السلبية على صفة الجبن أيضاً. ۱- نقرأ فى قصة إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ* قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ* قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مّنَ الشَّاهِدِينَ* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ* فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعلَّهُم إِلَيهِ يَرْجِعُونَ» «۱». ۲- وبالنسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام نقرأ قوله تعالى: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۲». ۳- ونقرأ عن طالوت وجنوده الشجعان: «... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَاطَاقَةَ لَنَا ا لْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ اللَّهِ كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ا لْقَوْمِ ا لْكَافِرِينَ» «۳». ۴- وبالنسبة إلى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والفئة الشجاعة من المؤمنين معه وكذلك من يدّعى الايمان نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا* ... وَلَمَّا رَأَى ا لْمُؤْمِنُونَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۹ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هـذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۱». ۵- ونقرأ فى مكان آخر قوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبّصُونَ» «۲». ۶- وحول جماعة من انصار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ* ... إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَنُ يُخَوّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» «۳». ۷- «الَّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۴».

تفسير واستنتاج:

الأنبياء والشجاعة

تتحدّث «الطائفة الاولى من الآيات محل البحث عن شجاعة النبى إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد مقابل عبدة الأصنام من قومه الّذين كانوا يعيشون التعصّب واللجاجة والخشونة، وتشير الآيات إلى هذا النبى العظيم وكيف انه تصدّى لأقوى سلطة فى تلك الفترة لوحده ومن دون أن يكون له ناصر من قومه، فى مقابل كثرة الأعداء الغاضبين والذين كانوا يمثلون خطراً عليه حيث كانوا يتمتعون بدعم الحكومة والسلطة فى ذلك الزمان. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۰ وقد عبّرت الآيات الكريمة عن ذلك بقولها: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» «۱». وفى الواقع فإنّ اللَّه تعالى قد وهب لإبراهيم مؤهّلات كثيرة تمنحه القدرة على تحمّل تلك المسؤولية العظيمة والاستفادة من هذه المواهب والقابليات فى خطّ تقوية دعائم الإيمان والتوحيد والتصدّى للعامل الأساس فى شقاء البشرية، أى عبادة الأصنام والأوثان، وكما سيأتى فى سياق هذه الآيات الشريفة أنّ إبراهيم ابتدأ أوّلًا بدعوة عمّه آزر للإيمان بصراحة اللهجة وتمام القوّة وقال له: «مَا هـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ». وعندما أجابه آزر بالقول: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِينَ». فأجابه إبراهيم عليه السلام: «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ». إنّ آزر لم يكن يصدّق لحدّ الآن أنّ إبراهيم سوف يتصدى بهذه الصراحة والجدّية لمقاومة هذه الأصنام الّتى يعبدها الجميع ولذلك سأله: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ». ولكن إبراهيم عليه السلام أجابه أنّه جادٌّ فى كلامه هذا وقال: «قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مّنَ الشَّاهِدِينَ».

ثمّ أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ» «۲». وهكذا ترجم إبراهيم عليه السلام قوله فى ميدان العمل بعد أن استغلّ الفرصة المناسبة لذلك، فكسّر الأصنام جميعها إلّاالصنم الأكبر لعلّهم يثوبون إلى رُشدهم أو يرجعون الى الصنم الاكبر المسبب لهذه الحادثة ليسألوه كما تقول الآية: «فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُم إِلَيهِ يَرْجِعُونَ» «۳». وهناك اختلاف بين المفسّرين فى مرجع الضمير فى قوله (إليه) فى ذيل الآية، وقد أورد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۱ المفسّرون احتمالات عديدة، فذهب البعض إلى أنّه يعود إلى (كبيرهم) أىّ يرجعون إلى الصنم الكبير ويسألونه عن سبب تحطّم وانهدام هذه الأصنام والسبب فى نجاته هو من بينهم، وطبيعى أنّ هذا الصنم سيعجز عن الجواب، ومن هنا يتضّح لهم خواء معتقدهم. والاحتمال الآخر هو أنّ الضمير يعود إلى (إبراهيم) يعنى أنّ الوثنيين يرجعون إلى إبراهيم ويسألونه عن الدافع الّذى حمله على هذا التصرّف، فيوضّح لهم الحقائق (وطبعاً فى هذه الآية تكون جملة (إلّا كبيراً لهم) عديمة التأثير فى مفهوم الآية بخلاف الاحتمال السابق). الاحتمال الثالث: أن يعود الضمير إلى اللَّه تعالى، أى أنّ مشاهدة ضعف هذه الأصنام وذلتها فى مقابل إنسان واحد سيؤدى إلى أن يثوب الوثنيون إلى رشدهم ويتركوا عبادة الأصنام ويتجهوا إلى اللَّه تعالى ويسلكوا خطّ العبادة والتوحيد. (وهذا التفسير أيضاً يرد عليه الإشكال السابق). ولكن الأنسب من الجميع لسياق الآيات هو التفسير الأوّل. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ أحد الفضائل الأخلاقية للأنبياء اولى العزم هو شجاعتهم المنقطعة النظير، وأنّهم لم يكونوا يشعرون بالخوف إلّافى دائرة الإيمان باللَّه تعالى وفى مقابل الذات المقدسة، وفى هذا الطريق لم يكونوا يعيشون التردّد والخوف والضعف بأى شكل من الأشكال، وبالتالى فهم منزّهون ومطهَّرون عن حالة الجُبن والخوف الّذى يُعد رذيلة أخلاقية كبيرة، ولهذا نجد إبراهيم عليه السلام وهو يتصدّى لجماعات الوثنيين وقوى الانحراف والأعداء الشرسين لوحده وينتصر عليهم أخيراً، ولاشكّ أنّ الأنبياء العظام لو كانوا يعيشون حالة الخوف والجُبن فى حركة الحياة فإنّهم لم يكونوا قادرين على أداء مهمّتهم الرسالية والإنتصار على الأعداء. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع توجيه الخطاب للنبى موسى بن عمران، وذلك لمّا نزل عليه الوحى لأول مرّة وقد صدر له الأمر بأن يُلقى عصاه الّتى تحوّلت بإعجاز إلهى إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۲ ثعبان عظيم، فخاف موسى من هذه الظاهرة العجيبة وقرّر الفرار، إلّاأنّ الخطاب الإلهى جاءه ليعلّمه أوّل درس أخلاقى تجاه الحوادث وقال: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۱». ونظراً إلى أنّ جميع أنحاء العالم هى فى محضر اللَّه تعالى وإن كلّ زاوية من زوايا الكون هى محلّ حضور ذاته المقدسة وعلمه وقدرته، ولذلك على المؤمنين أن لا يخافوا بأيّة حال وفى كلّ الظروف بل عليهم أن يعيشوا حالة التوكل على اللَّه تعالى ويواجهوا تحديات الواقع بشجاعة وشهامة، ويسيروا بهذه الروح المعنوية فى خطّ الرسالة وتحقيق الأهداف المقدسة. وطبقاً لما ورد فى سورة القصص فى الآية (۳۱) أنّه قيل لموسى «يَا مُوسَى اقْبِلْ وَلَا تَخَفْ انَّكَ مِنَ الْآمِنِين». فشعر موسى بهذا الخطاب الإلهى بالطمأنينة والسكينة تدغدغ أعماق قلبه واستعاد قوته ورباطة جأشه، وهنا جاءه النداء الإلهى يحمل دستوراً أكبر وأهم، وهو أنّ لاـ يكتفى بعدم الخوف من هذا الثعبان العظيم بل يجب أن يتجه إليه ويأخذه بيده حتّى يعود إلى حالته الاولى! «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْاولَى» «۲». ومن المعلوم أنّ هذا العمل كان يمثل لموسى الصعوبة البالغة، ولكنه نجح أخيراً فى الإمتثال والإذعان لهذا الأمر الإلهى. أجل فإنّ على موسى أن يستوعب التجربة الكبيرة فى محضر الذات المقدّسة ليقف أمام ثعبان أكبر وأخطر من هذا، أى فرعون والملأ من قومه وحكومته الجبارة الّتى يجب أن يأخذها موسى منهم كما يأخذ عصاه. الكثير من المفسّرين ذهبوا فى تفسير كلمة (جان) فى الآية أعلاه تعنى صغار الحيّات الّتى تهجم على الشخص بسرعة، فى حين أنّه فى مكان آخر تتحدّث الآيات عن عصى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۳ موسى الّتى ألقاها أمام الفراعنة بكلمة (ثعبان) بمعنى الحيّة العظيمة، ولهذا السبب فقد احتمل البعض أنّ العصى فى بداية أمرها تبدّلت إلى حيّة صغيرة وتدريجياً تحوّلت إلى ثعبان عظيم. وذهب آخرون إلى أنّ (العصا) تبدلت إلى حيّة عظيمة، ولكنها من جهة سرعة الحركة فهى كالحية الصغيرة السريعة. والملفت للنظر أنّ جملة (لا تخف) وردت فى القرآن الكريم تسع مرّات، وفى خمسة موارد كان المخاطب فيها موسى بن عمران، ولعلّ ذلك بسبب أنّ موسى كان يعيش بين أعداء كثرة وشديدى الخطورة كفرعون وهامان والملأ، ويجب أن يعد العدّة بمثل هذا الخطاب الإلهى لمواجهة هؤلاء

الأعـداء. وتسـتعرض «الطائفـة الثالثـة» من الآيات الكريمـة قصـة (طالوت) وقومه من بنى إسـرائيل والّذى انتخبه نبيّهم فى ذلك الوقت (إشـموئيل) بعنوان قائـد جيش بنى إسـرائيل لمواجهـة (جالوت) وجيشه الظالم. وعنـدما أراد طالوت مواجهـة جالوت وقتاله قام بعملية اختباريـة لجيشه ليطهره من الشوائب وضـعفاء النفوس والجبناء، الّـذين قد يُفضـى وجودهم فى جيشه إلى سـريان الجبن والضـعف فى سائر مفاصل جيش بنى إسـرائيل. أجل فعندما كان جيش طالوت يشـعر بالعطش الشديد وصلوا إلى نهر، فأراد طالوت أن يختبر جنوده العطاشـى هناك وقال: كلّ من يشـرب من هذا الماء فليس منّا، وامّا من قاوم العطش ولم يشـرب إلّارشفات فهو منّا، ولكن أغلب أفراد الجيش الّـذين كـانوا من الجبنـاء وضـعفاء النفوس لم ينجحوا فى هـذا الامتحـان والاختبـار وشـربوا من المـاء إلّاعـدة قليلـة بقوا أوفياء لطالوت، فهؤلاء كانوا يعيشون روح الشـجاعة والقوّة والبسالة حيث قالوا فى دعائهم: «... رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ اقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «۱». الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۴ وهكـذا أنزل اللَّه تعالى نصـره وعنايته ورحمته على هـذه الفئـة القليلـة من المؤمنين ونصـرهم على جيش جالوت العظيم ببركـة شـجاعتهم وثباتهم فى مواجهة التحدّيات والاختبارات الصـعبة. ونقرأ فى «الآيات التالية» أنّ القرآن الكريم يتحدّث عن جبن طائفة من المنافقين وضـعفاء الإيمان فى عصـر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفى حرب الأحزاب، ويتحـدّث كذلك عن شـجاعة بعض المؤمنين الحقيقيين وثبات قدمهم فى مواجهة الأعداء الشرسـين حيث تقول الآية: «وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيـدُونَ إِلَّا فِرَارًا» «۱». وطبعاً فإنّ ميـدان القتال فى معركـة الأحزاب كان يغص بجيوش الأعـداء وكثرة عددهم وعُدتهم بحيث يسـتوحش من هذا المنظر الرهيب كلّ الأشخاص الّذين يعيشون الاهتزاز فى شخصيتهم والخوف والرعب فى واقعهم. ولكن كما تقول الآية (۲۲) من هذه السورة أنّ المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون الطمأنينة والثقة بوعد اللَّه إزدادوا إيماناً: «وَلَمَّا رَأَى ا لْمُؤْمِنُونَ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۲». واللطيف انه يُستفاد من بعض الروايات أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أجـاز للمنـافقين وضـعفاء الإيمـان والجبنـاء بـأن يعودوا إلى المدينـة، لأنـ بقـائهم فى تلك الظروف العصـيبة مع جيش الإسـلام لا ينفع شـيئاً سوى بث الرعب والضـعف والتخاذل فى قلوب الآخرين. ولهـذا السـبب نقرأ فى الآيـة (۴۷) من سورة التوبـة فى حـديثها عن جماعـة من هـذه الطائفـة: «لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا». ومعلـوم أنّ كلمـة (خَبَل) و (خبـال) تعنى الإضـطراب والترديـد الناشـىء من ضـعف العقل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۵ وعـدم القـدرة على اتخاذ الموقف والعزم على شـىء، وكلّ ذلك ناشـىء من الخوف والجُبن الّـذى يقود الإنسان إلى ارتباك الفكر وعـدم التوازن فى اتخاذ الموقف. وفى «الآية الخامسة» نواجه منظراً جديداً من شـجاعة أصـحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الشجاعة الّتى تنطلق من موقع الإيمان باللَّه تعالى، حيث أنّ هؤلاء المـؤمنين يرون أنفسـهم فى ميـدان الحرب على مفـترق طريقين وكليهمـا يؤدّيـان بهمـا إلى الجنّـة ورضـا اللَّه تعـالى: طريق يؤدى إلى الشـهادة وبالتـالى السـعادة العظمى فى الحيـاة الآخرة، والآخر يقودهم إلى النصـر على العـدو، وهو أيضاً مبعث الفخر والاعتزاز لهم فى الـدنيا والآخرة، فى حين أنّ العـدو محكوم بالهزيمـة والخسـران بأيّة حال، فإما الموت الذليل والمهين فى هذه الدنيا، أو عذاب اللَّه فى الآخرة. وبديهى أنّ الشـخص الّذى يعيش هذه الرؤية فإنه سوف لا يدع أىّ خوف وضـعف يتسرّب إلى قلبه، وبذلك يتخلّص الإنسان من هذه الرذيلة الأخلاقية الكبيرة، وفى ذلك تقول الآية: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنـدِهِ أَو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ» «۱». وقـد ذهب بعض العلمـاء إلى أنّ العامل الأساس لانتصار المسـلمين فى حروبهم الحاسـمة فى ذلك العصـر هو الشـجاعة المنطلقة من الإيمان باللَّه والمنطق الرصين: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». وتـأتى «الآيـة السادسـة» لتسـتعرض وجهـاً آخر من شـجاعة هؤلاء المؤمنين فى معركـة احـد، ونعلم أنّ المسـلمين فى معركـة احـد قد أصابتهم الهزيمة النكراء بسـبب غفلة طائفة من المسـلمين الطامعين بحطام الدنيا الّذين تركوا مواقعهم الحسّاسة واشتغلوا بجمع الغنائم، وهكـذا اصـيب المسـلمون فى هذه المعركة بخسائر كبيرة، وطبقاً لما ورد فى التواريخ أنّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۶ الأعداء المنتصـرين فى أثناء عودتهم من ميـدان القتال إلى مكّـة ندموا على رجوعهم هذا واتفقوا مرّة اخرى أن يعودوا إلى المدينة ليسـتفيدوا

من هذه الفرصة الثمينة ويُجهزوا على الإسلام والمسلمين ويتخلّصوا منهم إلى الأبد. فعندما سمع نبى الإسلام بذلك اتخذ موقفاً مهماً جداً، حيث أمر جيش الإسلام بالخروج لمواجهة جيوش الأعداء ولم يستثن أحداً من المسلمين حتّى من به جراحة بسبب المعركة الدامية الّتى جرت قبل قليل. هذا الأمر النبوى اثّر أثره بشكل كبير وأحلّ الرعب والخوف والاضطراب فى صفوف الأعداء بحيث إنهم رجّحوا الاكتفاء بالانتصار النسبى والعودة إلى مكّة على الهجوم الثانى على المسلمين، وهكذا تخلّص المسلمون من شرّهم. والآية محل البحث تشير إلى هذا المعنى وتثنى على شجاعة المسلمين وتقول: «الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ا لْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» «۱». ثمّ تتحدث عن إيمانهم وشجاعتهم واصفة حالتهم المتماسكة فى مقابل الارهاب الاعلامى للأعداء الّذى يتحرك من موقع التهويل والتخويف وتقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ» «۲». وهذه هى الحادثة الاولى من نوعها فى تاريخ الحروب البشرية حيث لم يشاهد فى تاريخ البشرية أنّ المجروحين يعودون فوراً إلى ميادين القتال ليساهموا فى دفع خطر الأعداء، أجل إن هذه الشجاعة والشهامة الفريدة هى التى اجهضت مؤامرة العدو، وهذا الحضور القوى والسريع إلى الميدان هو الّذى زرع اليأس فى قلبه. وعلى أية حال فإنّ واقعة «حمراء الأسد» كانت ظاهرة عجيبة بدّلت حلاوة النصر لدى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۷ قريش إلى مرارة، وبيّنت لهم أنّ المسلمين بالرغم من هزيمتهم بسبب زيغ جماعة منهم، إلّا أنّهم مازالوا ثابتين فى الميدان وأنّ على العدو أن يتوقع ضربات المسلمين فى المستقبل. وبهذا أثرت هذه الواقعة ليس فقط فى التصدى إلى هجوم الأعداء ودفع الخطر، بل فى وضع الأساس لانتصارات لاحقة، وتطهير ما علق فى النفوس من آثار سلبية للانتكاسة فى احد، ومنح المسلمين الأمل فى حياتهم الجديدة بالتوكل على اللَّه تعالى. ويستفاد من الآية الشريفة أعلاه أنّ عملية الارهاب الاعلامى الّذى قام به بعض الشياطين لبث الرعب والخوف فى قلوب المسلمين من جيوش قريش، ليس فقط لم يؤثر فى زعزعة إيمانهم وثقتهم باللَّه تعالى وبالإسلام، بل إزداد إيمانهم واشتدت ثقتهم باللَّه وتوكلهم عليه، كلّ ذلك كان بسبب أنّهم كانوا يعيشون الثقة بوعد اللَّه وصدق النبى الأكرم وأنّهم لو عملوا بارشادات النبى فى واقعة احد فإنّ النصر سيكون حليفهم لا محالة. ومن عجائب هذه الواقعة هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله أمر المسلمين الّذين اشتركوا فى احد فقط بالحضور إلى حمراء الأسد دون غيرهم، لكى يفهم العدو أنّ جيش المسلمين فى احد مازال قوياً رغم وجود الكثير من الجرحى فى صفوفه، وما زال مستعداً للقتال دون ضعف وفتور رغم استشهاد العديد من ابطاله وأفراده، وهذا هو الّذى أخاف الأعداء وزرع الخوف والقلق فى قلوبهم. ونقرأ فى الآيات اللاحقة وفى الآية ۱۷۵ من هذه السورة إشارة للتفاوت بين الأفراد الّذين يعيشون الخوف والجبن وبين المؤمنين الّذين يعيشون الشجاعة والتوكل، حيث تقول الآية: «إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». ونستوحى من هذه الآية الشريفة أنّ مثل هذا الخوف يتّسم بصفة شيطانية والغرض منه تضعيف روحية المؤمنين واهتزاز معنوياتهم واتخاذ موقف انفعالى أمام تحديات الظروف وبالتالى التهرب من ضغط المسؤولية والتكليف، والحال أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يشعرون بالخوف إلّامن اللَّه تعالى. وطبقاً لهذه العبارات الواردة فى الآية الشريفة فإنّ الجبن يمتد فى جذوره إلى عناصر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۸ الشر فى واقع الإنسان فى حين أنّ الشجاعة تسترفد مقوماتها من عنصر الإيمان وتعدّ من معطياته وثماره، لأن المؤمن وبالتوكل على اللَّه القادر المطلق يرى نفسه منتصراً فى جميع الميادين. أما الأشخاص الّذين يعيشون الاهتزاز فى إيمانهم ويعتمدون على قدراتهم الذاتية فإنّهم منهزمون على أية حال لما يروا من محدودية قدراتهم وهزال امكاناتهم، ولذا يستولى عليهم الخوف والاضطراب أمام تحديات الواقع ومشكلاته المتزايدة. لقد تكاتفت قوى الشر والانحراف فى واقعة «حمراء الأسد» لإظهار قوّة جيش قريش وتفخيمها بأكبر حجم لإخافة المؤمنين والقاء الرعب فى قلوبهم، إلّاأنّ القرآن الكريم يقرر أنّ أولياء الشيطان واتباعه هم الّذين يتأثرون بهذه المظاهر الخدّاعة، بينما يعيش أولياء اللَّه الثبات والاستقامة فى خط الحقّ والرسالة «۱». وتنطلق «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث للتذكير بهذه الحقيقة، وهى أنّ إحدى صفات المبلّغين الرساليين هى طهارتهم من رذيلة الجبن والخوف من غير اللَّه تعالى، وتقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۲». إن

تبليغ الرسالة الإلهية من أهم وظائف الأنبياء والمرسلين، وهذا لا ـ يتسنى إلّابخلو النفس من أية شائبة من شوائب الخوف والجبن والتردد. هذه الآية الشريفة الناظرة إلى الأنبياء الماضين تحذّر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالدرجة الاولى، واتباعه المخلصين بالدرجة الثانية من مغبة الشعور بالخوف والتردد حين إبلاغ الرسالات السماوية وأنّ عليهم أن لا يخشون أحداً إلّااللّه تعالى، ومفهوم هذا الخطاب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۹ القرآنى هو أنّ الأشخاص الجبناء والّذين يعيشون الخوف والتخاذل فى الموقف غير لائقين لتولى هذه المهمة وأداء هذه الرسالة. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الأنبياء الإلهيين لا ينبغى لهم استعمال التقية، ولكن هذا الرأى إنما يكون صحيحاً إذا فسّرنا التقية بمعناها السلبى من الخوف والخشية من المخالفين، والحال أنّ التقية لا تستوحى مقوماتها من الخوف دائماً، بل قد تكون بدافع من الحرص على جذب المخالفين إلى سواء السبيل وإيصال الناس إلى الغايات الإلهيّة بصورة تدريجية، ولعلّ قول إبراهيم عليه السلام «هذا ربى» أمام الوثنيين من قومه كان من هذا القبيل (فتأمل).

النتيجة النهائية:

تبيّن من خلال استعراضنا لجملة من الآيات الكريمة أهمية الشجاعة والشهامة فى حركة الإنسان المؤمن، ودور هذه الفضيلة الأخلاقية فى صياغة مصير الإنسانية على المستوى المادى والمعنوى، وكذلك تبيّن فى الجهة المقابلة الآثار السلبية لرذيلة الجبن وعواقبها السيئة على حياة الإنسان. وصحيح أنّ هذه الآيات الكريمة لم تفصل البحث عن الشجاعة والجبن بصورة مستقلة وبشكل مباشر، إلّاأنّها أشارت إلى دور هذه المفاهيم الأخلاقية فى حياة الإنسان بشكل ضمنى وببيان دقيق وجميل.

الجبن والخوف فى الروايات الإسلامية:

اشارة

ونقرأ انعكاساً واسعاً فى الأحاديث الشريفة لهذه الرذيلة الأخلاقية من موقع الذم والتحذير الشديد من الاتصاف بها، من قبيل: ۱- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً وَلَا حَرِيصاً وَلَا شَحِيحاً» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۰ ويستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ «الخوف» و «الحرص» و «البخل» لا ـ تنسجم مع روح الإيمان، لأنّ المؤمن يتوكل فى جميع اموره على اللّه تعالى، ومن كان يملك مثل هذا الأساس المتين فى حركة الحياة لا ـ يمكن أن يعيش الخوف ولا ـ البخل ولا الحرص، لأنّه يعيش الأمل برحمة اللّه وفضله فلا يتعلق قلبه بشىء من حطام الدنيا. ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وهذا الحديث فى الحقيقة بيان آخر لما ورد فى الحديث السابق حيث يبيّن الجذور الأصلية لهذه الصفات الرذيلة. ۳- وقد نهى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام اتباعه من استشارة الجبناء لأن خوفهم يؤثر فى صياغة الرأى ويبعده عن جادة الصواب: «لَا تُشْرِكَنَّ فِى رَأْيِكَ جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْامْرِ وَيُعَظِّمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ» «۲». ونفس هذا المعنى ورد فى عهد الإمام لمالك الاشتر بشكل آخر حيث نهى الإمام على مالك الاشتر عن مشورة البخلاء والجبناء والحريصين. ۴- وهذا الموضوع إلى درجة من الأهمية بحيث إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أمر بعدم اشتراك الأفراد الجبناء فى أى جهاد ضدّ المشركين لئلّا يُضعفوا معنويات الآخرين، فقال: «مَنْ احَسَّ مِنْ نَفْسِهِ جُبناً فَلَا يَغْزُ». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يوضّح الحديث أعلاه ويقول بصراحة: «لَا يَحِلُّ لِلْجَبَانِ انْ يَغْزُو، لِانَّهُ يَنْهَزِمُ سَرِيعاً وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ مَا كَانَ يُرِيدُ انْ يَغْزُوَ بِهِ فَلْيُجَهِّزْ بِهِ غَيْرَهُ» «۳».

۱- الخوف المعقول وغير المعقول

لاشكّ أنّ المراد من الجبن والخوف هنا ليس هو الجبن المعقول والخوف المنطقى بل يقع فى دائرة اللامعقول واللامنطقى، وتوضيح

ذلک: إن الخوف من الامور الّتی تتضـمن الخطر واقعاً هی أحـد الحالات الروحیـهٔ والطبیعیـهٔ فی الإنسان وأحد المواهب والنعم الإلهیهٔ الکبیرهٔ، وانه لولا هـذه الحالهٔ تجاه الخطر فإنّ الإنسان لایشـعر بالخوف إذا واجهه الخطر حیث یفقد حیاته سـریعاً، وهذا هو ما ورد فی کلمـات علمـاء الأخلاق باسم (التهوّر) فی مقابل الخطر والّتی هی صـفهٔ ذمیمـهٔ من قبیل أن یعبر الشـخص الشارع المزدحم بالسـیارات بـدون أن ینظر یمیناً أو یساراً ولا یحاذر من الخطر، فمثل هـذا الشـخص سـیتعرض للحوادث الخطرهٔ الّتی سـرعان ما تؤدی بحیاته. مثل هـذا النوع من الخوف فی حیاهٔ الإنسان الیومیـهٔ، وهکـذا فی موارد الخوف من تناول الأطعمهٔ المشـکوکهٔ أو الخوف فی دائرهٔ المسائل السیاسـیهٔ والاقتصادیـهٔ وغیرها، یُعتبر خوفاً منطقیاً، ویتسـبب فی نجاهٔ الإنسان من الأخطار الّتی تهـدد حیاته فی حرکهٔ الحیاهٔ والواقع. أمّا الخوف المـذموم فهو أن یخـاف الإنسـان من المظـاهر والعناصـر الّتی لا تسـتبطن خطراً فی حـدّ ذاتها، بل یتصور الخطر الموهوم فیها، فیخاف من کلّ خطر وهمی وکلّ عدوٍ خیالی ویخاف من کلّ شـیء حتّی من خیاله، مثل هذا الإنسان یعیش حالهٔ التردّد فی کلّ عمل یرید الاشتراک به مخافهٔ عدم نجاحه فی ذلک العمل وبالتالی یمنعه هذا الخوف من تصـعید طاقاته وقابلیاته ویعیش التخلف والکسـل والفشل والذلّهٔ والمهانهٔ. إن هذه الحیاهٔ الدنیا فی حقیقتها میدان للصـراع مع الموانع والمشـکلات والأخطار الموجودهٔ دائماً فی مفاصل وزوایا هذه الحیاهٔ، ومالم یواجه الإنسان هذه الأخطار والموانع من موقع الجرأهٔ ویستعد بجدّیهٔ لمقابلتها فإنه لا یوفَّق فی حیاته. والغالب إننـا لاـ یمکننـا تحقیق النجـاح والنصـر فی کلّ عمل نعمله أو نضـمن عـدم وجود الخطر فیه، فهـذا من الخیال المحال وهو من الأوهام الزائفـهٔ، وهنـا یتجلّی الـدور المهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۲ للشـجاعهٔ والشـهامهٔ فی واقع الإنسان تجاه التحـدّیات الصـعبهٔ، وتتجلّی کـذلک الآثـار السـلبیهٔ لرذیلـهٔ الخوف والجبن أیضـاً. إن کلّ مزارع یحتمل الجفاف والأمراض الزراعیـهٔ الّتی تصـیب مزرعته، وکلّ تاجر یحتمل تغیّر الأسـعار وتحوّل أوضاع السوق، وکلّ مسافر یحتمل وقوع الحوادث الخطرهٔ فی الطریق، وفی کلّ عملیهٔ جراحیهٔ یُحتمل وجود الخطر، فإذا عملت هـذه الاحتمالات علی منع الإنسان من القیام بشاطاته الحیاتیهٔ فلابدّ أن یجلس الإنسان جانباً ولا یقدم علی أی عمل من الأعمال بل ینتظر الموت فقط. ومن المعلوم أنّ الإنسان فی مثل هذه الموارد یجب أن یتوقع الأخطار الجدّیهٔ ثمّ یضع لهـا مـا یقابلهـا من العلاجـات والحلول ویتجنّب التهوّر وإلقـاء نفسه بالتهلکـهٔ، ولکن فی نفس الوقت لاـ ینبغی للاحتمالاـت الموهومهٔ واللامعقولـهٔ الّتی تکتنف العمل دائماً أن تکون مانعهٔ له من الإقدام علی سـلوک هذا الطریق. وهذا هو أفضل تعریف لمسألهٔ الشـجاعهٔ بعنوانها صـفهٔ من الصـفات الأخلاقیهٔ الفاضلهٔ، والخوف بعنوانه من الصفات الأخلاقیهٔ الرذیلهٔ. وقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الحسن المجتبی علیه السـلام فی تعریـف الجبن قـوله: «الْجُرْأَهُٔ عَلَی الصَّدیقِ وَالنُّکُولُ عَنِ الْعَـدُوّ» «۱». ونقرأ فی حـدیث آخر عن هـذا الإمام أنّه قال فی جوابه علی سؤال عن الشـجاعهٔ: «مُوَافِقَـهُٔ الْاقْرَانِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الطِّعَانِ» «۲». القرآن الکریم یقول أیضاً فی إحدی آیاته: «وَلَا تُلْقُوا بِایْدِیکُمْ الَی التَّهْلُکَهِٔ» «۳». ویقول فی مکـان آخر فی وصف المؤمنین: «... اشِـدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ ...» «۴» ولا یخالجهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۳ خوف موهوم فی هـذا الطریق. إنّمـا تقـدّم آنفاً یوضـح جیـداً أنّ الشـجاعهٔ هی الفضـیلهٔ الّتی تقع فی الحدّ الوسط بین (التهوّر) و (الجبن).

۲- الآثار السلبیهٔ للجُبن فی حرکهٔ الحیاهٔ الفردیهٔ والاجتماعیهٔ

ویترتب علی هـذه الصـفهٔ الرذیلـهٔ آثار سـلبیهٔ کثیرهٔ فی حیاهٔ الإنسان والّتی تُعد من الأسـباب والعوامل المهمهٔ فی فشله وذلّته. إننا نقرأ الکثیر عن حالاـت الشـعوب والامـم علی طول التاریـخ البشـری، ونقرأ أنّ الکثیر منهـا رغم امتلاکهـا لوسائـل القوّهٔ والمنعـهٔ من العُـدهٔ والعـدد، إلّاأنّها کانت تعیش الذلّـهٔ والمهانـهٔ والأسـر لسـنوات طویلـهٔ، ولکن بمجرد أن ینبری من بینها قائـد شـجاع وشـهم یتخطّی بها صفوف التقـدّم والنهضـهٔ ویُعبّی طاقاتهـا وأفرادهـا فی سبیـل الکرامـهٔ والتقـدّم فإنّهـا سـرعان مـا تنفض عن نفسـها رداء الذلّـهٔ والمهانهٔ والتخلف وترتقی إلی أوج العزّهٔ والعظمهٔ. إن شـجاعهٔ نبی الإسـلام صلی الله علیه و آله فی مختلف موارد سیرته العملیهٔ من هجرته إلی المدینـهٔ وموقفه فی بدر واحد والأحزاب وسائر الغزوات الاخری یُعد من أهمّ العوامل لانتصار المسـلمین وتقدّمهم السـریع، ولهذا ورد

فی الأحادیث الإسلامیة عن الإمام علی قوله: «الشَّجاعَةُ عِزٌّ حاضِرٌ وَالْجُبْنُ ذُلٌّ ظاهِرٌ» «۱». ویقول فی مکان آخر أیضاً: «الشَّجاعَةُ نَصْرَةٌ حاضِرَةٌ وَفَضِیلَةٌ ظاهِرَةٌ» «۲». وأحد الآثار السلبیة الاخری لهذه الرذیلة الأخلاقیة هو أنّها تمنع الإنسان من التصدی لکثیر من الأعمال والنشاطات المهمة، لأن هذه الأعمال الکبیره تقترن عادة مع مشاکل کبیرة أیضاً وتتطلّب رجالًا یقفون أمام هذه المشکلات والموانع من موقع الشجاعة والجرأة، فلا یتسنّی للشخص الجبان أن یخوض فی اطار هذه الأعمال إطلاقاً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۴ وعلیه فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص وعلی فرض حصولهم علی بعض الموفقیّة المحدودة والتافهة فی الحیاة فإنّهم یعجزون عن التصدّی للأعمال المهمة علی المستوی الاجتماعی والتغییر الإصلاحی الّذی یحتاجه الناس. وهذه المسألة من الأهمیة إلی درجة أنّ الإسلام نهی عن المشورة مع الجبناء والّذین یعیشون حالة الخوف والرعب الوهمی فی دائرة مدیریة المجتمع والأعمال المهمة فی عملیة التغییر والإصلاح الإجتماعی، لأن هؤلاء من شأنهم أن یقرأوا آیة الیأس فقط وبذلک یُحبطوا عزم المدراء الموفّقین ویثبطوا من إرادتهم القویة. وکما رأینا أنّ أمیرالمؤمنین علیه السلام یوصی مالک الأشتر فی عهده المعروف ان لا یستشیر أحداً من الجبناء لئلّا یُصاب بالضعف والإحباط ویقول: «لَا تَدْخُلَنَّ فِی مَشْوِرَتِکَ ... جَبَاناً یُضَعِّفُکَ عَنِ الْامُورِ» «۱». ویقول فی مکان آخر أیضاً: «وَیُعَظِّمُ عَلَیْکَ مَا لَیْسَ بِعَظِیمٍ».

۳- دوافع الجُبُن

۱- ضعف الإیمان وسوء الظنّ باللّه، لأن الشخص الّذی یعیش الإیمان باللّه والثقة به وینطلق فی حیاته من موقع التوکل والأمل برحمة اللّه ولطفه والتصدیق بوعده، مثل هذا الشخص سوف لا یذوق طعم الذلّة والمهانة والضعف ولا یتردد أو یخاف أمام الحوادث الصعبة ولا یهتز لتحدیات الواقع الثقیلة، وهذا هو ما ورد فی عهد أمیرالمؤمنین علیه السلام لمالک الأشتر حیث یقول: «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ شَتَّی یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ». ۲- الشعور بالحقارة وضعف الشخصیة لدی الفرد، ولهذا نجد انه کلّما کانت شخصیة الإنسان نافذة وقویة وشعر الإنسان معها بالکرامة واحترام الذات فإنّ ذلک ممّا یزید فی شجاعته وشهامته، ولذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام: «شِدَّةُ الْجُبْنِ مِنْ عَجْزِ النَّفْسِ وَضَعْفِ الْیَقِینِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۵ ۳- (الجهل وقلّة المعرفة) حیث تسبب للإنسان غالباً الخوف الموهوم، کما نری فی خوف الإنسان من الأشخاص أو الحیوانات الّتی لا یعرفها علی وجه الدقة ولکن عندما تتضح له الصورة ویتعرف علیها تذوب حالة الخوف فی نفسه تدریجیاً. ۴- (طلب الراحة والعافیة) یُعد أحد الأسباب للخوف المذموم، لأن الشجاعة تتطلب الخوض فی دوّامة المشکلات واللاملائمات لکی یتسنّی للإنسان أن یخرج منها منتصراً، وهذا المعنی لا یتلائم ولا ینسجم مع مزاج من یطلب الراحة والعافیة. ۵- إن دروس الحوادث المُرة والمؤلمة قد یتسبّب غالباً فی أن یعیش بعض الناس حالة الخوف والرعب، لأن هذه الحوادث المرة تترسخ فی أذهانهم وتمتزج بالخوف الّذی قد یستمر بالإنسان إلی آخر حیاته ولا یمکنه التخلّص منه إلّاببعض العلاجات النفسیة. ۶- إن الإفراط فی سلوک طریق الحذر من شأنه أن یورث الخوف أیضاً أو هو عامل من عوامل ایجاد الخوف فی النفس، لأن مثل هذا الإنسان یتوقی کلّ ما یحتمل فیه الخطر، وهذا یؤدی به إلی أن یعیش حالة التردد والخوف من الإقدام. ۷- وممّا لا ینبغی إنکاره أنّ الحالة الروحیة والمزاجیة والبدنیة للأفراد أیضاً مؤثرة فی بروز هذه الحالة السلبیة، فتری بعض الأشخاص وبسبب ابتلائهم بضعف الأعصاب أو ضعف القلب یخافون من کلّ شیء، فی حین یشعرون فی نفس الوقت بالتنفر من هذه الحالة والإمتعاض لوجودها فی واقعهم ولکنهم لا یستطیعون التخلّص منها. هؤلاء یقولون: أنّ الخوف المتسرب فی أعماقنا لیس باختیارنا بل نجده مفروض علینا، ولکن الصحیح أنّ هذه الحالة قابلة للعلاج أیضاً.

۴- طرق العلاج والوقایة

إن أحد الطرق الأصلية لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، كما فى سائر الرذائل الاخرى، أن يتفكر الإنسان من جهة فى آثارها السلبية وعواقبها الوخيمة على المستوى الفردى والاجتماعى للإنسان، فعندما يطالع الشخص الجبان والّذى يعيش حالة الخوف والرعب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۶ من كلّ إقدام مثمر، الآثار السلبية للخوف الموهوم وما يترتب عليه من ذلّة وحقارة وتخلف وحرمان من الكثير من مواهب الحياة فى حياته أو حياة الآخرين، فإنه سيتحرك فى الغالب لتجديد فكرته ونظرته عن هذه الحالة ويسعى لتطهير نفسه منها. ومن الطرق المهمة الاخرى فى عملية العلاج هو السعى إلى قطع دوافع وجذور هذه الرذيلة من واقع النفس، فعندما تزول السحب المظلمة لسوء الظنّ باللّه من سماء القلب، وتشرق شمس التوكل على اللّه فى أجواء الروح الإنسانية، فإنّ ظلمات الخوف الموهوم ستزول بسرعة عن النفس البشرية، ولكن قد يحتاج هذا الأمر إلى مطالعة ودقّة أكثر. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو أن يتورّط الإنسان فى الميادين المثيرة للخوف والوحشة ويعمل على إقحام نفسه مرات عديدة فى مثل هذه الميادين والأجواء المثيرة، وعلى سبيل المثال فعندما يجد الإنسان نفسه يخاف من تناول الدواء أو زرق الابر فعليه أن يقحم نفسه مرّات عديدة فى مثل هذه الأعمال كيما تزول حالة الخوف. والبعض الآخر يستوحش من السفر فى السفينة أو الطائرة، ولكن تكرار مثل هذه السفرات من شأنه أن يزيل الخوف منه. وبعض الناس يجد حالة التردد والخوف فى نفسه عند حضوره أمام الآخرين أو عند إلقائه لمحاضرة أو كلمة أمام الجمع، ولكن هذا الخوف والتردّد يزول غالباً بتكرار مثل هذه الأعمال. وأحد أهداف التمرينات العسكرية والمناورات الّتى تُجريها الحكومات لجيوشها وقواها العسكرية هو إزالة آثار الخوف من قلوب أفراد الجيش من الحروب. ونجد هذا المعنى بصورة جميلة ورائعة فى الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اذَا هِبْتَ امْراً فَقَعْ فِيهِ، فَانَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ اعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ» «۱». ويقول العلّامة المرحوم الخوئى فى شرحه لنهج البلاغة عند شرح هذه العبارة: «كثيراً ما يستوحش الإنسان من بعض الامور بسبب جهله وجبنه فيمنعه ذلك الخوف من نيل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۷ الموفقية فى الحياة، وهنا الإمام عليه السلام يحرضه على خلع حالة الجبن عن نفسه لأن تحمل ضغط هذه الحالة قد يكون فى كثير من الحالات أشد على الإنسان من التورط فى ذلك الأمر المخوف». ثمّ يضيف: «إن المخترعين والمكتشفين فى العالم نالوا أوسمة الفخر بالعمل بهذه التوصية الحكيمة، حيث توغلوا إلى أعماق الغابات الاستوائية والصحارى الأفريقية وخاضوا لجج البحار ووصلوا إلى الجزر البعيدة وحصلوا على ثروات طائلة وشهرة عظيمة مضافاً إلى ما قدّموا إلى البشرية من علم ومعرفة لا يستهان بها» «۱». وقد ورد فى المثل المعروف: «امُّ الْمَقْتُولِ تَنَامُ وَامُّ المُهَدَّدِ لَاتَنَام». وقيل أيضاً: «كُلُّ امْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَسِمَاعُهُ اعْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ» «۲». وأحد الطرق الاخرى لعلاج حالة الجبن والخوف هو أن يعيش الإنسان بطُهر ونقاء من شوائب الرذيلة والأعمال الذميمة، لأن الأشخاص الملوّثين يخافون غالباً من نتيجة أعمالهم، وبما أنّ نتيجة هذه الأعمال سوف تتجلّى إلى الملأ يوماً من الأيام فإنّهم يعيشون حالة الخوف فى أنفسهم، ولذلك ورد فى الحديث المعروف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَا اشْجَعُ الْبرى وَاجْبَنَ الْمُرِيبُ» «۳». ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّزَتِ الْاشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكِذْبِ» «۴».

۵- معطيات الشجاعة فى حياة الإنسان

والنقطة المقابلة لصفة الجبن الرذيلة، هى الشجاعة والشهامة والجرأة على الخوف فى الأعمال المهمة كما تقدّمت الإشارة إليه ضمن حديثنا عن الجبن والخوف، فكلّ واحد من هاتين الصفتين المتقابلتين تتضح بدراسة ما يقابلها من الحالات الأخلاقية، فمعرفة مفهوم الجبن لا تتسنّى بدون معرفة مفهوم الشجاعة، وكذلك العكس فإنّ من العسير أن ندرك مفهوم الشجاعة بدون أن نُحيط علماً بمفهوم الجبن والخوف. وبهذا نرى من اللازم ولغرض تكميل الأبحاث السابقة أن نتحدث أكثر عن صفة الشجاعة وآثارها الايجابية ومعطياتها فى حركة الحياة وخاصة من وجهة نظر الأخبار والأحاديث الإسلامية: ۱- ما ورد فى عهد الامام على عليه السلام لمالك الأشتر (والّذى يُعدّ أشمل دستور إلهى وسياسى) فى عملية إدارة الحكومة فى موارد متعددة أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام أشار إلى هذه

المسألـة، فیحذّر فی أحـد الموارد مالـک الأـشتر من المشورة مع الأشـخاص الجبناء والّـذین یعیشون حالـة الخوف والحرص والبخل. ویقول فی مکـان آخر بالنسبة إلی قـادة الجیش (أو المعـاونین والموظفین والمسؤولین): «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِی الْمُرُوآتِ وَالْاحْسَابِ وَاهْلِ الْبُیُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمّ اهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخاء وَالسَمَاحَةِ، فَانَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْکَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ» «۱». وهنا نجد أنّ الإمام یری أنّ صـفة الشجاعة والشهامة تُعد من الاصول الأساسیة والقیم الأخلاقیة المهمة للإنسان المدیر والمدبّر وخاصة علی مسـتوی قادة الجیش أو المسؤولین الکبار فی الحکومـة. ۲- ویقول هـذا الإمام فی حـدیث آخر: «الشَّجَاعَةُ زَیْنٌ، الْجُبْنُ شَیْنٌ» «۲». ۳- وورد عن هـذا الإمـام الهُمـام قوله فی حـدیث آخر: «السَّخاءُ وَالشَّجَاعَةُ غَرَائِزٌ شَرِیفَةٌ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۹ یَضَعُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِی مَنْ احَبَّهُ وَامْتَحِنْهُ» «۱». ۴- وورد عن النبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله فی ذکره لفضائـل أهـل بیته أنّه ذکر سبع صـفات وأحدها الشجاعة. وفی حدیث آخر ذکر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فضائله وفضائل أهل بیته فی کلمتین، وأحد هاتین الفضیلتین هی الشجاعة. ۵- ونقرأ فی حدیث لیلة المبیت (وهی اللیلة الّتی بات فیها الإمام علی علیه السـلام علی فراش النبی صـلی الله علیه و آله فی لیلـة الهجرة إلی المدینة) أنّه عندما حاصـر المشـرکون بیت النبی صـلی الله علیه و آله لیلًا، ثم هجموا فی الصـباح الباکر إلی داخل الدار رأوا علیاً نائم فی فراش النبی، فقال أبو جهل: أما ترون محمداً کیف أبات هذا و نجا بنفسه لتشـتغلوا به وینجو محمد، لا تشـتغلوا بعلی المخدوع لینجو بهلاکه محمد .... فقال علی علیه السلام: «أَلِی تَقُولُ هذا یا أَبا جَهل؟ بَلِ اللَّهُ قَدْ أَعطانِی مِنَ العَقلِ ما لُو قُسِّمَ عَلی جَمیعِ حُمَقـاء الـدُّنیا وَمَجانِینِهـا لَصارُوا بِهِ عُقلاء، وَمِنَ القُوَّةِ ما لَو قُسِّمَ عَلی جَمِیعِ ضُـعَفاءِ الـدُّنیا لَصارُوا بِهِ أَقویاء، وَمِنَ الشَّجَاعَةِ مَا لَوْ قُسِّمَ عَلَی جَمِیعِ جُبَنَاءِ الـدُّنْیَا لَصَارُوا بِهِ شَجْعَاناً» «۲». ۶- ونقرأ فی الخطبـة المعروفـة للإمام زین‌العابـدین فی الشام أنّ هذا الإمام ابتدأ خطبته التاریخیـة بقوله: «ایُّهَا النَّاسُ: اعْطِینَا سِتّاً وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ اعْطِینَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالسَّمَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ» «۳». ۷- ونختم هـذا البحث بحـدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السـلام (رغم وجود أحادیث کثیرة فی هـذا الباب) قال: «الْغِیرَةُ الشَّدِیـدَةُ عَلَی حَرَمِکَ، وَالسَّخاءُ، وَحُسْنُ الْخُلْقِ، وَصِدْقُ اللِّسَانِ وَالشَّجَاعَةُ». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۰ ویتبین من الأحادیث المذکورة آنفاً وکذلک الآیات والروایات الکثیرة فی هذا الباب أهمیة هذه الفضیلة الأخلاقیة وقیمتها من بین القیم الإنسانیة الرفیعة الّتی یراها الإسـلام فی مجمل تعالیمه الأخلاقیة والإنسانیة. وممّا یجدر ذکره هو أنّ (الشـجاعة) لها معنیً واسع وتمتد لمساحات شاسعة من السـلوکیات الإنسانیة، والشـجاعة فی میدان الحرب والقتال هو أحد فروعها ومصادیقها، ومنها الشـجاعة فی میدان السیاسة، وفی المسائل العلمیـة وإبداع النظریات الجدیدة المنطقیة والاختراعات العلمیة، والشـجاعة فی مقام القضاء والحکم وأمثال ذلک، فکلّ واحدٍ منها یعد من فروع هذه الشـجرة الأخلاقیة والصـفة الکریمة للإنسان، ولذلک نقرأ فی بعض الروایات «الصَّبْرُ شَجَاعَةٌ» «۱». وورد فی حدیث آخر عن الإمام علی علیه السـلام قوله: «اشْجَعَ النَّاسِ اسْخَاهُمْ» «۲». ونقرأ فی حـدیث آخر عن هـذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَیَّزَتِ الْاشْیَاءُ لَکَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَکَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْکِذْبِ» «۳». فهـذه الأحـادیث الشـریفة تقرر فی کـلّ واحـد منهما فرعاً من فروع الشجاعة الّتی تندرج تحت المفهوم العام لهذه الکلمة. ۱۲

ضعف النفس والتوکل علی اللَّه

تنویه:

وردت الإشارة فی کثیر من الآیات القرآنیـة الکریمة والروایات الإسـلامیة وکذلک سـیرة الأنبیاء والأولیاء والصالحین وفی کتب علماء الأخلاق وأرباب السـیر والسـلوک إلی مسألـة «التوکل» بعنوان أنّها من الفضائل الأخلاقیـة المهمة الّتی لا یتسنّی للإنسان الوصول إلی مقام القرب الإلهی بـدونها. والمراد من التوکل هو: تفویض الامور إلی اللَّه والاعتماد علی لطفه، لأن (التوکل) من مادّة (وکالة) بمعنی اختیـار الوکیـل والاعتمـاد علیه فی تسـییر الامور، وبـدیهی انه کلّما کان الوکیل یتمتع بقـدرة أکبر واحاطـة علمیـة أکثر فإنّ الشـخص

الموكل يشعر فى قرارة نفسه بالهدوء والسكينة أكثر، وبما أنّ اللّه تعالى وقدرته لا محدودة، فعندما يتوكل الإنسان عليه يشعر بالطمأنينة والسكينة تدغدغ قلبه وتنفذ إلى أعماق روحه، فتمنحه القدرة على التصدى للمشكلات والحوادث الصعبة، وأن لا يعيش الخوف من الأعداء والأخطار المختلفة، ولا يرى نفسه فى مأزق فى حركة الحياة، فيسير بالتالى بقلب مطمئن وبطريق مفتوح متجهاً صوب أهدافه ومقاصده. الإنسان الّذى يعيش التوكل على اللّه لا يشعر إطلاقاً بالحقارة والضعف بل يرى نفسه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۲ وبالإعتماد على لطف اللّه وعلمه وقدرته المطلقة منتصراً وناجحاً فى حياته الفردية والاجتماعية، وحتّى أنّه لو اصيب بالفشل أحياناً فإنّ ذلك لا يفرض عليه اليأس والقنوط. وعندما يتجلّى مفهوم التوكل بمعناه الصحيح فى واقع الإنسان وعلى سلوكياته فإنّ ذلك من شأنه أن يثير الأمل فى القلب ويبعث على تقوية الإرادة وتحكيم دعائم المقاومة والشجاعة. إنّ مسألة التوكل لها دورٌ مهم فى حياة الأنبياء الإلهيين، فعندما نستعرض الآيات القرآنية فى هذا الباب نجدها تشير إلى أنّ هؤلاء الأنبياء واجهوا سلسلة الحوادث والمشكلات المدمّرة والعظيمة بسلاح التوكل على اللّه، وكانت أحد الأسباب المهمة لانتصارهم وتغلّبهم على هذه المشكلات هو كونهم يتمتعون بهذه الفضيلة الأخلاقية. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دروساً من سيرة الأنبياء الإلهيين فى مسألة التوكل ودورها المهم فى حياتهم العملية وذلك بالترتيب: (نبدأ من نوح عليه السلام وننتهى إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله). ۱- «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَايَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». ۲- «إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبّى وَرَبِّكُم» «۲». ۳- «رَّبَّنَآ إِنّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَا تِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۳». ۴- «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۳ ۵- «وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَا حِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَا بٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكّلُونَ» «۱». ۶- «وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُم مُّسْلِمِينَ* فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» «۲». ۷- «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ا لْقَوْمِ ا لْكَافِرِينَ» «۳». ۸- «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» «۴». ۹- «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكّلُونَ» «۵». ۱۰- «... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...» «۶».

تفسير واستنتاج:

معطيات التوكل فى حياة الأنبياء

عندما نطالع القرآن الكريم فى اطار حديثه عن سيرة الأنبياء نلاحظ أنّ القرآن يستعرض من صفات الأنبياء الإلهيين صفة (التوكل) بعنوان ابرز ظاهرة وصفة تتجلّى فى سيرة الأنبياء على طول التاريخ، حيث نجدهم يعيشون روح الاعتماد على اللّه والتوكل عليه فى مقابل المصاعب والمشاكل الجمّة الّتى يواجهونها فى خطّ الرسالة والدعوة إلى اللّه، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۴ وأنّهم كانوا لا يرتبطون بأىّ شىء برابطة الاعتماد والتعلق سوى بالقدرة المطلقة للذات المقدسة. ونبدأ من النبى نوح عليه السلام: «الآية الاولى من الآيات محل البحث تستعرض حياة نوح مع قومه المتعصّبين والمعاندين حيث واجههم بكلّ شجاعة ودعاهم بالكلام الهادئ والمتّزن والمنطقى من موقع الاعتماد على اللّه والتوكل عليه، فتقول الآية الشريفة مخاطبة نبى الإسلام: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَايَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». فما هو العامل الّذى دفع بنوح مع قلّة المؤمنين من حوله إلى التصدى لكلّ قوى الانحراف والأعداء المعاندين من قومه بهذه الشهامة والشجاعة والسخرية من قوّتهم وعدم الاهتمام بقدراتهم وبمخططاتهم وبأوثانهم؟ وبالتالى فقد وجّه إليهم ضربة قاصمة على المستوى الروحى والنفسى. أجل لم يكن هذا العامل سوى الإيمان باللّه والتوكل عليه، والعجيب أنّ نوح لم يكتف فقط

بمواجهتهم من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام بقدراتهم ومعبوداتهم بل دعاهم إلى مبارزته وشجّعهم على مواجهته، أجل فمثل هذا الإظهار للقوّة واستعراض العضلات لا يتسنّى فى الحقيقة إلّامن المتوكلين. ونظراً إلى أنّ سورة يونس الّتى تستبطن هذه الآية محل البحث، مكيّة، فإنّ اللَّه تعالى أراد من المسلمين فى مكّة أن يلتفوا حول نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كالفراش الّذى يدور حول المصباح ويُظهروا من أنفسهم القوّة والقدرة أمام الأعداء الشرسين وأن لا يعيشوا الخوف والرعب من هذه القدرات الموهومة مقابل قدرة اللَّه ومشيئته. وعبارة (شركائكم) يمكن أن تكون إشارة إلى الأصنام الّتى جعلوها شريكة للَّه‌تعالى، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۵ وقد ورد هذا التعبير أيضاً فى موارد اخرى كثيرة من القرآن الكريم. أو يكون المراد منه هو أتباعكم وأصدقائكم وأعوانكم، أى اجمعوا جميع قواكم وقدراتكم لتتحركوا بها فى التصدى لى ولمواجهتى. وتأتى «الآية الثانية» للتحدث على لسان النبى هود الّذى عاش بعد عصر نوح عليه السلام وقد هدّده قومه الوثنيون بالموت، ولكنه انطلق من موقع القوّة والتوكل على اللَّه وقال لهم بصراحة كما تقول الآية: «... قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنّى بَرِىءٌ مّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونِ* انّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ» «۱». واللطيف أنّ هود لم يكتف بعدم الاهتمام والاعتناء بقوى مخالفيه من عبّاد الأوثان وقدراتهم ومؤامراتهم بل انه سعى لتحريكهم وإثارتهم للتصدى له ومواجهته لكى يثبت لهم أنّ قلبه وروحه يرتبطان بقوة أخرى وانه بالتوكل على اللَّه تعالى لا يعيش فى نفسه أىّ شعور بالخوف من مؤامراتهم مهما عظمت قوتهم واشتدت قدرتهم، وهذا يدلّ على أنّ التوكل على اللَّه يقود الإنسان إلى حيث المواقف الشجاعة والبطولية والسير فى خطّ الاستقامة والحقّ. فما أعجب أن يقف رجل واحد بمفرده أو مع القليل من أصحابه مقابل هذه الكثرة الكاثرة من قوى الانحراف والأعداء الأشداء مثل هذا الموقف البطولى ويتحرك فى مواجهته لهم من موقع الاستهزاء بتهديداتهم والسخرية بمؤامراتهم!! أجل فإنّ هذه من معطيات الإيمان والتوكل على اللَّه فى حياة الإنسان. وقد ذكر أحد المفسّرين القدماء وهو (الزجاج) أنّ هذه الآية تعد من أهم الآيات الّتى تتحدّث عن الأنبياء العظام والّتى استعرضت فيها قصة نبى من الأنبياء يقف هذا الموقف البطولى فى مقابل جماعات كثيرة من مخالفيه ويتحدّث معهم مثل هذا الحديث الشجاع، ومثل هذا التعبير ورد فى قصة نوح عليه السلام وكذلك فى الحديث عن سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۶ والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم وبعد هذه الآية يتحدّث عن أنّ هود عليه السلام خاطب قومه المعاندين بخطاب من موقع العقل والاستدلال وقال: «مَا مِنْ دَابَّةٍ الّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» «۱». ثمّ أضاف: إن قدرة اللَّه تعالى ليست بالقدرة الّتى توحى لصاحبها بالغرور والإنحراف عن خطّ الحقّ بل «انَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم». وعليه فأنا أعتمد على من قدرته مطلقة وافعاله عين الصواب والعدالة. وتأتى «الآية الثالثة» لتشير إلى جانب من سيرة النبى إبراهيم عليه السلام وتوكّله على اللَّه فى أحلك الظروف وأصعب الحالات الّتى يواجهها الإنسان وتقول: «رَّبَّنَآ إِنّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلوا ةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مّنَ الثَّمَرَا تِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۲». فلو لم يكن ايمان إبراهيم كالجبل الشاهق، ولم يكن له قلب كالبحر المتلاطم، ولم يكن يعيش التوحيد والتوكل فى أعلى مراتبه، فهل يمكنه كإنسان طبيعى أن يسكن زوجته وابنه الحبيب فى صحراء قاحلة ومحرقة بلا ماءٍ ولا كلاء ليس لشىء إلّاامتثالًا لأمر اللَّه تعالى ثمّ يعود من هناك إلى وطنه الأصلى؟ هذه الحادثة العجيبة تذكرنا بحادثة اخرى فى سيرة إبراهيم عليه السلام العظيم، وهى عندما وضعه مخالفوه وأعداؤه المعاندون فى قفص الإتهام بسبب تحطيمه أصنامهم، فكان إبراهيم على وشك أن يُقتل ولكنه مع ذلك لم يترك السخرية من أصنامهم وعقائدهم الزائفة وكان ينطلق فى حواره معهم من موقع المنطق والدلائل القوية فى عملية إبطال منطقهم الخرافى وإثبات زيف مدّعياتهم الواهية. «الآية الرابعة» تشير إلى قصة شعيب عليه السلام الّذى جاء بعد فترة من النبى هود عليه السلام وقُبيل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۷ موسى عليه السلام، حيث وقف مقابل المشركين من قومه وتصدّى لعقائدهم وتهديداتهم ومؤامراتهم من موقع الاستهزاء والسخرية، وكان يقول لهم فى حكايته عن دعوته ورسالته السماوية: «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۱». أجل فأنا لا أخاف من شىء لاعتمادى على إيمانى باللَّه والتوكل على ذاته المقدسة وسأستمر فى خطّ الرسالة والدعوة إلى اللَّه والإصلاح ما أمكننى ذلك

وبالاتكال على اللّه. والجدير بالذكر أنّ شعيب ولغرض تنفيذ عملية الإصلاحات الواسعة الّتى كان يتحرّك باتجاهها فى مجتمعه الفاسد كان يعتمد على ثلاث دعائم: الاولى: تهيئة المقدّمات للعمل من قبل اللّه تعالى حيث تشير إلى ذلك كلمة «توفيقى»، ثمّ بالإنطلاق من عزم راسخ وارادة قوية بالشروع بالعمل والإصلاح، وذلك بقوله «عليه توكلت»، ثمّ أن تكون للإنسان المصلح دوافع سليمة وبنّاءة للقيام بعملية الإصلاح، وهو ما أشار إليه بقوله (إليه انيب). وتتحرّك «الآية الخامسة» لتستعرض لنا كلام يعقوب لأولاده، ويعقوب هو الجدّ الأعلى لبنى إسرائيل والّذى كان يعيش فى مضيقة شديدة فى ذلك الزمان، فمن جهة فقد ابنه العزيز يوسف، ومن جهة اخرى كان يعيش القحط الشديد فى كنعان الّذى أصاب الناس فى تلك المناطق، فكانوا يواجهون التحديات والظروف الصعبة بسبب ذلك، وبالتالى وجد نفسه مجبراً على أن يودع ابنه الآخر (بنيامين) بيد ابنائه الآخرين الّذين كانوا يعيشون الجفاف الروحى والعاطفى، وذلك لغرض تحصيل القوت والطعام من أرض مصر ويحصلوا على المساعدة من عزيز مصر، وهنا أوصى يعقوب ابناءه المتجهون إلى مصر بقوله: «وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَا حِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَا بٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ...» «۲». ثمّ أضاف: اننى بهذه التوصية لا أستطيع أن أصُدّ عنكم البلاء أو أمنع عنكم ما قدّر اللّه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۸ لكم، «... وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» «۱». وعلى هذا الأساس فإنّ يعقوب أوصى أولاده بوصايا خاصة لمقابلة الحوادث المتوقعة، ولكنه أكد عليهم أنّه بهذه التوصية لا يستطيع أن يقف مقابل الحوادث أو يضع تدبيراً حاسماً لجميع المشكلات والمصاعب الّتى سيواجهونها فى سفرهم هذا، بل انّ عليه أن يضع ما يمكنه من الحلول والتوصيات، وأمّا الباقى فيجب أن يتوكلوا على اللّه تعالى. وبهذا فإنّ يعقوب فى الحقيقة قد أوصاهم بالتوكل على اللّه، وقد ذكر الدليل والسبب فى تأكيده على هذا المعنى، وهو انّ جميع الامور بيد اللّه تعالى: «إنِ الحُكْمُ الّا للّه». إذن فينبغى على الإنسان أن يعيش التوكل والاعتماد على هذه القدرة المطلقة والّتى لا توجد أية قدرة اخرى فى مقابلها فى عالم الوجود. ومن الواضح أنّ المراد بكلمة (الحكم) هنا هو (الحكم التكوينى) للّه‌تعالى فى عالم الخلقة والّتى تعود جميع الأسباب لديه وليست ناظرة إلى الحكم التشريعى. (فتأمل). وتتعرض «الآية السادسة» إلى ما جرى بين موسى عليه السلام وقومه بنى إسرائيل، وذلك عندما أظهر موسى دعوته الإلهية وأبرز معجزاته العظيمة ولكن مع ذلك لم يؤمن به جميع بنى إسرائيل بل آمن به واتبعه جماعة منهم، فى حين انّ بنى إسرائيل كانوا مستضعفين بأجمعهم من قبل الفراعنة وكانوا يعيشون الخوف وشدّة العذاب من قبل فرعون وقومه، فعندما نرى أنّ زوجة فرعون وبسبب اعلانها الإيمان بموسى عليه السلام قد وضعت تحت طائلة العذاب الشديد من قبل زوجها فرعون، فمن الواضح ما كان تعامل فرعون مع سائر بنى إسرائيل، ولهذا السبب فإنّ موسى بن عمران ولغرض ايجاد حالة من الطمأنينة والهدوء النفسى فى قومه وإزالة عنصر الخوف والرعب المسلّط عليهم أمرهم بالتوكل على اللّه، «وَقَالَ مُوسَى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۹ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُم مُّسْلِمِينَ» «۱» وهذا يعنى انكم لا يمكنكم التصدى لمثل هذا الحاكم الجائر ومواجهته من موقع القوّة والخلاص من شرّه إلّابالتوكل على اللّه تعالى. ومن البديهى أنّ موسى عليه السلام نفسه كان فى مرتبة متقدمة من هذا الأمر من حيث تجسيده لمعنى التوكل فى ممارساته العملية، ولو لم يكن يتمتع بمقام التوكل فكيف يستطيع وهو راعٍ للأغنام بدون أن يتمتع بأية قدرة ظاهرية مواجهة أعتى قوّة وحكومة فى ذلك الزمان؟ وهكذا لبّى المؤمنون من بنى إسرائيل نداء موسى عليه السلام «فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ...» «۲». ثمّ توجّهوا إلى اللّه تعالى وقالوا: «... رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» «۳». والمقصود من (فتنة) فى الآية الأخيرة هو ما قد يتعرضون له من التعذيب والتنكيل على يد أزلام فرعون، وقد وردت هذه الكلمة فى سورة (البروج) فى مورد أصحاب الأخدود، وكذلك فى الآية ۸۳ من هذه السورة مورد البحث والّتى أشرنا إليها سابقاً. ويُحتمل أنّ المراد من (الفتنة) فى كلا الموردين هو عملية الإنحراف عن خطّ التقوى والطاعة والإيمان، لأن الفراعنة لو تسلّطوا على المؤمنين لرأوا ذلك دليلًا على حقانيّتهم ولاستمروا فى طريق الإنحراف بأقدام ثابتة وعزم راسخ أكثر من السابق. وتستعرض «الآية السابعة» فى إطار الحديث عن الأزمنة الّتى تلت عصر موسى عليه السلام حيث كان بنو إسرائيل يعيشون العناء والظلم على يد سلطان جبّار يُسمّى (جالوت)، فكان أن اضطروا إلى اللجوء لنبى لهم يُدعى (إشموئيل) وطلبوا منه أنّ يُعيّن لهم قائداً يقود

جيوشهم نحو مواجهة جالوت والتخلّص منه واستعادت أراضيهم وبيوتهم منه، فعيّن إشموئيل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۰ طالوت ملكاً وقائداً عليهم والّذى كان شاباً قوياً وعارفاً بالامور ولائقاً لهذا المقام من كلّ جهة، ولكن بنى إسرائيل رفضوا الإذعان لهذا التعيين، ثمّ قبلوا به أخيراً بعد أنّ بيّن لهم نبيّهم الخصوصيات والمميزات الفريدة فى طالوت. أمّا طالوت فقد اختبر جيشه بعدّة اختبارات ليهيئهم أكثر من الناحية النفسية والروحية لجهاد العدو. والآية مورد البحث تتحدّث عن الفترة اللاحقة لذلك حيث تستعرض منظر الواقعة بين طالوت وجيشه من جهة، وجالوت وجيشه العظيم من جهة اخرى، وتقول: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ا لْقَوْمِ ا لْكَافِرِينَ» «۱». فصحيح أنّ جيش طالوت كان يعانى القلّة فى أفراده بالنسبة لجيش جالوت الجرار وما يتمتعون به من سلاح وامكانات حربية واسعة، ولكن الشيء الّذى أخلّ بالموازنة وأربَكَ المعادلة لصالح المظلومين من بنى إسرائيل وبالتالى كتب لهم النصر والغلبة على عدوهم القوى هو الإيمان باللَّه والتوكل عليه ومواجهة العدو من موقع الصبر والاستقامة فى طريق نصرة الحقّ. ولهذا السبب فإنّ الآية الّتى تليها تُصرح بهذه النتيجة الباهرة وتقول: «فَهَزَمُوهُمْ بِإذْنِ اللَّهِ». وبديهى أنّ حالة الصبر والاستقامة هى السبب فى ثبات القدم ورسوخ المواقع، وثبات القدم سببٌ لتحقيق النصر، ولهذا ورد ذكر هذه الامور الثلاثة بالترتيب فى دعائهم المذكور فى الآية الشريفة، ومعلوم أنّ روح هذه الامور الثلاثة تكمن فى الإيمان والتوكل على اللَّه تعالى. وتأتى «الآية الثامنة» لتتحدّث عن نبى الإسلام ومقام توكله على اللَّه تعالى، فعندما كان يواجه المشكلات والضغوط الصعبة فى حركته التبليغية علّمه اللَّه تعالى كيف يتغلب على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۱ هذه المشكلات الكبيرة وقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» «۱». وهذه الآية توضّح جيداً أنّ الإنسان مهما كان وحيداً فريداً مقابل تحدّيات الظروف الصعبة فإنه إذا كان يعيش التوكل على اللَّه فلا يشعر بصعوبة هذه المشاكل، لأن اللَّه تعالى هو رب العرش العظيم وذو القدرة اللامتناهية الّتى لا تعتبر القوى الاخرى شيئاً بالنسبة لها ولا تأثير لها فى مقابل قدرة اللَّه ومشيئته، فمن كان العرش والعالم الأعلى فى قبضته فكيف يسمح لعباده المتوكلين عليه أن يخوضوا لوحدهم أمواج المشكلات أو يتركهم لوحدهم أمام أعدائهم الشرسين؟ وممّا يجدر ذكره أنّ البعض يرون أنّ هذه الآية والّتى هى آخر آية من سورة التوبة والآية الّتى قبلها هى من آخر الآيات الّتى نزلت على نبى الإسلام، واللطيف أنّ الآيات الشريفة الّتى نزلت فى أوّل البعثة تحوى هذا المضمون أيضاً وتدلّ على أنّ رأس المال الأصلى والدعامة الحقيقية لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ذلك الزمان هى التوكل على اللَّه، فنقرأ فى الآية ۳۸ من سورة الزمر الّتى نزلت فى تلك الأزمنة من بداية البعثة قوله: «... قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ا لْمُتَوَكّلُونَ» وعليه فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يعيش التوكل فى بداية البعثة وفى نهايتها وفى جميع الأحوال، وهذا الأمر هو السبب الأوّل فى حركة النبى الأكرم فى خطّ الاستقامة والثبات والنصر. «الآية التاسعة» تتعرض للحديث عن جميع الأنبياء السابقين من زمان نوح عليه السلام إلى الأنبياء الّذين جاءوا بعده وتقول عندما واجه هؤلاء الأنبياء المخالفة الشديدة لأقوامهم ورأوا أنفسهم لوحدهم وقالوا: «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۲ مَآءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكّلُونَ» «۱». ونستوحى من هذه الآية أنّ التمسّك بالتوكل على اللَّه مقابل المشكلات والمصاعب الشديدة الّتى تفرضها الظروف الصعبة كان عمل جميع الأنبياء على طول التاريخ. وفى الواقع أنّهم كانوا يقفون أمام طوائف الأعداء والمشاكل الكبيرة بالاستمداد من عنصر التوكل وينتصرون فى نهاية المطاف، ومن هنا يتبيّن دور التوكل فى حياة البشر وخاصّة على مستوى القادة والمصلحين من الناس. وفى الحقيقة إنما يمنح الأنبياء القدرة والقوّة رغم عدم وجود العُدة والعدد فى مقابل قدرة الحكومات الكبيرة وقوى الإنحراف المختلفة ولا يشعرون مع ذلك بالتراجع والضعف والخوف هو حالة التوكل على اللَّه والّتى تجعل «ما سوى اللَّه» فى نظرهم صغيراً وتافهاً. والملفت للنظر أنّ الآية الواردة قبل هذه الآية (الآية ۱۱ من سورة إبراهيم) تقول: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». وفى هذه الآية الشريفة محل البحث نقرأ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». ومن إدغام هاتين الآيتين يستفاد أنّ المؤمن الواقعى هو المتوكل على اللَّه، وكذلك يستفاد من هذه الآية أنّ التوكل وليد المعرفة والهداية الإلهية كما أنّ الصبر والاستقامة فى مقابل اعتداءات الأعداء وتحرّشاتهم وليد التوكل (فتأمل).

وتتعرض «الآیة العاشرة» إلی ذکر نتیجة واضحة للتوکل علی اللَّه بحیث تعمل علی حث الجمیع لطلب هذه الحالة فی واقعهم، وتَعِدهم بالنجاة والنصر أیضاً وتقول: «وَمَن یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْرًا» «۲» وفی الواقع فإنّ اللَّه تعالی أوعد جمیع المتوکلین علیه بحل مشکلاتهم بشکل حتمی، ثمّ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۴۳ استعرضت الآیة الشریفة الدلیل علی ذلک وقالت: «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ». وبدیهی فإنّ مثل هذه القدرة المطلقة بإمکانها الوفاء بجمیع الوعود وحلّ جمیع المشکلات مهما کانت ثقیلة وصعبة، فکلّها تحت إرادته ومشیئته. وجملة قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْرًا یمکن أن تکون جواباً علی سؤال مقدّر، وهو لماذا نعیش أحیاناً غایة التوکل علی اللَّه تعالی ولکن الحلّ والنصرة قد یتأخر؟ القرآن الکریم یجیب علی هذا السؤال بأنکم لا تعلمون مصالح الامور، فکلّ شیء یکون بحساب ویتطلب زمان وفرصة مناسبة، وکلّ حالة تکون مطلوبة فی ظرفها الخاصّ، ولهذا وبمقتضی أنّ «الْامُورُ مَرْهُونَةٌ باوْقَاتِهَا» فأحیاناً تقتضی المصلحة تأخیر النتیجة، وعلیه فإنّ العجلة والتسرع فی مثل هذه الامور غیر صحیح. ویشبه هذا المعنی ما ورد فی الآیة (۱۶۰) من سورة آل عمران حیث نجد أنّ القرآن الکریم یقرر بأن النصر والهزیمة کلیهما من اللَّهتعالی وأنّ طریق الوصول إلی النصر یمر من خلال التوکل علی اللَّه فتقول الآیة: «إِن یَنصُرْکُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَکُمْ وَإِنْ یَخْذُلْکُمْ فَمَن ذَا الَّذِی یَنصُرُکُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ ا لْمُؤْمِنُونَ».

النتیجة النهائیة:

ونستوحی من الآیات المذکورة آنفاً والّتی استعرضت سیرة أقدم الأنبیاء الإلهیین إلی أن وصلت إلی نبی الإسلام أنّ مسألة التوکل فی حیاة البشر وجهاد الأنبیاء وانتصارهم علی المشکلات والتحدیات الصعبة الّتی یفرضها الواقع بمثابة الأساس لکلّ هذه التحرکات الإیجابیة والمثمرة فی سلوک الإنسان علی المستوی المادی والمعنوی، وتدلّ علی أنّ هذه الفضیلة الأخلاقیة بإمکانها أن ترتفع بالإنسان إلی مستویات عالیة فی سلّم الکمال المعنوی، والنقطة المقابلة لها، أی عدم الاعتماد والتوکّل علی اللَّه تعالی یتسبب فی السقوط الحضاری والمعنوی للفرد والمجتمع.

التوکل فی الأحادیث الإسلامیة:

اشارة

وتولی الروایات الإسلامیة أهمیة کبیرة إلی هذه الفضیلة إلی درجة اننا قلما نجد من الآثار الإیجابیة والبرکات علی صفة من الصفات الأخلاقیة الفاضلة مثلما ورد فی حقّ هذه الفضیلة، وما سنذکره من الروایات الشریفة عبارة عن نماذج مقتطفة من کثیر ممّا ورد فی هذا الباب ممّا لا یسمح لنا المجال لاستیعابها جمیعاً. ۱- ما ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «مَنْ سَرَّهُ انْ یَکُونَ اقْوَی النَّاسِ فَلْیَتَیَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ» «۱». ۲- ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «فِی التَّوَکُّلِ حَقِیقَةُ الْایقَانِ» «۲». ۳- وفی حدیث آخر عمیق المعنی ما ورد فی قصة إبراهیم علیه السلام فی تفسیر علی بن إبراهیم حیث تقول الروایة: أنّه لما وضعوا إبراهیم فی المنجنیق، جاءه عمه آذر وصفعه علی وجهه بشدة وقال له: ارجع عما أنت علیه، ولم یبق شیء إلّاطلب إلی ربه، أن ینجی ابراهیم وقالت الأرض یا رب لیس علی ظهری أحد یعبدک غیره فیحرق، وقالت الملائکة مثل ذلک وجاء إلیه جبرئیل فی الهواء، وقد وضع فی المنجنیق، فقال یا إبراهیم هل لک إلیّ من حاجة؟ فقال إبراهیم أما إلیک فلا، وأما إلی ربّ العالمین فنعم. فدفع إلیه خاتماً علیه مکتوب: «لَا الَهَ الَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، الْجَأْتُ ظَهْرِی الَی اللَّهِ، اسْنَدْتُ امْرِی الَی اللَّهِ، وَفَوَّضْتُ امْرِی الَی اللَّهِ» فأوحی اللَّه إلی النار (کونی برداً وسلاماً) فاضطربت اسنان إبراهیم من البرد حتّی قال (سلاماً علی إبراهیم) فهبط جبرئیل وجلس معه یحدثه فی النار وفی روضة خضراء، ونظر إلیه نمرود فقال: «مَنِ اتَّخَذَ الَهاً فَلْیَتَّخِذْ مِثْلَ الَهِ ابْرَاهِیمَ» «۳». أجل فإنّ التوکل علی اللَّه تعالی قد

حوّل النار إلى بستان جميل وجنّة خلابة، هذا التوكل الّذى منح إبراهيم القوّة على ضبط النفس والهدوء والسكينة حتّى انه لم يجد حاجة إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۵ التوسل بجبرئيل واعتبر ذلك ابتعاداً عن اللّه وخلافاً لمقتضى الإيمان والتوكل وانه لابدّ من تحصيل الماء من العين الصافية نفسها. ۴- ويقول الإمام الصادق عليه السلام فى تعبير آخر: «انَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ اوْطَنَاهُ» «۱». وهذا يعنى أنّ القلب الّذى تحوّل إلى مركز للتوكل على اللّه فإنه يشعر بالغنى وعدم الحاجة لما سوى اللّه تعالى، وكذلك فإنّ مثل هذا الإنسان يعيش العزّة والقدرة لأنّه يتحرّك من موقع الاعتماد على القدرة المطلقة الّتى تتعالى على جميع القدرات الاخرى ولا تقبل الضعف والتردد والإهتزاز. ۵- ونقرأ فى حديث آخر بهذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَا يُغْلَبُ وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَايُهْزَمُ» «۲». ۶- وورد فى حديث آخر عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصِّعَابُ وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْاسْبَابُ» «۳». وكيف لايكون كذلك فى حين أنّ (مسبّب الأسباب) هو اللّه تعالى وكلّ شىء خاضع وخاشع له. ۷- وفى حديث آخر عن هذا الإمام انه أشار فى كلامه إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ التوكل ليس فقط يُعدّ من العوامل الخفيّة فى باطن الكون بل من العوامل المؤثرة فى نفس الإنسان وباطنه أيضاً حيث يمنحه القوّة الّتى تنجيه من الوساوس والشبهات فقال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اضَاءَتْ لَهُ الشُّبَهَاتُ» «۴». ۸- وأيضاً ورد عن هذا الإمام فى خطابه للناس جميعاً «يَا ايُّهَا النَّاسُ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۶ واتَّقُوا بِهِ فَانَّهُ يَكْفِى مِمَّنْ سِوَاهُ» «۱». ۹- وعن جابر بن يزيد الجعفى أنّه قال: خدمت سيّد الأنام أبا جعفر محمّد بن على عليه السلام ثمانية عشرة سنة فلما أردت الخروج ودعته فقلت له: افدنى، فقال: بعد ثمانية عشر سنة يا جابر؟ قلت: «نَعَمْ انَّكُمْ بَحْرٌ لَايُنْزَفُ وَلَا يُبْلَغُ قَعْرُهُ». قال عليه السلام: يا جابر بلغ شيعتى عنى السلام وأعلمهم أنّه لا قرابة بيننا وبين اللّه عزّوجلّ، ولا يتقرب إليه إلّابالطاعة له، يا جابر من أطاع اللّه وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى اللّه لم ينفعه حبنا. يَا جَابِرُ مَنْ هَذَا الّذى سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ اوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْفِهِ؟ اوْ وَثَقَ بِهِ فَلَمْ يُنْجِهِ؟» «۲». ونجد فى هذا الحديث الشريف أنّ التوكل على اللّه والثقة بوعده وكرمه، ودعاءه والطلب منه بعنوان ثلاث وسائل للنجاة والفلاح. أجل فإنّ الإنسان إذا توجّه إلى العين الصافية واغترف منها الماء الزلال فلا حاجة له لأن يمدّ يده إلى هذا وذاك. ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن لقمان الحكيم رغم وجود أحاديث كثيرة تقرر أهمية التوكل وآثاره الإيجابية الكبيرة على حياة الإنسان المادية والمعنوية، وذلك عندما أوصى لقمان ابنه بقوله: «يَا بُنَىَّ! تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ سَلْ فِى النَّاسِ، مَنْ ذَا الّذى تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟!» «۳». إن عظمة هذه الفضيلة الإنسانية الكبيرة، يعنى التوكل على اللّه فى الأحاديث الإسلامية والنصوص الدينية الشريفة إلى درجة من الوضوح بحيث لا ـ تحتاج إلى توضيح أكثر من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۷ هذا، وبخلاف ما يقابلها من الحالة الذميمة الّتى تربط الإنسان بالقوى الاخرى الزائفة وتهبط به من أوج العزة والافتخار والاستقلال فى أبعاد شخصيّته الإنسانية إلى حيث الضعف والذلّة والمهانة وبالتالى عدم القدرة على التغلب على التحديات الّتى يفرضها الواقع وعدم حلّ المشاكل الّتى تواجه الإنسان فى حركة الحياة. وبعد بيان أهميّة التوكل فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية نصل إلى مسألة تحليل هذه الفضيلة فى أبعادها المختلفة وتوضيح بعض الزوايا المعتمة منها:

۱- حقيقة التوكل

رأينا فى ما تقدّم أنّ (التوكل) من مادّة (وكالة)، بمعنى ايداع الامور إلى اللّه تعالى والاعتماد على لطفه ورحمته، وهذا لا يعنى أن يعيش الإنسان حالة التكاسل وعدم التحرّك فى نشاطات الحياة بل عليه أن يبذل ما امكنه من السعى والجهد فى سلوك طريق الحياة بجدّية ولكنه فى نفس الوقت يعيش حالة التوكل على اللّه بالنسبة إلى ما لا يجد فى نفسه القدرة على تذليل الصعاب ويستمد من ألطافه الجلية والخفية فى ما يمنحه القدرة على الإستمرار فى هذا الطريق. ويقول أحد علماء الأخلاق المعروفين فى تفسير التوكّل: «اعلم أنّ التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معانى درجات المقربين، وهو فى نفسه غامض من حيث العلم وشاق، وقال عليه السلام: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، بل انظروا إلى خلقه وعمله. ووجه غموضه من حيث

العلم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتباعد عنها بالكلية طعن فى السنّة وقدح فى الشرع، والاعتماد على الأسباب انغماس فى غمرة الجهل. والتحقيق فيه أنّ التوكل المأمور به فى الشرع هو اعتماد القلب على اللَّه فى الامور كلّها وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، وكان سكونه إلى اللَّه تعالى دونها مجوزاً أن يؤتيه اللَّه مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب الّتى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۸ حصلها، وأن يقطع اللَّه هذه الأسباب عن مسبباتها». ثمّ يضيف قائلًا: «وليس معنى التوكل- كما يظنه الحمقى أنّه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم، فإنّ ذلك جهل محض، وهو حرام فى الشرع، فإنّ الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب الّتى هداه اللَّه إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك ممّا أحلّه اللَّه» «۱». ونقرأ فى (المحجّة البيضاء) فى بحث حقيقة التوكّل قوله: «إعلم أنّ التوكّل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الايمان لا- تنتظم إلّابعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، ومن عمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكّل». ثمّ يشرع بذكر بعض التفاصيل عن عنصر العلم الّذى يمثل الأساس للتوكل، وبعد بيان مطول يصل إلى ذكر حقيقة التوكل الّتى هى عبارة عن الأساس الّذى يبتنى التوكل عليه، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلّااللَّه، وأن كلّ موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك فالمنفرد بابداعه واختراعه هو اللَّه تعالى لا شريك له، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخّرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة فى ملكوت السماوات والأرض» «۲». وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما سُئل: «مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوجلّ؟ فَقَال صلى الله عليه و آله: الْعِلْمُ بانَّ الْمَخْلُوقَ لَايَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِى وَلَا يَمْنَعُ وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ». ثمّ قال صلى الله عليه و آله: «فَاذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِاحَدٍ سِوَى اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِى احَدٍ سِوَى اللَّهِ، فَهذَا هُوَ التَّوَكُّلُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۹ ونقرأ فى حديث آخر أنّه سُئل الإمام عليه السلام عن حقيقة التوكل فقال: «لَا تَخَافُ سِوَاهُ» «۱». ويستفاد من هذه العبارات أنّ روح التوكل هى الانقطاع إلى اللَّه وهجر التعلق بالمخلوقات والأسباب، وما لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فهو بعيد عن حقيقة التوكل، وكذلك يستفاد من الروايات الرفض الأكيد للمفهوم السلبى من التوكل، أى ترك الاستفادة من الأسباب المادية، فقد ورد فى حديث معروف أنّ رجلًا اعرابياً ترك ناقته وجاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قائلًا: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» فقال له النبى صلى الله عليه و آله: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» «۲». ولهذا السبب ورد فى الآيات الكريمة والسنّة النبوية نصوص كثيرة توجب على المؤمنين الأخذ بالأسباب الظاهرية وأنّ ذلك لا يتقاطع مع روح التوكل من قبيل قوله تعالى: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ وَمِن رّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ...» «۳». ومن جهة اخرى نرى أنّ القرآن الكريم يبيّن للمسلمين كيفية صلاة الخوف ويقول: «... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَاسْلِحَتَهُمْ ...» «۴». وعلى هذا الأساس نرى أنّ القرآن الكريم يوجب على المسلمين الأخذ بأدوات الحذر والحيطة تجاه العدو حتّى فى حال الصلاة، فكيف الحال فى الموارد الاخرى؟ إن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله نفسه لم يتحرك فى هجرته من مكّة إلى المدينة من موقع اللامبالاة بالخطر وبدون تخطيط مسبق والاكتفاء بقول «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ»، بل تحرك على مستوى اغفال العدو بأن طلب من الإمام على عليه السلام من جهة أن ينام على فراشه إلى الصباح، ومن جهة اخرى خرج من مكّة ليلًا وعلى أتم السريّة والخفاء، ومن جهة ثالثة لم يتوجه شمالًا صوب المدينة مباشرة، بل توجه نحو الجنوب قليلًا وبقى فى غار ثور لثلاثة أيّام مختفياً عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۰ الأنظار، وعندما يأست قريش من العثور عليه خرج من الغار متوجهاً إلى المدينة مستديراً حول مكّة وكان يسير ليلًا وأحياناً يسلك الطرق غير السالكة حتّى وصل إلى المدينة. إذن، فروح التوكل الّتى كان يعيشها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بجميع وجوده واحساساته لم تمنعه من الأخذ بالأسباب الظاهرية. وأساساً فإنّ مشيئة اللَّه تعالى قائمة على أساس أن يأخذ الناس فى حركتهم لتحقيق مقاصدهم بالأسباب والوسائل الموجودة كما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ابَى اللَّهَ انْ يَجْرِىَ الْأَشْيَاءَ الّا بِاسْبَابٍ فَجَعَلَ لِكُلِّ شَىْءٍ سَبَباً» «۱». وعليه فإنّ اهمال عالم الأسباب والمسببات ليس فقط لا يعدّ من التوكل، بل هو فى

الواقع اهمال للسنن الإلهيّة الموجودة فى عالم الخلقة، وهذا ممّا لا ينسجم مع روح التوكل. ونختم هذا الكلام برواية تتعلق بزمان النبى موسى عليه السلام حيث ورد «أنّ موسى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرأت. فقال: لا ـ أتداوى حتّى يعافينى من غير دواء، فطالت علّته فقالوا له: إن دواء هذه العلّة معروف مجرّب وإنّا نتداوى به فنبرأ. فقال: لا أتداوى، فدامت علّته فأوحى اللَّه إليه: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا ابْرَأْتُكَ حَتَّى تَتَدَاوَى بِمَا ذَكَرُوهُ لَكَ»، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى اللَّه إليه: «ارَدْتَ انْ تَبْطُلَ حِكْمَتِي بَتَوَكُّلِكَ عَلَيَّ، فَمَنْ اوْدَعَ الْعَقَاقِيرَ مَنَافِعَ الْاشْيَاءَ غَيْرِى» «۲». هذا الحديث الشريف يوضّح لنا حقيقة التوكل. وعندما نرى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام لا يمدّ يده إلى الملائكة فى اللحظات الحرجة ولا يطلب إليهم انقاذه من نار نمرود فإنّ ذلك لا يتعارض مع مسألة الاستفادة من الأسباب الطبيعية الّتى قرأناها فى سيرة النبى موسى عليه السلام، لأن التوسل بالأسباب المادية والطبيعية لم تكن واردة فى قصة إبراهيم عليه السلام بل تحكى عن نوع من الاستمداد وطلب النجاة من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۱ الأسباب الغيبية وغير الطبيعية، ولهذا لم يقبل إبراهيم عليه السلام فى هذه المرحلة بالذات أن يمد يده إلى ما سوى اللَّه تعالى (فتدبّر).

۲- معطيات التوكل وآثاره الإيجابية

بما أنّ المتوكل على اللَّه فى الحقيقة يفوّض أمره وحاله وعمله إلى اللَّه تعالى، ويعلّق أمله بالقدرة اللامتناهية والذات المقدسة العالمة بكلّ شيء، ويعتمد على اللَّه الّذى بإمكانه أن يحلّ له جميع المشكلات ويسهل عليه ما عسر من الصعوبات، فإنّ أوّل أثر إيجابى يخلقه التوكل فى واقع الإنسان هو أن يثير فى نفسه مسألة الاعتماد على الذات ومقاومة المشكلات والوقوف على قدميه أمام سيل الحوادث الكبيرة فى حركة الحياة. ولو أنّ شخصاً وجد نفسه وحيداً فى ميدان القتال مع الأعداء فإنه مهما كان قوياً ومستعداً للقتال فإنه سرعان ما يجد الضعف يدبّ فى نفسه ويفقد اعتماده على نفسه، ولكن إذا أحسّ بأنّ جيشاً قوياً يدعمه من الخلف فإنه سيشعر بالقدرة الفائقة والشجاعة رغم عدم امتلاكه لأدوات القوّة ورغم ضعفه الذاتي. وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، ففى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «كَيْفَ اخَافُ وَانْتَ امَلِي وَكَيْفَ اضَامُ وَانْتَ مُتَّكَلِي» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَايُغْلَبُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَايُهْزَمُ» «۲». أجل فكلّ إنسان يتوكل على اللَّه فإنه يعيش الغنى وعدم الحاجة ويشعر بالعزّة والكرامة كما ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «انَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۲ بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ اوْطَنَا» «۱». ومضافاً إلى ذلك فإنّ التوكل يُبعد عن الإنسان كثير من الصفات الرذيلة من قبيل الحرص والحسد وحبّ الدنيا والبخل وغير ذلك، لأنّه عندما يفوض الإنسان أمره إلى اللَّه تعالى ويعلم انه القادر على كلّ شيء والعالم بحاجته وفقره فإنه سوف لا يبقى أثر لهذه الحالات السلبية فى واقعه ونفسه. فعندما يقرأ المؤمن هذه الآية الشريفة: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» «۲» يجد نفسه غارقاً فى أسر التوفيق وغير محتاج إلى أيّ إنسان، كما ورد فى بعض الأدعية قوله: «اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْيَقِينِ وَاكْفِنِي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ» «۳». ومن جهة رابعة فإنّ التوكل يزرع فى قلب الإنسان نور الأمل الّذى بإمكانه أن يمنح الإنسان القدرة والقوّة فى حركته ويذهب عنه عنصر التعب المسلط عليه، ويشعر بالاستقرار والهدوء النفسى فى كلّ الأحوال، ولذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى كلام مختصر وعميق المعنى «لَيْسَ لِمُتَوَكِّلٍ عَنَاءُ» «۴». ومن جهة خامسة فإنّ التوكل على اللَّه يزيد من ذكاء الإنسان وقدرة الذهن على التفكير الخلّاب، ويفتح آفاقه المعرفية، فيرى الأشياء من موقع الوضوح فى الرؤية، لأنّه ومع غضّ النظر عن البركات المعنوية لهذه الفضيلة الأخلاقية فإنّ التوكل يتسبب فى أنّ الإنسان لا يجد فى نفسه قلقاً واضطراباً مقابل المشكلات الّتى تفرزها الظروف الصعبة فى حركة الواقع، وبذلك تحفظ له قدرته على التصميم الجدّى والهادف الّذى ينطلق من موقع التفكير المتّزن بحيث يجد طريق الحلّ أمامه بسهولة. ومن ذلك نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۳ اضَائَتْ لَهُ الشُّبُهَاتِ وَكَفَى الْمَؤُونَاتِ وَامِنَ التَّبِعَاتِ» «۱».

۳- أسباب التوکل

إن التوکل کسائر الفضائل الأخلاقیة له أسباب ودوافع عدیدة، ویمکن القول أنّ أهمّ الأسباب والعوامل الّتی تمثل البنی التحتیة لصرح التوکل هو الإیمان والیقین بالذات المقدسة والمعرفة بصفات الجمال والجلال الإلهیة. عندما یقف الإنسان علی قدرة اللَّه وعلمه الواسع من موقع الوضوح والإدراک التام وأنّ جمیع المخلوقات فی عالم الوجود ما هی إلّاأدوات مسخرة للقدرة الإلهیة المطلقة، ویدرک جیداً مفهوم «لَا مُؤَثِّرَ فِی الْوُجُودِ الَّا اللَّه»، فإنه یری نفسه وقلبه معلّقاً بهذا الواقع الغیبی، ویری عالم الوجود میدان واسع للألطاف الإلهیة العظیمة، ومن هذا المنطلق یجد فی نفسه حالة التوکل علی اللَّه تعالی ویفوض أمره إلیه ویطرق بابه فی الأزمات والشدائد والمشکلات الّتی تواجهه فی واقع الحیاة، ویطلب منه أن یعینه فی حلّها والتغلب علیها (مع اقتران ذلک بسعیه وعمله). وبعبارة اخری إن التوکل هو ثمرة لشجرة (التوحید الأفعالی) هذه الشجرة المبارکة الّتی أصلها ثابت وفرعها فی السماء تؤتی اکلها کلّ حین بإذن ربها، ومن أهم ما یتناول الإنسان منها هو ثمرة التوکل. وقد أشارت الآیات القرآنیة والأحادیث الإسلامیة کراراً إلی هذه العبارة الشریفة، ومن ذلک انها وردت فی سبع آیات من القرآن الکریم وهی: «وَعَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». أی إن الإنسان الّذی یعیش الإیمان یجب علیه أن یتوکل علی اللَّه فقط، وهذه العبارة تبین جیداً الرابطة الوثیقة بین الإیمان والتوکل. ویقول الإمام أمیرالمؤمنین علی علیه السلام «التَّوَکُّلُ مِنْ قُوَّةِ الْیَقِینِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۴ ویقول فی حدیث آخر: «اقْوَی النَّاسُ ایمَاناً اکْثَرُهُمْ تَوَکُّلًا عَلَی اللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وقد ورد فی الحدیث الشریف عن الأصبغ ابن نباتة عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام فی ما یقرأه الإنسان فی سجوده یقول: «وَاتَوَکَّلُ عَلَیْکَ تَوَکُّلَ مَنْ یَعْلَمُ انَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٍ» «۲». وممّا یجدر ذکره أنّ الأشخاص الّذین یعیشون الخوف والجبن لیسوا من أهل التوکل، لأن التوکل علی اللَّه یُزیل من روح الإنسان ونفسه ظلمة الخوف والجبن ویمنحه الشجاعة والشهامة فی التصدی لمعالجة الظروف الصعبة. عندما نتأمل جیداً فی هذه المسألة یتضح لنا دور الیقین والإیمان بصورة أکبر فی منح الإنسان عنصر التوکل وتطهیر نفسه من شوائب الخوف والجبن، لأنّه کلّما کان إیمان الفرد أقوی وأشد ابتعد عنه الخوف والجبن مسافات أکبر. ولا- ینبغی إهمال هذه الملاحظة، وهی أنّ مطالعة معطیات التوکل والتدبر فی آثاره الإیجابیة وقراءة حالات المتوکلین علی اللَّه وتاریخ حیاتهم بإمکانه أن یورث الإنسان روح التوکل علی اللَّه ویقوی فی وجوده وقلبه هذه الشجرة الطیبة المثمرة.

۴- درجات التوکل

رأینا ممّا تقدّم من البحوث السابقة السبب الّذی یدفع بعض الناس لأن یعیشوا التوکل فی مرتبته الشدیدة والبعض الآخر فی مرتبة أدنی حیث تبین لنا أنّ التوکل هو ولید الإیمان، وکلّما اشتد إیمان الفرد باللَّه تعالی وصفاته واسمائه الحسنی فإنّ ذلک من شأنه أن یزید من نسبة توکله بهذا المقدار، فالتوکل الّذی کان یعیشه إبراهیم کان ولید إیمانه الراسخ، وکذلک التوکل العجیب لأمیرالمؤمنین علیه السلام الّذی تجلّی فی (لیلة المبیت) (اللیلة الّتی نام فیها أمیرالمؤمنین علیه السلام فی فراش النبی صلی الله علیه و آله وهاجر فیها النبی إلی المدینة). کذلک ولید إیمانه القوی والراسخ، وهذ الحالات من التوکل نجدها لدی المؤمنین فی مراتب متوسطة أو أقل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۵ من ذلک بنسبة إیمانهم باللَّه تعالی. وقد سأل شخص الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام عن مفهوم هذه الآیة: «وَمَن یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» فقال له الإمام علیه السلام: «لِلتّوَکُّلِ دَرَجَاتٌ» ثمّ أضاف: «مِنْهَا انْ تَثِقَ بِهِ فِی امْرِکَ کُلِّهِ فِی مَا فَعَلَ بِکَ فَمَا فَعَلَ بِکَ کُنْتَ رَاضِیاً وَتَعْلَمَ انَّهُ لَمْ یَأْلُکَ خَیْراً وَنَظَراً، وَتَعْلَمَ انَّ الْحُکْمَ فِی ذَلِکَ لَهُ، فَتَتَوَکَّلْ عَلَیْهِ بِتَفْوِیضِ ذَلِکَ الَیْهِ» «۱». وقد ذکر بعض علماء الأخلاق للتوکل ثلاث مراتب: الاولی: أن یعیش الإنسان الاعتماد والاطمئنان والثقة باللَّه تعالی کما

يطمئن الإنسان ويثق بوكيله عنـدما يجده لائقاً ومخلصاً فيفوض اموره إليه (دون أن يفقد اصالته واسـتقلاله بهذا الاعتماد والثقة) وهذه هى أضعف مراتب التوكل. الثانية: أن يكون حاله فى اعتماده على اللَّه وثقته بنفسه كحال الطفل بالنسبة لُامّه، فالطفل فى بداية الأمر لا يرى شيئاً سوى امّه ولا يعتمد على غيرها إطلاقاً، فما أن يراها حتّى يتعلق بها، وعندما يجد نفسه لوحده فإنه بمجرد أن يصـيبه شىء أو حادثـة فإنه يطلب امّه فوراً ويبكى أيضاً فى طلبها. ولاشكّ أنّ هـذه المرتبـة من التوكل أعلى من السابقـة، لأن الإنسان فى هـذه الحالة يجـد نفسه غارقـاً فى تجليـات الحقّ ولا يرى أحـداً غيره ولا يطلب من أىّ أحـد حلّ مشـكلاته إلّا من اللَّه تعالى. المرتبـة الثالثـة: وهى بدورها أعلى من المرتبة الثانية فى سُلّم الكمال المعنوى، وهى أن يجد الإنسان نفسه عديم الإرادة والاختيار، فكلّما أراد منه اللَّه شيئاً ورضـى به كان رضاه بـذلك الشـىء وتعلّقت إرادته بذلك الشـىء أيضاً، وكلّما عَلِم أنّ اللَّه لا يريد ذلك الشـىء فإنه لا يُريده أيضاً. بعض العلماء يرى أن توكل إبراهيم عليه السلام كان يحكى عن هذه المرتبة الثالثة، عندما الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۶ وضعوه فى المنجنيق وأرادوا قذفه فى النار المهيبة، ولكنه مع ذلك لم يطلب شيئاً من الملائكة على مستوى انقاذه من الهلكة، وعندما قالت له الملائكـة: هل لك حاجـة؟ قال: لى حاجة ولكن ليست إليكم، وعندما قيل له: اطلب حاجتك من اللَّه لينقذك من هذه النار المحرقة، فقال: «حَسْبِى مِنْ سُؤَالِى عِلْمُهُ بِحَالِى» «۱». وهذه الدرجة العالية من التوكل يندر وجودها بين الناس، وهى من خواص مقام الصديقين الّذين يعيشون الذوبان والعشق للذات المقدسة والغرق فى صفات جماله وجلاله.

۵- طرق تحصيل التوكل

لقـد ذكر علماء الأخلاق طرقاً للتوصل إلى حالـة التوكل وكلّ منها بمثابـة عامل مؤثر لاكتساب هـذه الفضـيلة الأخلاقيـة الكبيرة، ومن ذلك: التوجه إلى حالة (التوحيد الأفعالى) وأن يعلم الإنسان يقيناً بأن كلّ شـىء فى عالم الوجود متصلًا بذاته المقدسة ومرتبط بها وأنّ اللَّه تعـالى هو مصـدر عـالم الوجود والعلّة التامـة لوجوده ووجود الكائنـات وانه مسبّب الأسـباب، فلاـ مؤثر فى الوجود إلّابـأمره وكلّ المخلوقات إنما تقتات من صـفات مائـدة فضـله ورحمته وكرمه. فبعد التأمل والتدبر فى هذه الامور يعود ينظر إلى حالاته الذاتية ليرى كيف أنّ اللَّه تعـالى اخرجه من صـقع العـدم والظلمـة إلى نور الوجود وألبسه رداء الوجود ومنحه كـلّ تلـك القوى والمواهب الكثيرة المادية والمعنوية ورعاه عندما كان فى رحم امّه فى (ظلمات ثلاث) حيث لم تكن تصل إليه يد إنسان، ومع ذلك فإنه كان يتقلب فى نعمـة اللَّه وفضـله ولم يحتج إلى شـىء إلّاوأنعم اللَّه به عليه. وبعد أن خرج من عالم الرحم إلى فضاء هذه الدنيا فإنّ اللَّه تعالى وهب له كلّمـا يحتـاجه من شـرائط الحيـاة وما يفتقر إليه فى بقائه وسـلامته، من لبن الامّ إلى محبتها ورعايتها والسـهر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۷ عليه ودفع الخطر عنه وأمثال ذلك. لقـد وهب له اللَّه تعالى معرفـة كيف يرتضع من صـدر امّه وهـداه إلى معرفة الطريق إلى تفعيل عواطفها وتسـيير محبتها وحنانها تجاهه بحيث جعلها تخـدمه ليل نهار فى حين انها لا تجد فى نفسـها التعب من ذلك بل تحسّ باللّذة وتشـعر بالرضا بهذه الخدمة الشاقة والمتواصـلة. وعندما بلغ به العمر سنّ الرشد تواترت عليه نعم اللَّه ومواهبه المختلفة من السماء والأـرض واغرقته فى ألطـافه وعنايـاته اللامتناهيـة. أجـل عنـدما يتفكر الإنسـان بكلّ هـذه الامور يتبين له جيـداً أنّ كلّ شـىء فى عالم الوجود خاضع ومطيع للَّهتعالى، وينبغى عليه أن يفوض جميع اموره إلى الـذات المقدسة ويتوكل عليه كما هو مضـمون الآية الشـريفة: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «۱». إن الإيمـان الراسـخ بهـذه الحقائق بإمكانه أن يوصل الإنسان إلى مرتبـة (التوكل) ويصـعد به فى هـذه الصـفة الكماليـة إلى مراتب اخرى ويجعله فى زمرة المتوكلين الحقيقيين. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۸ ۱۳ و ۱۴

الشهوة والعفاف

تنويه:

«الشهوة» فى اللغة لها مفهوم عام يطلق على جميع اشكال الرغبات النفسانية والميل إلى التمتع واللّذة المادية وأحياناً تطلق كلمة الشهوة على العلاقة الشديدة بأمرٍ من الامور المادية. إن مفهوم الشهوة مضافاً إلى المفهوم العام يطلق أيضاً على خصوص «الشهوة الجنسية»، وأما فى القرآن الكريم فنلاحظ أنّ مفردة «الشهوة» استعملت بالمعنى العام وبالمعنى الخاص، وفى هذا البحث فإنّ مقصودنا من هذه الكلمة هو المعنى الخاص لأن تأثيراتها المخربة والمدمرة أكثر من سائر أشكال الرغبات الجسدية الاخرى. «الشهوة» تقع فى مقابل «العِفة» والعفة أيضاً لها مفهوم عام ومفهوم خاصّ، فاما المفهوم العام هو ضبط النفس فى مقابل الرغبات والميول النفسانية والأفراط فى اتباعها، واما المفهوم الخاصّ فهو ضبط النفس فى مقابل متطلبات الغريزة الجنسية والتحلل الأخلاقى. «العفة» تعتبر من الفضائل الأخلاقية المهمة الّتى تساهم فى ترشيد وتكامل المجتمعات البشرية بعكس الشهوة الّتى تقع فى مقابلها والّتى يوجب اتباعها سقوط الفرد أخلاقياً وانحطاط المجتمع فى حركته الحضارية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۰ إن التحقيقات التاريخية تشير إلى أنّ المجتمعات الّتى كانت تتمتع بمقدار كافٍ من العفة كانت تتمتع بطاقات وقدرات حضارية وإنسانية وتعيش حالة من التقدّم والتكامل على المستوى الفردى والاجتماعى وتعيش الأمن والهدوء والاستقرار فى مستويات عالية، ولكن وبعكس ذلك الأشخاص أو المجتمعات الّتى كانت غارقة فى مستنقع الشهوات فإنّها فقدت طاقاتها البنّاءة وقواها الحيوية وبالتالى أضحت مستسلمة لتداعيات قوى الإنحراف والسقوط الحضارى. وطبقاً لنظر الحقوقيين فإنّ «الشهوة الجنسية» تعتبر دعامة رئيسية فى التورط فى الجريمة والعدوان إلى درجة أنّه قيل: إنّ فى كلّ جريمة هناك عنصر «الشهوة الجنسية»، ولعلّ هذا التعبير مبالغٌ فيه، ولكن الحقيقة أنّ طغيان «الغريزة الجنسية» وطلب الشهوة يعتبر منشأً ومصدراً للكثير من الجرائم والانحرافات الفردية والاجتماعية، فقد سفكت بسببها الكثير من الدماء واتلفت الكثير من الأموال والثروات، وتم تسريب الكثير من الأسرار المهمة للحكومات والدول بواسطة النساء الجاسوسات من خلال استخدامهن لعنصر الجمال والجاذبية الجنسية، وبالتالى كانت هذه الغريزة هى السبب فى التورط فى الفضائح الأخلاقية على مستوى الشخصيات والدول. ومن خلال الآيات والروايات الشريفة، يمكننا أن نستوحى هذه الحقيقة، وهى أنّ «الشهوة الجنسية» تعتبر إحدى الوسائل والأدوات المهمة للشيطان، ونجد فى القرآن الكريم اشارات متعددة لمفهوم العفة والشهوة فى موارد مختلفة، وفيما يلى بعض الآيات الكريمة الّتى تستنطق هذا المفهوم القرآنى: ۱- «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَا ت فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا* إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئكَ يَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» «۱» ۲- «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا ت أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۱ ۳- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ* أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». ۴- «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ* وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ ياقَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ* قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ* قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ* قَالُواْ يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَلَايَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآأَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ* فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَاهِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» «۲». ۵- «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۳». ۶- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ا لْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ* فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ا لْمُجْرِمِينَ» «۴».

تفسير واستنتاج:

آثار اتباع الشهوات فى التاريخ البشرى

«الآيـة الاولى بعـد أن تـذكر أسـماء بعض الأنبياء الإلهيين وتسـتعرض صـفاتهم الكريمـة وخصالهم الحميدة تقول: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَا تِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» «۱». وهنا تسـتثنى الآيـة المـذكورة فوراً بعض الأشـخاص الّذين يحملون صفات متميزة وتقول: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» «۲». والجدير بالذكر أنّ الآية محل البحث تتحدّث عن اتباع «الشـهوات» بعد مسألة إضاعة الصـلاة وتتبعها حالة الضـلال والغى، ويمكن أن نسـتوحى من هذه العبارة انها تشـير من جهة إلى أنّ الصـلاة تعد عاملًا مهماً فى الحدّ من طغيان الشـهوات وبالتالى العمل على تقويم سلوك الإنسان فى طريق الحقّ والانفتاح على اللّه بعيداً عن اشكال الإنحراف الأخلاقى وافرازات الأهواء النفسانية، وكما جاء فى الآية ۴۵ من سورة العنكبوت: «... انّ الصَّلَوةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ» ومن جهـة اخرى تشـير الآية إلى أنّ عاقبة «اتباع الشـهوة» هى الضـلال والإنحراف، كما نجد ذلك فى الآية ۱۰ من سورة الروم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا السُّوأَى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». أجل أنّ عاقبة هؤلاء هى الضـلالة والزيغ ومـا يسـتتبع ذلك من النتائج الوخيمـة، أى الغضب الإلهى والعقاب الاليم فى الآخرة. ومعلوم أنّ «الشـهوات» فى الآية محل البحث لها مفهوم واسع ولا تنحصر فى «الشهوة الجنسية»، بل تستوعب فى مفهومها كلّ أشكال الميول النفسانية والنوازع الدنيوية والأهـواء الشـيطانية، وطبعاً فإنّ الأشـخاص الّـذين تابوا من بعـد ذلك واسـتدركوا تورطهم فى الـذنوب بالعمل الصالـح وتحركوا على مستوى تقويـة إيمانهم القلبى الّذى تعرض للاهتزاز بسـبب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۳ الولوغ فى الخطيئـة فإنّ عاقبتهم أنّهم سيكونون من أهل الجنّة بعـد تطهير قلوبهم من الآثار السـلبية لاضاعـة الصـلاة واتباع الشـهوات. «الآية الثانية» وضـمن بيان التقابل بين «الرجوع إلى اللّه» و «اتباع الشهوات»، والإشارة إلى أنّ هذين المفهومين لا يلتقيان فى الإنسان فى جهة واحدة بل يسيران به فى جهتين مختلفتين تقول: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا تِ أن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا» «۱». أجل فالأشخاص الّذين غرقوا فى وحول الخطايا والشـهوات يريـدون أن يورطوا الآخرين فى الخطيئـة وممارسة الاثم ليكونوا من أمثالهم ويتلوثوا بالذنوب، فى حين أنّ اللّه تعالى يريد للناس الطهر والنقاء القلبى بتركهم الشـهوات وبعودتهم إلى اللّه، وبالتالى لينالوا المعرفة والصـفاء والتقوى والسـعادة الدائمة، ويقول الأعاظم من المفسّرين أنّ المراد من «الميل العظيم» هو هتك الحدود الإلهية والتلوث بأنواع الذنوب والخطايا، والبعض منهم يرى أنّ المقصود منهـا هو نكاح المحارم وأمثال ذلك الّتى ورد النهى عنها فى الآيـة السابقـة والّتى هى فى الواقع أحـد مصاديق المفهوم أعلاه. والجـدير بالـذكر أنّ اتباع الشـهوات الوارد فى الآية الكريمة يمكن أن يكون له مفهوم عام، وكذلك يمكن أن يكون إشـارة إلى الشـهوة الجنسية بـالخصوص، لأـن هـذه الآيـة وردت بعـد آيـات تحـدثت عن حرمـة نكـاح المحارم والنساء المحصـنات والجوارى والبغايـا من الجوارى، وعلى أى حـال فـإنّ هـذه الآيـة تقرر حقيقـة مهمـة فى هـذا المجال، وهى أن طريق «اتباع الشـهوات» تتقاطع تماماً مع طريق «الانفتاح على اللّه». الآيات الثالثـة والرابعـة والخامسـة والسادسـة من الآيات محل البحث تتحـدّث عن قصـة قوم لوط وتورطهم فى إنحراف أخلاقى فى دائرة الغريزة الجنسـية، فالشهوة هنا امتزجت مع انحرافات جنسية كثيرة على طول التاريخ، وفى كلّ آيـة من هـذه الآيات الكريمـة هناك نكتـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۴ خاصّة تشـير إليها الآية القرآنية حيث نستعرضـها ونشـير إلى هـذا المضـمون الكامن فيها: «الآيـة الثالثـة» تتحـدّث عن النبى لوط وتسـتعرض خطابه لقومه فى اطار التوبيخ الشديد حيث تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ» «۱». «الفاحشـة» كلمة تطلق على كلّ عمل قبيح جـداً، رغم أنّ المتعارف فى المفهوم منها هو «الفحشاء الجنسـى»، والآيـة الكريمـة تشـير إلى أنّ هـذه الفاحشـة قد بدأت من قوم لوط وأنّإتيان المـذكر أو ما يعبر عنه باللواط لم يكن قبل ذلك متـداولًا فى المجتمعات البشـرية. ويسـتمر لوط فى التحدث مع قومه بلسان الـذم والتقريع ويقول: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...» «۲». فى هذه الآية نجد انها تشير إلى أحد العلل والأسـباب لتحريم «اللواط» ألا وهو ظاهرة انقطاع النسل، لأنّه لو تصورنا سـريان هذا السلوك المنحرف إلى جميع أفراد المجتمع فـإنّ هناك خطر انقطاع النسل البشـرى، وسوف تعيش الإنسانيـة حالـة التهديـد بالفناء والانـدثار. بعض المفسّـرين ذهبوا إلى أنّ جملة

«وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» المـذكورة فى الآيـة أعلاه هى إشارة إلى عمل السرقة وقطع الطريق الّذى كان يمارسه قوم لوط، وبعض ذهب انها إشارة إلى التعرض الجنسى للآخرين وللمارة الّذين كانوا يمرون فى طريقهم. «نادى» من مادّة «ندى» بمعنى المجلس العام أو مجلس التفريح والترفيه حيث يتنادى الناس فيه وينادى بعضهم الآخر فى مثل هـذه المجالس. وبالرغم من أنّ القرآن الكريم لم يذكر أنّ قوم لوط فى مجالسهم الترفيهية هـذه مـاذا كـانوا يرتكبون من منكرات اخرى، ولكن من الواضح أنّ أعمالهم الاخرى كانت متناغمة مع عملهم الشنيع هـذا، وقد ورد فى الروايات الشريفة أنّهم كـانوا يخلعون ملابسهم أمام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۵ الآخرين ويمارسون حالـة التعرى والتلفظ بالألفـاظ الموهنـة والركيكـة ويتحدّثون بالكلمـات القبيحـة فى مـا بينهـم ويقومـون بأعمـال وقحة وممارسات قبيحة يخجل القلم عن ذكرها. قوم لوط هؤلاء كانوا قد غرقوا فى مستنقع الشهوة إلى درجة أنّهم أخذوا يستهزئون بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، ولهذا السبب فعندما سمعوا كلام لوط تعجبوا من ذلك وأنكروا عليه هذا التوبيخ والذنب لأفعالهم وقالوا له كمـا تقول الآيـة: «... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». وبهذا فإنّهم استهزؤا بعذاب اللَّه وسخروا من كلام النبى لوط. وفى «الآيـة الرابعة» من الآيات محل البحث نجد إشارة إلى جانب آخر من قصة قوم لوط حيث تتحرك الآيـة لبيان حادثـة الضيوف الإلهيين الّذين نزلوا بمهمة انزال العذاب فى قوم لوط وجاءوا على شكل شباب ذى وجوهٍ مليحة وجميلة إلى النبى لوط عليه السلام الّذى لم يكن يعرفهم، ولهـذا أبدى خوفه وأنزعاجه لهذه الضيافة لما يعلم من سوء نية قومه اتجاه الغلمان والشبان فتقول الآية «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» «۲». وفى هـذه الاثناء تسامع قوم لوط بـالخبر فـأرادوا السوء بهؤلاء الضيوف الكرام: «وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...» «۳». فلمّا رأى لوط ذلك منهم تـألم بشـدة لهـذا الموقف المخزى من قومه تجاه ضيوفه وأراد التخلص منهم بشتى الطرق، ومنهـا انه عرض على هؤلاء الأشرار وبايثار عجيب بناته ليتم الحجّة عليهم ويكفوا عن ممارساتهم الشنيعة: «قَالَ ياقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۶ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» «۱». إن هؤلاء الأشرار أجابوه بمنتهى الوقاحة «قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ» «۲». أى انـك تعلم إننـا لا نحب مقاربـة النساء وتعلم انحرافنا عن هـذا المسلك الطبيعى فى إشباع الغريزة. وعنـدما رأى لـوط هـذه الوقاحـة مـن قـومه وتملكه اليأس من إصلاحهم أو دفعهم عن ضيوفه نـادى من صـميم قلبه ووجوده: «قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» «۳». أى يا ليتنى كنت امتلك القوّة لأُريكم جزاء عملكم الشنيع هذا أو أنّ لى عشيرة واتباع أقوياء يعينوننى على دفعكم عن ضيوفى .. وتتحرك الآيات فى هـذا السياق لتبين أنّ هؤلاء الضيوف الكرام اخبروا لوطاً بأنّهم رسل اللَّه لإنزال العـذاب على قومه وأنّهم مانعوه عن إيـذاء قومه وعن أى تحرك عـدوانى اتجاهه واتجاه ضيوفه، وأخبروه أنّ العـذاب نـازل على قومه حتمـاً غـداً صباحاً، وسوف لا يفلت أحـد منهم من هـذا العـذاب الإليم والعقاب المخيف حيث ستنقلب مـدينتهم رأسـاً على عقب وتمطر السـماء عليهم حجارةً من سجيل، وحين ذاك امروا لوطاً بالخروج مع أهلهِ من هـذه القريـة باستثناء زوجته الّتى كانت مداهنـة مع الأشـرار ويتركوا مـدينتهم إلى حيث ينجوا بأنفسـهم من العذاب الإلهى. «الآية الخامسة» من الآيات محل البحث وضمن الإشـارة إلى إنزال العـذاب الإلـهى على قوم لوط بسبب أعمالهم الشـنيعة تقول: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۷ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۱». وهكذا تم اهلاك هؤلاء القوم الظالمين وإنقاذ آل لوط من هذا العذاب الإلهى المقيم وطبعاً باستثناء زوجته الخائنة الّتى شملها العذاب مع قوم لوط. وبالطبع كما ذكر فى هذه الآية كان يمثل قسـماً من العذاب الإلهى على هؤلاء الأشـرار، لأن القرآن الكريم يقول فى آية اخرى: «فَلَمَّا جَاءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...» «۲». أى أنّ الزلزلة الّتى أصابتهم لم تدع لهم بناءاً ولا أرضاً إلّاقلبته رأساً على عقب ثمّ يقول: «وَامْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجّيلٍ مَنْضُودٍ» «۳». هـذا المطر من الحجارة يمكن أن يكون قسماً من الشهب المتنـاثرة فى الفضاء حيث نزلت هـذه الشهب والنيازك بأمر من اللَّه على اطلال هـذه المدينـة وأجساد أهلها المتناثرة. وهناك احتمال آخر فى معنى هـذه الجملـة، وهو أنّ كلمـة «حاصب» تعنى العاصفة من الرمل حيث تنقل الرياح العاتية فى الصحراء كثبان الرمل من منطقـة إلى اخرى فتظهر فى منطقة من الصحراء تلال من الرمل لم تكن

موجودة قبـل ذلـك، بل تتكون فجأة من خلال مطر من الرمال والحجارة الّتى تحملها العاصـفة الرمليـة بحيث تـدفن معها قرى كاملـة، وأحياناً تـدفن تحتها قافلـة من القوافل التجاريـة الّتى تجوب الصـحراء. والجدير بالذكر أنّ هذه العواصف الرملية أو أمطار الحجارة قد تحـدث بين الفينة والاخرى فى عالم الطبيعة، ولكن هذه المرة حدثت هذه العاصـفة الرملية بأمر من اللّه تعالى بوقتٍ مخصوص ومكان معين كما أخبر بـذلك ملائكة اللّه الّذين ارسلوا إلى نبى لوط عليه السـلام. ويوجد احتمال آخر فى هذا الصدد، وهو انه من الممكن أن تكون الزلزلـة الشديـدة قـد أصابت هـذه المدن والقرى ودمرتها عن آخرها ثمّ نزل عليهم مطر الحجارة السـماوية، ثمّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۸ حلت بهم العاصـفة الرمليـة لتمحوا آثارهم وتفنى ما تبقى من وجودهم، وهـذا العـذاب الإلهى بهـذه المراحل الثلاثة الشديدة يبين غضب اللّه تعالى على هؤلاء القوم الظالمين. «الآية السادسة» والأخيرة فى هذه الآيات وضمن الإشارة الموجزة إلى قصـة قوم لوط من بـدايتها إلى منتهاهـا تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَـةَ مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَـدٍ مّنَ ا لْعَالَمِينَ» «۱». أجل، فإنكم تأتون الذكور لاشباع غريزتكم الجنسية دون النساء، ولذلك فأنتم منحرفون عن السبيل القويم لأنكم تركتم القوانين والمقررات الطبيعيـة والسـنن الإلهيـة لاشـباع الغريزة وسـلكتم مسـلك الإنـحراف والزيغ الّـذى من شأنه أن يؤدى إلى انقطاع النسل واشاعـة أنواع المفاسد الاجتماعية والأمراض التناسـلية، ورغم أن مرض «الايدز» الموحش يعتبر أحد الأمراض العصـرية الّذى اكتشف مؤخراً، ولكن لا يبعـد أن يكون هـذا المرض موجوداً من ذلك الزمان أيضاً وقد اصيـب به بعض هؤلاء الأشـرار من قوم لوط، ولهذا السبب فإنّ اللّه تعـالى بحكمته ورحمته قـد دفن أجسـادهم تحت كثبان الرمل والحجارة ليكون ذلك عبرة للآخرين من جهـة، ونعمـة للناس من جهة اخرى لمنع انتشار وسـراية هـذا المرض إلى أنحاء اخرى من المعمورة. وعلى أى حال فإنّ هؤلاء القوم المجرمين كانوا على درجة من الوقاحة وعدم الحياء بحيث أنّهم مضافاً إلى عدم اصـغائهم لكلمات لوط عليه السـلام، أرادوا إخراجه مع أهله من مدينتهم بتهمة الطهر والنقاء حيث تتحـدّث الآيـة القرآنية فى هذا السـياق عن موقفهم المخزى هذا وتقول: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» «۲». ولكن اللّه تعالى يحكى لنا عاقبة قوم لوط هؤلاء ومصير نبيّهم الكريم حيث يقول: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۹ عَاقِبَةُ ا لْمجْرِمِينَ» «۱». أجل، إن هؤلاءـ كـانوا قـد غرقوا فى وحول الخطيئـة وتلوثوا بأدران الإثم إلى درجـة أنّهم كانوا يعتبرون أنّ الطهر والنقاء من الإثم والـذنب اثماً وخطيئـة بحـد ذاته، ولهذا كانوا يرون إنزال العقوبة على الأبرياء والطاهرين من الناس بتهمة الطهر وعدم التلوث بالمعاصـى ويحكمون عليهم بالنفى إلى مناطق بعيـدة ويخرجوهم من بيوتهم ولكن العذاب الإلهى كان لهم بالمرصاد، وقد حلّ بهم قبل أن يطبقوا أحكامهم المزرية على لوط وأهله. إن القسم المهم من هذه الآيات وضـمن بيان العاقبة المخزية لاتباع الأهواء والشهوات بالمعنى والمفهوم العام والخـاصّ يشـير إلى أنّ هـذا العمـل الشـنيع يعـد منبعاً للكثير من الـذنوب والممارسات الخاطئـة الّتى تورث الفرد والمجتمع الانحطاط والسقوط الأخلاقى والاجتماعى وتذُم وتُشنع على من يمارسون هذه الخطيئة.

اتباع الشهوات فى الروايات الإسلامية:

لقـد أولت الأحاديث والروايات الإسـلامية هـذه المسألـة اهتماماً كبيراً حيث نجد أنّ الكثير من المصادر الروائية تشـير إلى عواقب هذا الفعل الشـنيع وتحذر الناس من افرازات مثل هذه الممارسات الخطرة على الصـعيد الدنيوى والاخروى بحيث يجد القارىء نفسه متأثراً بشدة من عمق مدلول هذه الروايات الشـريفة، فهى تقرر أنّ التلوث بالشهوات سواءً بمفهومها العام أو الخاص يعد من الموانع الأساسية الّتى تصد الإنسان عن سـلوك طريق السعادة والكمال، وكذلك من الأسباب المهمة لاشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمعات البشرية، وفيما يلى نسـتعرض بعض هـذه الروايات والأحاديث الشـريفة: ۱- ورد عن النـبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أنّه قـال: «مَـا تَحْتَ ظِلِّ السَّمـاءِ مِن الَه يُعبَـدُ مِنْ دُونِ اللّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۰ اعْظَمُ عِنْـدَ اللّهِ مِنْ هَوىً مُتَّبع» «۱». وبهذا يتضح أنّ اتباع الشهوة وهوى النفس يُعَـدُّ من أخطر العوامل الّتى تقود الإنسان نحو منزلقات الخطيئة والانحطاط الأخلاقى. ۲- ويقول الإمام على عليه السلام

«الشَّهَوَاتُ سُمُومٌ قَاتِلاتٌ» «۲» (حيث تقتل وتدمر شخصية الإنسان وايمانه ومروته). ۳- وجاء فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ مَصائِدُ الشَّيْطانِ» «۳» (حيث يصطاد الشيطان أفراد البشر بهذه الوسيلة بكلّ زمان ومكان وفى جميع سنوات العمر). ۴- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام قوله «امْنَعْ نَفْسَكَ مِنَ الشَّهَواتِ تَسْلَمْ مِنَ الآفاتِ» «۴». ۵- وجاء فى حديث آخر عن الإمام «تَرْكُ الشَّهَوَاتِ افْضَلُ عِبَادَةٍ وَاجْمَلُ عَادَةٍ» «۵». ۶- يقول الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ اذا غَضِبَ وَاذا رَغِبَ وَاذَا رَهِبَ وَاذا اشْتَهى حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ» «۶». ۷- يقول الإمام على عليه السلام فى حديث آخر «ضَادُّوا الشَّهْوَةَ مُضادَّةَ الضِّدِ ضِدَّهُ وَحَارِبُوهَا مُحَارِبَةَ الْعَدُوِّ العَدُوَ» «۷». وهذا الكلام يقرر بمنتهى الصراحة هذه الحقيقة وهى أن اتباع الشهوة يقع فى الطريق المقابل للسعادة والكمال الإنسانى.

عواقب اتباع الشهوة فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام:

اما بالنسبة إلى عواقب اتباع الشهوات والأهواء الشيطانية فقد وردت تعبيرات عميقة للأحاديث الإسلامية ونحن نكتفى فى هذا المجال ببعض ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: ۱- يقول أميرالمؤمنين على عليه السلام «اهْجُرُوا الشَّهَوَاتِ فَانَّهَا تَقودُكُمْ الى رُكُوبِ الذُّنُوبِ وَالتَّهَجُّمِ عَلَى السَّيئاتِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر نجد أنّ هذه المسألة تشتد لعاقبة اتباع الشهوات أنّ الإنسان يخرج من الدين والايمان كلياً فتقول الرواية «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ تُفْسِدُ الدِّينَ» «۲». ۳- ويقول عليه السلام أيضاً: «طَاعَةُ الْهَوى تُفْسِدُ الْعَقلَ» «۳». ۴- «الْجَاهِلُ عَبْدُ شَهْوَتِهِ» «۴» يعنى إن الإنسان الجاهل يكون كالعبد الذليل المطيع لشهواته ونوازعه الرخيصة فلا اختيار له ولا حرية فى مقابلها. ۵- وفى حديث آخر «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسيرٌ لَايَنْفَكُّ اسْرُهُ» «۵» ۶- ويُقرر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عاقبة اتباع الشهوة وانها تمثل الفضيحة والعار على صاحبها «حَلاوَةُ الشَّهْوَةِ يُنَغِّصُهَا عارُ الْفَضيحَةِ» «۶». ۷- وفى حديث آخر يقرر الإمام عليه السلام أنّ الشهوة هى مفتاح جميع الشرور «سَبَبُ الشَّرِّ غَلَبَةُ الشَّهْوَةِ» «۷». ونظراً إلى أنّ كلمة «الشر» وردت بالألف واللام للجنس وذكرت بشكل مطلق فانها تدلّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۲ على العموم وأنّ اتباع الشهوة يمثل منبعاً لجميع الشرور وأنواع الشقاء. ۸- ويشير الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديث آخر إلى هذه الحقيقة وهى أنّ غلبة الأهواء والشهوات على الإنسان تفضى إلى إيصاد سبيل السعادة والهدى أمام الإنسان ويقول «كَيْفَ يَسْتَطيعُ الهُدى مَنْ يَغلِبُه الهَوى «۱». ۹- يقول هذا الإمام فى حديث آخر مشيراً إلى أنّ غلبة الشهوات يؤدى إلى ضعف شخصية الإنسان فيقول «مَنْ زَادَت شَهْوَتُهُ قَلَّتْ مُرُوّتُهُ» «۲». ۱۰- وفى حديث آخر يبين الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهى أن طريق الجنّة يقع فى الجهة المقابلة لاتباع الشهوة فيقول «مَن اشْتَاقَ الَى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ» «۳». ۱۱- وفى رواية اخرى يُقرر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة، وهى أنّ الحكمة تتقاطع دائماً مع الشهوة فى قلب الإنسان ويقول «لا تَسْكُن الْحِكْمَةَ قَلْباً مَعَ شَهْوَةٍ» «۴».

النتائج الوخيمة لاتباع الشهوة:

اشارة

ومن خلال الأبحاث السابقة اتضح بأن «الشهوة» لها مفهوم عام وواسع بحيث يشمل كلّ رغبة وميل نفسانى يتيح للإنسان اللّذة، وبهذا لا تختص بالشهوة الجنسية رغم انها أحياناً وردت بمعنى الشهوه الجنسية بالخصوص. وقد ورد هذا المفهوم فى القرآن الكريم فى أحد عشر مورداً بالمفهوم العام، ولكن يستفاد المفهوم الخاص فى موردين، وأما فى الروايات الإسلامية وكلمات علماء الأخلاق فقد وردت هذه الكلمة فى الأغلب بمفهومها العام، وفى مقابل مفردة «العفة» الّتى تعنى الجام النفس وغض الطرف عن اللذائذ والذنوب. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۳ وقد ورد هذا المفهوم فى النصوص الدينية فى الأغلب بمعناه السلبى، ولكن أحياناً ورد بمعناه

الإيجابى من قبيل قوله تعالى مخاطباً لأهل الجنّة «... وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكَمْ ...» «۱» أو يقول فى مكان آخر «... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ا لْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ا لْأَعْيُنُ ...» «۲». وعلى أى حـال فـإنّ هـذه المفردهٔ وردت فى الأـغلب بمعناه السـلبى والّـذى يـدلّ على الافراط فى اتباع الأهواء والنوازع النفسانيهٔ وغلبهٔ الميول المخربهٔ والمفضيهٔ إلى الوقوع فى الخطيئهٔ والمعصيهٔ. وهكذا نجد أنّ هذه المفردهٔ ومشتقاتها قد وردت فى ثلاثـهٔ عشـر مورداً فى القرآن الكريم، سـتهٔ موارد منهـا تحمل المفهوم الإيجابى عن هـذه المفردهٔ، وسـبعهٔ اخرى تحمل فى مضـمونها المعنى السـلبى. وعلى أى حال فإنّ «الشـهوهٔ» بأى معنىً كانت إذا قصد منها المفهوم الخاصّ فإنّها تستبطن الأفراط فى اشباع الشـهوهٔ وبالتالى يترتب عليها الآثار المخربهٔ والنتائج الوخيمهٔ المترتبهٔ على هذا السـلوك المفرط فى طلب اللّذهٔ، وقد مرّت الإشارهٔ إلى هـذه العواقب الوخيمـهٔ فى الروايـات والأحـاديث المـذكورهٔ آنفـاً، ولابـدّ من الاذعـان إلى أنّ مسـيرهٔ التاريـخ مملوءهٔ من هـذه النتائج والعواقب الوخيمهٔ للأفراط فى اشباع الشهوات ويمكننا الإشارهٔ إلى هذه العواقب بشكل مختصر فى ما يلى:

۱- التلوث بالذنب

إن طلب اللّـذهٔ وعبـادهٔ الشـهوهٔ يسوق الإنسـان باتجاه منزلقات الإثم وارتكاب أنواع الـذنوب، وفى الحقيقـهٔ انه يعـد المصـدر الأساس للـذنب ومعصـيهٔ اللّه تعالى لأن الشـهوات إذا تغلبت على الإنسان فبإمكانها أن تعمى وتصم الإنسان عن رؤيـهٔ المخاطر ويكون مصداقاً للحديث النبوى الشـريف حُبُّك للشَّىء يُعمى ويُصم» «۳» وبـذلك تنقلب المفاهيم والحقائق الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۴ لدى العقل فيصـبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً. ولهـذا السـبب بالـذات رأينا فى الروايات السابقهٔ الواردهٔ عن أميرالمؤمنين عليه السـلام (الروايهٔ الثامنهٔ) أنّ الإمام عليه السـلام يصـرح متسائلًا «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الهُدى مَنْ يَغلِبُه الهَوى «۱». ويشـير الإمام عليه السلام فى الحديث العاشـر أيضاً إلى هذه الحقيقهٔ وهى أنّ اتباع الشهوهٔ يفسد شخصيهٔ الإنسان ويضعف مروئته، وكذلك قرأنا قوله فى الحديث التاسع أنّ اتبـاع الشـهوات بمثابـهٔ عبـادهٔ الوثن وبإمكانه أن يحطم إيمان الفرد ويتلف دينه، هـذا وقـد اورد المفسّـرون وأرباب الحـديث فى ذيل الآيات ۱۶ و ۱۷ من سورهٔ الحشـر قصهٔ العابد من بنى إسرائيل والذى يدعى «برصيصا» الّذى يُعَدُ شاهداً حيّاً على هذا المدعى ولا بأس من استعراض هذه القصهٔ النافعهٔ رغم انها قد وردت فى الكثير من الكتب المعروفهٔ حيث نقل بعض المفسّرين أنّ رجلًا من بنى إسرائيل يدعى «برصـيصا» قد عبد اللّه زماناً من الدهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرؤون على يديه، وانه أُتى بامرأهٔ قد جُنّت وكـان لها أخوهٔ فأتوه بها فكانت عنـده، فلم يزل به الشـيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلما اسـتبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذهب الشـيطان حتّى لقى أحـد اخوتها فأخبره بالّـذى فعل الراهب وانه دفنها فى مكان كـذا، ثمّ أتى بقيـهٔ أخوتها، وهكـذا انتشـر الخبر فساروا إليه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالّذى فعل، فأمر به فصـلب، فلمّا رفع على خشبهٔ تمثل له الشيطان فقال: أنا الّذى ألقيت فى قلوب أهلها، وأنا الّذى أوقعتك فى هذا، فأطعنى فيما أقول أخلصك ممّا أنت فيه، قال: نعم. قال: اسـجد لى سجدهٔ واحدهٔ. فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالهٔ، فقال: اكتفى منك بالإيماء، فأومى له بالسـجود فكفر باللّه وقتل. فهو قوله تعالى: (كمثل الشـيطان إذ قال للإنسان اكفر ...». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۵ نعم هكذا هو مصير من ابتلى بوسوسهٔ الشيطان وسار فى خطّه.

۲- فساد العقل

إن اتبـاع الشـهوات والأـهواء النفسانيـهٔ يُلقى على عقل الإنسان وفكره حجاباً قائماً يمنعه من التمييز بين الحقّ والباطل، وأكثر من ذلك حيث يقلب الحقّ فى نظره إلى باطل ويجعل الباطل حقّاً، وقد قرأنا فى الروايات السابقهٔ قوله عليه السلام «طَاعَهُ الهَوى تُفْسِدُ الْعَقلَ» «۱» ولهذا السبب فإنّ الكثير من طلاب الشهوهٔ واتباع الهوى بعدما يرتكبون الممارسات القبيحهٔ وتهدأ فى باطنهم سورهٔ الشهوهٔ وتخمد نار الهوى فإنّهم يعيشون حالـهٔ الندم الشديد على ما صدر منهم وأحياناً يتعجبون من أنفسـهم على الحماقهٔ الّتى ارتكبوها. وفى هذا الصدد

نقرأ قول أميرالمؤمنين عليه السلام «اذا ابْصَرَتِ الْعَينُ الشَّهْوَةَ عَمِىَ الْقَلْبُ عَنْ العَاقِبَةِ» «۲».

۳– تحقير شخصية الإنسان الاجتماعية

إن طلب الإنسان على اللّذة من شأنه أن يهدم شخصية الإنسان ويحطم كيانه ومكانته الاجتماعية ويسوقه إلى هاوية الذلّة والمسكنة، لأن مثل هذا الإنسان يسعى فى تحقيق رغبته وارضاء شهوته إلى تحطيم الاطر الاجتماعية والثقافية السائدة فى المجتمع ويرتكب الحماقات الّتى تفضى إلى أن يكون مهاناً وحقيراً فى أنظار الناس، ومن البديهى أنّ الإنسان الّذى يعيش احترام الذات والمروءة فإنه يشعر بنفسه على مفترق طرق عند اشتداد النوازع والشهوات، فأما أن يرضخ لمتطلبات الشهوة ويذعن لتحديات الهوى، أو يحتفظ باحترامه لذاته وكيانه الاجتماعى بين الناس، ومن العسير غالباً الجمع بين هذين الاتجاهين. وفى حديث ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «زيَادَةُ الشَّهْوَةِ تُزرى بِالْمُرُوَّةِ» «۳».

۴– اسر النفس

وأحد النتائج الوخيمة لاتباع الشهوات والأهواء هو أنّ الإنسان يقع اسيراً لنوازع النفس ومقيداً بقيود الشهوة، فالإنسان الشهوانى نجده يرزح تحت اغلال الشهوات إلى درجة أنّ الابتعاد عنها وكسر هذه القيود يضحى بالنسبة له أمراً قد يصل إلى درجة المحال أحياناً، والمثال الواضح على هذه الحقيقة هو ما نراه من الحياة التعيسة والذليلة للمدمنين على المواد المخدرة، فإنّهم فى ظاهر الحال أحرار، ولكنهم فى الواقع أسرى العادة والادمان الناشىء من أتباعهم لدواعى الشهوه فيعيشون حالة الأسر ويرزحون تحت قيود المواد المخدرة بحيث تمنعهم من أى حركة إيجابية ونافعة لأنفسهم ومجتمعهم وتطوقهم بأطواق حديدية تمنعهم عن أى انفلات ونجاة من هذا السجن المظلم، وخاصة إذا كان الهوى لدى الإنسان بمثابة أنواع من العشق الجنسى والشهوة الرخيصة للجنس الآخر، فحينئذٍ يصل الإنسان فى عبودية الشهوة إلى الحدّ الأقصى يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد: «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسيرٌ لا يَنفَّكُ اسْرُهُ» «۱». وفى حديث آخر يقول هذا الإمام عليه السلام: «وَكَمْ مِنْ عَقْل اسيرٌ تَحتَ هَوى أميرٍ» «۲». وأيضاً ورد فى حديث آخر أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ تَستَرِقُ الْجَهُولُ» «۳».

۵– الفضيحة والعار

الفضيحة الاجتماعية هى أحد نتائج وافرازات الشهوة والرضوخ تحت مطاليبها الرخيصة، وتاريخ البشرية مفعم بنماذج من حياة الشخصيات الممتازة والّتى لها رصيد اجتماعى وافر ولكنهم وقعوا تحت تحديات الشهوة ومطاليب الهوى فافضى بهم الحال إلى الفضيحة والعار. وقد ورد فى هذا الصدد الكثير من النصوص الدينية والأدبية فى تراثنا الإسلامى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۷ والشعبى والّتى توضح هذه العلاقة بين اتباع الشهوة وبين الفضيحة والمذلة والمهانة الّتى تصيب هذا الإنسان المنحرف كما نقرأ ذلك فى قصة يوسف وزوجة عزيز مصر وكيف أنّ زوجة العزيز قد أدّى بها الأمر إلى الفضيحة والخزى رغم مقامها الشامخ لدى المجتمع المصرى وكما يقول الشاعر: انَ الْهَوى هُوَ الهَوانِ قُلِبَ اسمُهُ فَاذا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوانا «۱»

عوامل وأسباب عبادة الشهوة:

اشارة

سبق وقلنا فی البحوث السابقهٔ، أنّ علاج المفاسد الأخلاقیهٔ یجب أن یبدأ من أسباب العلل والجذور، وتقدّم أنّ علماء الأخلاق یهتمون اهتماماً کبیراً فی مباحث هذا العلم بالبحث عن العلل والدوافع للسلوک الأخلاقی لدی الفرد، ولهذا السبب لابدّ من التطرق إلی العوامل والأسباب المؤدیهٔ إلی أن یسلک الإنسان طریق عبادهٔ الشهوهٔ. إن الرغبات والمیول النفسانیهٔ والّتی یعبر عنها بالشهوات وخاصّهٔ الشهوهٔ الجنسیهٔ أمر طبیعی وموهبهٔ الهیهٔ ومن عوامل حرکهٔ الإنسان نحو الکمال والتقدّم فی حرکهٔ الحیاهٔ والمجتمع، ولهذا لا یمکن إزالتها نهائیاً من واقع الإنسان ولا یصحّ کبتها والسعی إلی تهمیشها والغائها، والتحرّک فی سبیل ارضاء هذه الشهوات بالمستوی المطلوب وفی حد الإعتدال لیس فقط لا یوجد أیَّ مشکلهٔ فی حرکهٔ الإنسان بل یُعد أحد العوامل الّتی توجب للإنسان التکامل والرقی علی المستوی التربوی والاجتماعی. وامّا المفاسد الأخلاقیهٔ المترتبهٔ علی اشباع هذه الشهوات فتکمن فی طغیان الشهوهٔ وخروجها عن موازین العقل والاعتدال فی ارضائها. والآن لابدّ من النظر فی العوامل الّتی تسبب خروج هذه الرغبات والمیول الباطنیهٔ من سیطرهٔ العقل بحیث تشکل للإنسان قوّهٔ مخربهٔ وتکون من أدوات الانحراف، وهذه العوامل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۸ المؤثرهٔ فی ازدیاد ظاهرهٔ الانحراف فی سلوک الإنسان الأخلاقی هی کما یلی:

۱- ضعف الإیمان

إن ضعف الإیمان هو العلّهٔ الأصلیهٔ لتغافل الإنسان عن الأوامر والتشریعات الإلهیهٔ، فلو أنّ الإنسان کان یعیش بوجود اللَّه دائماً فی واقعه وقلبه ویراه حاضراً وناظراً إلی سلوکیاته وأفعاله، ویری محکمهٔ العدل الإلهیهٔ یوم القیامهٔ بعین البصیرهٔ فإنه لا یمکن أن یتجرأ علی کسر طوق الحدود الإلهیهٔ ویتجاوز علی التشریعات الدینیهٔ ویتلوث بالشهوات والمفاسد الأخلاقیهٔ. وهذا المعنی هو البرهان الإلهی الّذی رافق یوسف فی أحلک الظروف وانقذه من التورط فی الإثم والمعصیهٔ الّتی توفرت جمیع متقضیات ارتکابها وارتفعت جمیع الموانع لممارستها مع امرأهٔ العزیز. فمع ضعف الإیمان وضعف التوجه إلی المبدأ والمعاد تتوفر حینئذٍ الأرضیهٔ الکافیهٔ لطغیان الشهوات بحیث یضحی الإنسان کالوحش الّذی خرج لتوّه من القفص، فلا یری أمامه أی رادع ومانع حیث یهجم علی کلّ شخص ویفترس کلّ ما یجده فی طریقه من الأحیاء. وهنا نلقی نظرهٔ فاحصهٔ علی ما ورد فی الحدیث الشریف الّذی قرأناه فیما سبق «مَنِ اشْتَاقَ الَی الجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهواتِ» «۱». أحیاناً یتحرک الإنسان لاشباع الشهوهٔ والتحرر من قیود الدین والأخلاق إلی کسر سد الإیمان، وفی هذا یقول القرآن الکریم «بَلْ یُرِیدُ الإِنسانُ لِیَفْجُرَ امَامَهُ- یَسْئَلُ ایَّانَ یَوْمُ القِیامَةِ» «۲»؛ الإنسان هنا یرید أن یتحرر من القیود المعنویهٔ لیمارس الخطایا بدون خوف من یوم القیامهٔ، ولهذا یسأل سؤال انکار وتردید.

۲- عدم الاهتمام بالکرامهٔ الاجتماعیهٔ والشخصیهٔ الإنسانیهٔ

إن عدم اهتمام البعض بالکرامهٔ الاجتماعیهٔ وعدم اهتمامهم بشخصیتهم الإنسانیهٔ هو أحد العوامل الّتی تسبب للإنسان التلوث بأنواع الخطایا والتورط فی وحل الشهوات، فی حین أنّ احترام الإنسان لنفسه ولشخصیته الإنسانیهٔ وحیثیته الاجتماعیهٔ بإمکانه أن یقف حاجزاً ورادعاً عن ممارسهٔ الخطیئهٔ وطغیان الشهوهٔ حتّی عُدَّ من عدم الإیمان باللَّه والآخرهٔ. ولهذا السبب نجد أنّ الأشخاص الّذین یتمتعون بمکانهٔ اجتماعیهٔ فی المجتمعات غیر الدینیهٔ لا یستسلمون لطغیان الشهوهٔ بسهولهٔ ولا یقعون ضحیهٔ الأهواء والنوازع الرخیصهٔ وخاصهً التحلّل الجنسی أو غریزهٔ الغذاء واشباع البطن، لأن مکانتهم الاجتماعیهٔ وسمعتهم وماء وجههم یقف سداً قویاً أمام طغیان هذه الشهوات، وعلیه فإنّ من یستسلم لنداء الشهوات ویرضخ لتحدیاتها هم فقط الأشخاص الّذین یعیشون الحقارهٔ وضعف الشخصیهٔ والدناءهٔ.

۳- الغفلهٔ والجهل

وأحد العوامل الاخرى للتلوث بهذه الرذيلة الأخلاقية هو الغفلة والجهل عن معطيات اتباع الشهوة وتأثيراتها السلبية فى حركة الإنسان والحياة، لأن أكثر الرذائل الأخلاقية تترتب عليها آثار سلبية فى دائرة السلامة البدنية والصحية، الشخص الّذى يُفرط فى الطعام ويعيش حالة النهم إلى الغذاء واشباع البطن فإنه يبتلى بأنواع الأمراض البدنية، وكذلك الشخص الّذى يفرط فى الغريزة الجنسية فإنه يبتلى بضعف القوى البدنية ويورثه هذا السلوك تدميراً لشبكة الأعصاب ويورثه قصر العمر، وبالتالى يعرض سلامته الروحية والجسمية إلى الارباك والخلل. ولهذا نجد كثيراً من الأشخاص فى المجتمعات غير الدينية يلتزمون فى حياتهم بالموازين الصحية ويقيدون انفسهم برعاية الاعتدال بالأكل والجنس، لأن الأطباء يوصون كثيراً فى رعاية هذه الامور وينبهون الناس إلى نتائج الأفراط فى إشباع هذه الشهوات الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۰ وعواقبها الوخيمة، وكذلك فإنّ المشكلات الاجتماعية الناشئة من اتباع الشهوات غير قابلة للانكار، فمن المعلوم أنّ افراط البعض فى طلب التنوع فى الأطعمة والاكثار من الغذاء هو السبب فى أن يعيش البعض الآخر من الناس حالة الجوع وقلّة الغذاء، وهكذا الحال فى التحلل الأخلاقى فى المسائل الجنسية حيث يسبب القلق والاضطراب لدى أفراد الاسرة، وما أكثر ما يتسبب فى سريان التلوث بالخطيئة إلى داخل الاسرة الواحدة. وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ إنسان يلتفت جيداً إلى هذه الامور فسوف يحصل لديه العلم اليقينى بضرورة تقييد هذه الشهوات وضبطها من الانفلات والتحلل.

۴- المعاشرة مع رفاق السوء

ومن العوامل الاخرى للانحراف فى اشباع الشهوات هو العشرة مع رفاق السوء والمحيط الملوث وادوات الأعلام الفاسد وأمثال ذلك، فإنّ الغالب على رفاق السوء أنّهم يدفعون من يعاشرهم إلى ارتكاب المحرمات والتلوث بالذنوب من خلال تعليمهم على الطرق المتنوعة لاشباع الشهوات بطرق ممنوعة بحيث يمكن القول أنّ أهم أسباب التلوث بالخطيئة والإنحراف فى اشباع الشهوة هو الاختلاط مع الملوثين والمنحرفين. وهكذا بالنسبة إلى أدوات الأعلام الفاسد والمحيط الاجتماعى الملوث تعتبر من العوامل المهمة للتلوث والإنحراف، وفى هذا المجال تحدّثنا فى الجزء الأوّل عن «الأرضية المساعدة للفساد الأخلاقى) بشكل وافر وذكرنا بشكل مفصل أنّ العشرة والاختلاط مع الملوثين لا تفسد أخلاق الإنسان فحسب، بل قد تصل به إلى حدّ الكفر فى دائرة العقيدة أيضاً، ويتحدّث القرآن الكريم عن بعض أهل النار شارحاً لحالهم «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» «۱». وهكذا نرى أنّ البيئة الفاسدة وعنصر التربية وما يقوم به الوالدان من أساليب خاطئة فى مجال تربية الطفل بسبب ممارستهم للذنوب وإنحرافهم عن الحقّ تعتبر من العوامل المؤثرة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۱ فى تلوث الإنسان بظاهرة الإنحراف وعبادة الشهوة، ولهذا نرى أنّ أغلب الأشخاص الّذين كانوا يعيشون الأمان والطهر فى حياتهم عندما يلج فى مثل هذه البيئة الفاسدة والمحيط المنحرف سوف يتلوثون بالخطيئة ويفقدون إيمانهم السابق ويغرقون فى بحر الذنوب والمفاسد الأخلاقية. وبما إننا بحثنا هذا المطلب فى الجزء الأوّل فى موضوع «كليات المسائل الأخلاقية» بشكل مفصل، فلذلك نكتفى بهذا المقدار من الإشارة إلى هذا المطلب المهم.

طرق علاج اتباع الشهوات:

اشارة

إن الطرق الكفيلة بعلاج المفاسد الأخلاقية تكاد تكون متشابهه فى الاصول فى جميع الموارد، وتتلخص هذه الطرق بنحوين: علمى وعملى.

ألف) الطريق العلمى

والمراد من الطريق العلمى هو أن الإنسان يفكر ويتدبر بالنتائج والآثار السلبية لطلب اللّذة واشباع الشهوة ويرى كيف إن الإنسان المستسلم لشهواته يعيش الذلّة والأسر وإنهزام الشخصية والشعور بالدونية والحقارة والابتعاد عن اللَّه تعالى، وهذا المعنى نجده واضحاً على سلوك اتباع الشهوة وطلاب اللّذة الرخيصة وأنّهم كيف يعيشون الضعف والوهن فى شخصيتهم الإنسانية وكرامتهم الاجتماعية. وعلى هذا الأساس فإنّ التأمل فى هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية وكذلك التفكر فى حال وسيرة «اولياء اللَّه» واتباعهم المخلصين وكيف أنّهم وصلوا مقامات سامية من التكامل الإنسانى والأخلاقى بسبب محاربتهم للشهوات وامتناعهم عن سلوك طريق الخطيئة وصمودهم أمام تحديات الشهوة، مضافاً إلى ذلك فإنّ تقوية أركان العقل ودعائم الإيمان فى قلب الإنسان يجعله قادراً على كبح جماع شهواته وغرائزه، وفى هذا المجال قال أميرالمؤمنين عليه السلام «مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ استِهَانَ بِالشَّهَوَاتِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۲ وفى حديث له عليه السلام «مَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ ظَهَرَ عَقْلُهُ» «۱». وكذلك قال عليه السلام «كُلَّمَا قَوِيَتِ الْحِكْمَةُ ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ» «۲». وفى حديث آخر يقول عليه السلام «اذْكُرْ مَعَ كُلِّ لَذَّةٍ زَوَالَهَا وَمَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ انْتِقَالَهَا وَمَعَ كُلِّ بليَّةٍ كَشْفَها، فَانَّ ذَلِكَ ابْقى لِلنِّعمَةِ، وَانْفى لِلشَّهْوةِ، وَاذْهَبُ لِلبَطَرِ، وَاقرَبُ الَى الْفَرَجِ وَاجْدَرُ بِكَشفِ الغُمَّةِ وَدَرْك الْمَأمُولِ» «۳». وعليه فإنّ التفكر فى العاقبة السيئة والآثار المخربة لاتباع الشهوات بإمكانه أنّ يصد الإنسان عن سلوك هذا الطريق، ولذلك نجد أنّ الأنبياء والقادة الإلهيين بذلوا جهوداً كبيرة فى هذا السبيل ليخلصوا الناس من التورط فى الخطايا والذنوب وينقذوهم من أسر الشهوات والأهواء. وفى حديث شريف عن رسول اللَّه يقول «خَمْسٌ انْ ادْرَكْتَمُوهُنَّ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِى قَوم قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوهَا، الّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالاوَجَاعُ الَّتى لَمْ تَكُنْ فِى اسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوُا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكيَالَ وَالْميزانَ الّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلطانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكاةَ الَّا مُنِعُوا الْمَطَرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهَائِمُ لمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ الّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِمْ عَدُوَّهُم وَاخَذُوا بِعضَ مَا فِى ايْدِيهِمْ، وَلَمْ يَحْكُمُوا بِغَيرِ مَا انْزَلَ اللَّهُ الّا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بأسَهُمْ بَيْنَهُمْ» «۴». ولا شكّ أنّ التأمل والتدبر فى هذه المعطيات والنتائج الخطيرة لها تأثير مستمر أو مؤقت فى منع الإنسان عن ممارسة الخطيئة لارتكاب الذنب.

ب) الطريق العملى

ومن جهة اخرى فإنّ الطريق العملى لعلاج حالة «عبادة الشهوة» له وجوه وانحاء مختلفة منها: ۱- إن أفضل الطرق العملية للنجاة من مستنقع الشهوة هو الاشباع الصحيح للغرائز البدنية والرغبات الجنسية بالخصوص، لأنّه إذا تم اشباع هذه الرغبات الباطنية والميول البدنية من طرق سليمة وبأدوات صحيحة فإنّ بإمكانها أن تنقذ الإنسان من النتائج السلبية والمخربة المترتبة على اتباع الشهوات، وبعبارة اخرى انه لا- ينبغى للإنسان كبت هذه الغرائز والرغبات والتغافل عن ارضائها بل يجب أن يسير بها المسار الصحيح والبنّاء لتكون مفيدة ونافعة فى حركة الحياة، وفى غير هذه الصورة يمكنها أن تتبدل إلى سيل مدمر ومخرب يهلك الحرث والنسل ولا يبقى للإنسان أى أثر من آثار الخير والصلاح. ولهذا السبب نرى أنّ الإسلام لم يهتم بالتسلية والترفية السليم والمعتدل فحسب بل عمل على حث الناس وترغيبهم فى هذا الطريق لارضاء الغرائز، ومن ذلك ماورد فى خطبة معروفة للإمام الجواد الّتى قرأها عند عقد زواجه حيث قال «امّا بَعْدُ فَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْانَام انْ اغْناهُم بِالْحَلالِ عَنِ الْحَرام» «۱». وفى هذا الحديث المعروف هناك إشارة إلى هذا المعنى أيضاً حيث تقول «لِلْمُؤمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ، فَسَاعَةٌ يُنَاجِى فيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمَّ مَعَاشَهُ، وَساعَةٌ يُخَلّى بَيْنَ نَفْسِهِ وَبينَ لَذَّتِهَا فيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ» «۲». ۲- ومن الطرق الاخرى للنجاة من قيود الشهوات هو أن يضع الإنسان لنفسه برنامجاً دقيقاً لحياته، لأنّه كلما سعى لبرمجة أوقاته فى اليوم والليلة «حتّى لو كان البرنامج يتضمّن جانب الترفية والرياضة البدنية» فإنه لا يكاد يجد برنامج للإنسياق وراء طلب اللّذة وفراغاً كافياً لسلوك طريق الشهوة. ۳- ومن العناصر الاخرى لعلاج هذه الظاهرة أو الوقاية منها هو إزالة عوامل التلوث

الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۴ بالخطيئة، لأن إمكانية التلوث بالشهوات فى البيئة الملوثة يكون أكثر، أى لو كانت أسباب المعصية متوفرة وطرق الإنحراف مفتوحة ووجود الحرية النسبية فى ارتكاب الذنوب واتباع الشهوات فإنّ النجاة من التلوث بالخطيئة ولا سيّما للشباب الّذين لا يمتلكون من المعرفة الدينية إلّاالقليل سيكون أمراً عسيراً للغاية. ۴- احياء الشخصية المعنوية والإنسانية لأفراد المجتمع يعد من الطرق المهمة للعلاج أو الوقاية من التلوث بالشهوات، لأنّه عندما يدرك الإنسان قيمة وجوده واعتباره وشخصيته ويعلم بانه يمثل عصارة الخلقة والغاية العليا بعالم الكائنات وخليفة اللَّه فى الأرض فلا يبيع نفسه بسهولة ولا يسلمها إلى عناصر الشهوة وقوى الإنحراف. يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ» «۱» وفى حديث آخر يقول عليه السلام «مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْنَاهُ صَانَهُ عَن دَنَائَةِ شَهْوَتِهِ ...» «۲». وآخر ما يقال فى هذا المجال هو انه لابدّ من الاهتمام بالطريق العملى ليس للتصدّى إلى الشهوات فحسب بل فى جميع موارد مكافحة المفاسد الأخلاقية لدى الفرد والمجتمع، بمعنى انه كلّما سلك الإنسان طريق مكافحة أهوائه الفاسدة وأخلاقه المنحرفة وسار فى الطريق القويم فإنّ هذه القوى والعناصر السلبية ستخف وستندثر فى وجوده ونفسه وسوف ينتقل الإنسان فى هذا السلوك إلى أن يعيش الحالة النفسية السليمة، ومن هذه الحالة ينتقل إلى العادة، ومن العادة ينتقل إلى الملكة حيث تتحول هذه الحالة والعادة إلى ملكة راسخة فى نفسه وتكون بمثابة الطبع الكامل له، وعلى سبيل المثال إذا تحرّك الإنسان البخيل فى علاج هذا المرض الأخلاقى نحو البذل والعطاء فى دائرة الفعل والعمل، فإنّ نار البخل ستضعف وتخبو تدريجياً فى باطنه إلى أن تنطفىء تماماً. فإذا تحرّك اتباع الشهوة أيضاً فى هذا الطريق وسلكوا مسلك التصدى والمقاومة أمام طغيان الشهوات، فإنّ هذه الشهوات والقوى المنحرفة الموجودة فى باطنهم ستضعف وتخبو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۵ تدريجياً ويحل بدلها عنصر العقيدة ويعيش الإنسان حينئذٍ روح الطهارة والنقاء والانفتاح على اللَّه والمعنويات السامية. وهذا المعنى نجده واضحاً بكلام أميرالمؤمنين عليه السلام «قَاوِمِ الشَّهْوَةَ بِالْقَمْعِ لَهَا تَظْفُرْ» «۱».

شهوة الأكل والجنس:

لقد أورد الأعاظم من علماء الأخلاق كالفيض الكاشانى فى «المحجّة البيضاء» والمحقّق النراقى فى «معراج السعادة» والعلّامة السيّد شبّر فى كتاب «الأخلاق» كلًا من شهوة البطن وشهوة الجنس بصورة مستقلة وبحثوهما كلًا على انفراد، وفى الحقيقة اتبعوا فى ذلك ما ورد فى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة فى هذا المجال حيث ورد الاهتمام الكبير بهاتين الغريزتين. الفيض الكاشانى يذكر فى كتابه «المحجّة البيضاء» هاتان الشهوتان ويقول: «أما بعد، فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذلّ والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتّى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما، والبطن على التحقيق مصدر الشهوات ومنبت الأدواء والآفات. إذ يتبعها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلى المنكوحات، ثمّ تتبع شهوة المطعم والمنكح شدّة الرغبة فى المال والجاه اللذين هما الوسيلة إلى التوسع فى المطعومات والمنكوحات، ثمّ يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسبات، ثمّ يتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثمّ يتداعى إلى ذلك الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثمّ يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء. وكلّ ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع وضيّق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة اللَّه ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۶ ينجر به ذلك إلى الانهماك فى الدنيا وايثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كلّ هذا التكالب على الدنيا. وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحدّ وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها» «۱». والأخطر من ذلك أنّ الأشخاص من اتباع شهوة البطن والفرج يفقدون دينهم ويتركون إيمانهم فى هذا السبيل حيث نقرأ فى ذيل الآية القرآنية «وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُواْ بَآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ» «۲». إنّ اللَّه تعالى يذم اليهود الّذين كانوا يشترون بآيات اللَّه ويبيعونها بثمن بخس، فقد كانت

هناك مجموعة من علماء اليهود وأحبارهم يقومون بتحريف آيات اللّه من أجل اشباع نهم شهواتهم لغرض دعوتهم لمجالس البذخ وموائد الترف الّتى كان يقوم بها اليهود اتجاه علمائهم، وبهذا فهم باعوا عملياً آيات اللّه بثمن بخس «ولهذا انكروا وجود ذكر النبى الّذى يظهر آخر الزمان والّذى كان ينتظره اليهود والمذكور عندهم بالتوراة». وفى الروايات الإسلامية نجد بحوثاً واسعة عن اخبار هاتين الشهوتين حيث تشير إلى بعض هذه الموارد: ۱- قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله «ثَلاثٌ اخَافُهُنَّ بَعدى عَلَى امَّتى الضَّلالَةُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ وَمُضِلّاتُ أَلْفِتَنِ وَشَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ» «۳». المقصود من الضلالة بعد المعرفة هو أن يترك الإنسان الحقّ والطريق المستقيم بسبب وساوس المنحرفين وشبهات المخالفين ويسلك سبيل الانحراف والزيغ والضلالة، وهذا المعنى موجود دائماً وفى كلّ زمان وخاصة فى زماننا هذا. والمقصود من «مضلات الفتن» هو اشكال الامتحان الإلهى والاختبار الربانى لعباده الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۷ حيث يقع الإنسان أحياناً بسبب اتباعه للشهوات والأهواء فى الخطيئة ويسقط فى الامتحان، والمراد من «شهوة البطن والفرج» هو الأفراط فى الأكل وطلب اللّذة والأفراط فى طلب اللّذة الجنسية. إن سياق الحديث الشريف يوحى لنا بهذه الحقيقة، وهى أنّ الخطر المتوجه للناس والّذى يهدد وجودهم بسبب هذه الامور الثلاثة هو خطر عميق وجدى. ۲- يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى حديث آخر «اكْثَرُ مَا تَلِجُ بِهِ امَّتى النَّارَ الْاجْوَفَانِ الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ» «۱». ۳- ويقول الإمام الباقر عليه السلام «اذا شَبَعَ البَطْنُ طَغى «۲». ۴- وأيضاً يقول هذا الإمام فى حديث آخر «مَا مِنْ شَىءٍ ابْغَضُ الَى اللَّهِ عَزَّوَجلَّ مِنْ بَطْنٍ مَمْلُوءٍ» «۳». ۵- وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا يُفْسِدُ التَّقوى الّا بِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ» «۴». ۶- وورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تَجْتَمِعُ الحِكْمَةُ وَالشَّهْوَةُ» «۵». ۷- وقال هذا الإمام عليه السلام أيضاً فى حديث آخر «مَا رَفَعَ امَرءاً كَهِمَّتِهِ وَلَا وَضَعَهُ كَشَهْوَتِهِ» «۶».

العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية

تنويه:

تقع «العفة» فى النقطة المقابلة ل «شهوة البطن والفرج» وتعتبر من أهم الفضائل الإنسانية والأخلاقية على السواء. ويقول الراغب الاصفهانى فى كتاب «المفردات» فى معنى العفة أنّها حصول حالة للنفس تمتنع بها من غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطى لذلك. ويقول صاحب مقاييس اللغة فى معنى العفة: «العفة فى الأصل تأتى لمعنيين، الأول، الاجتناب عن القبائح، والآخر قلّة الشىء، ولذا يقال للبن المتبقى فى الرضع- عُفَّة- على وزن مدّة». ويقول مؤلف كتاب «التحقيق» عن مفهوم العفة: «مادة عفّة فى الأصل بمعنى حفظ النفس من الميول والشهوات النفسانية، كما أنّ التقوى بمعنى حفظ النفس من ارتكاب الذنوب، وعلى هذا فالعفة صفة باطنية، فى حين أن التقوى ناظرة إلى الأعمال الخارجية». وقد ذكر علماء الأخلاق فى تعريف العفة انها الحدّ الوسط بين الشهوة والخمود. وماذكرنا آنفاً من معنى العفة كان فى مفهومهاالعام، لأن البعض قد أورد فى تعريف العفة النقطة المقابلة لها، أى الوقاحة وتمزيق ستار الحياء، ولهذا السبب نجد أنّ أكثر موارد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۰ استعمال مفردة «العفة» تختص للمسائل الجنسية. وعلى أى حال فإنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية أنّ العفة (بكلا المعنيين) تعد من أعظم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، ولا يمكن لأىشخص أن يسير نحو الكمال الإلهى ويسلك مسلك الانفتاح على اللّه من دون التحلى بهذه الخصلة الشريفة، ونجد فى حياتنا الدنيوية أنّ كرامة الإنسان وشخصيته وسمعته رهينة بالتحلى بهذه الفضيلة الأخلاقية. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الكريمة هذا المفهوم السامى: ۱- «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ا لْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيماهُمْ لَايَسْئلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۱». ۲- «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَا بَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». ۳- «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَا لْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمُخْلَصِينَ» «۳». ۴- «قَالَتْ فَذلِكُنَّ

الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۱ ۵- «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۱». ۶- «... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَا لْحَافِظَاتِ ...» «۲».

التفسير:

الفقير المتعطش

فى «الآيـة الاولى يتحدّث القرآن الكريم عن أفضل موارد الانفاق ويقول مخاطباً المؤمنين بأن انفاقكم يجب أن يختص بالفقراء الّذين هـاجروا من بيوتهم واوطـانهم ولم يسـتطيعوا تـأمين نفقـاتهم واحتياجـاتهم عن طريق الجهـاد فى سبيـل اللَّه أو السـفر للكسب والتجارة «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ» «۳». ثمّ يشـير إلى خصوصـية مهمة اخرى من خصوصيات هؤلاء الفقراء، وهى أنّهم لشدة تعففهم وضـبطهم لأنفسـهم يحسـبهم الناس أغنياء «يَحْسَبُهُمُ ا لْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيماهُمْ ...) «۴». أجل فإنّ هؤلاء يعيشون الضـبط الأخلاقى لنوازع النفس ولا يرسـلون السنتهم بالشكوى رغم احتياجهم الشديد، ويسلكون مسلك الأغنياء بين الناس ولكن المطلع على أحوالهم يعرف حاجتهم ومسكنتهم من سيماهم. ويبين القرآن الكريم سـمة اخرى من سـماتهم ويقول «لَايَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ...» «۵». فهؤلاء لا يطلبون قضاء حاجتهم من الآخرين مهما أمكنهم ذلك، ولو اشتد بهم الحال واضطروا إلى المسألة، فإنّهم يفضـلون اقتراض ما يحتاجونه من المال على السؤال من دون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۲ أن يكون لديهم اصـرار على الآخرين. وفى ختـام الآيـة يقول تعـالى «وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۱». أجل، فإنّ الأنفاق عملٍ إنسانى وفضـيلة أخلاقيـة وخاصـة على من يتمتع بعزّة النفس وعلو الطبع وعفة الروح. وبديهى أنّ المراد من «العفة» فى هذه الآية هى العفة فى المسائل الماليـة لا الامور الجنسـية، وقد ذكر بعض المفسّـرين فى شأن نزولها انها نزلت فى «أصـحاب الصـفة» هؤلاء كانوا جماعة يبلغ عددهم أربعمائـة نفر تقريباً من المسـلمين المهاجرين من مكّـة وضواحى المدينة الّذين لم يكن لديهم دارٌ فى المدينة ولا معارف وأقرباء فيها ولا عملٍ يتكسـبون فيه، ولكنهم فى نفس الوقت يعيشون فى غاية التعفف فى مكانٍ خاص إلى جوار مسجد النبى صلى الله عليه و آله، وكـان هؤلاـ يتحركون نحو الجهـاد فى سبيـل اللَّه متى ما أمرهم رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وكانوا يتمتعون بعزّة النفس والتعفف الشديـد بـالرغم من حـاجتهم الشديـدة ومـا يشـعرون به من جوع. وعلى أى حـال فـالقرآن الكريم ذكر هؤلاـ فى الآيـة محـل البحث بتعبيرات مختلفـة من المـدح والثناء وجعلهم اسوة لجميع المسلمين. فى «الآيـة الثانيـة والثالثة» يتحدّث القرآن الكريم عن عفّة يوسـف وطهـارة ذيله فى أحلـك الظروف الّتى توفرت فيها جميع أسـباب التورط فى الإثم والمعصـية ولكنَّ يوسف حفظ نفسه أمام تحـديات الواقع وضـغوط الحالـة واسـتعاذ باللَّه تعالى، فنجح فى هذا الامتحان الإلهى الكبير وخرج منه مرفوع الرأس، وكما يذكر القرآن الكريم واصـفاً هـذه الحالـة والحادثـة الّتى حـدثت ليوسف وامرأة العزيز فيقول: «وَرَا وَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَا بَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۳ فلم تجذب ملامح يوسف ووجهه الجميل عزيز مصـر فحسب، بل احبته زوجـة العزيز أيضاً وعشـقته بشدّة إلى درجة أن هذا العشق أثّر اثَرُهُ فى نفس هذه الامرأة وامتـد إلى أعماق قلبها، وشـيئاً فشـيئاً تعمق فى وجودها إلى درجـة انها لم تعـد تُطيق كبته، ولكن النبى يوسف الّذى كان يعيش العفة والطهـارة والتقوى كـان قـد عشق اللَّه تعـالى ولاـ غير. هـذا وقـد اسـتخدمت امرأة العزيز الشابـة الجميلـة شتّى الطرق بمختلف الوسائل للوصول إلى هـدفها، هـذه الوسائـل الّتى كـان يكفى بعضـها فى تحريـك أى شـابٍ أعزب فى عمر النبى يوسف، ولكنَّ يوسف عاش حالة الصـمود أمام تحديات الشـهوة الشديدة وفوّض نفسه وسـفينة حياته إلى ذكر اللَّه تعالى ورحمته، وإلّا لكان الغرق فى الخطيئة من

نصيبه كما تصرّح الآية الّتى تليها «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَا لْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمخْلَصِينَ» «۱». إن عبارة «من عبادنا» وكذلك «مخلصين» من العبارات العميقة المعنى والّتى وردت فى هذه الآية بعنوان اوسمة افتخار ليوسف على موقفه الشجاع هذا. ورغم أنّ يوسف كان قد اتهم من قبل زوجة عزيز مصر بالخيانة مع عفته وطهارته بحيث يمكنها أن تودى بحياته، إلّاأنّ اللَّه تعالى قد وعد المؤمنين الطاهرين بالنجاة وانقذ يوسف بواسطة شهادة طفل رضيع فى المهد ببراءته وطهارته من التهمة بصورة إعجازية. وهناك مسطورات لبعض الأفراد الجهلة والمغرضين الّذين ذكروا فى تفسير هذه الآيات أنّ المقصود بقوله «همَّ بها» هو أنّ يوسف بدوره همَّ بالمعصية ومقاربة زليخا، وكما هو المعلوم أنّ هذا المعنى لا يليق بمقام عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع سياق الآيات المذكورة أعلاه بل إن القرآن الكريم يصرّح بأنه لولا برهان اللَّه الّذى أعان يوسف فى وقت الشدّة لكان قد همَّ بها، ولكن بما إن برهان الرب حلَّ فى الوقت المناسب فإنه لم يقصد الخطيئة. وللفخر الرازى تعبير جميل فى تفسير هذه الآية حيث يقول: «وأما أنّ إبليس أقرّ بطهارته، فلأنه قال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلّاعبادك منهم المخلصين، فأقر بأنه لا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۴ يمكنه اغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: «انه من عبادنا المخلصين» فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الّذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام الفضيحة إن كانوا من اتباع دين اللَّه تعالى فليقبلوا شهادة اللَّه تعالى على طهارته وإن كانوا من اتباع إبليس فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته» «۱». «الآية الرابعة» تتحدّث عن سيرة النبى يوسف المليئة بالأحداث بعدما حصل بينه وبين امرأة العزيز ماحصل، وتشير إلى محنة اخرى وامتحان آخر للنبى يوسف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» فعندما امتد خبر وقوع هذه الحادثة ليشمل جميع بيوت المدينة وعلم الناس بقضية العشق الملتهب الّذى ألَمَّ بقلب امرأة العزيز اتجاه غلامها، فإنّ نسوة مصر اطلقن السنتهنَّ باللوم والتوبيخ لامرأة العزيز، ولكنها لما رأت ذلك أرادت إثبات براءتها فأعدت مائدة كبيرة واستضافت النسوة المعروفات ونساء الشخصيات الكبيرة فى مصر، ثمّ طلبت من يوسف أن يخرج عليهن ويدخل عليهنَّ ذلك المجلس الحافل. وعندما وقعت أعينهنَّ على الجمال العجيب ليوسف ارتبكن بشدّة وفقدن اختيارهُنّ وجرحنَّ أيديهنَّ بالسكين الّتى كانت بأيديهنّ لتقطيع الفاكهة وقلن جميعاً «حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إِنْ هذَآ إِلَّا مَلَكٌ» «۲». فعندما رأت امرأة العزيز منهن ذلك ورأت انها قد انتصرت فى هذا الموقف، توجهت إليهنّ بالخطاب وقالت «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصَّاغِرِينَ» «۳». وكان هو ثانى امتحان صعب يمر بيوسف حيث وقع بين أمرين وطريقين، فاما أن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۵ يستسلم لنوازع امرأة العزيز ويُرضى هيامها وعشقها منه، وبالتالى يعيش حالة الترف والدلال والنعمة الدنيوية، واما أن يقاوم هذه الرغبة الممنوعة ويكون مصيره السجن وتحمل أنواع الضغوط والصعوبات. ولكن يوسف ومن دون أى ترديد انتخب الطريق الثانى وسأل اللَّه تعالى أن يوفقه لذلك وقال «قَالَ رَبّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الْجَاهِلِينَ» «۱». ويتضح من سياق هذه الآية أنّ نسوة مصر اللواتى حضرن فى مجلس امرأة العزيز قد دعون يوسف إلى التسليم لامرأة العزيز والرضوخ لطلبها، فكلّ واحدة تحدثت معه بأنواع الوسوسة فأحداهنَّ تقول: ايها الشاب ألم تر الجمال الآسر لامرأة العزيز، ألست تلتذ بالجمال وممارسة العشق معها؟ والاخرى تقول: إذا لم يؤثر فى قلبك جمال هذه المرأة فلا ينبغى أن تنسى انها زوجة عزيز مصر، فلو استطعت أن تكسب قلبها فسوف يكون بإمكانك التمتع بالثروة والمقام وتمام ما تريد فى الحياة. الثالثة تحذره من أنك لو لم يؤثر فيك جمال هذه المرأة، ولم تكن تهم بمقامها ومكانتها الاجتماعية ولكنك يجب أن تعلم بأن هذه المرأة سوف تغضب عليك وتتحول إلى موجود خطر يهدد حياتك، وسوف تنتقم بنفسها وترسلك إلى قعر السجون المظلمة حيث تنسى إلى الابد. وبما أنّ الطريق الأخير الّذى يقف أمام يوسف وهو الوقوع فى السجن الموحش فإنّ يوسف طلب من اللَّه تعالى ذلك فوراً، وخاطب ربّه بأن السجن احبُ إليَّ من الوقوع بالمعصية والإثم، فانا مستعد لدخول السجن اطاعة لأمره وحفظاً لحدوده ومن أجل المحافظة على شرفى وعفتى فى مقابل طلب هؤلاء النسوة، وكان تهديد هؤلاء النسوة ليوسف بصورة جدية، وقد تمّ ذلك عملياً واُلقى يوسف فى السجن، وبذلك

انقذ نفسه وشرفه من تلوثات القصر ومفاسد المحيط حيث تذكر الآيات الّتى تلى هذه الآية أنّ ذلك السجن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۶ الموحش كان فى الحقيقة سُلّماً لنيل يوسف مراتب سامية من الكمال الإلهى والمعنوى، وأخيراً تمكن يوسف بمشيئة اللَّه أن يجلس على عرش مصر واستطاع بمحافظته على تقواه وعفته وشرفه أن ينال كلّ شىء، فى حين أنّ جميع الملوثين افتضحوا ولم ينالوا مرادهم، فكان هذا هو جزاء اللَّه تعالى وثوابه الدنيوى للشرفاء والمخلصين من عباده، ويقول القرآن الكريم فى سياق هذه الآيات فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۱».

العفة السمة الأخلاقية للمؤمن:

«الآية الخامسة» من الآيات محل البحث تتحدّث عن الصفات البارزة للمؤمنين حيث يذكرها القرآن الكريم بعبارات قصيرة ومليئة بالمعنى ضمن بيان قسم مهم من صفات المؤمنين، ويذكر صفة العفة والطهارة بأنّها إحدى الصفات والخصال الممتازة لهؤلاء المؤمنين ويقول «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۲». والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يذكر من ضمن الصفات الممتازة للمؤمنين صفة العفة بعد الصلاه والزكاة والامتناع من اللغو وحتّى انه يذكرها قبل صفة الأمانة والوفاء بالعهد أيضاً.

العفة مفتاح النجاة:

وفى (آخر آية) من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم عشرة طوائف من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۷ الرجال والنساء الّذين نالوا المغفرة من اللَّه تعالى والأجر العظيم، فتذكر الآية فى سياقها أنّ الطائفة التاسعة من هؤلاء الرجال والنساء هم الّذين يعيشون العفة والطهارة من التلوث بالذنوب والّذين حفظوا اذيالهم وشرفهم من وحل الخطيئة. وتشير الآية الكريمة إلى الطائفة العاشرة من هؤلاء فى سياق بيان أوصافهم أنّهم كثيراً ما يذكرون اللَّه تعالى ولا يصعب أن تكون هذه الصفة مرتبطة مع الصفة السابقة، وهى العفة لوجود الارتباط الوثيق بين العفة وذكر اللَّه تعالى، فتكون من نتائج التحلّى بهذه الصفات هى المغفرة الإلهية والأجر العظيم الّذى لا يعلم عظمته إلّااللَّه تعالى. وقد وردت فى النصوص الدينية إشارة اخرى إلى أحد الطرق لحفظ النفس أمام تحديات الشهوة وطغيان الغريزة الجنسية، وهو «الصوم»، فعليه يكون بين العفة والصوم ارتباط وثيق ومباشر حيث يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةُ فَلْيَتَزَوَّجُ فَانَّهُ اغَضُّ لِلْبَصَرِ وَاحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعُ فَعَلَيِهِ بِالصَّوْمِ» «۱».

العفة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية الاهتمام الشديد بالعفة حيث نشير إلى بعض ما ورد فيها: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «افْضَلُ الْعِبادةِ الْعِفافُ» «۲». ۲- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشىءٍ افْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ» «۳». ۳- وفى روايةٍ اخرى عن هذا الإمام فى تفسيره للرواية السابقة انه جاء رجل إلى الإمام عليه السلام وقال: إنى ضعيف العمل قليل الصيام ولكنى أرجو أن لا آكل إلّاحلالًا. فقال له الإمام عليه السلام: «ايُّ الإجْتَهَادِ افْضَلُ مِنْ عِفَّةِ بِطْنٍ وَفَرْجٍ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۸ ۴- ويقول الإمام على عليه السلام: «اذا أرادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيراً اعَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ» «۱». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضل فى وصف الشيعى الواقعى: «انَّمَا شِيعَةُ جَعْفَرٍ مَنْ عَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَاشْتَدَّ جَهَادَهُ وَعَمَلُ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوابهُ وَخَافَ عِقَابَهُ، فَاذَا رَأَيْتَ اولئكَ فَاولئكَ شِيعَةُ جَعْفرٍ» «۲». ۶- ويقول أميرالمؤمنين على عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوَّتِهِ، وَشُجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ انْفَتِهِ وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ» «۳».

النتیجة:

لقد تحصّل لدینا من خلال الآیات والروایات الشریفة أنّ الإسلام یهتم اهتماماً بالغاً بمسألة عبادة شهوة البطن والفرج وجعل من مسألة الغیرة علی العرض علامة الشخصیة المؤمنة وظاهرة من ظواهر سلوک الإنسان الشیعی الموالی لأهل البیت علیهم السلام، والتاریخ البشری حافلٌ بالحوادث المأساویة الّتی تمتد جذورها إلی هذین العاملین «شهوة البطن والفرج» لأن شهوة البطن لا تسمح للإنسان فی التفکیر المشروع لتحصیل الغذاء ورعایة حقوق الآخرین وسلوک طریق العدالة فی تحصیله، ولهذا السبب فإنّها تدفع الإنسان إلی أنواع الخطایا والذنوب فی سبیل ارضائها، مضافاً إلی ذلک فإنّ شهوة البطن تعدُ مصدراً وسبباً أکیداً إلی الکثیر من الأمراض الجسمیة والأخلاقیة إلی درجة أنّ هذه الغریزة تصبح بمثابة الوثن الّذی یدعو صاحبه إلی عبادته وطاعته فی جمیع سلوکیاته فی حرکة الحیاة والواقع الاجتماعی. وفی هذا المجال یقول النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی معرض حدیثه عن آخر الزمان «یَأْتِی عَلَی النّاسِ زَمانٌ بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ وَنِسَائُهُم قِبْلَتُهُمْ وَدَنَانِیرُهُمْ دِینُهُمْ، وَشَرَفُهُمْ مَتَاعُهُمْ، لا یَبْقی مِنَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۹۹ الایمَانِ الّا اسْمَهُ وَلا مِنَ الاسلام الّا رَسْمَهُ وَلا مِنَ القُرآنِ الّا دَرْسَهُ، مَسَاجِدُهُمْ مَعْمُورَةٌ مِنَ الْبَنَاءِ وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ عن الْهُدی» «۱». وقد ورد فی ذیل هذا الحدیث أنّ اللّه تعالی سوف یبتلی هؤلاء الناس بأربع بلایا: جور السلطان، وقحط الزمان، وظلم الامراء والحکّام. والفرق بین الظلم والجور «کما ورد التقابل بینها فی الکثیر من الروایات» یمکن أن یکون من جهة أنّ مفردة الجور فی الأصل تعنی الإنحراف عن طریق الحقّ، وعلیه فإنّ جور السلطان یطلق علی إنحراف سلوکیات أصحاب السلطة، فی حین أنّ الظلم یعنی عدم العدالة. وفی حدیث آخر عنه یقول «ایّاکَ وَادْمَانَ الشَّبَع فَانَّهُ یُهَیّجُ الاسْقَامَ وَیُثیرُ العِلَلَ» «۲». وروی عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «من وُقی شرّ بطنه ولسانه وفرجه فقد وُقی من جمیع البلایا» «۳».

طرق الوقایة من التحلل الأخلاقی:

اشارة

ومن أجل الوقایة من التحلل الأخلاقی وضبط الشهوات وخاصةً الشهوة الجنسیة وشهوة البطن، هناک عدّة طرق عامة وکلیة، أی ساریة فی عملیة الوقایة من جمیع المفاسد الأخلاقیة من قبیل تطهیر المحیط الاجتماعی، دور الرفاق والأصدقاء، تربیة الاسرة، العلم والمعرفة بنتائج وآثار الرذائل الأخلاقیة، المسائل الثقافیة وأمثال ذلک. وقد تحدّثنا فی هذا المجال بصوره مفصلة وکاملة فی الجزء الأوّل من هذه الدورة الأخلاقیة تحت عنوان الشرائط اللازمة لتربیة الفضائل الأخلاقیة وهناک طریق آخر خاصّ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۰ یتعلق بمسألة «العفة» فی المسائل الجنسیة وسائر الشهوات النفسانیة حیث یمکن استعراض عدّة امور للوقایة من استفحال وطغیان هذه الغریزة وضبط النفس علی مستوی السلوک الأخلاقی:

۱- الحجاب وترک الزینة أمام الأجانب

لا شکّ أنّ أحد الامور الّتی تفعّل الغریزة الجنسیة وتزید من ضراوتها هو «التعری والتزین بالنسبة للرجال والنساء» حیث یقع تأثیر أحدهما بالآخر بشدّة وخاصة بالنسبة إلی الشباب العزاب بحیث یمکن القول أنّ التلوث بالخطایا الجنسیة والإنحراف الجنسی یرتبط مباشرة بعدم الحجاب والتعری والتزین أمام الأنظار حتّی انه طبقاً لبعض الأحصائیات أنّ هناک علاقة طردیة بین زیادة واشتداد هذا العامل وبین زیادة التلوث الجنسی والتحلل الأخلاقی، مثلًا فی فصل الصیف وبسبب حرارة الجو فإنّ النساء یخففن من البستهنّ، وبهذه النسبة یتعرضن إلی التحرشات اللاأخلاقیة من قِبل الشباب، وعلی العکس من ذلک فإنّ النساء فی فصل الشتاء وبسبب الملابس

الشتویة وارتداء الثیاب الّتی توفر لهنّ الحمایة من برودة الجو فإنّ التعرض والتحرش بهنَّ یقل عن فصل الصیف، ولهذا فقد ورد التأکید فی الشریعة الإسلامیة علی الحجاب حیث یذکر القرآن الکریم فی آیات متعددة منها الآیات ۳۱ و ۶۰ من سورة النور، والآیات ۳۳ و ۵۳ و ۵۹ من سورة الأحزاب علی مسألة الحجاب ویخاطب أحیاناً النساء المؤمنات، وأحیاناً اخری نساء النبی، وثالثة یستثنی العجائز والمسنات منهنّ حیث یتضح من ذلک التکلیف الشرعی لسواهن، وعلی هذا یبین القرآن بعبارات مختلفة أهمیة هذه الوظیفة الشرعیة فی حرکة الحیاة والمجتمع الإسلامی. وبدیهی أن ترک الحجاب أی السفور والتبرج هو مقدمة للتعری والتحلل الجنسی الّذی یترتب علیه نتائج وخیمة ومفاسد کبیرة فی کلّ عصر وزمان. إن التبرج وعدم الإلتزام بالحجاب یسبب أن تتحرک بعض النسوة فی حالة منافسة ومسابقة مستمرة لابداء وعرض مکامن اجسادهن وتحریک الشبان من هذا الطریق، وهذه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۱ الظاهرة تکاد تستفحل فی هذا العصر والزمان بسبب مشاکل التحصیل العلمی وما یرافق الزواج من مشکلات اقتصادیة وارتفاع سن الزواج بحیث إن الغالبیة من أفراد المجتمع هم من العزاب، وبهذا فإنّ المخاطر والأزمات الاجتماعیة والنفسیة الّتی یعیشها الناس فی هذا الزمان هی أکثر من أی وقتٍ مضی مضافاً إلی ذلک فإنّ التبرج والسفور من الناحیة الأخلاقیة والاجتماعیة یتسبب فی ارباک العوائل علی مستوی الأمن والاستقرار ویؤدی إلی بروز الجرائم الجنسیة والأزمات العائلیة، ویؤدی أیضاً إلی ازدیاد الانفعال العصبی والأمراض النفسیة الاخری أیضاً الّتی تعد أحد افرازات ونتائج ضعف الوشائج الاسریة والروابط العائلیة وضعف قیمة شخصیة المرأة فی المجتمع.

۲- عدم اختلاط الرجل والمرأة

لاـ شکّ أنّ المجتمعات البشریة المعاصرة لاـ تتمکن من الفصل التام بین الرجل والمرأة فی حرکة الواقع الاجتماعی، ولکن یمکن توقی الاختلاط فی الموارد غیر الضروریة وبذلک یتسنّی للمجتمع التوصل إلی حفظ العفة الاجتماعیة والتقوی الجنسیة أکثر، والسبب الّذی یحتم هذ الضرورة هو کثرة المفاسد الأخلاقیة والفضائح الاجتماعیة فی مجتمعاتنا المعاصرة کما هو الملاحظ فی المجتمعات الغربیة الّتی تبیح اختلاط الذکور والأناث بصورة فاحشة.

۳- رؤیة التصاویر الخلیعة والأفلام الرخیصة

إن للافلام الخلیعة وبعض البرامج التلفزیونیة دور مؤثر وکبیر فی تحریک الغریزة الجنسیة وخاصة بین الشباب، حیث یقوم الانتهازیون والفئات المنحرفة بالتکسب والتجارة عن هذا الطریق اللامشروع ویعملون علی نشر الفحشاء والمنکر من خلال صناعة الأفلام المبتذلة أو کتابة القصص الخلیعة ونشرها بین أفراد المجتمع بالوسائل المختلفة فتنتقل عِبر الأمواج إلی شتّی بقاع المعمورة من دون أی رادعٍ ووازع شرعی أو قانونی، وبهذا یتمکنون من خلق التعقیدات النفسیة والأخلاقیة للمجتمع البشری، وأی غفلة عن الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۲ هذه السلوکیات المنحرفة تؤدی إلی السقوط الأخلاقی والحضاری للمجتمع الإنسانی. ومع غایة الأسف أنّ بعض الکتّاب وأهل العلم والمعرفة راجعوا هذه المسألة من موقع الانفعال، واستسلموا لهذه الفتنة، وسکتوا فی مقابل تحدیات الواقع المنحرف بحجّةِ أنّ مخالفة هذه الظواهر المنحرفة غیر ممکنة، أو مخافة الظهور أمام الناس بمظهر مختلف ورجعی أو مخافة الاتهام بالاصولیة والرجعیة، ولهذا فقد ترکوا التصدی لقوی الإنحراف هذه وسلّموا المجتمع الإسلامی إلی أمواج الخطر. ۱۶

عامل الغفلة

تنویه:

«الغفلـة» لهـا مفهوم واسع وشامـل بحيث تسـتوعب فى طياتهـا الجهل بشـرائط الزمان والمكان وظروف الواقع الّـذى يعيش فيه الإنسان وتشمل الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلية، وكذلك أفعال الشخص وصفاته وسلوكياته وما يظهر له من آيات الحقّ والنذر والعِبر الّتى تتزامن مع حوادث المعيشـة والوقائع الّتى تصـيب الإنسان فى حركة الحياة، والغفلة عن هذه الوقائع والحوادث وعدم اتخاذ موقف صحيح منها يمثل خطراً كبيراً يواجه سعادة الإنسان وشخصيته، هذا الخطر الّذى يمكن أن يحيط بالإنسان ويبتلعه ويهوى به فى مطاوى النسيان والعـدم، الخطر الّـذى بإمكانه أن يهـدر أتعاب الإنسان بسـنوات لذيـذة من عمره فى لحظـة واحدة. ولعلّكم سـمعتم كثيراً بأن الشـخص الفلانى الّـذى كان يمتلك ثروة طائلة قد فقدها فى لحظة من لحظات الغفلة، وهكذا حال الإنسان فى طريق السـعادة والحياة المعنوية، فيمكن أن يعيش الإنسان الغفلة فى لحظة واحدة حتّى تتحول ثروته المعنوية وملكاته الإنسانية إلى رماد وتراب. ولهذا السبب فـإنّ علماء الأخلاق قـد تحركوا فى كتاباتهم لاسـتعراض مسألـة «الغفلـة» الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۴ وما يقابلها من «التـذكر» وبحثوا أسـباب هذه الظاهرة والعوامل الّتى تؤدى إلى اسـتفحالها فى وجود الإنسان أو الطرق الكفيلة بإزالتها والحدّ من نتائجها السلبية. وبهذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لنسـتوحى من آياته الإلهية ما يسلط الضوء على هذه المسألة المهمة فى حياة الإنسان، والآيات الكريمـة الّتى تتحدّث عن ظاهرة الغفلة كالتالى: ۱- «وَلَقَـدْ ذَرَأْ نَـا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ا لْجِنّ وَالْـإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِـرُونَ بِهَـا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْـمَعُونَ بِهَـآ أوْلَئـكَ كَالْأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أوْلَئكَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۱». ۲- «وَاقْتَرَبَ الْوَعْـدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَـةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» «۲». ۳- «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَا لْعَشِىّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ا لْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۳». ۴- «إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ* أوْلَئكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» «۴» ۵- «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» «۵» ۶- «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَـةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَىّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۶». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۵ ۷- «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَـذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». ۸- «فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَهُ الدّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرّ إِذَا هُمْ يُشْـرِكُونَ» «۲». ۹- «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» «۳». ۱۰- «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ». «۴» ۱۱- «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مّنْ هذَا فَكَشَـفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ا لْيَوْمَ حَدِيدٌ». «۵» ۱۲- «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ا لْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِىَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ». «۶»

تفسير واستنتاج:

«الغفلة» المنبع الأصلى للمشكلات

«الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدّث عن أسوأ أفراد البشر وتستعرض فى طياتها فئة من الناس هم أشقى الناس جميعاً وتصفهم بعـدّة أوصـاف وتقـول «وَلَقَـدْ ذَرَأْ نَـا لِجَهَنَّمَ كَـثِيرًا مِّنَ ا لْجِنّ وَالْـإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَـا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِـرُونَ بِهَـا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَآ أوْلَئكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أوْلَئكَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۷». فى هذه الآية الشريفة نجد أنّ عنصر الغفلة يمثل العامل الأساس لشـقاء الإنسان والسـبب الأصـلى الّذى يدفع الإنسان إلى جهنم وبئس المصير، الغفلة الّتى تنشأ من ترك الإنسان بالتفكر والتدبر وعدم اسـتخدام بصيرته وعدم إصغائه لصوت الحقّ حتّى يصل به الأمر إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۶ أن يصل إلى مستوى الانعام بل اضل منها واتعس، لأن الأنعام إنّما تعيش الغفلة فى حياتها بسبب انها خلقت كذلك وعدم وجود ملكة التنبه والتعقل فى ذاتها، فى حين إن الإنسان إذا عاش الغفلة فى حياته مع وجود عوامل التنبه بأدوات التذكر والتعقل فسيكون أضل من الأنعام بالتأكيد. إن مفهوم الآية أعلاه لا يعنى أنّ اللَّه تعالى يجبر بعض الناس على سلوك طريق جهنم بل كما ورد التصـريح فى الآية نفسها أنّ أهل النار عندما

صاروا من أهل النار بسبب اختيارهم لهـذا الطريق والسلوك الشائن، لأن اللّٰه تعالى قد أعطاهم العقل ولكنهم لم يستخدموا عقولهم، وأعطاهم السمع والبصر ولكنهم لم يصحوا إلى الحقائق الإلهيـة فى آذانهم ولم يروا آيـات اللّٰه بأبصارهم، إذن فكلما يواجهونه من مشاكل دنيويـة أو اخرويـة فهو بسبب اختيارهم ومن ناحيتهم، وغايـة الأمر أنّ اللّٰه تعالى قد قرر قانوناً وناموساً يحكم عالم الوجود فى دائرة الإنسان، وهو أنّ كلّ من لم يستخدم المواهب الإلهية فى مجالها الخاصّ ولم يتحرّك فى سبيل استخدام قابلياته الذاتية فى طريق التكامل المعنوى فسيكون مصيره إلى جهنم فى الآخر، فحصول هـذا الشرط فى هـذا القانون يرتبط بإرادة الإنسان ذاته. «الآية الثانية» تتحدّث عن الكتاب فى عرصات يوم القيامـة، فى ذلك الوقت الّذى يقترب فيه وعـد اللّٰه حيث تسرى فيه الوحشـة ويملك الخوف جميع وجودهم وتتحجر عيونهم من الرعب، وهناك يتعالى صراخهم وعويلهم وينادون بالويل والثبور على ما كانوا فى غفلـةٍ من هـذا الحال «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» «۱». وعلى هذا فإنّ هـذة الفئـة من الناس يُقرون بأن «الغفلة» هى العامل الأساس فى انحرافهم عن جادة الحقّ، الغفلة الّتى دعتهم إلى أن يتحركوا من موقع الظلم على أنفسهم وعلى الآخرين وتركهم لدعوة الأنبياء والكتب السماوية والقاءها وراء ظهورهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۷ هؤلاء يتحدّثون بهـذا الكلام عنـدما تصيب الزلزلـة جميع عالم الوجود وتتجلّى يومئذٍ علامات القيامـة وتزول حجب «الغفلة»، وهنـاك يعيش هؤلاء النـدم حيث تكون أبواب التوبـة والانابـة إلى اللّٰه مؤصـدة أمامهم «۱». «شاخصة» من مادّة «شخوص» وهى فى الأصل بمعنى الخروج من المنزل أو المدينـة إلى مدينة اخرى، وبما أنّ الإنسان عندما يستولى عليه الرعب تشحب عيناه وتتوقفان عن الحركة حيث يظل ينظر إلى نقطة معينـة فى حالـة من البهت بحيث تكـاد تخرج حدقـة العين من مكانهـا، فهـذه الحالـة يطلق عليها بالشخوص. «الآية الثالثة» تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الارشاد لمن يصح معاشرتهم والحياة معهم وتقول «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوا ةِ وَا لْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ا لْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۲». فى هذه الآية نقرأ صفات الأشخاص الّذين يمتلكون اللياقة ليكونوا فى صحبة النبى ورفقته من موقع اتصافهم بالايمان والعبادة وذكر اللّٰه تعالى فى الصباح والمساء، وتحذر الآية الشريفة أيضاً من اطاعة الغافلين عن ذكر اللّٰه والّذين يتحركون من موقع الأهواء والشهوات إلى درجة الافراط، ومن خلال مضامين هـذه الآيـة الكريمـة نستوحى وجود علاقـة بين اتباع الهوى وبين الغفلـة، أجل فإنّ الغافلين عن ذكر اللّٰه هم الّذين يتبعون أهوائهم ويعيشون حالـة الافراط فى سلوكياتهم، ولو لم يكن فى ذمّ «الغفلـة» الا هـذا لكفى وطبقاً لما بيّنته الآيـة أعلاه من أنّ اللّٰه تعالى قد أغفل قلوب هؤلاء «أغفلنا قلبه عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۸ ذكرنا» يتضح جيداً أنّ ذلك كان نتيجة أعمالهم السيئة فى الحياة الدنيا وعلى شكل عقوبة إلهية. والمعروف أنّ الآية محل البحث نزلت فى طائفـة من الأثرياء والمتكبرين فى عصر النزول حيث جاءوا إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقالوا له: يا رسول اللّٰه، إنـك لو جلست فى صـدر المجلس ونحيت عنّا هؤلاء وأرياح جبابهم- يعنون بـذلك سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل اللّٰه تعالى هـذه الآيـة إلى قوله: إنا اعتدنا للظالمين ناراً ... «۱». إن اللّٰه تعالى كان يعلم ما فى نفوس هؤلاء الغافلين وأنّهم يعيشون الادعاءات الفارغـة والشعارات الجوفاء وأنّهم ليسوا بقابلين للاعتماد والثقـة لا فى حالـة الصلح ولا فى زمن الحرب ولا يمكن الاستفادة من أفكارهم، ولهـذا حذّر اللّٰه تعالى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله من وساوسهم. «الآية الرابعة» تتحرك فى سياقها من خلال استعراض بعض أوصاف أهل النار وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ* أوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» «۲» فى هذه الآية الكريمة نقرأ أنّ السبب الأساس لانكار المعاد لدى بعض الناس ورضاهم بالحياة الدنيا ونسيان الآخرة هو «الغفلة» عن آيات اللّٰه والّتى تمثل هـذه الحالـة المحور والمصدر الحقيقى لشقاء الإنسان وتورطه فى المشاكل والمصائب، فى حين أنّ السبب الحقيقى لسعادة المؤمنين وأصحاب النعيم فى الآخرة يمتـد فى جـذوره إلى حالـة التنبـأ والتـذكر والانفتاح على اللّٰه تعالى كما ورد ذلك فى الآيـات الّتى تلى هـذه الآيـة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۹ ونقرأ فى تفسير روح البيان فى ذيل هـذه الآيـة حديثاً قدسياً يقول:

العجب ممّن يؤمن بالنـار كيف يضـحك؟ وممّن يتعلق بالـدنيا وهو يعلم أنّه مفارقهـا، ومن الغافلين كيف يلهون فى حين أنّهم يعلمون أنّه لا يُغفل عنهم. ويتحدّث صاحب التفسير المـذكور فى ذيل هـذا الحـديث الشـريف عن قصـة «النعمان بن المنذر» الّذى كان أحد ملوك الحيرة فى عصر الجاهلية، ويقول: فى أحد الأيّام كان هذا الملك جالساً للهو واللعب تحت شجرة وارفة الظلال، فقال له «عدى» وكان أحد أقربائه: أيّها الملك أنّ هذه الشجرة تغنى فهل تعلم ما تقول؟ هذه الشجرة تقول: رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اناخُوا حَولَنا يَمزَجُون الخَمْرَ بالمـاءِ الزُّلالِ ثُمَّ اضْحُوا اسَفَ الـدَّهرُ بِهِم وَكَذاك الـدَّهرُ حالًا بَعد حالٍ «۱» «الآيـة الخامسـة» تتحدّث عن الأشـخاص الّذين يعيشون «الغفلـة» عن أسـرار وقضايـا عالم الوجود ولا يرون إلّاظواهر الامور، ويقنعون بهـذا الظاهر الجـذّاب لهـذه الحياة الـدنيا عن حقيقتها مع الغفلـة عن باطنها الّـذى يشـير إلى الحياة الاخرى وتقول «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ». «۲» فلو أنّ الغفلة لم تلق عليهم بظلالها ولم تكبل عقولهم بقيودها لرأوا فى كلّ شـىء وفى كلّ كائنٍ وموجود من هـذا العالم آيـة من الآيات الّتى تـدلّ على اللَّه تعالى والمعاد، فالقرآن الكريم يسـتعرض أسـرار عالم الخلقـة ويقرر أنّ هـذا النظام المـدهش للعديد من عالم المادّة والطبيعة إنّما هو آيـة وعلامة على وجود اللَّه تعالى وعلامة كذلك على المعاد والحياة بعد الموت من خلال الحوادث المشاهدة والملموسة فى حركـة الحياة والواقع، غايـة الأمر انه لا يدرك مغزى هذه الآيات والعلامات ولا يقرأ مضـمونها الباطنى سوى أصـحاب البصـيرة الّذين قرؤوا نغمـة التوحيـد والمعـاد فى باطن هـذه الحوادث لا الأشـخاص الّـذين يتعاملون مع الحياة الـدنيا من موقع الأهواء والنوازع المادية الرخيصـة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۰ هـذا وإن تكرار ضـمير «هم» فى الآيـة الشـريفة يعـد تأكيداً على هذا المطلب، وهو أنّ «الغفلة» هى السـبب فى أن يتحرّك الإنسان من موقع الظواهر فحسب ولا يرى واقع الحال ويتوغل فى باطن الامور. والجدير بالذكر أنّ مفردة «الغفلة» وردت فى موارد تكون فيها أسباب ومقدمات التذكر والتنبه متوفرة لدى الإنسان، ولكنه وبسبب اتباعه للأهواء أو بسبب ضعف الإيمـان أو لأسـباب اخرى فـإنه يتغافـل عنهـا، والشاهـد على ذلـك الآيـات الّتى وردت بعـد هـذه الآيـة من سورة الروم حيث يسـتعرض اللَّه تعـالى فيهـا نماذج من آثار التوحيـد والمعاد فى عالم الخلقـة وفى واقع الإنسان ويحـذّر الغافلين عن التمادى فى غفلتهم وينـذرهم من عاقبـة هـذه الحالـة الوخيمـة. «الآيـة السادسـة» تتحـدّث عن أخطر فئة من الكفّار، وهم الّذين يعيشون حالة التكبر والعناد مضافاً إلى كفرهم، وفى آخر الآية تقرر السـبب الّذى ساقهم إلى الشـقاء الدائم، وهو الغفلة عن آيات اللَّه وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». وقـد وقعت هذه الجملة من الآية الكريمة «سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي» مورداً لبحث المفسّـرين ومناقشـاتهم، ولعلّه كـان بسـبب أنّ من المسـلّم أنّ اللَّه تعـالى يهـدى النـاس إلى طريـق الحـقّ، وأساسـاً فـإنّ جميـع الأنبيـاء والأوصـياء كانوا يهتمون بارشاد الناس وهـدايتهم إلى اللَّه تعالى، فكيف يجتمع هـذا المعنى مع قوله تعالى «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» وانه تعالى هو الّـذى يحرم هؤلاء عن الهدايـة والتوفيق لرؤيـة هذه الآيات على نفسـها، ولهذا نجد أنّ الكثير من المفسّـرين قد تكلفوا تأويل هذه الآية بما لا يتناقض مع الاصول والمبادىء المسـلمة. ويتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال اسـتعراض الآيات القرآنية الاخرى فى هذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۱ المجال، حيث تمثل بعض اعمال الإنسان وحالاته النفسية من قبيل التكبر والعناد أمام الحقّ والتعصب الشديـد حجباً مظلمـة على قلب الإنسان تمنعه من مشاهـدة جمال الحقّ، وفى الواقع أنّ هـذه الأعمال والصـفات القبيحة هى الّتى تسبب حجبهم عن الحقّ وتمنعهم من رؤية آيات اللَّه، وعندما تنسب الآية عملية الحجب هذه إلى اللَّه تعالى فإنما ذلك بسبب أنّ اللَّه تعالى قـد جعل هـذه النتيجة كعقوبة طبيعية واثر طبيعى مترتب على تلك الأعمال والصـفات، أى أنّ الانصـراف عن آيات اللَّه هو نتيجـة طبيعيـة مقررة فى قانون الخلقة لمن يمارس تلك الأعمال والصـفات القبيحة. والجدير بالذكر أنّ الآية الشـريفة تقرر فى ختامها وتؤكد على أنّ سـبب انصـرافهم عن آيات اللَّه هو تكذيبهم وغفلتهم عن هذ الآيات. «الآية السابعة» تتحرك من خلال استعراض حالة العناد لـدى الفراعنة فى مقابل الآيات الإلهية والبلايا المتنوعة الّتى أنزلها اللَّه على هؤلاء القوم الفاسـقين لينتهوا من غفلتهم ويؤوبوا إلى رشـدهم ويتبعوا نبيّهم «موسى بن عمران» وتقول «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ا لْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». ومن

خلال السیاق القرآنی فی هذه الآیة نستوحی أنّ مصدر شقاء قوم فرعون وهلاکهم هو تکذیب الآیات الإلهیة والغفلة عنها، ویمکن أن تکون «الغفلة» سبباً للتکذیب، فإنّ الجذر الأصلی لشقائهم هو «الغفلة» عن آیات اللَّه، أو أنّهم قد تحرکوا فی مقابل الدعوة السماویة من موقع التکذیب أحیاناً والغفلة أحیاناً اخری، وبهذا یکون کلّ من التکذیب والغفلة سبباً مستقلًا للشقاء والهلاک. بعض المفسّرین یری أنّ ضمیر «عنها» یعود إلی النقمة الإلهیة والعذاب الإلهی، ففی هذه الصورة یکون عنصر التکذیب بآیات اللَّه هو الموجب لشقائهم، ولکن هذا الاحتمال ضعیف جداً لأن هذا الضمیر ورد إلی جانب الآیات، وحسب الظاهر انه یعود علیها، وقد أورد بعض الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۲ المفسّرین سؤالًا هنا، ولعلّ هذا السؤال کان هو السبب فی احتمال عودة الضمیر إلی النقمة والعذاب، وهو أنّ «الغفلة» حالة غیر اختیاریة ولذلک لا یمکن أن تستوجب عذاب اللَّه للإنسان. ولکن الجواب عن هذا السؤال واضح، لأن «الغفلة» فی کثیر من الموارد تکون اختیاریة فی جذورها ومقدماتها، فعندما یتحرک الإنسان باتجاه آیات اللَّه ولا یتدبر فیها ولا یصغی لکلمات الأنبیاء، فمن الطبیعی أن تستولی علیه حالة الغفلة، ومن هذا المنطلق نجد الناس کثیراً ما یذمون المجرمین والمنحرفین بسبب غفلتهم. «الآیة الثامنة» وبالرغم من انها لم تذکر کلمة «الغفلة» فی سیاقها، إلّاأنّ محتواها العام یتضمّن مفهوم الغفلة، فهذه الآیة تتحدّث عن المشرکین فی عصر النزول الّذین کانوا یتحرکون من موقع الغفلة الشدیدة وأحیاناً ینتبهون من غفلتهم ویتجهون نحو التوحید فی حالات خاصّة، وأحیاناً اخری یغرقون فی مستنقع الشرک والضلالة تماماً، فتقول الآیة «فَإِذَا رَکِبُواْ فِی الْفُلْکِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرّ إِذَا هُمْ یُشْرِکُونَ» «۱». أجل، فإنّ اعصار الحوادث والأخبار من شأنه أن یزیح حُجب «الغفلة» عن أبصار هؤلاء ویتجلّی لهم حقیقة الأمر وواقع الحیاة الدنیا، فطائفة منهم تستثمر هذا التنبیه وهذه الیقظة فی حرکتها التکاملیة والمعنویة ویتحرکون لاصلاح أخطائهم وجبران ما فاتهم من العمر، ولکن هناک طائفة اخری وهم الأکثریة یتنبهون فی هذه اللحظات فحسب وبعد انتهاء الحادثة یعودون ادارجهم نحو ما کانوا یعیشونه من الغفلة واتباع الهوی فی خط الباطل والإنحراف. بعض المفسّرین یذکر فی ذیل هذه الآیة أنّ المشرکین کانوا یصطحبون معهم أصنامهم فی أسفارهم البحریة لیحفظونهم من الغرق ولکنهم عندما یواجهون الخطر ویرون أمواج البحر الرهیبة الّتی تتقاذفهم من کلّ جانب کالریشة فی مهب الریح فإنّهم یلقون بأصنامهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۳ فی البحر ویتجهون نحو اللَّه بکلّ اخلاص ویتعالی صراخهم «یااللَّه یا اللَّه» «۱». «الآیة التاسعة» تقرر حکماً عاماً وکلیاً بالنسبة إلی جمیع أفراد البشر وتقول «وَمَن یَعْشُ عَن ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیّضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» «۲». أجل، فإنّ التوجه إلی اللَّه تعالی یتسبب أن یکون الذاکر جلیس الملائکة بمقتضی قوله تعالی «انّ الَّذِینَ قَالُوا رَبُّنا اللَّهُ ثُمَّ استَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الملائِکَة ...». والحال أنّ التغافل عن ذکر اللَّه یفضی بالإنسان أن یکون قرین الشیاطین الّذین یسوقونه إلی حیث یریدون کما تقول الآیة الشریفة «نُقَیّضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» وفی الواقع أنّ عمله هذا أی «الغفلة» عن آیات اللَّه یورثه البعد عن رحمة اللَّه وبالتالی یکون قرین الشیاطین البعیدة عن رحمة اللَّه، وبعبارة اخری: أنّ هذه الحالة هی جزاءه الدنیوی علی حالة الغفلة هذه. وبالنظر إلی أنّ کلمة «یعش» من مادّة «عشو» علی وزن «نَشر»، بمعنی ضعیف النور فی بصره فلا یری شیئاً بوضوح وکأنما یغطی عینه حجاب فلا یری الحقیقة بوضوح، ومفهومها لیس هو سوی الغفلة والاعراض عن اللَّه تعالی، ویقول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «إذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرّاً قَیّضَ لَهُ شَیطاناً قَبْلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ، فَلا یری حَسَناً الّا قَبّحَهُ عِنْدَهُ حَتّی لا یَعْمَلُ بِهِ، وَلا یَری قَبیحاً الّا حَسَّنَهُ حَتّی یَعْمَلُ بِهِ» «۳». وفی «الآیة العاشرة» یتحدّث القرآن الکریم عن المتقین والّذین یقابلون امواج الوساوس الشیطانیة ویعالجون حالات الغفلة مهما کانت قلیلة بذکر اللَّه تعالی، فتکون النتیجة أنّ حجب الغفلة وتراکمات الوساوس تنقشع عن القلب وتنفتح البصیرة فتقول الآیة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۴ «إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّیْطَانِ تَذَکَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» «۱». هذا التعبیر فی الآیة الکریمة یشیر إلی أن ذکر اللَّه تعالی یورث الإنسان بصیرةً فی قلبه فی حین أنّ الغفلة عن ذکر اللَّه تمهد الطریق لنفوذ الشیاطین إلی قلبه. «طائف» یعنی من یطوف حول شیء معین، والمراد به کما ذکره جمعٌ من المفسّرین الکبار هو الوساوس الشیطانیة الّتی تطوف حول قلب الإنسان لتتمکن من العثور علی منفذ لها فی کعبة القلب وتحول هذا القلب إلی معبد للأوثان، وعملیة النفوذ هذه لا تتسنی لهؤلاء الشیاطین إلّافی حالة «الغفلة» عن

ذكر اللَّه، لأن الإنسان بمجرد أن يـذكر اللَّه تعالى فإنّ الوساوس والخطرات الشيطانية سوف تبتعد وتتلاشى ويتجلّى حينئذٍ نور الحقّ أمام بصيرة الإنسان فى حركته المنفتحة على اللَّه والحقّ. «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن الغافلين الّذين يعيشون حالة الغفلة والجهل المطلق إلى آخر عمرهم، ولكن عندما يحين أجلهم ويقعون فى سكرات الموت ويرون بامّ أعينهم آثار أعمالهم السيئة فحينئذٍ يعيشون الرعب والقلق الشديد، فيقال لهم حينئذٍ «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ا لْيَوْمَ حَدِيدٌ» «۲». إن الآيات القرآنية هذه توحى بوجود ملكين يصطحبون الإنسان فى عرصات المحشر، أحدهما يسوقه إلى محكمة العدل الإلهى، والآخر يحضر بعنوان الشاهد على أعماله، ويحتمل أن يكون هذان الملكان هما الّذين كانا يصطحبان الإنسان فى الحياة الدنيا ويكتبون أعماله الصغيرة والكبيرة، ففى القيامة يأخذان بيد المجرمين ومعهما كتابهما هذا إلى حيث المحكمة الإلهية الكبرى ولكنَّ هؤلاء المجرمين لم يكونوا يحسون بوجود هذين الملكين فى الحياة الدنيا بل لم يكونوا يؤمنون بوجودهما بالرغم انهما يصحبون كلّ إنسان فى هذه الحياة، ويوم القيامة حيث تزاح الحجب وتزال الاستار وتنفتح عين البصيرة يرى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۵ الإنسان هذه الحقيقة الناصعة. «الآية الثانية عشر» والأخيرة من هذه الآيات محل البحث تتحدّث عن يوم القيامة وتبين حالات الغافلين فى هذا اليوم المليء بالحسرات واشكال الحزن وتقول «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ا لْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ» «۱». وأحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحسرة، لأن الغافلين الّذين كانوا يعيشون فى هذه الدنيا بعيداً عن الحقّ سوف ينتبهون من نومتهم هذه ويرون جميع أعمالهم، فهناك سيجدون أمامهم كتاب يقرر ما ارتكبوه من أعمال، فهناك من جهة اخرى الملائكة الّذين يشهدون عليهم، ومن جهة ثالثة والأشد من ذلك هو شهادة أعضاء الإنسان حتّى الجلد على ما ارتكبته فى الحياة من أعمال وسلوكيات شائنة، وهناك ترتفع نار الندم والحسرة وتستولى على وجود الإنسان ولكنهم لا يجدون طريقاً سوى مزيد التحسر على ما فاتهم من فرص ثمينة فى الحياة الدنيا، فليس لهم الرجوع للعودة لجبران ما فات لأن الطريق موصد من خلفهم والكتب قد اغلقت، فلا مجال للتوبة والانابة، ولذلك سيملأ الحزن وجودهم وخاصّةً عندما يسمعون نداء الملائكة الموبخ لهم حيث يقولون «لقد كنت فى غفلةٍ من هذا». وبديهى أنّ هذه الغفلة لا تتعلق بحالات يوم القيامة ولا عالم البرزخ، لأن الإنسان وبمجرد أن ينتقل من هذه الدنيا ويعانق الموت فإنّ سحب الغفلة ستزول أمام عينه ويرى حقائق العالم كما هى، وحينئذٍ لا يبقى معنى لمفهوم «الغفلة» كما تقول الآية ۹۹ و ۱۰۰ من سورة المؤمنون «حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا انَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ الَى يَومِ يُبْعَثُونَ».

النتيجة:

وممّا نستوحيه من الآيات المذكورة آنفاً أنّ الخطر الّذى يعيشه الإنسان بسبب الغفلة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۶ عن ذكر اللَّه وتجاهل الحقائق الّتى تستبطن عالم الوجود أكثر ممّا يتصور عادةً حيث بإمكان «الغفلة» أن تدمر جميع اركان سعادة الإنسان وتحرق فى أجوائها جميع الآمال الإيجابية فى حياة كريمة وتهدر جميع طاقاته وقابلياته الّتى يمكنه التوصل بها إلى أعلى مراتب الكمال المعنوى والإنسانى وتحولها إلى رماد وهباء منثور.

الغفلة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى النصوص الروائية أحاديث مثيرة حول عواقب الغفلة وآثارها السيئة والمدمرة فى حياة الإنسان، وبسبب كثرة هذه الروايات فسوف نختار منها ما يلى: ۱- عندما توجه النبى صلى الله عليه و آله فى معراجه إلى السماء سمع الخطاب الإلهى له يقول «يَا احْمَدَ انْتَ لا تَغْفَلْ ابَداً مَنْ غَفَلَ عَنّى لا ابَالِى بِاىِّ وَادٍ هَلَكَ» «۱» . وهذا الحديث يبين بوضوح أنّ عاقبة الغفلة هى الهلاك والدمار والمحقّ. ۲- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى عبارة مختصرة ومليئة بالمعنى «الْغَفْلَةُ اضَرُّ الاعْدَاء» «۲» لأن الغفلة هى السبب فى

الكثير من الذنوب والآثام فى واقع الإنسان وسلوكه. ۳- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً فى حديث آخر «الْغَفْلَةُ تَكْسِبُ الإغْتِرارَ وَتُدْنِى مِنَ البَوَارِ» «۳». ۴- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «الْغَفْلَةُ ضَلالُ النُّفُوسِ وَ عُنْوَانُ النُّحُوسِ» «۴». لأن الطريق الوحيد للنجاة من الضلال هو التفكر والتدبر ولكن الغفلة هى الّتى تصد الإنسان عن هذا الطريق المنفتح على اللَّه والحقّ. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۷ ۵- وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «وَيلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ فَنَسِىَ الرَّحْلَةَ وَلَمْ يَسْتَعِدْ» «۱». ۶- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنْ كَانَ الشَّيطانُ عَدُوّاً فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا» «۲». وتقدّم فى الأحاديث السابقة أنّ الغفلة تارةً تكون عن اللَّه، واخرى عن يوم القيامة، وثالثة عن وساوس الشياطين وهكذا. ۷- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِى غَفْلَةٍ انْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَانْ تُؤَدِّيَهُ ايَّامُهُ الَى الشَّقْوَةِ» «۳». والمقصود من الغفلة فى هذا الحديث هو الغفله عن أداء الوظائف والواجبات الدينية طيلة العمر. ۸- وقد ورد فى بعض الروايات أنّ هذه المسألة إلى درجة من الأهمية حتّى انها اعتبرت هى الهدف لبعثة الأنبياء، أى لعلاج مرض «الغفلة» بين الناس، كما نقرأ فى الخطبة ۱۰۸ من خطب نهج البلاغة فى بيان صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ» «۴». ۹- وفى حديثٍ آخر عن هذا الإمام العظيم يتحدّث فيه عن آثار الغفلة المخربة ونتائجها المدمرة فى حياة الإنسان ويقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالغِرَّةِ» «۵». ۱۰- وقد ورد فى الروايات الإسلامية عن حالات عيسى ابن مريم أنه مرّ على قرية مات أهلها بسخط اللَّه، فأحيا عيسى بن مريم واحداً منهم وسأله عن أعمالهم. قال: عبادة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۸ الطاغوت وحبّ الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة فى لهو ولعب» «۱». ۱۱- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام بالنسبة للآثار الاجتماعية لحالة الغفلة «مِنْ دَلائِلِ الدَولَةِ قِلَّةُ الْغَفْلَةِ» «۲». أجل فإنّ الغفلة وتجاهل الامور الاجتماعية ستفضى إلى ضياع الدولة. ۱۲- ونختم هذا البحث بحديثٍ عن أميرالمؤمنين حيث يبين للناس مخاطر الغفلة ويحذرهم من سوء عاقبتها ويقول «اتَّقِ ايُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ» «۳». وطبقاً لهذا البيان الشامخ فإنّ السبب الأساس لشقاء الإنسان يكمن فى ثلاث أشياء: سكر الشهوة، الغفلة عن حقائق العالم، العجلة فى الامور، حيث نجد أنّ الإمام أميرالمؤمنين يحذر فى هذا الكلام المختصر أفراد الإنسان من كلّ طائفة وقوم من هذه العناصر الثلاثة ليكونوا من أهل النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة.

النتيجة:

وبالرغم من أنّ أكثر الناس يعيشون الغفلة عن نتائج حالة الغفلة، ولكن أئمّة الدين كانوا يرون الفاجعة المترتبة على هذه الحالة المأساوية، وبيّنوا للناس بعبارات مختلفة وخامة هذا المرض العضال كما تقدّم آنفاً فى الأحاديث الشريفة ودعو الناس إلى التدبر والتفكر. والجدير بالذكر أنّ «الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل، أى أنّ هذه المفردة وهذا المفهوم يشمل موارد كثيرة منها الغفلة عن اللَّه، والغفلة عن يوم القيامة، والغفلة عن كون الحياة الدنيا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۹ مهزوزة وغير مستقرة، والغفلة عن الشيطان ووساوسه، وبشكل عام فإنّ الغفلة تستوعب جميع الامور الّتى تتعلق بشكل أو بآخر بسعادة الإنسان فى حركة الحياة.

ملاحظات مهمة حول الغفلة:

اشارة

بالرغم من أنّ هذه الصفة لها تأثير كبير فى حياة الإنسان ومصيره وتعد من الصفات الرذيلة، ولكن قد يثار هذا السؤال، وهو انه لماذا لم يتعرض علماء الأخلاق لهذه الرذيلة فى كتاباتهم وكلماتهم، وحتّى لو تعرضوا لها بالكلام فلا يكون كلاماً وافياً لهذا الموضوع المهم، وعلى أى حال فهناك عدّة مباحث فى هذا الموضوع تستحق الدراسة والبحث كلًّا على انفراد وهى:

۱- عوامل الغفلة

ألف) الجهل «الغفلة» لها مصادر وأسباب كثيرة، من أهمها الجهل وعدم الاطلاع على حقيقة الحال، وكذلك عدم معرفة اللّه فی مقام الربوبية وعدم الاهتمام بمسألة المعاد وكذلك عدم معرفة وهمية الثروة والمناصب الدنيوية والجهل بوساوس الشيطان وأمثال ذلك. ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فی هذا المجال «انَّ مَنْ عَرَفَ الايَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنَ الاسْتِعْدَادِ» «۱». ب) الغرور والانانية يعتبر الغرور أحد عوامل الغفلة وأحياناً يكون الغرور نتيجة للغفلة أيضاً، لأن الإنسان المغرور لا يرى إلّانقاطه الإيجابية ولا يفكر إلّابميزاته الذاتية، وقد يتصور أحياناً انها باقية له مدى الحياة، وهذا الأمر يسبب له الغفلة عن الحقائق فی عالم الوجود والّتی يكون لها دور هام فی أن يتعرض هذا الإنسان للهزيمة والاندحار. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۲۰ وقد شوهد فی التاريخ البشری شخصيات كثيرة قد وقعت فی أسر «الغفلة» بسبب الغرور والعجب وتعظيم الذات حيث سلبتهم هذه الحالة القدرة على رؤية الواقع كما هو فتعرضوا للهزيمة أمام الأعداء ولم يتمكنوا من الصمود لأنهم لم يكونوا يروا نقاط ضعفهم. ج) سكر النعمة سكر النعمة (والّذی يشبه الغرور إلى درجة كبيرة ولكنه يختلف عنه فی الواقع) قد يوقع الإنسان فی مستنقع الغفلة أيضاً، فعندما تنفتح الدنيا على بعض الأشخاص فسوف يصابون بسكر النعمة، وسكر النعمة هذا يوقعهم فی مهاوی الغفلة عن الواقع المحيط بهم وتستمر هذه الغفلة حتّى يحين أجلهم ويستيقظون من نومتهم وسكرهم كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ غَفَلَ عَنْ حَوَادِثِ الايَّام ايْقَضَهُ الْحِمَامُ» «۱». ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً «انَّ قَسْوَةَ الْبِطْنَةِ وَفَتْرَ الْمَيْلَةِ وَسَكْرَ الشَّبَعِ، وَعِزَّةَ الْمُلْكِ مِمَّا يُثَبِّطُ وَيُبْطِی عَنِ الْعَمَلِ وَيَنْسِی الذِّكْرَ وَيُلْهِی عَنِ اقْتِرَابِ الاجَلِ حَتّی كَانَّ الْمُبْتَلی بِحُبِّ الدُّنيَا بِهِ خَبْلٌ مِن سُكْرِ الشَّرَابِ» «۲». د) العافية والسلامة البدنية بالرغم من أنّ السلامة البدنية والعافية الجسمانية تعد من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان، ولكنها من جهة اخرى تعد من عوامل الغفلة أيضاً، وهذا فإنّ من الالطاف الإلهية الخفية أن تؤخذ هذه السلامة البدنية من الإنسان ويبتلی بألوان المحنة والمرض لكی تزول عن بصيرته سُحب الغفلة، فيرى بعين القلب حقائق العالم، ويتحرك حينئذٍ فی سلوكياته وأفكاره بالاتجاه المناسب والطريق الصحيح. ولهذا أيضاً نجد أنّ الحديث الشريف الوارد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يذكر فيه منافع وبركات المرض ويقول مخاطباً سلمان الفارسی حينما عاده فی مرضه «انتَ مِنَ اللَّهِ بِذِكْرٍ وَدُعَاؤُكَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۲۱ فِيهِ مُسْتَجَابٌ» «۱» . أی أنك الآن تعيش حالة التذكر والتنبه وقد زالت منك حجب الغفلة ولهذا فإنّ دعائك مستجاب. ه) طول الأمل وأحد العوامل الاخرى للغفلة هو طول الأمل والتمنيات الدنيوية الموهومة، حيث تستولی على قلب الإنسان وفكره وتجعله غافلًا عمّا يراد به، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فی الخطبة المعروفة بالديباج «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ انَّ الامَلَ يَذْهَبُ الْعَقْلَ وَيُكَذِّبُ الْوَعْدَ وَيَحِثُّ عَلَى الْغَفْلَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ» «۲».

۲- العواقب المشؤومة للغفلة

إن الغفلة عن ذكر اللّه والمعاد وما يتعرض له الإنسان فی هذه الحياة من محن وابتلاءات بسبب الذنوب والآثام كلّ هذه الامور تؤدی بالإنسان إلى الوقوع فی منزلقات الخسران والفناء وتسبب له اضراراً غير قابلة للجبران والتدارك، كما ورد هذا المعنى فی كلمات المعصومين وأئمّة الدين عليهم السلام ومن ذلك: ألف) الغفلة تورث قساوة القلب إن قساوة القلب ليست سوى نتيجة للغفلة والابتعاد عن المعارف الإلهية، لأن العامل المهم فی لطافة الروح وانعطاف القلب أمام الحقّ هو ذكر اللّه تعالى، فعندما ينقطع مطر الرحمة الإلهية عن أرض القلب بانقطاع الذكر فسيتحول القلب إلى صحراء قاحلة مليئة بالاشواك والحجارة كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ايَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةُ الْقَلْبِ» «۳». ب) الغفلة وموت القلب الغفلة تفضی فی النهاية إلى موت القلب أيضاً، أی أنّ الإنسان بعد أن يعيش حالة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۲۲ القساوة وعدم الانعطاف فی قلبه وروحه فسوف يقترب من موته المعنوی بحيث لا تعد المواعظ والنصائح تأثر فی مثل هذا الإنسان، وفی هذه الصورة سوف يوصد باب العودة والانابة إلى اللّه أمامه

ولا يبقى هناك أمل في نجاته، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ مَاتَ قَلْبُهُ» «۱». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِرَّةِ» «۲». ج) الغفلة وفساد الأعمال كما وأنّ «الغفلة» تسبب في بطلان أعمال الإنسان وفسادها، ولهذا نجد أنّ الأشخاص الّذين يعيشون الغفلة عن اللّه والآخرة قلما يتحركون في سلوكياتهم في دائرة الخيرات والمبرات، ولو أنّهم تحركوا في هذا السبيل فإنّ الغفلة لا تسوغ لهم أن يتمتعوا بحالة الأخلاص في طريق الانفتاح على اللَّه، فلا يصدر منهم ذلك العمل بنية خالصة. ومن ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «اِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ وَالِاغْتِرَارَ بِالْمُهْلَةِ فَانَّ الْغَفْلَةَ تُفْسِدُ الاعْمَالَ» «۳». ويحتمل في تفسير هذا الحديث أنّ المراد منه فساد الأعمال السالفة للإنسان بسبب الغفلة اللاحقة، لأنّ الغفلة تتسبب في ارتكاب الذنب والوقوع في وادي الخطيئة، والخطيئة بدورها تستوجب حبط الأعمال وافسادها. د) الغفلة والقرب الإلهي مضافاً إلى ذلك فإنّ الغفلة تستوجب سلب الإنسان اللياقة لنيل مرتبة القرب من اللّه تعالى ولقائه، لأن الوصول إلى هذه المرتبة ونيل هذا المقام السامي لا يتسنّى للإنسان إلّافي ظلّ المعرفة والتذكر والتفكر وأن يعيش الإنسان حالة الوعي والاتصال مع المبدأ. الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۳۲۳ وقد ورد في بحار الأنوار للعلّامة المجلسي إشارة إلى هذا الموضوع في مناجات أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الهِي انْ أَنامَتْنِي الْغَفْلَةُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلِقَائِكَ فَقَدْ نَبَّهَتْنِي الْمَعْرَفَةُ بِكَرمِ آلائِكَ» «۱». «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتْهُ» «۲». هذه العبارة هي مقطع للمناجات المعروفة بالمناجات الشعبانية حيث يقول العلّامة المجلسي عنها انها المناجات الّتي كان أميرالمؤمنين والأئمّة المعصومين عليهم السلام يدعون اللّه بها في شهر شعبان. ه) الغفلة سبب الوقوع في الهلكة «الغفلة» كذلك تسبب للإنسان الهلاك في الدنيا والآخرة، لأن الإنسان الغافل سوف لا يدرك جيداً منافعه «سواء المادية أو المعنوية» وبالتالي فسوف يضيع الفرص الثمينة الّتي تتعرض له، وسوف يؤدي به هذا الحال إلى اتلاف طاقاته وقابلياته الحيوية، ومن هذا المنطلق نقرأ في الحديث الشريف الوارد عن الإمام علي عليه السلام «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتهُ» «۳».

۳- علائم الغفلة

الكثير من الناس يمكن أن يترددون في كونهم من الغافلين ولا يعلمون بهذه الحقيقه وهي هل أنّهم يتسمون بسمة الغفلة أم لا؟ إذاً فمن الضروري أن يفحص السالك إلى اللّه ويتدبر حالته في كلّ مرحلة من حياته لئلّا يقع في زمرة الغافلين، ولذلك لابدّ من الالتفات والانتباه إلى علائم «الغفلة» حتّى لا يتورط في الوقوع في مخالبها وأسرها. ولحسن الحظ فإنّ النصوص الشريفة والأحاديث الإسلامية قد أوردت علائم كثيرة الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۳۲۴ للغافلين نكتفي بالإشارة إلى بعضها: ۱- ورد في الحديث الشريف والمفصل عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله في جوابه لشمعون بن لاوى أحد أقطاب النصارى في ذلك الزمان عندما سأل شمعون النبي الأكرم عن علائم الغافلين فقال: «امَّا عَلَامَةُ الغَافِلِ فَارْبَعَةٌ الْعَمى وَالسَّهْو وَاللَّهْو وَالنِّسْيَانْ» «۱». ونفس هذا المضمون نجد في حكم ونصائح لقمان الحكيم لولده حيث يقول: يا بني لكلّ شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها ... وللغافل ثلاث علامات: السهو واللهو والنسيان «۲». والفرق بين السهو والنسيان هو أنّ النسيان بمعنى عدم تذكر الحوادث والامور السابقة، ولكن السهو يعني عدم التوجه والانتباه للُامور الّتي ينبغي التوجه والانتباه لها. ۲- وإحدى علائم الغفلة هي أنّ الإنسان يتحرك في معاشرته ومجالسته مع الفاسدين والمفسدين ويبتعد عن مجالس العبادة، وفي ذلك يقول الإمام الحسن عليه السلام «الْغَفْلَةُ تَرَكُكَ الْمَسْجَد وَطَاعَتُكَ الْمُفْسِدَ» «۳». ۳- ومن العلامات المهمة الاخرى للغفلة هي عدم الاكتراث بالنذر، مثلًا عندما يمر الشخص على مقبرة فإنه لا يخطر في ذهنه انه سوف يكون من أهالي هذه المقبرة غداً، أو عندما يشترك في تشييع جنازة أحد أقرباءه أو أصدقائه فإنه لا يفكر في أنّه سوف يتعرض يوماً لمثل هذا الموقف ويكون هو المشيع ويسير الآخرون وراء جنازته. وقد ورد في نهج البلاغة أنّ الإمام علي عليه السلام كان يسير خلف جنازة لأحد المؤمنين فسمع أحدهم يضحك بصوت عال فتألم الإمام من ذلك وقال: «كَأَنَّ المَوْتَ فيهَا عَلَى غَيرِنَا كُتِبَ وَكَأَنَّ الْحَقَّ فيهَا عَلَى غَيرِنَا وَجَبَ وَكَأَنَّ الّذى نَرَى مِنَ الْاموَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ اِلَيْنَا رَاجِعُونَ». الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۳۲۵ ثمّ أضاف:

«نُبَوِّئُهُمْ اجْدَاثَهُمْ وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُم» «۱». ۴- ومن العلامات الاخرى للغفلة أنّ الإنسان ينفق وقته وعمره الثمين فى امور موهومة لا تنفعه لحياته الاخروية، أو يتلف السنوات المديدة من عمره وشبابه فى مواقف وأعمال لا تعود عليه بالنفع الدنيوى ولا الاخروى، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «كَفى بِالْرَّجُلِ غَفْلَةً انْ يُضِيعَ عُمْرَهُ فِي مَا لا يُنْجيهِ» «۲». وفى رواية اخرى عنه أنّه قال: «كَفى بِالْمَرْءِ غَفْلَةً أن يَصْرِفَ هِمَّتَهُ فِي مَا لا يَعْنِيهِ» «۳»

۴- الطرق الكفيلة بمكافحة الغفلة

تعتبر «الغفلة» من الأمراض الأخلاقية الخطرة، ولابدّ فى علاجها من استخدام الأصول الكلية والمبادئ العامّة المستخدمة فى هذه المباحث الأخلاقية. ففى المرحلة الاولى علينا التفكر فى عواقب ونتائج الغفلة وخاصّة ما تقدّم ذكره من الروايات الشريفة والمباحث الأخلاقية السابقة فى هذا الموضوع، فإنّ التدبر فى العواقب الوخيمة هذه له أثرٌ كبير فى التنبه فى أن يعيش الإنسان حالة التنبه والوعى ويعود إلى سلوك طريق المعرفة واليقظة، مثلًا عندما يريد التخلص من الأدمان على المواد المخدرة أو يريد الوقاية من الوقوع فى أسرها، فعليه أن يتفكر فى الأشخاص الّذين ابتلوا بهذه البلية السوداء، وما كانت نتيجة حالهم وعاقبة أمرهم، وما حلَّ بهم وبأسرهم وابنائهم من الدمار والارباك والاهتزاز فى العلاقة العائلية، وحينئذٍ سوف يتسنّى له التوقف والانتباه وسلوك طريق العودة بل وتقديم النصح للآخرين وتحذيرهم من الوقوع فى هذا الوادى المهلك، وكذلك لابدّ من الرجوع إلى جذور هذه الحالة والعمل على علاجها وقطع جذورها و ... فما دامت أسباب المرض باقية فى روح الإنسان فإنّ العلاج سوف يكون ابتراً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۶ وقد تقدّم فى المباحث السابقة تفصيل الكلام عن جذور الغفلة وأسبابها، فلا حاجة إلى التكرار، ولكن نواصل إلى المطالب السابقة نذكر فيما يلى بعض النقاط النافعة لإزالة الآثار السيئة للغفلة فى واقع الإنسان. ۱- كسب العبرة من التاريخ يجب دراسة التاريخ بدقة وتأمل وكسب العبرة من حوادثه ومجرياته، فأيوان كسرى فى المدائن واطلال قصور الملوك واهرام مصر تحدثنا بلسانها غير الناطق وتخبرنا عمّا جرى على الأقوام السالفة لنأخذ العبرة منهم، والخلاصة لابدّ من استطلاع تاريخ البشرية ومشاهدة آثارهم الباقية واستيحاء العبرة من كلّ ذلك. القبور المندثرة للابطال وقادة الحروب بالأمس ترزح أبدانهم المترفة أسيرة التراب، رؤية المسنين والعجائز الّذين كانوا بالأمس القريب شباباً ممتلئين حيوية ونظارة وهم الآن يعيشون العجز وعدم القدرة على ممارسة نشاطاتهم اليومية، كلّ هؤلاء كانوا بالأمس القريب أشخاصاً أقوياء وممتلئين بالفتوة والحيوية، ولكن حوادث الأيّام والسنين قد أخذت منهم مآخذها وأكلت منهم قوتهم وسلبتهم نشاطهم، ونحن الآن على آثارهم وسوف نبتلى بحالتهم. ومن الواضح إننا كلّما تفكرنا فى هذا المواضع أكثر وتأملنا فى تحول الأيّام وتبدل الحكومات وانتقال الثروات وتبدلّ المناصب الدنيوية فإننا سوف لا نعيش حالة الغفلة. الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «انَّ مَنْ عَرَفَ الْايَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنْ الاسْتِعْدادِ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال «اغْفَلَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَّعِظ بِتَغَيُّرِ الدُّنْيا مِنْ حَالٍ إلَى حالٍ» «۲». ۲- استمرار ودوام الذكر والعامل المؤثر الآخر لطرد آثار الغفلة هو استمرار ودوام الذكر، لأن ذكر اللَّه تعالى يحيى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۷ القلب ويجلى الروح ويفتح نور البصيرة حيث يرى الإنسان حقائق عالم الوجود ويرى الحقّ حقّاً والباطل باطلًا، وحينئذٍ يتمكن من تشخيص الصديق والعدو لسعادته وكماله المعنوى فى حركة الحياة. ولذلك قال أميرالمؤمنين عليه السلام «بِمَدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنْجابُ الْغَفْلَةُ» «۱». ۳- الصلاة مع حضور القلب إن أداء الصلاة فى الوقت المقرر مع حضور القلب والتوجه إلى مضامينها السامية ومفاهيمها العالية والتعامل مع اللَّه تعالى فى الصلاة من موقع الفقر والمناجاة كلّ ذلك من شأنه أن يطهر القلب من أدران «الغفلة» ويجلى مرآة الروح الإنسانية فى حركة الانفتاح على اللَّه والكمالات الإلهية. إن طبيعة الحياة الدنيوية موجبة للغفلة عادةً، ولذلك قد ينشغل الإنسان أحياناً إلى درجة انه ينسى ويغفل عن كلّ شيء حتّى عن نفسه، والصلاة تعتبر فرصة مناسبة جداً للعودة إلى الذات والتدبر فى واقع النفس وكيفية انقاذها من مخالب «الغفلة»، ولذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ايُّمَا مُؤْمِنٍ حَافَظَ عَلَى الصَّلَواتِ الْمَفْرُوضَةِ فَصَلّاهَا لِوَقْتِهَا فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْغَافِلِين» «۲». ۴- التفكر والتدبر الطريق

الآخر للوقايـة من الغفلـة وعلاجهـا هو التفكر والتـدبر فى الامور، فكلّما تحرك الإنسان فى أعماله وأفعاله من موقع التـدبر فى نتائجها الإيجابية والسلبية وتفكر فيما يترتب عليها من نتائج معنوية فى دائرة النفس والروح فإنّ ذلك من شأنه أن يبعد أمواج «الغفلة» الظلمانية عن الإنسان. وقـد ورد هـذا المعنى فى الحديث الشـريف فى خطابه لأبى ذرّ قال «يَا أَباذَرا هَمِّ بِالْحَسَـنِةِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۸ وَانْ لَمْ تَعْمَلْهَا لِكَى لا تُكْتَبَ مِنَ الْغَافِلِينَ» «۱». التفكير بالموت ونهايـة الحياة من جملة الأفكار الّتى تورث الإنسان اليقظة وتبعده عن الغفلة وخاصّةً عندما يمر الشـخص على مقبرة من المقابر ويتصور انه فى الغد القريب سـيكون أحد سـكنة هذه المقبرة وينقطع عن الحياة الـدنيا، فهذا التفكير من شأنه أن يزيل استـار الغفلة الّتى تتراكم على القلب بسـبب الأهواء والشـهوات والنوازع الدنيوية الاخرى. وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام فى أحد وصاياه لابنه الإمام الحسـين عليه السـلام «اىْ بُنَىَّ الْفِكْرَةُ تُورِثُ نُوراً وَالْغَفْلَةُ ظُلْمَةً» «۲». ۵- تغير المحيط إن الكثير من الاجواء الاجتماعية والطبيعية تورث الإنسان الغفلة وخاصةً الاشتراك فى مجالس الغافلين والبطالين، وجلسـات اللهو واللعب، والسـكن فى القصور الفخمـة والمزخرفـة وأمثـال ذلـك، فكلها تقود الإنسان باتجاه الغفلـة عن حقائق الامور، وحتّى الكثير من المـدن فى عالمنا المعاصـر قـد تبدلت إلى مركز من مراكز الفساد والغفلة. وأحد الطرق للخلاص من قيود الغفلة هذه هو ترك المشاركـة فى مثـل هـذه الجلسـات والامـاكن، والهجرة من المـدن الملوثـة بالفسـاد، وفى غير هـذه الصورة فإنّ التخلص من سلطان الغفلة عسـيرٌ جداً. فلذلك نرى أنّ الإمام السجاد يقول لأبى حمزة الثمالى عند بيان أحد عوامل سلب التوفيق: «او لَعَلَّكَ رَأَيْتَنى آلِفُ مَجَالِسَ البَطَّالِينَ فَبَيْنى وبَيْنَهُم خَلَّيْتَنى». ونختم هـذا البحث بحـديثٍ عن أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث قال «احْـذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفاءِ وَقِلَّةَ الاعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّه» «۳».

۵- اليقظة والانتباه

«اليقظـة» هى اليقظـة المقابلـة للغفلـة وتأتى بمعنى الانتباه من النوم البـدنى أو النفسـى، وقـد ذهب بعض العرفاء إلى أنّ اليقظة هى أوّل منازل السـير والسـلوك لأرباب المعرفة. واليقظة فى مصـطلح العرفاء الإسـلاميين هى الانتباه من نوم «الغفلة» والتوجه للأعمال والأفعال من موقع الضـبط والوعى ولجبران الأخطـاء السالفـة وتصـحيح المسـيرة فى حركـة السـلوك المعنوى للإنسان. الإمام الخمينى يرى فى كتـاب «الجهاد الأكبر أو جهاد النفس» ضـمن اعتقاده بان اليقظـة هى الخطوة الاولى فى تهـذيب النفس يقول فى ذيل بحثه عن اليقظة «إلى متى تريـد أن تبقى فى نوم «الغفلـة» وأنت غارق فى لجـة الفساد والشـر، اتقِ اللَّه وأحذر عواقب الامور وانتبه من نوم الغفلة، فأنت لحـدّ الآن لم تخطو الخطوة الاولى فى سـلوكِكَ إلى اللَّه تعالى فالقدم الأوّل فى دائرة السـلوك هو «اليقظة»، ولكنك مازلت فى حالة النوم، فافتـح عينيك وقلبك واترك نومك، فلو أنّ قلبك لم يكن ملوثاً بآفاق الـذنوب السوداء لم تقنع وتسـتمر على هـذا النوم وكأن شيئاً لم يكن، فلا تشعر ماذا يجرى حولك بل تستمر فى سلوكك وأعمالك وأقوالك الباطلة، فلو أنك تفكرت قليلًا فى أمر آخرتك وعاقبتـك المخيفـة يوم القيامـة لتحركت من موقع الاهتمـام بالتكـاليف وأداء المسؤوليـات الثقيلـة الملقـاة على عاتقـك». امّـا الآيـات والروايات الشريفة الّتى تقرر هذا المضمون والمحتوى فكثيرة، وأساساً فإنّ جميع آيات الإنذار والبشارة هو من أجل الوصول إلى هذه الغاية والهدف، أو إزالة آثار الغفلة عن قلب الإنسان وإيقاظه إلى ما ينتظره فى الغد ولكى لا يبقى فى نوم الغفلة والجهل. إن من جملة التعبيرات القرآنية فى دائرة الانذار والتحذير هى «افَلا تَعْقِلُون» «۱»» «أَفَلاتَذَكَّرُون» «۲» و «افَلَا تَتَفَكَرُونَ» و «او لَم يَتَدبَّرُوا القُرآن» وأمثال ذلك. فكلّها بمثابـة الاعلام عن الخطر المحـدق بالإنسان وايقاظه من النوم العميق الّذى يعيشه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳۰ فى أجواء الطبيعة المادية، ولذلك كان لابدّ له من منبه وجرس انذار ليسـتعد للمسـير فى خط الإيمان والصـلاح والتقوى وكذلك الآيات الّتى تؤكـد على ذكر اللَّه تعالى لأن الاعراض عن ذكر الحقّ من شأنه أن يفسـد حياة الإنسان، ويعيش بالتالى «معيشـة ضـنكا» فى هـذا العالم ويحشر يوم القيامة أعمى ولذلك نجد أنّ المفاهيم القرآنية تتحرك باتجاه تحذير المسلمين من اسباب اللهو أو الغفلة وتسوقهم باتجـاه ذكر اللَّه تعـالى وكـلّ ذلـك من شـأنه انعـاش حالـة «اليقظـة» والوعى بالمصـير فى واقع الإنسـان وفكره. وقـد أشارت الروايات

الإسلامية بشكل واسع إلى مسألة «اليقظة» منها: ١- ما ورد عن أميرالمؤمنين فى خطبته لدى الإشارة إلى الهدف من بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقال «ايُّهَا النَّاسُ انَّ اللَّهَ ارْسَلَ الَيْكُمْ رَسُولًا لِيُزِيحَ بِهِ عِلَّتَكُمْ وَيُوقِظَ بَهَ غَفْلَتَكُمْ» «١». وليس هذا الهدف مختصٌ بنبى الإسلام فحسب بل يشمل جميع الأنبياء فإنّهم بعثوا لهذا الغرض أيضاً، وايقاظ الناس من غفلتهم، أو على الأقل أنّ هذا الهدف هو أحد الأهداف الأساسية من دعوتهم. ٢- ويقول الإمام الحسن عليه السلام فى خطبته لأهل الكوفة: «ايُّهَا النَّاسُ تَيَقَّظُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ وَمِن تَكَاشُفِ الظُّلْمَةِ، فَوالّذى خَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَءَ النَّسَمَةَ وَتَرَدّى بِالْعَظَمَةِ، لَئِن قَامَ الىَّ مِنْكُمْ عُصْبَةٌ بِقُلوبٍ صَافِيَةٍ وَنِيّاتٍ مُخلِصَةٍ، لا يَكُونَ فِيها شَوْبُ نِفاقٍ وَلا نِيَّةُ افْتِرَاقٍ لَاجاهِدنَّ السَّيفَ قَدَماً قَدَماً وَلَاضَيِّقَنَّ مِنَ السُّيُوفِ جَوَانِبَها وَمِنَ الرِّماحِ اطرافَهَا وَمِنَ الْخَيْلِ سَنابِكَها فَتَكَلَّمُوا رَحِمَكُمُ اللَّه» «٢». وهنا نرى أنّ الإمام الحسن عليه السلام فى هذا الكلام يدعو أهل الكوفة إلى جهاد معاوية وجيش الشام فى حين أنّهم قد تمكنت منهم «الغفلة» فلم يستجيبوا له. ٣- ونقرأ فى كتاب «فلاح السائل» الدعاء الّذى أقرّه الإمام الصادق عليه السلام أيضاً بغرض الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٣١ جبران الأخطاء والغفلة فى الصلاة حيث قال «فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ مَكَانَ نُقْصَانِها تَماماً وَعَجَلَتى تَثَبُّتاً وَتَمَكُّناً، وَسَهْوِى تَيَقُّظاً، وَغَفْلَتى تَذَكُّراً، وكَسَلِى نَشاطاً» «١». ٤- وورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة قوله مخاطباً للإنسان اللاأبالى «أما مِنْ دائك بُلُولٌ امْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقْظَةٌ» «٢». ٥- ويقول أميرالمؤمنين فى حديثٍ آخر أيضاً «الَا مُسْتَيْقِظٌ مِنْ غَفْلَتِهِ قَبْلَ نَفَادِ مُدَّتِهِ» «٣». وفى جميع هذه الروايات نجد أنّ «الغفلة» شبهت بنوعٍ من النوم تارةً، واخرى بنوعٍ من السكر، وشُبه قصد التذكر بنوعٍ من الانتباه واليقظة، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرورِ ابْعَدُ افاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ» «۴». ۶- ونختم هذا البحث بحديثٍ آخر عن الإمام أميرالمؤمنين فى تشبيه اليقظة بالمصباح المنير حيث قال «فَاسْتَصْبِحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِى الابْصَارِ وَالاسْماعِ وَالافْئِدَةِ» «۵».

التغافل الإيجابى:

كما تقدّم أنّ الغفلة فى نور الحياة سببٌ للشقاء والانحطاط المادى والمعنوى فإنّ «التغافل» بالنسبة إلى هذه الامور يؤدى إلى نفس هذه النتيجة، أى أنّ الإنسان يجب أن يعلم بأن الواقع الدنيوى متزلزل وأنّ هذا العالم غير ثابت على أمرٍ واحد، وعليه أن يعبرهُ إلى حيث الحياة الخالدة، وأنّ الموت هو قانون طبيعى حتمى على الأشياء ولا اعتبار بالقوى الطبيعية والثروات المادية، ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الإنسان الّذى يعيش الغفلة و «التغافل» يمر على هذه الحقائق من الكرام ولا يعنيه من أمرها شىء. هذا هو التغافل السلبى الّذى قد يترتب عليه آثار ونتائج مضرة أكثر من الغفلة نفسها، الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٣٢ لأن «الغافلين» قد يقعون فى دوامة الحوادث والمشاكل عن جهلٍ وعدم علمٍ بواقع الحال، اما «المتغافل» فهو يخطو باتجاه هذه المشاكل عن وعى وعلم مسبق، وبذلك تكون مسؤوليته الإلهية أكثر وظلم الناس له أشد. اما «التغافل الايجابى» فهو أن يعيش الإنسان بحالة يخفى معها الأشياء الّتى ينبغى اخفاؤها، أى أن يقوم الشخص باظهار عدم اطلاعه وعدم علمه بالأشياء الّتى يعلم بها ولكنَّ اظهارها له عواقب سيئة، ويتصرف معها تصرف المتغافل ويمر عليها مرّ الكرام من موقع سعة الصدر وقوّة الشخصية، لغرض حفظ ماء وجه الآخرين واحترامهم وحيثيتهم الاجتماعية. ومن جملة موارد التغافل الايجابى هو اخفاء عيوب الآخرين، فإنّ لكلّ شخص عيوباً وأخطاءً لا يحب أن يطلع عليها الآخرون، ولذلك يسعى لكتمانها، ولكن أحياناً يعلم بها بعض الأشخاص الأذكياء، ففى مثل هذه الموارد يكون التغافل مطلوباً، وفى الحقيقة هو نوعٌ من ستر العيوب الخفية الّتى لا ينبغى اظهارها إلّافى موارد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك بشكل لطيف ومستور أيضاً. وهناك بعض الموارد يكون الكشف عن العيب فيها مؤدياً إلى تسقيط شخصية الأفراد وكذلك يؤدى إلى حث الآخرين على المعصية، فالفضيحة قد تؤدى إلى زيادة الايغال فى ارتكاب الذنوب، وبعبارة اخرى: إذا زال حجاب الحياء عن المذنبين فإنّهم سوف يقدمون على ارتكاب الذنوب المختلفة، ولهذا ففى مثل هذه الموارد يكون «التغافل» مانعاً عن تفشى هذه الظاهرة الاجتماعية السلبية. وببيان عام يمكن القول أنّ أحد الاصول المهمة بالحياة الهادئة والوادعة هى أن يعيش الإنسان «التغافل» عن بعض الامور لا سيّما بالنسبة إلى

المدراء وأصحاب المناصب الحساسهٔ فی المجتمع حیث یجب علیهم الاستفادهٔ من هذه المسألهٔ بشکلٍ جید لحلّ الکثیر من المشاکل الّتی تعترضهم فی عملهم الاجتماعی، وهذا یعنی انه کلّما احتاج الأمر إلی تحذیر وتنبیه فعلیهم أن یقوموا بهذا الأمر، وکلّما احتاجت المسألهٔ إلی «تغافل» لحلّها أو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۳ جعلها تراوح فی مکانها ولا تنتشر وتتفشی وتتعاظم فإنه علیهم سلوک هذا الطریق، ومن المعلوم ان المدیر الّذی لا یری للتغافل شیئاً حاسماً فی سلوکه الإداری ولا یعیر له اهتماماً فإنه سیوقع نفسه فی مشاکل وصعوبات غیر موجههٔ وبدون مبرر. ولهذا السبب فإنّ الأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام أکدوا علی هذه المسألهٔ فی أفعالهم وأقوالهم، فمثلًا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یتعامل مع بعض الامور من موقع التغافل بحیث أدّی ذلک إلی اعتراض بعض المسلمین الجهلهٔ، فمثلًا اعترضوا علی النبی بأنه سریع التأثر بما یسمعه من کلمات من هنا وهناک، فلو قیل له إنّ فلان یقول عنک کذا وکذا لأسرع فی تصدیقه وقبوله وأرسل خلف ذلک الشخص معاتباً إیاه، ولو أنّ ذلک الشخص أقسم له انه لم یقل هذا الکلام فی حقّه لاسرع کذلک إلی تصدیقه أیضاً. القرآن الکریم یشیر إلی هذا المعنی فی الآیهٔ ۶۱ من سورهٔ التوبهٔ ویقول «وَمِنْهُمُ الَّذِینَ یُؤْذُونَ النَّبِیَ وَیَقُولُونَ هُوَ اذُنٌ قُلْ اذُنُ خَیْرٍ لَکُمْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَیُؤمِنُ لِلمُؤمِنینَ وَرَحْمَهٔ لِلَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ ...». ومن البدیهی أنّ نبی الإسلام مع کلّ ذلک الذکاء والحرکهٔ والدرایهٔ الّتی اعترف بها الأعداء والأصدقاء لم یکن بالشخص الساذج إلی هذه الدرجهٔ، بل کان یری أنّ وظیفته فی بعض الموارد هی «التغافل» وهذا التغافل یُعد مصدر رحمهٔ لجمیع المؤمنین.

التغافل فی کلمات المعصومین علیهم السلام:

۱- ورد فی الحدیث المعروف عن الإمام زین العابدین علیه السلام وکذلک الإمام الباقر والصادق علیهما السلام عن «التغافل» قولهم «صَلاحُ حالِ التَّعایُشِ وَالتَّعَاشُرِ مِلُ مِکْیالٍ ثُلْثاهُ فِطَنَهٌ وَثُلْثُهُ تَغَافُلٌ» «۱». هذه الروایهٔ فی الواقع ضمن تأکیدها علی التغافل الایجابی تحذر الإنسان من التغافل السلبی، ففی البدایهٔ تؤکد علی الفطنهٔ والانتباه والیقظهٔ فی الامور وترک الغفلهٔ وأنّ ذلک یعد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۴ ثلثی مکیال المعاشرهٔ، ومفهومه هو أنّ الإنسان لا ینبغی أن یعیش الغفلهٔ وعدم الاطلاع بالنسبهٔ إلی مسائل الحیاهٔ والمعیشهٔ بل یجب الانتباه والیقظهٔ والتعامل مع الامور بدقّهٔ متناهیهٔ لیحرز بذلک خیره وصلاحه، ولکن من جههٔ اخری یجب علیه أن یعیش «التغافل» بالنسبهٔ إلی الامور الّتی ینبغی علیه التغافل عنها وجعلها فی زاویهٔ النسیان والاهمال من قبیل التفکیر فی المسائل الجزئیهٔ للحیاهٔ والّتی لیست بذات قیمهٔ، لأنّ التفکر فی مثل هذه الامور والسفاسف بإمکانه أن یمنع الإنسان من التفکیر فی المسائل الأهم منها، وکذلک اخفاء عیوب الآخرین المستورهٔ فی الموارد الّتی تستوجب المصلحهٔ ذلک فإنّ التغافل فی مثل هذه الموارد یعتبر أمراً محموداً. ۲- وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «مِنْ اشْرَفِ اعمالِ الْکَریم غَفْلَتُهُ عَمَّا یَعْلَمُ» «۱». ۳- وفی حدیثٍ آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «مَنْ لَمْ یَتَغَافَلْ وَلَا یَغُضَّ عَنْ کَثیرٍ مِنَ الامُورِ تَنَغَّصَتْ عِیْشَتُهُ» «۲». وبدیهی أنّ الحیاهٔ الدنیا لا تخلو من بعض الامور الّتی قد تحدث للإنسان من غیر توقع أو لا تسیر الحیاهٔ کما هو المطلوب وکما یرید لها الإنسان، فلو أنّ الشخص قد تحرّک فی تعامله مع الحیاهٔ من موقع الفحص والدقّهٔ فی جزئیات الامور وعاش الفضول فی حیاهٔ الآخرین وأخذ یحاسبهم ویعاتبهم علی کلّ صغیرهٔ وکبیرهٔ فإنّ حیاته ومعیشته سوف تتنغص ویتفرق الآخرون من حوله. ونختم هذا البحث بالحدیث الشریف الوارد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً حیث یقول «وَعَظِّمُوا اقْدَارَکُمْ بِالتَّغَافُلِ عَنِ الدَّنِّی مِنَ الامُورِ ... وَلَا تَکُونُوا بَحَّاثِینَ عَمَّا غَابَ عَنْکُمْ، فَیَکْثُرُ عَائِبُکُمْ ... وَتَکَرَّمُوا بِالتّعَامِی عَنِ الاسْتِقْصَاءِ» «۳». ومن هذا الحدیث وکذلک بعض الأحادیث الاخری یستفاد جیداً أنّ هذا المفهوم «التغافل» لا یرد إلّافی الموارد الجزئیهٔ والصغیرهٔ من سفاسف الحیاهٔ والواقع الاجتماعی. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۵ وعلی هذا الأساس فإنّ «التغافل» لا یتقاطع مع الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر والانتقاد البنّاء فی حرکهٔ الحیاهٔ الاجتماعیهٔ لأن الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر یتعلقان بالواجبات والمحرمات الّتی هی خارجهٔ عن دائرهٔ «التغافل»، واما الانتقاد البنّاء فیتعلق بالامور المصیریهٔ فی حیاهٔ الفرد والمجتمع والّتی یترتب علیها نتائج مهمهٔ، فی حین أنّ التغافل لا یتعلق بالامور الجسیمهٔ وذات الأهمیهٔ أو

الامور الّتی تکون المصلحة فی سترها والتغاضی عنها. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۶

البخل والشح

تنویه:

إن النعم والمواهب الإلهیة علی الإنسان تکون فی کثیرٍ من الموارد أکثر من حاجة الإنسان نفسه بحیث یمکنه أن یسهم الآخرین بها ویشارکهم فی الاستفادة منها بدون أی ضرر یُلحق به، ولکنَّ بعض الناس وبسبب البخل والشح یمتنعون من ذلک ولا یجدون فی أنفسهم رغبة فی العطاء والجود بما لدیهم من نِعم کثیرة، وأحیاناً یتحرکون من موقع التفرج والتفاخر بهذه النعم والثروات الدنیویة إلی درجة أنّهم یثیرون حفیظة المحرومین ویجرحون قلوبهم بذلک وکأن هؤلاء یجدون لذّة خاصّة فی إثارة المحرومین هؤلاء. وأحیاناً تقترن هذه الصفة مع حالة «الانانیة» و «التکبر» و «الحرص» وأمثال ذلک من الصفات السلبیة القبیحة. إذا نظرنا إلی عالم الوجود من موقع التدبر والتأمل فسوف نشاهد آیات البذل والکرم والجود والانفاق فی کلّ مکان، الشمس تحترق دائماً وتبدل بعض وجودها إلی نور وحرارة وتُرسله إلی جمیع المنظومة الشمسیة حیث تعیش المخلوقات والأحیاء بهذا النور الساطع وتستدفی بهذه الحرارة الکافیة. الأرض بدورها تُخرج ما فی باطنها من أنواع الکنوز والمعادن الثمینة والمواد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۸ الغذائیة والمیاه الجوفیة، کلّ ذلک تضعه تحت اختیار الإنسان مجاناً وتعینه بذلک علی مصاعب الحیاة، وهکذا الحال فی سائر موجودات هذا العالم الفسیح فإنّ کلّ واحدة منها یعطی للإنسان ما لدیه مظهراً بذلک کرمه وجوده. ومضافاً إلی هذا العالم الکبیر نری فی العالم الصغیر، أی الإنسان أیضاً نفس هذه المسألة، فالقلب، والجهاز التنفسی، والمعدة، العین، الاذن، الید والرجل کلّها لا تعمل من أجل ذاتها فقط بل تخدم فی حرکتها وحیاتها جمیع أجزاء البدن، فلا معنی للبخل فی وجودها، بل کلّما هناک هو الکرم والجود یترشح من جمیع أجزاء البدن وجمیع خلایاه. فی هذا العالم الّذی تحکم فیه معالم الکرم والسخاء فهل هناک من مکان للإنسان البخیل؟ ألا یتقاطع وجود هذا الإنسان البخیل مع عالم الوجود وبالتالی فإنه محکوم بالموت والاندثار والزوال؟ علی هذا الأساس نری ذمّ «البخل» ومدح «السخاء والکرم» بشکل واسع فی الآیات والروایات الإسلامیة حیث نری أنّ «الجود والسخاء» بعنوان أنّهما من الصفات والأسماء الإلهیة البارزة فی عالم الوجود وتمثل سمة من سمات الأئمّة المعصومین علیهم السلام أیضاً. بهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها ما یضفی علی مفهوم «البخل» و «السخاء» ضوءاً وجلاءاً أکثر: ۱- «إِنَّ قَارُونَ کَانَ مِن قَوْمِ مُوسَی فَبَغَی عَلَیْهِمْ وَءَاتَیْنَاهُ مِنَ الْکُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِی الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْفَرِحِینَ* وَابْتَغِ فِیمَآ ءَاتَاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیَا وَأَحْسِن کَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «انّا بَلَوْنَاهُم کَما بَلَوْنا اصْحَابَ الْجَنَّةِ اذ اقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحینَ* وَلایَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَیْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَهُم نَائِمُونَ* فَاصْبَحَتْ کَالصَّرِیم» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۹ ۳- «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ* فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا کَانُواْ یَکْذِبُونَ» «۱». ۴- «وَلَایَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَیْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَیُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ وَلِلَّهِ مِیرَا ثُ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» «۲». ۵- «الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَیَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَیَکْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْکَافِرِینَ عَذَابًا مُّهِینًا» «۳». ۶- «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنی وَکَذَّبَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری» «۴». ۷- «هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَمِنکُم مَّن یَبْخَلُ وَمَن یَبْخَلْ فَإِنَّمَا یَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ ا لْغَنِیُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ یَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَیْرَکُمْ ثُمَّ لَایَکُونُواْ أَمْثَالَکُم» «۵». ۸- «.. وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۶». ۹- «وَالَّذِینَ اذَا انْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذَلِکَ قَواماً» «۷». ۱۰- «قُلْ لَوْ انْتُم تَمْلِکُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّی اذاً لَامْسَکْتُمْ خَشْیَةَ الانْفَاقِ وَکَانَ الإنْسَانُ قَتُوراً» «۸».

تفسير واستنتاج:

مصير البخلاء

«الآيات الاولى من الآيات محل البحث تستعرض حادثة مهمة من الحوادث الّتى جرت على بنى إسرائيل، فكانت عبرة لمن اعتبر ذلك أنّ أحد أثرياء بنى إسرائيل وبسبب البخل والتكبر والغرور، ابتلى بمصيرٍ عجيب وموحش. لقد كان «قارون» من أقرباء النبى موسى عليه السلام ومن الوجوه والشخصيات الثرية المعروفة لبنى إسرائيل، وحسب الظاهر كان من أوّل المؤمنين بموسى عليه السلام أيضاً وكان مطلعاً وعارفاً بالتوراة، ولكنه كان كمثل الكثير من الأثرياء انانياً ومحبّاً للدنيا وبعيداً عن اللّه، وكان يحبّ بشكل عجيب اظهار مالديه من الثروة أمام فقراء بنى إسرائيل، وكان فى كلّ مرّة يظهر عليهم بزينته وثروته الهائلة يخفق قلوب أصحاب الدنيا وأهل الطمع من بنى إسرائيل حتّى وصل بهم الأمر إلى أن يكون أملهم الوحيد أن يكونوا مثل قارون من حيث الثراء وكثرة المال. يقول القرآن المجيد فى هذه الآيات «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ» «۱». لقد كان ظلمه وبغيه على قومه بسبب «البخل» الشديد حيث لم يكن راغباً فى بذل شيءٍ منها، وفى نفس الوقت كان يخرج على الناس والفقراء بزينته وثراءه الفاحش ويجد بذلك لذّة فى نفسه، والأمر الآخر أيضاً الّذى زاد من بغيه هو مخالفته الشديدة للنبى موسى عليه السلام وتعامله مع الفراعنة وخاصّةً عندما طلب منه موسى عليه السلام اداء الزكاة. وأساساً أنّ الأثرياء وأصحاب الدنيا لديهم علاقة شديدة فى تقوية نفوذهم وقدرتهم فى المجتمع، وهذه العلاقة تارةً تكون بدافع من حبّ التكاثر، واخرى بسبب الخوف من القدرات السياسية والاجتماعية الاخرى لكى لا يلحق بثروتهم الضرر من قبل هذه القدرات وقوى السيطرة والسلطة، ولهذا السبب كانوا يقفون من الأنبياء ودعوتهم السماوية الّتى كانت تستوعب الناس وتظلهم تحت خيمة الحكومة الإلهية، كانوا يقفون منها موقف العناد والرفض. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۱ القرآن الكريم فى إدامة حديثه عن قارون وثروته يقول فى هذه الآية «وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ» «۱». لقد كان قارون فرحاً جدّاً من وضعه الاجتماعى وكان يعيش دائماً حالة اللهو واللّذة ولا يشعر بما يجرى على البؤساء والفقراء ولا يعيش محنتهم وحرمانهم وحتّى عندما قال له العقلاء من قومه «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «۲». هذه التعاليم الخمسة والنصائح المشفقة ليس لم تؤثر إطلاقاً فى قلب قارون الأسود، بل زادته طغياناً وضلالًا إلى درجة انه انكر بصراحة التوحيد الأفعالى للّه‌تعالى وقال: «إنما اوتيته على علم». ويتحدّث القرآن الكريم فى آياتٍ اخرى من هذه السورة عن إحدى الرذائل الأخلاقية لقارون الّتى تتمثل تقريباً بدرجة من الجنون الّذى يبتلى به جميع الأثرياء المغرورين والّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف وطلب المزيد من الثروة والمال بعيداً عن اللّه تعالى فتقول الآية: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۳». وأخذ يتبرج بهذه الثروة الطائلة من موقع الغرور والتفاخر حيث استعرض معه الجياد الغالية المزينة بالذهب وحمل معه الجوارى الجميلات الغارقات بأنواع الزينة والمجوهرات وكذلك سائر أنواع الأموال والثروة وزخارف الدنيا وبريقها الخداع حتّى أنّ طائفة من المؤمنين نصحوه بترك هذه السلوكيات الذميمة، إلّاأنّه بدلًا من أن يستمع إليهم ويسلك مع الفقراء والمعدمين مسلك اللطف والكرم والمواساة فانه انطلق من موقع العناد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۲ والإصرار لوضع الملح على جراح هؤلاء الفقراء والبؤساء ويجعلهم حيارى غارقون بالحسرة أمام هذا الغرور العجيب. وعندما ازدادت حدّة طغيانه لم يمهله اللّه تعالى أكثر من ذلك، فكان أن اصابت زلزلة قصره ومحل إقامته فقط فخسفت به الأرض وغاص فى أعماقها هو وجميع ثروته، وهكذا صار حديثاً بعد عين وعبرةً لمن اعتبر على طول التاريخ البشرى. إن الجذور الأصلية لشقاء «قارون» هو حالة «البخل» الّتى كان يعيشها بعمق بكامل وجوده، البخل الّذى صار منشأً وسبباً لانكاره لنبوّة موسى عليه السلام وتعامله مع عقيدة التوحيد الإلهى من موقع الاعتراض والرفض، وأخيراً ادّى به الحال إلى اتهام نبى اللّه موسى عليه السلام بالعمل المنافى للعِفة مع زانية معروفة، ولكن اللّه تعالى فضح أمره سريعاً، فكان يتصور انه مع

تملكه لهـذه الثروة العظيمـة فإنه لا أحـد يقـدر على إيصال الضـرر إليه، ولهـذا السـبب فلم يكن يمتنع من أى ظلم وجور على قوم بنى إسـرائيل إلى أن نال جزاءه وعقابه. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تشـير إلى قصة اخرى من قصـص هؤلاء البخلاء ومصـيرهم الأسود حيث يتحدّث القرآن الكريم هنـا عن جماعـة يسـموهم «أصـحاب الجنّة» ويرى بعض المفسّرين أنّهم كـانوا جماعـة من بنى إسـرائيل يسـكنون «اليمن» على مقربـة من «صـنعاء»، وذهب بعض المحققين إلى أنّ كلمـة «حرد» الواردة فى سـياق هـذه الآيات يعنى «المنع» وهى من الكلمات المتداولـة فى اليمن وتشـير إلى أنّ هؤلاء كانوا من أهل اليمن. لقـد كان عدد هؤلاء عشـرة أشـخاص وكان لـديهم بسـتان كبير وثروه من أبيهم الّذى كان رجلًا كريماً وسـخياً وصالحاً، وكان عنـدما يحين قطاف الثمار يفتـح باب البسـتان على مصـراعيه للفقراء والمساكين لينالوا منه حاجتهم، وبـذلك كانت البركة وسعة المال والثراء تزداد فى أموال الأب، ولكنَّ ابناءه البخلاء كـانوا يتصورون أنّ مثل هـذا البـذل والعطاء الكثير الّذى يصب فى جيوب الفقراء والمحتاجين لا مسوّغ له، ولا مبرر لأن ينفق الإنسان من أمواله بهـذه الدرجة، وبذلك لقد عزموا على أن يمنعوا كلّ فقير من الدخول إلى هذا البسـتان الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۳ الكبير، وقرروا أيضـاً فيمـا بينهم أن ينهضوا فى الصـباح البـاكر ومن دون اعلاـن أو سـخط ليقطفوا ثمار هـذا البسـتان مع مجموعـة من العمال وقبل أن يستيقظ الفقراء والمساكين من نومهم ويصل إليهم الخبر فإنّهم يقومون بنقل هذا المحصول الكثير. يقول البرسوئى فى «روح البيان»: «إنّ هـذه الحادثـة وقعت بعـد عصـر عيسـى بقليل حيث كان لهم أب كريم جـداً، فكان يأخذ من بسـتانه ما يكفيه لسـنته ويوزع الباقى على الفقراء، ولكن ما أن توفى الأب حتّى قال الأولاد: إننا إذا سـرنا بسـيرة والـدنا فإنّ حياتنا سـتكون شاقـة، لكثرة عيالنا وأطفالنـا، فأقسـموا أن يعجلوا فى الصـباح البـاكر على قطف الثمار وحتّى أنّهم لم يقولوا: إن شاء اللَّه» «۱». وقـد أنزل اللَّه تعالى عليهم عـذاباً أليماً وعاقبهم بأشـد العقاب كما تقول الآية «فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» «۲». أجل، إن صاعقة محرقة ونار رهيبة نزلت على ذلـك البسـتان وأحرقته من أوّله إلى آخره «فَاصْبَحَتْ كَالصَّريم» «۳». «الصـريم» هو الشـجرة غير المثمرة، أى أنّ الصـاعقة اتلفت الثمـار فقـط دون الأشـجار الّتى بقى منهـا الجـذوع فقط، وفى الغـد عنـدما نهض الاخوة وذهبوا فى الصـباح الباكر إلى بسـتانهم ترجمـوا خطتهم على أرض الواقـع، فلمـا وصـلوا إلى ذلـك البسـتان ورأوا ذلـك المنظر المهيب والمفجع قـالوا: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا انَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» «۴». جملة «انّا لضالّون» إشارة إلى أنّهم لم يكونوا يصدقون أنّ هذا البستان قد احترق بأكمله بعد ما كان قبل قليل زاهراً ومليئاً بالثمار ولكن عندما دققوا النظر أدركوا من خلال القرائن أنّ هذا البسـتان المحترق هو بسـتانهم الّذى اصبح بهذه الصورة لـذلك قالوا «بَلْ نَحْنُ مَحرُومُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۴ وهناك احتمال آخر، وهو أنّ المراد بالضـلالة هنا هى الانحراف عن طريق اللَّه والحقّ لأنهم كانوا يتصورون إن السـعادة تكمن فى عنصـر «البخل»، والحال أنّ الطريق الصـحيح لنيل السـعادة الحقيقيـة هو الطريق الّذى سـلكه أبوهم الكريم من قبـل. وجاء فى الآيات التاليـة إن هـذه المجموعـة من البخلاء انتبهوا من نوم الغفلة بسـرعة وأخـذوا يلومون أنفسـهم واعترفوا بـذنبهم وعزموا على عدم تكراره فى المسـتقبل بعد أن طلبوا من اللَّه تعالى بسـتاناً أفضل من السـابق، وقـد ورد فى بعض الروايـات أنّ اللَّه تعالى قبل توبتهم ووهبهم بسـتاناً أفضل وأحسن من بسـتانهم السابق. وعلى أيـة حال فإنّ الآيـة أعلاه تبين العواقب المؤلمـة لحالـة «البخل» والشُّح بحيث إن هذه الرذيلة تضـر الإنسان حتّى فى أمر دنياه العاجلة. والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول فى بدايـة هـذه الآيات «إنا بَلَوناهم كما بلونا أصـحاب الجنّة» ولعلّ هذا التعبير إشارة إلى حالة القحط الشديد الّذى أصاب مكّة المكرمة بسـبب البخل وترك الانفاق من قبل أثرياء قريش. «الآية الثالثة» تتحدّث عن مصـير شـخص بخيل فى عصر رسول اللَّه، وطبقاً للكثير من التفاسـير فإنّ هـذا الشـخص كان من الأنصار ويـدعى «ثعلبة بن حاطب» والّذى كان فى بداية أمره معسـراً وفقيراً بشـدة وكان يتمنّى أن يكون يوماً من الأثرياء ولذلك طلب من النبى بإلحاح شديد أن يدعو له بذلك ليكون من الأثرياء. فقال له النبى صـلى الله عليه و آله: يا ثعلبة قليل تؤدى شـكره خير من كثير لا تطيقه، ولكنه أصـرّ على ذلك وقال: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا والّذى بعثـك بـالحق لئن رزقنى اللَّه مالًا لاـعطين كـلّ ذى حقّ حقه وهو قوله «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَـدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْـلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۱». ثمّ إنّ النبى الأـكرم دعـا لهـذا الرجـل بعـد إصـراره الشديـد ليكون عبرةً لغيره فلم تمض فترة

الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۵ إلّا وانفتحت عليه أبواب الرزق والثراء ببركة دعاء النبى صلى الله عليه و آله وحصل على ثروة طائلة غير متوقعة، فملك قطعان كبيرة من الأغنام والإبل وأصبح من الموسرين جدّاً، ولكن عندما نزلت آية الزكاة وسمع بها وعلِمَ انه يجب عليه أن يدفع مقداراً قليلًا من هذه الأموال بعنوان الزكاة إلى الفقراء والمساكين، فما كان من هذا الرجل البخيل إلّاأن نقض عهده مع اللَّه تعالى ومع رسوله الكريم ونسى وعده بمساعدة الفقراء وامتنع من دفع الزكاة. وهنا يتحدّث القرآن الكريم عن هذه الحالة بايجاز فيقول «فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ» «۱». وبالرغم من أنّ «ثعلبة» لم يكن سوى رجل واحد، ولكن عندما ازدادت أمواله وكثرت ثروته استخدم بعض الأشخاص لحفظها ورعايتها، ولذلك فمن المحتمل أن تكون صيغة الجمع الواردة فى الآية إشارة إلى هذا المطلب. وهناك احتمال آخر وذلك بأن مثل هذه الحالات لا تختّص بثعلبة وطلبه من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، بل إن هذه الحالة تكثر بين الناس فى المجتمعات البشرية حيث يطلبون من اللَّه تعالى هذا الطلب ويعدون بشتّى الوعود ولكنهم لاـ ينجحون فى الامتحان الإلهى ويتحركون بعد ذلك من موقع نقض العهود هذه، والسلوك فى خط الانانية والبخل وحب الدنيا وعلى أية حال فإنّ النتيجة الحتمية لنقض العهد والبخل هو أن تدب ريح النفاق فى قلوب هؤلاء البخلاء وتستمر معهم إلى يوم القيامة كما تقول الآية «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ» «۲». أجل، فإنّ الرجل كان فى أحد الأيّام من العباد والزهّاد وكان يسمّى بحمامة المسجد وكانت جبهته متورمة كثفنات البعير من أثر السجود ولكن بسبب البخل والانانية والشح فإنه أصبح فى مواجهة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بحيث إنه اعترض على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بسبب الأمر بالزكاة وقال بأن الزكاة تشبه الجزية الّتى تؤخذ من أهل الكتاب، وبهذا أصبح فى عداد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۶ المنافقين وأخيراً تم طرده من المجتمع الإسلامى. «الآية الرابعة» تبين فى سياقها العقوبة الإلهية الشديدة للبخلاء، وما ورد فى هذه الآية من المجازات والكنايات بالنسبة إلى البخل لم ترد فى سائر آيات القرآن الكريم حيث تقول الآية «وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ...» «۱». ثمّ تضيف الآية «سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ا لْقِيَامَةِ» «۲». فتكون الأموال الّتى جمعوها على شكل سلسلة ثقيلة تكبلهم وتمنعهم من أى حركة فى عرصات المحشر، وفى ختام الآية يقول تعالى «وَلِلَّهِ مِيرَا ثُ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» «۳». هذه الآية تشير إلى أنّ المحافظة على المال والسعى لاكتنازه والبخل به لا ينفع الإنسان شيئاً فى حياته الدنيوية لأنّه سوف يضطر إلى ترك كلّ ما لديه ويرحل. وبالرغم من أنّ بعض الروايات فسّرت الآية أعلاه بمسألة منع «الزكاة» ولكن حسب الظاهر فإن مفهوم الآية يستوعب فى مضمونه جميع أشكال البخل وحتّى مضافاً إلى البخل بالأموال يشمل البخل بالعلم والمعرفة وأمثال ذلك كما ذكر بعض المفسّرين. أمّا تصوير الحالة الّتى تجعل هذه الأموال على شكل حلقة وطوق حول رقبة البخيل يوم القيامة، فينبغى القول طبقاً لما ورد فى بعض الروايات أنّ تلك الأموال تأتى يوم القيامة على شكل طوق من نار كما ورد فى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ما من عبد منع زكاة ماله إلّاجعل اللَّه ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً فى عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب، وهو قول اللَّه: «سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ا لْقِيَامَةِ» قال: ما بخلوا به من الزكاة» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۷ ومن التعبير أعلاه يستفاد بوضوح أنّ التعبير بكلمة «الطوق» هو فى الواقع من قبيل تجسم الأعمال التى يسلكها الإنسان ويعملها فى الدنيا. لأن «الطوق» لا يبتعد ولا ينفصل عن الإنسان بأية حال، وعلى كلّ حال فإنّ التعبيرات المختلفة للآية كلّها تحكى عن قبح «البخل» وحسن «الانفاق» فى سبيل اللَّه والسخاء فى المال وسائر المواهب الإلهية على الإنسان. والملفت للنظر أنّ أموال «البخلاء» لا تطوق الإنسان البخيل يوم القيامة فحسب، بل فى الدنيا أيضاً تكون بمثابة القيود الّتى تثقل كاهل الشخص بسبب الاهتمام بحفظها وحسابها والخوف من نقصانها او تلفها وأمثال ذلك حيث يتلف الإنسان السنوات العزيزة من عمره من أجلها، ثمّ يضطر إلى تركها والتوجه للحياة الاخرى محملًا بالمسؤولية بسببها. «الآية الخامسة» تتحدّث عن الأشخاص الّذين لا يعيشون البخل لوحدهم فقط وإنّما يدعون الناس إلى البخل أيضاً، وتبين حالهم من موقع الذمّ والتقبيح وأنّهم مصداق عنوان «مختالٍ فخور»، وقد صرَّح القرآن الكريم فى عدّة مواضع أنّ اللَّه تعالى لايحب من كان مختالًا فخوراً، ويقول اللَّه تعالى أيضاً بالنسبة إلى هذه الطائفة من

الناس «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» «۱». ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى لا يحبّ الشخص الّذى يعيش التضاد المطلق مع صفاته الحسنى وأسماء الجلال والجمال للَّه‌تعالى، وبالتالى فإنّ مثل هذا الإنسان يخرج من دائرة سُبل عنايات اللَّه الخاصّة. والملفت للنظر هو أنّ الآيات الّتى سبقت هذه الآية تشير إلى ما يصيب الإنسان من المصائب والبلايا وأن لا يتعلق الإنسان بهـذه الحياة ولا يغتر بما لـديه من امكانات ماديـة وقابليات دنيويـة، وليعلم أنّ «البخل» لا يجديه شيئاً فى عمليـة الثراء والغنى بل إنّ الحياة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۸ الدنيا تتقلب من شكلٍ إلى آخر، وبذلك قد يكون أثرى الناس وأكثرهم مالًا فى يوم آخر من أفقر الناس، ويتبـدل حال الفقير كـذلك بين عشيـة وضـحاها ليكون من أغنى الناس، إذاً فلا داعى إلى الفخر والمباهات والغرور بهذه الثروات المتنقلة لانها لا تحل مشكلة حقيقية للإنسان فى واقعه النفسى. والملاحظة المهمة الاخرى هى دعوة هؤلاـء البخلاـء الآـخرين لسلوك طريق البخـل أيضاً ليصبح الناس كلّهم مثلهم، فلا يفتضـح أمرهم ولا يعيب عليهم الناس حالة الشح والبخل فيهم، مضافاً إلى أنّ مثل هؤلاء الأشـخاص قد سـحقوا العواطف الإنسانية تحت أقدامهم فهم يعيشون قساوة القلب وعدم الاحساس بالرحمـة والعطـف تجاه الآـخرين، لـذلك فـإنّهم يتـألمون عنـدما يرون سـخاء الآـخرين وترحمهـم وعطفهـم على الفقراء والمحتاجين ويودون أنّهم لو كانوا مثلهم فى البخل. وفى هـذا الصـدد يقول الإمام الصادق عليه السـلام: «إن أميرالمؤمنين عليه السـلام بعث إلى رجل بخمسـة أوساق من تمر المعيقـة، وكان الرجل ممن يرجو نوافله ويؤمل نائله ورفـده وكان لا يسأل علياً عليه السـلام ولا غيره، فقـال رجـل لأـميرالمؤمنين عليـه السـلام: واللَّه مـا سألـك فلاـن ولقـد كـان يجزيـه مـن الخمسـة أوسـاق وسـق واحـد، فقـال له أميرالمؤمنين عليه السـلام: لاكثّر اللَّه فى المؤمنين ضـربك اعطى أنا وتبخل أنت، للَّه‌أنت، إذا أنا لم اعط الّـذى يرجونى إلّابعد المسألة ثمّ أعطيته بعـد المسألـة فلم أعطه إلّاثمن ما أخـذت منه، وذلك لأنى عرضـته أن يبذل لى وجهه الّذى يعفّره فى التراب لربى وربّه ...» «۱». «الآيـة السادسـة» وضـمن الإشارة إلى العقوبـة الشديـدة والعـذاب الاليم الّذى ينتظر البخلاء تقول «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ اذْا تَرَدّى «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۹ ويتضح جيداً من سياق هذه الآيات ما يلى: ۱- إن البخـل لاـ يتسبب فى رفع حالـة الاحتيـاج والفاقـة فى النفس بل إنّ سـلوك هـذا الطريق سوف يزيـد من مشاكل الإنسان الدنيوية والاخروية (والملفت للنظر أنّ كلمة «العسرى» فى الآية مطلقة تشمل جميع اشكال العسر فى الدنيا والآخرة). ۲- على فرض أنّ هذا الإنسان اسـتطاع الحصول على ثروة طائلة من هذا السبيل واسـتطاع نقلها إلى الآخرة، ولكن ماذا ينفع ذلك عندما يهوى إلى جهنم فى ذلك اليوم؟ وقـد ذكر المفسّـرون فى تفسير كلمـة «يسـر» وهى النقطـة المقابلة للعسـر، احتمالات كثيرة تأتى كلّها أيضاً فى النقطة المقابلـة لهـا، أى مفهـوم «العسـر»، الاحتمـال الأـوّل: أنّ المقصود من ذلـك تهيئـة أسـباب التوفيق للتحرّك فى خـطّ الطاعـة والإيمـان والانفتاح على اللَّه تعالى، وعلى العكس من ذلك كلمة «العسـر» و الّتى تعنى سلب التوفيق للطاعة والايمان، وذهب بعض آخر إلى أن معنى هذه الكلمة هو سهولة الحياة فى الدنيا وعدم مواجهة الإنسان صعوبات ومشاكل مهمة فى امور المعيشة، ويرى البعض الآخر آنها تعنى تيسير طريق الجنّة والثواب الإلهى العظيم يوم القيامة، والبعض الآخر فسّرها بالامدادات الإلهية الغيبية للإنسان وأمثال ذلك ولكن كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ مفهوم «العسـر» وكذلك «اليسـر» مفهوم واسع يسـتوعب جميع هذه الامور المتعلقة بحياة الإنسان الدنيوية والاخروية. وفى «الآية السابعة» نجد خطاباً إلهياً لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الذم والتقريع حيث تقول الآية «هَا أَنتُم هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ» «۱». ومن أجل أن لا يتصور بعض الجهّال أنّ اللَّه تعالى يحتاج لمثل هذه الأموال والانفاق تقول الآية فى سياقها أيضاً «وَاللَّهُ ا لْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ» «۲» وعلى هذا الأساس فإنّ ما ينفقـه الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۰ الإنسـان من الأـموال هو فى الواقع أداء للأمانـة الإلهيـة الّتى أودعت عنـده لغرض اختبـاره وامتحـانه وتربيته، وبـذلك فـإنّ اللَّه تعـالى أمر عباده بإيصال بعض هـذه الأمانـة إلى الفقراء والمساكين أو إنفاقها فى طريق الجهاد فى سبيـل اللَّه. وفى ختـام الآيـة يتحرّك القرآن الكريم من موقـع التهديـد للأشـخاص الّـذين يعيشـون البخـل والشُّح ويقـول: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُواْ أَمْثَالَكُم» «۱». وعلى هذا الأساس تنطلق الآية من موقع التهديد للبخلاء بالفناء والاندثار، وهذا من أشد

اشكال التهديد الوارد للبخلاء. وبالرغم من أنّ مصداق الانفاق فى سبيل اللّه ومع ملاحظة سياق الآية والقرائن الموجودة هو الأنفاق فى طريق الجهاد، ولكن المفهوم واسع ويشمل كلّ عملٍ خير يتحرّك فيه المؤمن من موقع البذل والعطاء للآخرين. والكثير من المفسّرين من الشيعة وأهل السنّة ذكروا فى ذيل هذه الآية انه بعد نزولها سأل بعض الصحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن مراد القرآن الكريم من هؤلاء القوم الّذين يأتون بعد البخلاء ويحلون محلهم ولا يكونوا أمثالهم من هم؟ فوضع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يده على رجل سلمان الّذى كان جالساً إلى جنبه وقال «هَذَا وَقَومُهُ وَالّذى نَفْسى بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإيمانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فَارِسٍ» «۲». «الآية الثامنة» بعد أن تأمر بالانفاق وتؤكد على أنّ الانفاق يورث الإنسان كلّ خير وبركة تقول: «.. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۳». يقول الراغب الاصفهانى فى كتابه «مفردات القرآن» الشُّح، (على وزن مخ) بخلٌ مع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۱ حرص وذلك فيما كان عادة. «الفلاح» بمعنى الشق والقطع، ويستخدم لكلّ اشكال السعادة والنجاح والنصر والوصول إلى المقاصد والأهداف فى حركة الحياة، وينقسم أيضاً إلى الفلاح المادى والمعنوى. وقد ورد فى الآيات السابقة لهذه الآية انذار وتحذير للمسلمين بالنسبة إلى الفتنة من الأموال والأولاد، والظاهر انه مع هذا البيان تريد الآية أن تبيّن موانع الانفاق لانه أحياناً يواجه الشخص الوساوس من قبل الأبناء لكيلا يؤدى بهم انفاق الأب إلى الفقر والحاجة أو يعيشوا بدون ميراث، وأحياناً اخرى يعيش الإنسان الوساوس النفسية من مستقبل ابنائه وأنّهم سوف يعيشون حالة الفقر بعده، فيمنعه ذلك من الانفاق، ومن المعلوم أنّ جميع هذه الوساوس تعد من أحابيل الشيطان ومن موانع «الفلاح» والنجاح فى معراج الكمال المعنوى، وتورث الإنسان الحرص والبخل الشديد. وقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام انه كان يطوف بالبيت من الليل إلى الصباح ويقول «اللّهُمَّ قِنى شُحَّ نَفْسى» يقول الراوى فسألته: بأبى أنت وامّى لم اسمع منك هذه الليلة غير هذا الدعاء، فقال «وَاىُّ شَىءٍ اشَدُّ مِنْ شُحِ النَّفْسِ انَّ اللّهَ يَقُولُ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئكَ هُمُ المُفلِحُون» «۱». وعلى هذا فصفة «البخل» تعد من الموانع المهمة للفلاح إلى درجة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يدعو اللّه تعالى فى طوافه بالبيت من الليل إلى الصباح بهذا الدعاء ويعتبر أنّ هذه الحاجة هى من أهم حاجاته فى خطّ الإيمان والطاعة والتربية النفسية. وتعبير «خيراً لأنفسكم» بعد الأمر بالانفاق هو إشارة إلى هذه النكتة اللطيفة، وهى أنّ السخاء والانفاق فى سبيل اللّه تعود معطياته الايجابية على الإنسان نفسه حيث تربّى فيه الروح الإنسانية ويتخلص قلبه من ظلمات الحرص وقيود «البخل»، ويترتب على ذلك الكثير من البركات المادية والمعنوية فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۲ ونختم هذا البحث بذكر حديث شريف فى تفسير معنى «الشُّح» عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سأل «الفضيل بن عياض»: هل تعلم معنى «الشحيح» فقال: البخيل، فقال له الإمام «الشُّحُ اشَدُّ مِنَ الْبُخلِ انَّ الْبَخيلَ يَبْخَلُ بِمَا فِى يَدِهِ وَالشّحيحُ يَشُحُّ عَلَى مَا فِى ايْدِى النّاسِ وَعَلَى مَا فِى يَدِهِ حَتَّى لا يَرى فِى ايْدِى النّاسِ شَيْئاً الّا تَمَنّى انْ يَكُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَام، لا يَشْبَعُ وَلا يَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللّهُ عَزّوَجَلّ» «۱». «الآية التاسعة» وضمن استعراضها لمسألة «البخل» تحت عنوان التقتير تقول فى ذكر صفات عباد الرحمان: «وَالَّذِينَ اذَا انْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً» «۲». «يقتروا» من مادّة «قتر» على وزن «صبر» ويقع هذا المفهوم فى النقطة المقابلة للاسراف، وأحى وفى الواقع فإ

النتيجة:

إن الآيات محل البحث تدلّ على المفهوم الإسلامى والموقف القرآنى بالنسبة إلى «البخل» وقد ذكرت الآيات الشريفة نماذج من سلوك البخلاء ومصيرهم المشؤوم وعاقبتهم الاليمة والنتائج السلبية المترتبة على البخل فى حياة الإنسان المادية والمعنوية، وقد ذكرت الآيات الشريفة البخل بعنوان رذيلة أخلاقية شنيعة من شأنها أن توقع الإنسان فى ورطة الشقاء والتعاسة وتبعده عن «الفلاح» والسعادة المنشودة.

البخل فى منظور الروايات الإسلامية:

ونقرأ فی الأحادیث الشریفهٔ روایات شدیدهٔ، توضح موقف الإسلام من ظاهرهٔ «البخل» منها: ۱- قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «الْبَخیلُ بَعیدٌ مِنَ اللَّهِ بَعیدٌ مِن النّاسِ، قَریبٌ مِنَ النّارِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «النَّظَرُ الَی الْبَخیلِ یُقْسِی الْقَلْبَ» «۲». ۳- ونقرأ فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله انه کان یطوف بالبیت فإذا رجل متعلق بأستار الکعبهٔ وهو یقول: بحرمهٔ هذا البیت إلّاغفرت لی ذنبی، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: وما ذنبک؟ صفه لی، قال: هو أعظم من أن أصفه لک، قال: ویحک ذنبک أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: ویحک ذنبک أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه. قال صلی الله علیه و آله: فذنبک أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: فذنبک أعظم أم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۵ السماوات؟ قال: بل ذنبی یا رسول اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: ذنبک أعظم أم اللَّه؟ قال: بل اللَّه أعظم وأعلی وأجل. قال: ویحک فصف لی ذنبک، قال: یا رسول اللَّه، إنی رجل ذو ثروهٔ من المال، وأنّ السائل لیأتینی لیسألنی فکأنما یستقبلنی بشعلهٔ من النار، فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: إلیک عنی، لا تحرقنی بنارک، فوالّذی بعثنی بالهدایهٔ والکرامهٔ، لو قمت بین الرکن والمقام، ثمّ صلیت الفی ألف عام، وبکیت حتّی تجری من دموعک الأنهار وتسقی بها الأشجار، ثمّ متّ وأنت لئیم، لأکبک اللَّه فی النار، ویحک أما علمت أنّ اللَّه یقول: «... وَمَن یَبْخَلْ فَانَّمَا یَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ ...» «۱». «.. وَمَن یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۲» «۳». هذا الحدیث یدلّ بوضوح علی أنّ «البخل» هو مصدر لأنواع الذنوب والمفاسد بحیث یبعده عن اللَّه تعالی إلی هذه الدرجهٔ. ۴- وجاء فی حدیثٍ آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یَقُولُ قَائِلُکُم الشَّحیحُ أَعْذَرُ مِنَ الظّالِمِ وَأَیُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ لا یَدْخُلُ الجَنَّهَٔ شَحیحٌ وَلا بَخیلٌ» «۴». ۵- وورد فی حدیث آخر عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله «الشُّحُ وَالایمانُ لا یَجْتَمِعانِ فِی قَلْبٍ واحِدٍ» «۵». ۶- وورد فی حدیث آخر عن النبی صلی الله علیه و آله أیضاً قوله «الْبُخْلُ شَجَرَهٌٔ تَنْبُتُ فی النّارِ فَلا یَلِجُ النّارُ الّا بَخیلٌ» «۶». ۷- وورد فی أحد الروایات أنّ أحد أصحاب النبی صلی الله علیه و آله استشهد فی میدان الجهاد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۶ فجاءت امرأهٔ من ذویه وأرحامه تبکیه وتقول یا شهیداه، فقال النبی صلی الله علیه و آله: من أین علمتی انه شهید، «فَلَعَلَّهُ کَانَ یَتَکَلّمُ بِمَا لا یَعنیهِ اوْ یَبْخَلُ بِمَا لا یَنْقُصُهُ» «۱». هذا الحدیث یبین أنّ الکلام بما لا یعنی والبخل ولا سیّما بما لا یضره یتسبب فی سلب أکبر افتخار قد یناله الإنسان ألا وهو الشهادهٔ فی سبیل اللَّه. ۸- وقد ورد فی النصوص الإسلامیهٔ عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کذلک قوله «جَاهِلٌ سَخیٌّ احَبُّ الَی اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخیلٍ وَادْوَی الدّاءِ البُخْلُ» «۲». هذا الحدیث یوضح أنّ البخل قد یؤدی إلی تلف معطیات العبادهٔ وزوال آثارها الایجابیهٔ فی حیاهٔ الفرد. ۹- وأیضاً نقل عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «المُوبِقاتُ ثَلاثٌ شُحٌ مُطاعٌ وَهَویً مُتَبَّعٌ وَاعجَابُ المَرْءِ بِنَفسِهِ» «۳». ۱۰- ونختم هذا الموضوع بروایهٔ اخری عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رغم وجود روایات کثیرهٔ فی هذا الباب، فقد ورد فی الحدیث النبوی أنّ جماعهٔ من الأسری جیء بهم إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأمر أمیرالمؤمنین علیه السلام بضرب أعناقهم ثمّ أمره بإفراد واحد منهم وأن لا یقتله فقال الرجل لم أفردتنی من أصحابی والجنایهٔ واحدهٔ؟ فقال: إن اللَّه عزّوجلّ أوحی إلیّ أنک سخی قومک ولا اقتلک. فقال الرجل: فانی أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنک رسول اللَّه «۴».

جذور البخل وعلائمه:

إن الجذور الأصلیهٔ لهذه الرذیلهٔ الأخلاقیهٔ مثل سائر الرذائل الأخلاقیهٔ الاخری تتمثل فی ضعف دعائم الإیمان ومعرفهٔ اللَّه لدی الشخص، فالإنسان إذا اعتقد بأن اللَّه تعالی قادر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۷ علی کلّ شیء وإن جمیع مفاتیح الخیرات والبرکات بیده تعالی یجب أن یتیقن من أنّ اللَّه سیوفی بوعده بالنسبهٔ إلی ما یترتب علی الانفاق فی سبیل اللَّه إلی النتائج المادیهٔ والمعنویهٔ، فإذا عاش الإنسان بهذه العقیدهٔ، فلا مجال لأن یتلوث قلبه بالبخل أو یتصف قلبه بالامساک. یقول الإمام أمیرالمؤمنین علیه

السلام «الْبُخْلُ بِالمَوجُودِ سُوءُ الظَنِّ بِالمَعْبُودِ» «۱». أی أنّ الإنسان یسیء الظن بما وعد اللَّه تعالی من الثواب علی الانفاق والبذل فی سبیله. وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «ان کانَ الخَلَفُ مِنَ اللَّهِ عزّوجلّ حَقّاً فَالبُخْلُ لِماذَا» «۲». ونقرأ فی کتاب «فقه الرضا» «ایّاکُمْ وَالبُخْلَ فَانَّهَا عَاهَةٌ لا تَکُونُ فی حُر وَلا مُؤمِنٍ انَّها خِلافُ الإیمانِ» «۳». وورد فی الحدیث القدسی عن رسول اللَّه تعالی صلی الله علیه و آله یقول «یَاعَبدِی اتَبَخَلُنی ام تَتَّهِمُنی أَم تَظُنُّ انّی عَاجِزٌ غَیرُ قَادِرٍ عَلَی اثَابَتِکَ» «۴». أجل، إن الأحرار والمؤمنین والّذین یؤمنون بوعد اللَّه تعالی فإنّهم یعیشون الاطمئنان لقدرة اللَّه تعالی علی جمیع أنواع الثواب، فلا تهتز لهم ید فی عملیة الانفاق فی سبیل اللَّه، ولا یجد البخل إلی أنفسهم سبیلًا، بل یتحرکون دائماً فی خطّ الانفاق والجود علی عباداللَّه من الفقراء والمساکین والمحتاجین ولا یطلبون الأجر إلّاممن هو قادر علی کلّ شیء وکریم بذاته وعلیم بحال عباده. ومن العلائم الاخری للبخل هی الاعتذار بالأعذار المختلفة لتبریر الامساک ومنع البذل للآخرین، البخلاء یتحرکون دائماً فی عملیة التغطیة علی هذه الرذیلة الأخلاقیة المترسخة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۸ فی أنفسهم من موقع التذرع بالأعذار الواهیة بل أنّهم یخدعون أنفسهم أیضاً بمثل هذه الأعذار، وعلی سبیل المثال من کان لدیه مالٌ کثیر ولکنه غیر مستعد للانفاق منه أو إقراض الغیر فإنه یتمسک فی هذا المنع بالأعذار من قبیل انه یحتمل اننی سأواجه مشکلة احتاج فیها إلی هذا المال، أو یحتمل أن یقع ابنی مریضاً علی الفراش، أو من المحتمل أن یرد علیّ بعض الضیوف، أو أنّ المستقبل الاقتصادی للسوق یتجه إلی الکساد وأمثال ذلک. یقول الإمام علی ابن أبی طالب علیه السلام فی هذا الصدد «الْبَخِیلُ مُتَحَجِّجٌ بِالمَعاذِیرِ وَالتَّعالِیل» «۱». ویقول فی مکان آخر «کَثْرَةُ العِلَلِ آیَةُ البُخْلِ» «۲». فمن العلائم الاخری للشخص البخیل هی ستر النعم والمواهب الإلهیة بحجج وذرائع مختلفة عن أنظار الناس لکیلا یطلب الناس منه شیئاً منها، وبالطبع فإنّ هذه الحالة فی الکثیر من الأوقات تلبس لباس المنطق والدلیل من قبیل الخوف من الحسد أو الخوف من الأخطار غیر المتوقعة وأمثال ذلک. العلامة الاخری للبخل هی انه عندما یواجه الأمر الواقع وینفق شیئاً فی سبیل اللَّه فإنه یجد فی نفسه ألماً وحزناً کبیراً وکأنه قد فقد شیئاً عزیزاً علیه أو أحد أحبته.

آثار ونتائج البخل:

إن من بین الصفات الذمیمة والرذائل الأخلاقیة قلما نجد صفة من الصفات تورث الإنسان مشاکل ومصاعب کالبخل بما له من افرازات سلبیة کبیرة فی حرکة الحیاة والمجتمع، ومن جملة ذلک فان البخیل بالرغم من سعیه لحفظ أمواله وثروته فإنه یتنازل ویفقد الکثیر من شخصیته وحرمته بین الناس، وفی هذا الصدد نجد أنّ الروایات الإسلامیة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۹ قد أشارت إلی هذا المعنی علی نحو الاجمال ومنها: ۱- یقول الإمام علی علیه السلام «الْبَخیلُ یَسْمَحُ مِنْ عِرْضِهِ بِاکْثَرِ مِمَّا امْسَکَ مِنْ عَرَضِهِ» «۱». ۲- إن البخیل سوف یفقد باستمرار أصدقائه ورفاقه وبالتالی یصبح وحیداً غریباً أمام المشکلات الکبیرة الّتی تفرزها تحدیات الواقع الصعب، وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «لَیْسَ لِبَخیلٍ حَبیبٌ» «۲» ؛ وعلی فرض انه کان له صدیق لمدّة قصیرة من الزمان فإنّ «البخل» یتسبب فی الحاق الذلّة لأصدقائه والعزّة لأعدائه کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الَبُخْلُ (البَخیلُ) یُذِلُّ مُصاحِبَهُ وَیُعِزُّ مُجانِبَهُ» «۳». ۳- إن «البخیل» یوقع نفسه فی التعب والضنک دائماً، وفی نفس الوقت فإنّ ورثته هم المستفیدون من عمله وتعبه، فهو فی الدنیا یتعب نفسه فی جمع الأموال، وفی الآخرة یجد نفسه مسؤولًا عنها کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْبَخیلُ خَازِنٌ لِوَرَثَتِهِ» «۴» الورثة الّذین قد لا ینفقون من أمواله درهماً فی سبیل اللَّه وفی سبیل بذل الخیرات والمثوبات له. ۴- «البخیل» یعیش عیشة الفقراء لأن البخل عندما یشتد علی الإنسان فإنه یبخل حتّی علی نفسه، وبذلک لایجد السعادة والحیاة الطیبة والمریحة لأنّه یعیش التفکیر الدائم فی کیفیة حفظ أمواله وزیادتها، وأحیاناً تعرض علیه حالات نفسانیة سلبیة من قبیل سوء الظن الشدید بمن یحیط به، مثلًا یتصور أنّ الناس ینظرون إلیه بعین الطمع ویحسدونه علی ما لدیه من الأموال والثروات بل ویعادونه أیضاً، وفی الأحادیث الإسلامیة نجد أشارات جمیلة إلی هذه المسألة، ومن ذلک ما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «عَجِبْتُ لِشَقِیَ الْبَخیلِ یَتَعَجَّلُ الفَقْرَ الّذی مِنْهُ هَرَبَ

وَيَفُوْتُهُ الْغِنَى الّذى ايّاهُ طَلَبَ فَيَعيشُ فى الدُّنيا عَيشَ الفُقَراءِ وَيُحاسَبُ فِى الآخِرَةِ حِسابَ الاغنياءِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۰ وفى حديثٍ آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اقَلُّ النّاسِ راحَةً الْبَخيلُ» «۱». ۵- «البخل» يوجب سوء الشهرة والسمعة ويؤدى إلى تهكم الناس ولعنهم لهذا الشخص البخيل كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام «بِالْبُخْلِ تَكْثُرُ المَسَبَّةُ» «۲». ۶- «البخل» جامعٌ للكثير من الأخلاق الرذيلة والصفات الذميمة ويعتبر مصدراً للكثير من الرذائل الأخلاقيه من قبيل سوء الظن، الحسد، الخوف، الجبن، سوء النيّة وتلوث الباطن وقساوة القلب وما إلى ذلك، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد «النَّظَرُ اَلَى البَخيلِ يُقْسِىَ الْقَلْبَ» «۳». وورد حديث آخر جامع لمساوىء البخل، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَساوِى العُيوبِ وَهُوَ زِمامٌ يُقادُ بِهِ اَلَى كُلِّ سُوءٍ» «۴».

درجات البخل:

إن حال «البخل» كحال سائر الصفات الرذيلة فى أنّ له درجات ومراتب، وبعض هذه المراتب قد تكون خفية إلى درجة تخفى حتّى على الشخص نفسه وتخفى على الآخرين أيضاً، وهناك بعض المراتب إلى درجة من الوضوح بحيث إن كلّ إنسان يدركها حتّى الأطفال. بعض الناس يبخلون بأموالهم فحسب أى أنّهم غير مستعدين بأن ينتفع الآخرون بأموالهم بأى مقدارٍ كان، والبعض الآخر يتجاوز هذا الحدّ فيبخل بأموال الناس أيضاً، أى انه لو رأى أنّ شخصاً يقوم بالبذل والانفاق على الآخرين فإنه يتألم بذلك، وبعض آخر يتجاوز هذه المرحلة أيضاً فكلما رأى كرماً من الناس حتّى على نفسه فإنه يتألم بذلك وهذا أعجب أشكال البخل. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۱ ومن جهة اخرى فإنّ البعض يبخلون فى الامور المادية، والبعض الآخر فى الامور المعنوية كمن يبخل فى بذل العلم والمعرفة، وبعض الناس يبخلون فى الموضوعات المهمة من قبيل بذل الأموال الكثيرة، فى حين أنّ البعض الآخر يبخلون حتّى بالمسائل الجزئية من قبيل السلام، والبعض قد يبخل فى العطاء والانفاق المستحب فى حين أنّ هناك من يبخل حتّى فى الواجبات مثل أداء الخمس والزكاة، وبعض البخلاء لا يتحركون فى تبرير بخلهم وامساكهم بينما نجد البعض الآخر يتسترون على هذا الامساك والاقتار بالتمسك بعناوين ظاهرية من قبيل عدم الاسراف أو تأمين نفقات الابناء أو الابتعاد عن الرياء والتظاهر أو التشكيك فى استحقاق المستحقين وأمثال ذلك. وعلى هذا فإنّ للبخل فروع متعددة وأشكال مختلفة، وينبغى على المؤمن المتقى مراقبة جميع هذه الاشكال والحذر منها والتصدى لها بإبعادها عن نفسه والحذر من التلوث بها كيما يحصل على مقام القرب الإلهى والكمال المعنوى فى حركة الحياة. ونجد فى الروايات الإسلامية اشارات لطيفة إلى أشكال وفروع البخل هذه ومنها: ۱- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْبُخْلُ بِاخْراجِ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الامْوَالِ اقْبَحُ البُخلِ» «۱». ۲- وورد فى حديثٍ آخر أنّ الإمام على عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر ... فقال رجل لأميرالمؤمنين عليه السلام: واللّه ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: لاكثّر اللّه فى المؤمنين ضربك، أعطى أنا وتبخل أنت ...» «۲». ۳- وجاء فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ ابْخَلَ النّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلامِ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۲ ۴- وفى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْبَخيلُ حَقّاً مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» «۱». ۵- ويستفاد من بعض الروايات أنّ بعض مراحل البخل ينطوى تحت عنوان «اللئيم» وهو الّذى يعيش الدرجة الشديدة من البخل كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «الرِّجالُ أرْبَعَةٌ سَخِىٌ وَكريمٌ وَبَخيلٌ وَلَئيمٌ، فَالسَّخِىُ الّذى يَأْكُلُ وَيُعْطِىَ وَالكَريمُ الّذى لا يَأْكُلُ وَيُعطِىُ وَالبَخيلُ الّذى يَأْكُلُ ولايُعطِىُ واللّئيمُ الّذى لا يَأكُلُ ولايُعطِىُ» «۲».

الوقاية من البخل وعلاجه:

كما أنّ الأمراض البدنية يتم التصدى لها والوقاية منها بالبحث عن جذورها وأسبابها فكذلك الحال فى الأمراض الأخلاقية، لأنّه ما لم

تقلع جذور المرض فإنّ عناصر المرض تراوح فى مكانها وسوف تظهر فى آونة اخرى بالرغم من زوال آثارها بشكل مؤقت. وبما أنّ دوافع «البخل» متعددة وكثيرة، فينبغى البحث عن جذور هذا المرض لأن البعض يعيشون التعلّق الشديد بشهوات الدنيا، وبما أنّ الأموال هى الوسيلة للوصول إلى هذه الشهوات فإنّهم يتعلقون بها ويعشقونها إلى درجة أنّهم غير مستعدين لبذل أى مقدار منها، هؤلاء الأشخاص يجب عليهم قطع هذه العلاقة الشديدة بتوجيه النفس واشغال العواطف بامورٍ اخرى والتفكر فى العواقب الأليمة للخوض فى الشهوات وما يقع فيه أهل الدنيا من المشاكل والازمات، وعند ذلك يتحفظون من السير فى هذا الخط المنحرف. الدافع الآخر للبخل هو طول الأمل، فإنّ الآمال الطويلة تدعو الإنسان إلى جمع المال والبخل فى انفاقه، فلو أنّ هذا الإنسان قطع آماله وطموحاته وأدرك أهتزاز الدنيا وتذبذبها وعدم استقامتها على حالٍ واحد، ورأى الأشخاص الّذين رحلوا عن هذه الدنيا بحوادث الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۳ مختلفة وأمراض متنوعة بدون انذار أو مقدمات وقد كانت لديهم أعمال وطموحات طويلة وعريضة فى هذه الدنيا، فإنّ ذلك من شأنه أن يحد من حالة «البخل» لدى هذا الإنسان. الباعث الآخر للبخل هو التعلق والعشق للأولاد والأهل والعيال حيث يدفعه ذلك إلى جمع الأموال وادخارها تحسباً لمستقبلهم فى حين أنّ اللَّه تعالى قد ضمَّن رزقهم ومعيشتهم، فلو كانوا من أولياء اللَّه وأحباءه فإنّ اللَّه تعالى سوف لا- يتركهم لوحدهم ولحالهم، ولو كانوا من أعداء اللَّه فإنّ جمع المال لمثل هؤلاء الأشخاص سيكون أداة لتوغلهم فى الذنوب والآثام وستقع مسؤولية ذلك عليه، فليس من العقل والمنطق أن يجمع الإنسان المال ويدخره لمثل هؤلاء- الأشخاص، وبالطبع أحياناً نجد بعض الأشخاص وبسبب لياقتهم الذاتية فإنّهم يتمتعون بعيشة حسنة وطيبة من دون أن يرثوا درهماً واحداً من والديهم بل قد يعيشون أفضل من حياة الّذين ورثوا أموالًا طائلة من أبيهم. والباعث الآخر لذلك كما يقول بعض علماء الأخلاق هو ما يشبه المرض من دون علاج، أى أنّ البعض يحب المال من أجل نفس المال ويعشقه ويسعى دائماً لجمعه والاكثار منه ويستوحش من بذله وانفاقه، هؤلاء اصابتهم حالة من النسيان والغفلة عن أنّ المال إنما هو وسيلة للتوصل إلى الأغراض المادية أو المعنوية، وألا فلو استخدم فى غير هذا السبيل وأصبح بحدّ ذاته هدفاً يجمعه الإنسان فإنه لا يختلف حاله مع الحجر والخشب والآجر. امّا الطريق إلى الوقاية من «البخل» فإنّ على الشخص البخيل أن يجاهد نفسه ويعض على نواجذه وينفق من أمواله مهما مانعته نفسه من ذلك، وكلما تكرر منه هذا العلم فإنّ العشق للمال سوف يذوب ويتلاشى من قلبه ومشاعره، كما هو الحال فى الشخص الجبان الّذى إذا دخل ميادين الحياة من موقع مواجهة التحديات للواقع والمعيشة، فإنّ ذلك الخوف سوف يزول ويتلاشى بالتدريج، وهكذا بالنسبة إلى الشخص الخجول حيث إنه إذا دخل مجالس الكبار ودفع بنفسه إلى التحدّث فى مثل هذه المجالس مرّات عديدة فسوف تزول منه حالة الخجل هذه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۴ ومن الطرق الاخرى هى التفكر فى كراهية الناس وانزجارهم من الشخص البخيل والأشخاص الّذين لا يعيشون حالة الكرم والبذل، فإنّ الناس يتعاملون معهم على مستوى أنّهم أشخاص غير مرغوب بهم ولا يحترمونهم كما يحترمون الاسخياء والكرماء من الناس، وأحد طرق علاج «البخل» والابتعاد عن هذه الرذيلة الأخلاقية هو التفكّر فى العواقب الوخيمة والآفاق السلبية الكبيرة لحالة البخل حيث يترتب على ذلك أن يتخلص الإنسان تدريجياً من هذه الحالة الذميمة. وفى هذا الصدد يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «البَخيلُ يَبْخَلُ عَلَى نَفْسِهِ بِاليَسيرِ مِن دُنياهُ وَيَسمَحُ لِوُرّاثِهِ بِكُلِّها» «۱». وجاء فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن بَرِءَ مِنَ البُخلِ نالَ الشَّرَفَ» «۲». فالتفكر فى كلّ هذه الامور بإمكانه أن يخلص الإنسان من أسر البخل وخاصّة إذا التفت إلى الروايات الشريفة الّتى تقرر أنّ البخل لا يجتمع مع الإيمان إطلاقاً. ۱۸

الجود والسخاء

تنويه:

تقع هاتين المفردتين «الجود والسخاء» فى مقابل البخل، وتستعملان غالباً بمعنى واحد، ولكن أحياناً يستفاد من بعض كلمات العلماء

أنّ الجود لنفس المرحلة أعلى من السخاء، لانه ورد فى تعريف الجود انه «البذل بدون طلب وفى نفسه يرى ما بذله قليلًا» وقيل أيضاً فى تعريفه «الجود هو الفرح من طلب الناس والسرور من العطاء لهم» وقال البعض أيضاً «الجود هو بذل المال بأن يراه مال اللّه والسائل عبداللّه ويرى نفسه فيما بينهما واسطة فقط» فى حين أنّ السخاء له معنىً واسع ويشمل كلّ أنحاء البذل والعطاء. وذكر البعض فى تعريفهما أنّ «الشخص الّذى يهب قسماً من أمواله إلى الغير ويبقى لنفسه القسم الآخر فهو السخى، والشخص الّذى يهب أكثر ماله إلى الغير ويبقى مقداراً قليلًا منه لنفسه فهو الجواد» ويتبين طبقاً لجميع هذه التعاريف أنّ «الجود» مرحلة أعلى من «السخاء». وعلى أية حال فإنّ «الجود والسخاء» من الفضائل الأخلاقية المهمة، وكلّما كان «البخل» من علامات الدناءة والحقارة وضعف الإيمان وفقدان الشخصية للإنسان البخيل كان الجود والسخاء من علائم الإيمان وقوّة الشخصية وسمو المكانة الاجتماعية للشخص. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۶ اما فى القرآن الكريم رغم أنّ كلمة «الجود» أو «السخاء» لم تستخدم فى سياق الآيات الكريمة، ولكن التعبيرات الاخرى للآيات تنطبق على هذين المفهومين حيث يتبين جيداً أنّ القرآن الكريم يعطى أهمية بالغة لهما، وكنموذج على ذلك نورد هذه الآيات الشريفة: ۱- «... يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ الَيهِم وَلايَجِدُونَ فِى صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى انْفُسِهُمْ وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». ۲- «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَاسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكوراً» «۲». ۳- «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلّ سُنْبُلَةٍ مّاْئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَا سِعٌ عَلِيمٌ» «۳». ۴- «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ» «۴». ۵- «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۵». ۶- «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون» «۶». ۷- «وَلَا تَجْعَلَ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۷».

تفسير واستنتاج:

سيماء الكرماء فى القرآن

«الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدّث عن طائفة من الكرماء الأنصار فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۷ المدينة الّذين استقبلوا المهاجرين إليهم من مكّة برحابة صدر واستضافوهم فى بيوتهم وفضلوهم على أنفسهم بل حتّى أنّهم قالوا: نحن على استعداد لتقديم أموالنا وبيوتنا بيننا وبين المهاجرين ولا نطمع بشىءٍ من الغنائم الحربية. القرآن الكريم يستعرض حالة هؤلاء المؤمنين فى الآية الشريفة فيقول «... يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ الَيهِم وَلايَجِدُونَ فِى صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى انْفُسِهُمْ وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». وقد ذكر بعض المفسّرين المعروفين أنّ التاريخ البشرى لم يعرف مثل هذا الاستقبال والحفاوة لجماعة من الغرباء لدى دخولهم إلى مدينة من المدن حيث استقبلهم المؤمنون استقبالًا عظيماً حتّى أنّهم كانوا يفضلوهم على أنفسهم وسعوا إلى تقسيم كلّ ممتلكاتهم معهم بالسوية بل ورد فى بعض الروايات أنّ عدد المهاجرين كان أقل من المستعدين لضيافتهم وكان ذلك سبباً فى حدوث خلاف بينهم فى نيل افتخار الضيافة. فكانوا يقترعون فيما بينهم على ذلك «۲». وعلى أية حال فإنّ اللّه تعالى قد مدح هذا الخلق الكريم وأثنى على هذا الايثار والسخاء بهذه العبارات الكريمة. «الآية الثانية» تتحدّث عن الكرماء الّذين قدموا طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير فى حين أنّهم محتاجون إليه بشدّة ومن دون طمع فى أجرٍ وثناء من الطرف المقابل «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَاسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكوراً» «۳». وهناك روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنّة تتحدّث عن أنّ الآيات ۸- ۹ من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۸ سورة الدهر نزلت فى أهل البيت عليهم السلام، كما ذكر العلّامة الأمينى فى كتابه «الغدير» عن أربع وثلاثين نفر من علماء السنّة المعروفين وأنّهم ذكروا هذا الحديث الشريف فى كتبهم (مع ذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة). وعلى هذا فإنّ الحديث المذكور مشهور بين أهل السنّة بل متواتر، وأما علماء الشيعة فهو محل اتفاق وأنّ جميع سورة الدهر أو قسم مهم منها نزلت فى أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله وهم «على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام». ولدى التأمل

والتدقيق فى آيات سورة الدهر يتضح جيداً أنّ اللَّه تعالى قد ذكر هؤلاء الكرماء من موقع التمجيد والثناء والمدح ووعدهم جزيل الثواب فى الآخرة ووصفهم بأوصاف سامية، فتارةً وصفهم بأنّهم «أبرار»، وفى مكانٍ آخر ذكرهم بعنوان «عباد اللَّه». «الآية الثالثة» تتحرك من موقع التشويق والترغيب الشديد لمسألة الانفاق والبذل وتثنى على الكرماء والاسخياء بتعابير فى غاية العلو والجمال وتقول «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مّاْ ئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَا سِعٌ عَلِيمٌ» «۱». فلو أننا أخذنا بظاهر الآية ولم نرتكب بعض التأويل والحذف والتقدير للمفهوم منها فإنّ الآية الشريفة تدلّ على أنّ روح المنفق والمحسن تنمو أو تشتد إلى درجة كبيرة بعملية البذل والانفاق كما أنّ أمواله تتضاعف وتتكاثر عدّة أضعاف بسبب الانفاق وكذلك يتصاعد الإنسان الكريم فى مدارج الكمال بسرعة كبيرة وحتّى أنّ الخطوات الصغيرة فى هذا السبيل تترتب عليها آثار عظيمة ونتائج كبيرة. وعلى هذا الأساس فإنّ الانفاق والبذل مضافاً إلى أنّه يُعد قوّة تصعد بالإنسان فى مدارج الرشد والكمال المعنوى والإنسانى للمجتمع البشرى، فكذلك هو الحال بالنسبة إلى الشخص نفسه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۹ وقد ورد فى الرواية الشريفة عن الإمام زين العابدين عليه السلام انه كلّما جاءه سائل وأعطاه من ماله فإنه يُقبل يد السائل، فلمّا سُئل عن سبب ذلك قال «لِانَّها تَقَعُ فِى يَدِ اللَّهِ قَبْلَ يَدِ العَبدِ» «۱». «الآية الرابعة» وضمن الإشارة إلى نكتة مهمة فى دائرة الانفاق تقول «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ» «۲». وعلى هذا الأساس فإنّ «السخاء» و «الانفاق» فى سبيل اللَّه بأى شكل كان فإنه مطلوب ومحبوب، ومن جهة اخرى فإنّ «الانفاق» يورث الإنسان الأمن من عذاب اللَّه ويزيل الهمَّ والحزن من قلبه، فالأشخاص الكرماء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون لأن اللَّه تعالى قد ضمن رزقهم وسعادتهم فلا يحزنون على ما بذلوه فى سبيل اللَّه لانهم يعلمون انما ينتظرهم من فضل اللَّه تعالى أكثر وأكثر ممّا بذلوه فى هذه الحياة الدنيا. «الآية الخامسة» تقرر هذا المعنى بتعبير آخر وتتحدّث عن الانفاق بالقول «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۳». وفى لغة العرب فإنّ كلمة «بر» تأتى بمعنى الاحسان المقارن للقصد والاختيار، وهذه من علامات شخصية الإنسان ومعنويته، واللطيف أنّ «البر» فى هذه الآية جاء بشكل مطلق، وهذا يدلّ على أنه ما لم يكن الإنسان سخياً وكريماً فإنه لا يصل إلى حقيقة البر والاحسان، رغم أنّ بعض المفسّرين فسّر كلمة «البرّ» بمعنى الجنّة، وبعض آخر ذكر أنّها بمعنى «التقوى و «الثواب الجزيل» ولكنَّ الظاهر أنّ مفهوم البرّ واسعٌ يشمل جميع ما ذُكر له من مصاديق. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۰ «الآية السادسة» تقرر أنّ الانفاق مضافاً إلى انه أحد الأركان المهمة للتقوى وأنّه مصدر الهداية الإلهية للمؤمنين، تقول: «الَّذينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون» «۱». ومع ملاحظة أنّ «ينفقون» جاءت بشكل فعل مضارع، ومفهومها أنّ هؤلاء ينفقون من المواهب الإلهية والعطايا الربانية الّتى لديهم بصورة مستمرة، وهذا يدلّ على كرمهم وسخائهم المتجذر فى نفوسهم بحيث اصبح ملكة إنسانية وصفة كريمة لديهم. فتعبير «مما رزقناهم» يشير إلى نكتة لطيفة فى المقام، وهى أنّ هؤلاء يرون أنّ جميع ما لديهم من الأموال والنعم هى مواهب إلهية ومن مال اللَّه، وعليه فلا دليل على البخل فى بذل شىءٍ منها إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، ويتضح أيضاً من ذلك أنّ «الانفاق» لا ينحصر بالزكاة بل يستوعب معنىً أكبر من ذلك بحيث يشمل الصدقات الواجبة والمستحبة. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث وضمن الأمر بضرورة رعاية الاعتدال فى البذل والعطاء والابتعاد عن الافراط والتفريط تصور لنا صياغة للسخاء والكرم الّذى هو الحدّ الوسط بين البخل والإسراف وتقول: «وَلَا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۲». وقد ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام بيان هذا المطلب فى مثال جميل حيث قال أخذ الإمام عليه السلام قبضة من التراب من الأرض وأمسك عليها بشدة وقال: هذا هو البخل، ثمّ أخذ قبضة اخرى وفتح يده إلى درجة أنّ جميع التراب انثال على الأرض فقال: هذا هو الإسراف، وفى الثالثة أخذ قبضة وقلب كفه نحو السماء وفتحها فوقع شىء من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۱ التراب من بين أصابعه وأطراف كفه على الأرض فقال عليه السلام: «القوام ما يخرج من بين الأصابع ويبقى فى الراحة منه شىء» «۱». وفى الآية مورد البحث ورد التعبير عن البخل بأنه «اليد المغلولة إلى العنق»، وعبّرت الآية عن الإسراف بقولها «تبسطها كلّ البسط»،

وبـذلك تحـدّثت عن هذين المفهومين من موقع الذمّ والتوبيخ وذكرت فى هذا السبيل عاقبة هذين السلوكين بقولها «ملوماً محسوراً». ومن مجموع الآيات الشريفة المذكورة آنفاً والّتى تحدّثت عن السخاء والانفاق والبذل وما ورد فى تفسيرها يتضح جيداً عظمة وأهمية هـذه الصـفة الإنسانيـة والساميـة مـن بيـن الصـفات الأخلاقيـة والقيم الإنسانيـة حيث إنّ الجـود والكرم والسـخاء لاـ تتسبب فى سـعادة المجتمعات البشرية ومحاربة الفقر وأنواع الحرمان والّتى هى بدورها تكون منشئاً للكثير من الذنوب والسلبيات الاخرى فحسب، بل لها دورٌ مهم فى تكامل الإنسان المعنوى والروحى فى خط التقوى والانفتاح على الحقّ.

السخاء فى الروايات الإسلامية:

وقـد ورد فى الروايات الإسـلامية تعبيرات كثيرة وشامخة حول الجود والسـخاء يقل نظيرها بالنسبة إلى الصـفات الاخرى، ونختار منها نماذج لبيان هذا المضـمون والمحتوى ۱- ورد فى الحـديث الشـريف عن النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «السَّخاءُ خُلْقُ اللَّهِ الاعْظَمُ» «۲». وفى الحقيقة أنّ جميع أشكال السخاء والكرم فى عالم الوجود ما هو إلّاتجليات للكرم الإلهى الواسع لأن كلّ ما لدينا فهو من اللَّه تعـالى من أنواع النعم والمواهب، الأـرض والسـماء، الحيـاة ومتعلقاتها الكثيرة وكلّ شـىء فهو من نعمه وكرمه، وكلّ كرم فهو فرعٌ من ذلك الأصل اللامتناهى والأبـدى، لأنّه لو لم نحصل على نعمـة وموهبة من اللَّه تعالى فليس بامكاننا بذل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۲ شـىء منها، وحتّى صفة الجود والكرم هى من مواهبه ونعمه على الإنسان. ۲- يقول الإمام الصادق عليه السلام «السَّخاءُ مِن اخْلَاقِ الْانْبِيَاءِ وَهُوَ عِمَادُ الْايْمَانِ وَلَا يَكُونُ المُؤمِنُ الّا سَـخِيّاً وَلايَكُونُ سَـخِيّاً الّا ذُو يَقينٍ وَهِمَّهُ عَالِيَـةٌ لَانَّ السَّخاءُ شُـعاعُ نُورِ اليَقينِ، وَمَنْ عَرَفَ مَا قَصَـدَ هانَ عَلَيْهِ مَا بَذَلَ» «۱». ويسـتفاد من هذا الحديث أنّ هذه الصفة السامية تتمثل أوّلًا فى وجود الأنبياء كصفة كريمة من الصـفات الأخلاقيـة العالية ومن علامات الإيمان واليقين للمؤمن. ۳- ونقرأ فى حـديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «تَحَلَّ بِالسَّخاءِ وَالْوَرَعِ فَهُما حِلْيَةُ الإيمَانِ وَاشْـرَفُ خَلالِكَ» «۲». وهذا الحديث يبين أنّ هذه الصـفة الشريفة من أفضل صفات المؤمن على الاطلاـق. ۴- وورد فى حـديثٍ آخر عن هـذا الإمـام عليه السـلام أيضـاً أنّه قـال: «السَّخـاءُ ثَمَرَةُ العَقْـلِ وَالقَناعَـةُ بُرهانُ النُّبْلِ» «۳». فالأشـخاص الّذين يمتنعون عن بـذل شـىءٍ ممّا لـديهم إلى الآخرين ويسـعون لجمع الأموال الطائلـة ثمّ يتركونها ويرحلون إلى العالم الآخر، فهم فى الحقيقة ليسوا بعقلاء لأنهم لم يحصلوا من جزاء ذلك سوى على التعب والنصب ولن ينتفعوا من أموالهم على المستوى المادى والمعنوى، فأىُّ عقلٍ يرتكب مثل هـذه الحماقـة؟! ۵- وفى تعبير آخر عن هـذا الإمام فى بيانه لأهمية «السـخاء» يشـير إلى نقطة لطيفة اخرى ويقول «غَطُّوا مَعايِبَكُم بِالسَّخاءِ فَانَّهُ سَتْرُ العُيوبِ» «۴». وقد ثبت بالتجربة صدق هذا الكلام الحكيم حيث نرى أشخاصاً لهم عيوب كبيرة ولكنَّ النـاس مع ذلك يحترمونهم من أجلٍ كرمهم وجودهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۳ ۶- وفى تعبير آخر عن هـذا الإمام عليه السـلام يقول «السَّخاءُ يَمْحَصُ الذُّنُوبَ وَيَجْلُبُ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ» «۱». وهـذا التعبير يدلّ على أنّ السـخاء كفّارة للكثير من الذنوب. ۷- ويقـول مـولى الموحـدين الإمـام على عليه السـلام فى بيـانه للتـأثير العميـق للسـخاء فى جـذب قلوب النـاس ومحبتهم «مَا اسْـتَجْلَبَتِ المَحَبَّةُ بِمِثلِ السَّخاءِ وَالرِّفْقِ وَحُسْنُ الخُلْقِ» «۲». ۸- ويقول رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فى هذا الصدد «السَّخيُّ قَريبٌ مِنَ اللَّهِ قَريبٌ مِنَ النّاسِ قَريبٌ مِنَ الجَنَّةِ» «۳». ۹- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «شَابٌّ سَخيٌّ مَرْهَقٌ فى الذُّنُوبِ احَبُّ الَى اللَّهِ عَزَّوَجـلّ مِنْ شَـيخٍ عَابـدٍ بَخيلٍ» «۴». ومن المعلوم أنّ «السـخاء» هو يتسـبب فى الامـدادات الإلهيـة للإنسـان وبالتالى فإنه يفضـى إلى انقاذ ذلك الشاب الملوث بالـذنوب من واقعه المزرى، ولكنَّ ذلك الشـيخ العابـد والبخيل يغرق فى الذنوب بسبب بخله. ۱۰- ونختم هـذا البحث بحديثٍ شـريف عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله حيث يقول «تَجَافُوا عَنْ ذَنْبِ السَّخى فَانَّ اللَّهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّما عَثُرَ» «۵». ومن مجموع الأحاديث الشريفة المذكورة آنفاً تتبين الأهمية الكبيرة للسخاء فى كلمات المعصومين عليهم السلام حيث رأينا أنّ هذه الفضيلة تتميز من بين سائر الفضائل الأخلاقية على مستوى الأهمية والفضيلة.

معطيات السخاء:

إنّ الآفاق والمعطيات الإيجابية للسخاء ثابتة بالتجربة فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد مرّت الإشارة إليها فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهى معطيات كثيرة منها: ١- ما يستفاد من الروايات المتعددة والتجارب الكثيرة ان السخاء يولد المحبّة فى قلب الصديق والعدو وبالتالى فإنه يزيد من كثرة الأصدقاء ويقلل من عدد الأعداء. ٢- إنّ «السخاء» يعد ستاراً على عيوب الشخص وبالتالى يحفظ ماء وجهه وحيثيته فى أنظار الناس والمجتمع. ٣- إن السخاء فى الوقت الّذى هو ثمرة من ثمار شجرة العقل فإنه يزيد من عقل الإنسان أيضاً، فالعقل يقول: انه لا معنى لأن يتعب الإنسان فى جمع الأموال وتكديسها وبالتالى تركها للورثة بدون أن يستفيد منها فى تحصيل الثواب وكسب الوجاهة بين الناس، ومن جهة اخرى فإنّ «السخاء» بإمكانه أن يجمع العلماء حول هذا الإنسان السخى وبالتالى يمكنه الاستفادة من أفكارهم وعقولهم وعلومهم. ٤- إن «السخاء» يتسبب فى تقليل الفاصلة بين طبقات المجتمع وبذلك يعمل على إزالة حالات التوتر النفسى المتولدة من حالات الصراع الطبقى أو يقلل من حدثها وتأثيرها، ويطفىء نار الحقد على الأثرياء فى قلوب المحرومين ويقلل من حس الانتقام لديهم، وبذلك يعمل على توطيد عنصر المحبّة والمودّة بين أفراد المجتمع. ٥- إن «السخاء» يؤدى إلى زيادة أنصار الإنسان السخى ويحفظ له وجاهته وسمعته فى المجتمع، ويدفع عنه شرَّ الأعداء والمغرورين، فلذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْجُودُ حَارِسُ الَاعْرَاضِ» «١». ٦- إن الجود و «السخاء» لهما من الآثار والمعطيات المعنوية الكبيرة جدّاً، ولهذا السبب فإنّها من صفات الأنبياء بالخصوص كما قرأنا فى الروايات السابقة، والسخاء شعاعٌ لنور الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٧٥ اليقين، وحتّى لو كانت هذه الفضيلة لدى الأشخاص الّذين يعيشون البعد عن الإيمان والتقوى فإنّ ذلك سيكون مفيداً لهم، وفى حديثٍ شريف أنّ اللَّه تعالى أوحى للنبى موسى عليه السلام بأنه «لا تَقْتُلُ السَّامِرِىَّ فَانَّهُ سَخِىٌّ» «١». ومن المعلوم أنّ السامرى تسبب فى فساد عظيم فى بنى إسرائيل واشاع فيهم دين الوثنية وعبادة الاصنام وفى النهاية عاش طريداً وحقيراً إلى درجة انه ربما رجّح الموت على الحياة، ولكن مع ذلك فإنّ اللَّه تعالى أوحى لموسى عليه السلام أنّ يحفظ دمه ولا يقتله لسخاءه وكرمه. وقد نقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لعدى ابن حاتم الطائى «دُفِعَ عَن أبَيكَ العَذابُ الشَّديدُ لِسَخاءِ نَفْسِهِ» «٢». وفى ذيل هذا الحديث ورد أنّ رسول اللَّه عليه السلام أمر بقتل جماعة من الجناة القتلة فى أحد الغزوات واستثنى منهم واحداً، فتعجب ذلك الرجل وقال: إن جنايتنا واحدة، فلماذا لم تأمر بقتلى؟ فقال له النبى صلى الله عليه و آله: إن اللَّه تعالى أوحى إلىّ بانك كريم قومك ولا ينبغى أن أقتلك. فلمّا سمع الرجل هذا الكلام من النبى اسلم وتشهد الشهادتين، أجل فإنّ سخاء هذا الرجل قاده إلى الجنّة. ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله: «السخىّ محبب فى السماوات، محبب فى الأرض ... والبخيل مبغض فى السماوات ومبغض فى الأرضين» «٣».

حدود السخاء:

إن السخاء كسائر الصفات والأفعال الحسنة لابدّ له من مقدار بحيث إذا تجاوز الإنسان ذلك المقدار وقع فى الإفراط وبالتالى يكون من الرذائل، فلا ينبغى أن يؤدى السخاء إلى الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٧٦ الاضرار بشخصية الإنسان ووجاهته وحيثيته ووجاهة من يلوذ به أيضاً. يجب أن يكون «السخاء» فى الأموال الحلال لا ـ فى الأموال الّتى يحصل عليها الإنسان من الطريق الحرام والظلم والعدوان مثل سخاء الكثير من السلاطين والملوك الجبابرة وامراء الجور. وكذلك لا ينبغى أن يكون «السخاء» فى الأموال المتعلقة ببيت المال، لأن أموال بيت المال ينبغى فيها الدقّة فى الحساب ورعاية العدالة فيها.

طرق تحصيل ملكة السخاء:

إن هذه الفضيلة الاجتماعية كسائر الفضائل الاخرى تحصل فى نفس الإنسان بالتعليم والتربية والتفكر والممارسة العملية. إذا توجه الإنسان والتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الأموال والثروات أمانة إلهية بيده ولا دوام لها، فهذا العلم يدفع الإنسان إلى البذل

والعطاء ويحسب ذلك وكأنه يضع هذه الأموال فى صندوق أمين يحفظها ليوم الحاجة والفاقة، وكذلك التأمل فى آثار وبركات السخاء ومعطياته المهمة فى واقع الإنسان وحياته فإنّ ذلك يمكنه أن يكون مؤثراً فى تحريك عامل الشوق بالبذل والسخاء. إن مطالعة تاريخ حياة الكرماء والبخلاء وسيرتهم والمقارنة بين هاتين الطائفتين من الاحترام الكبير والشخصية النافذة لدى الناس بالنسبة إلى الطائفة الاولى، والذلّة والحقارة والدناءة وسوء السمعة الّتى تحدق بالطائفة الثانية، كلّ ذلك من شأنه أن يورث الإنسان «السخاء» فى دائرة السلوك الأخلاقى. هذه الامور هى من البعد النظرى للمسألة، اما من حيث البعد العملى فإنّ الإنسان كلّما مارس هذا العمل أكثر وتمرّن عليه فى واقعه الاجتماعى فان هذه الفضيلة سوف تتعمق فى نفسه حتّى تحصل له ملكة الجود والسخاء، لأن تكرار الأعمال الكريمة والتحرّك من موقع البذل والعطاء فى التعامل مع الناس حتّى لو كان ذلك شاقاً على النفس فإنّه سيكون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۷ بالتدريج عادة، ثمّ يتحول إلى حالة، وبالتالى يكون ملكة أخلاقية فى واقع النفس. وضمناً فإنّ عملية تربية الوالدين والمعلم والاستاذ مؤثرة كثيراً فى هذا المجال، فلو أنّهم عودوا الطفل حالة الجود والسخاء منذ الطفولة فإنّ هذه الملكة الأخلاقية سوف تمد جذورها إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم وتكون فى الكبر جزءاً من شخصيتهم، ويذكر فى حالات «الصاحب بن عبّاد» أنّه كان فى أوان صغره إذا أراد المضىّ إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً ودرهماً كلّ يوم وتقول له تصدّق بها على أوّل فقير تلقاه فجعل هذا دأبه فى شبابه إلى أن كبر وماتت والدته. وكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلّابعد الافطار عنده وكانت داره لا تخلو فى كلّ ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة «۱». ونختم هذا البحث فى بعض الأحاديث الشريفة: ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الَجَنَّةُ دَارُ الاسْخِياء» «۲». ويقول الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللَّه تعالى يقول «انّى جَوادٌ كريمٌ لا يُجَاوِرُنى لَئيمٌ» «۳». وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «طَعامُ الجَوادِ دَواءٌ وَطَعامُ البَخيلِ داءٌ» «۴». وأحد العرفاء يدعى «ابن سمّاك» «۵» يقول «عَجِبْتُ لِمَن يَشتَرِىَ الْمَماليكَ بِمالِهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۸ وَلايَشتَرِى الْاحرارَ بِمَعروفِهِ» «۱». وقيل لابن عربى: من هو سيّدكم؟ فقال: «مَنِ احْتَمَلَ شَتْمَنَا وَاعطى سَائِلَنَا وَاغْضى جَاهِلَنا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۹

العجلة والتسرع

تلويح:

إن لكلّ عمل مقدّمات بحيث إذا لم تتوفر هذه المقدمات فالاقدام عليه يكون بغير طائل وبلا نتيجة مثمرة، وإذا توفرت هذه المقدمات ولم يقدم الشخص عليه وأفلتت الفرصة من بين يديه فالنتيجة تكون كذلك، فالشخص المدير والمدبر هو الّذى ينتظر ويصبر إلى أن تحين اللحظة المناسبة وتترتب المقدمات ثمّ يقدم على العمل لتحصيل النتيجة المرجوة ولا يتكاسل أو يهمل الموضوع حتّى تفلت منه الفرصة، ولهذا ورد فى معنى العجلة والتسرع، أنّ هذه الحالة من الصفات الرذيلة حيث يقدم الإنسان على عملٍ بدون توفر المقدمات المطلوبة وبدون أن تتهيأ الأرضية اللازمة لذلك، وفى مقابل هذه الحالة ورد «الصبر والتأنى» الّذى يعد من الفضائل الأخلاقية ودليلًا على عقل الرجل وحركته «وبالطبع فإنّ الصبر له أقسام اخرى سنشير إليها فى الفصول اللاحقة». إن الخسارة العظيمة الّتى تلحق بالأفراد والمجتمعات من جهة العجلة والتسرع أكثر من أن تحصى والقرآن الكريم يوصى الناس من موقع صياغة برنامج جامع للحياة بالصبر والتأنى والاجتناب من «العجلة والتسرع» مستعيناً بذلك بقصص من سيرة الأنبياء والقادة المصلحين للمجتمعات البشرية السالفة ليبين من خلال هذه القصص والوقائع اضرار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۰ العجلة المخربة ومعطيات الصبر والتأنى الطيبة. وبهذه الأشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ومن سيرة الأنبياء الماضين مفاهيم مؤثرة فى حركة الحياة الفردية

والاجتماعیة للإنسان: ۱- «قالَ لَهُ مُوسَی هَلْ أَتَّبِعُکَ عَلَی أن تُعَلّمَنِ مِمَّا عُلّمْتَ رُشْدًا* قالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا* وَکَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قالَ سَتَجِدُنِی إِنْ شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِی لَکَ أَمْرًا» «۱». ۲- «وَهَلْ أَتَاکَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* ... وَظَنَّ دَاوُودُ أ نَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاکِعًا وَأَنَابَ» «۲». ۳- «فَاصْبِر لِحُکْمِ رَبِّکَ وَلاتَکُن کَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادی وَهُوَ مَکظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَکَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ* فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِینَ» «۳». ۴- «.. وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان یُقضی الَیکَ وَحیُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً» «۴». ۵- «خُلِقَ الْإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِیکُمْ ءَایَاتِی فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» «۵». ۶- «وَیَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَیْرِ وَکَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۶». ۷- «وَیَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلتُ وَإِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَی ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّکَ لَشَدِیدُ الْعِقَابِ» «۷». ۸- «وَلَوْ یُعَجّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَیْرِ لَقُضِیَ إِلَیْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ» «۸». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۱ ۹- «وَیَقُولُونَ مَتَی هذَا الْفَتْحُ إِنْ کُنتُمْ صَادِقِینَ* ... فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ» «۱». ۱۰- «فَاصْبِر کَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم کَانَّهُم یومَ یَرَونَ مَا یُوعَدُونَ لَمْ یَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ یُهْلَکُ الّا الْقَومُ الفَاسِقُونَ» «۲».

تفسیر واستنتاج

فی «الآیات الاولی من الآیات محل البحث یستعرض القرآن قصة الخضر علیه السلام والنبی موسی علیه السلام، وطبعاً فإنّ القرآن الکریم لم یذکر اسم الخضر بل عبّر عنه بقوله «عَبْدَاً مِنْ عِبَادِنَا»، هذه القصة مشهورة ومعروفة لدی القاریء الکریم، وما هو محل نظرنا وبحثنا منها هو أنّ النبی موسی علیه السلام طلب العلم وذهب إلی حیث ینال العلم بسفرٍ خاصّ وجاء إلی الخضر لیستقی من علومه ومعارفه ما یختلف عن العلوم الّتی اکتسبها عن طریق الوحی، وهی العلوم المتعلقة بأسرار الطبیعة وحقائق الامور والحیاة البشریة الّتی لابدّ أن یطلع علی قسم منها نبیّ من اولی العزم مثل موسی علیه السلام لتتضح له الصورة جیّداً فی عملیة التفاعل الإنسانی والاجتماعی ولیکون علی بیّنة من هذه الامور. وهنا قال الخضر لموسی علیه السلام بعد طلب موسی علیه السلام التعلم منه: بانک لا تتحمل ولا تطیق ما تراه من هذه العلوم لأنک لم تدرک حقائق الامور فی باطنها، ولکنَّ النبی موسی علیه السلام وعده بالصبر والتأنی واجتناب العجلة والتسرع، فشرط علیه الخضر هذا الشرط وانه إذا صحبتنی فیجب أن تلتزم السکوت اتجاه أی فعلٍ یصدر منی مهما کان عجیباً ومنافیاً للمقررات والاصول السائدة بین الناس، ولابدّ أن تعلم أنّ فی ذلک حکمة سوف أُطلعک علیها، فتقول الآیات وهی تحکی هذه الحادثة «فَوَجَدا عَبداً مِن عِبادِنا ... قَالَ فَانِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۲ اتَّبَعْتَنی فَلا تَسْئَلْنی عَنْ شَیءٍ حَتّی احدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِکراً» «۱». وعلی هذا الأساس أراد الخضر علیه السلام أن یُعلم موسی علیه السلام درساً فی روح الصبر والتأنی أمام الحوادث والمسائل المختلفة فی حرکة الحیاة لیتربی موسی علیه السلام علی هذه الصفة الأخلاقیة، ویسلک حیاته الاجتماعیة بعیداً عن حالة «العجلة والتسرع» فی تعامله مع الواقع والحیاة «خاصة العجلة فی القضاء والحکم ولا سیّما بالنسبة إلی أعمال شخصیات کبیرة مثل موسی علیه السلام ء ومع هذا الوعد والشرط تحرکا فی مسیرهما وسفرهما حتّی وصلا البحر فوجدا سفینة ترید أن تتحرک وترحل فرکبا فیها، فلمّا مضت مدّة رأی موسی علیه السلام أمراً عجیباً من الخضر علیه السلام حیث شاهد الخضر علیه السلام وهو یحاول ایجاد ثقب فی اسفل السفینة سراً، فلم یتمالک موسی علیه السلام نفسه أمام هذا العمل الشنیع واعترض علی الخضر بشدّة، ولکنَّ الخضر علیه السلام ذکره بوعده والشرط الّذی اشترط علیه، فما کان من موسی علیه السلام إلّاأن تراجع واعتذر عن فعله. ثمّ استمر فی طریقهما وسفرهما، وفجأة ارتکب الخضر عملًا أعجب من الأوّل حیث شاهد صبیاً فقتله، وهنا صرخ به موسی علیه السلام محتجاً علیه بانک لماذا تقتل الأبریاء، ولماذا ترتکب هذه الأفعال القبیحة؟ وهنا نجد الخضر علیه السلام یذکره مرّة اخری بعهده ووعده السابق من إلتزام الصبر والسکوت، فأجابه موسی معتذراً عن هذا التسرع وقال له: إذا رأیت منی اعتراضاً للمرّة الثالثة فإنّ لک الحقّ فی أن تنفصل عنی. ثمّ تحرکا متنقلین من مدینة إلی اخری إلی أن وصلا إلی قریة یتسم أهلها بالبخل الشدید وعدم اعتنائهم بالضیف، ولکنَّ الخضر

علیه السلام لم یهتم لـذلک بل شـرَع فی ترمیم جدار وجده فی حالة الانهیار والسقوط، فرأی موسی علیه السلام أنّ مثل هذا العمل تجاه ما رأوه من جفاء أهل هذه القریة هو عمل سخیف، ولذلک نسی مرّة اخری عهده مع الخضر علیه السلام واعترض علیه فی هذا العمل. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۳ وهنا جلس الخضر علیه السلام لیشرح لموسی علیه السلام أسرار هذه السلوکیات والأفعال الغریبة ویبین له الحقائق الخفیة لعالم الوجود بحیث إن موسی علیه السلام شعر بأنه قد فتحت أمامه نافذة جدیدة علی أسرار حیاة الناس، وعندها ودع الخضر علیه السلام موسی علیه السلام بعد أن حمله معارف جمة من هذه العلوم الغریبة. وأخیراً تقول الآیات الکریمة فی استعراضها لما حدث بین الخضر وموسی علیهما السلام حیث تبین تفاصیل ورموز العلل الکاملة وراء هذه التصرفات العجیبة للخضر علیه السلام وتقول علی لسان الخضر علیه السلام «أَمَّا السَّفِینَةُ فَکَانَتْ لِمَسَاکِینَ یَعْمَلُونَ فِی الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِیبَهَا وَکَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِکٌ یَأْخُذُ کُلَّ سَفِینَةٍ غَصْباً». «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَکَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَیْنِ فَخَشِینَا أَنْ یُرْهِقَهُمَا طُغْیَاناً وَکُفْراً* فَأَرَدْنَا أَنْ یُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَیْراً مِنْهُ زَکَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً». «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَکَانَ لِغُلَامَیْنِ یَتِیمَیْنِ فِی الْمَدِینَةِ وَکَانَ تَحْتَهُ کَنزٌ لَهُمَا وَکَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّکَ أَنْ یَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَیَسْتَخْرِجَا کَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی ذَلِکَ تَأْوِیلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً» «۱». ولو أنّ موسی علیه السلام لم یستعجل بحکمه علی أفعال الخضر علیه السلام لکان قد بقی مع الخضر واستفاد أکثر من علومه، ولکنَّ «العجلة والتسرع» کانا السبب لأن یحصل علی هذه الثمار الثلاثة فقط ویحرم من الزیادة. «الطائفة الثانیة» من الآیات محل البحث تستعرض واقعة اخری لأحد الأنبیاء العظام حیث تسببت العجلة والتسرع فی القضاء والحکم أن یقع مورد العتاب الإلهی. والقصة هی انه بینما کان داوود علیه السلام یوماً فی محرابه إذ دخل علیه رجلان أحدهما یشتکی من الآخر ویقول: «انَّ هَذَا اخِی لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِیَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۴ اکْفِلْنِیهَا وَعَزَّنِی فِی الْخِطَابِ» «۱». وقبل أن یتحقق داود من المسألة ویدرس کافة تفاصیلها تسرع فی الحکم «... لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤآلِ نَعْجَتِکَ الَی نِعَاجِهِ ...» «۲». وهنا انتبه النبی داوود علیه السلام إلی انه ارتکب الترک الأولی «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاکِعًا وَأَنَابَ» «۳». ولیس هذا البحث محلًا مناسباً لدراسة هذه الواقعة بتمام تفاصیلها الدقیقة «وقد بحثناها فی التفسیر الأمثل بالتفصیل» ولکننا نقتصر علی بیان هذه الحقیقة، وهی أنّ «العجلة والتسرع» وخاصّةً بالنسبة إلی القضاء والحکم بین الناس سیفضی حتماً إلی تعقید الامور والفضیحة وتعمیق المشکلة علی المستوی الفردی والاجتماعی. وتتعرض «الطائفة الثالثة» من الآیات محل البحث إلی قصة النبی یونس علیه السلام ومسؤولیته العظیمة فی الدعوة إلی الحقّ وهدایة الناس إلی اللَّه، ولکنه فی لحظة من اللحظات تساهل فی أمر هذه المسؤولیة الإلهیة وارتکب الترک الأولی وبالتالی أصابه العقاب الإلهی بسبب ذلک. والقصة هی أنّ النبی یونس علیه السلام عاش مدّة طویلة مع قومه کالأب الحنون حیث تحمل مسؤولیة انقاذ قومه من الضلالة والإنحراف، ولکنه لم یواجه منهم أمام منطقه الحکیم سوی السفسطة والمغالطة والسخریة، ولم یؤمن له من قومه إلّاعدد قلیل جدّاً، ولعلّه لم یتجاوز الرجلین «أحدهما عابد والآخر عالم»، وأخیراً فإنّ النبی یونس علیه السلام أصابه الیأس من إیمان قومه، فدعی علیهم باقتراح من الرجل العابد، واستجاب اللَّه دعاءه، وأوحی إلیه انه سینزل علیهم العذاب الإلهی فی الیوم الفلانی، وعندما اقترب زمان نزول العذاب ترک النبی یونس الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۵ علیه السلام هؤلاء القوم وصحب معه الرجل العابد بدون أن یُتم الحجّة علیهم فلعلّهم یتوبون تلک اللحظات الأخیرة ویعودون إلی اللَّه تعالی، ولکنَّ الرجل العالم بقی معهم واستمر فی تبلیغ الرسالة الإلهیة. وقد أثمر هذا التبلیغ وهذه الدعوة من الرجل العالم ثمره تزامناً مع اقتراب لحظات نزول العذاب، فحدث أن أوجب کلام هذا العالم وعلامات نزول العذاب تحولًا کبیراً فی أعماق نفوس هؤلاء القوم، وأنابوا إلی رشدهم وخرجوا مصطحبین معهم ذلک العالم إلی الصحراء لیعلنوا توبتهم وانابتهم إلی اللَّه وسلوکهم فی طریق الإیمان والتقوی، فلعلّ اللَّه یرحمهم ویغفر لهم، وهکذا قبل اللَّه تعالی توبتهم وتاب علیهم ولکنه وبخّ یونس علیه السلام علی تسرعه وعجلته فی ترک هؤلاء القوم. القرآن الکریم یخاطب نبی الإسلام فی هذه الآیات الکریمة أن لا یستعجل فی طلب العذاب الإلهی علی المشرکین من قریش ولا یکون کیونس علیه السلام «فَاصْبِر لِحُکْمِ رَبِّکَ وَلا تَکُن کَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادی وَهُوَ مَکظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَکَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ» «۱». ولکن اللَّه تعالی

قبل توبته من هـذا الترک الأولى، وعنـدما خرج يونس عليه السـلام من بطن الحوت كان قد تطهر من كلّ ذنب وترک للأولى، ولهذا نقرأ بعـد هـذه الآية قوله تعالى «فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۲». فالبرغم من أنّ يونس لم يتم الحجّـة على قومه بالمقـدار اللازم، ولكن اللَّه تعـالى كـان يتوقع من هـذا النبى الكريم أن يصبر ويتأنى أكثر من ذلک، ولـذلک عاقبه على عجلته وتسـرعه فى مقابل عناد اولئک القوم. وتتحرک «الآية الرابعة» من موقع منع نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله من «العجلة والتسرع» وتقول الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۶ «فَتَعالَى اللَّهُ المَلِکُ الحَقُّ وَلَا تَعجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبلِ ان يُقضى الَيْکَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «۱». ويستفاد من بعض الآيات القرآنيـة الاخرى أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عنـد نزول الوحى كان يعيش حالـة خاصّة من الشـغف والشوق والحرارة تقوده إلى الاسـتعجال فى استلهام الوحى، ولـذلک تصـدت هـذه الآية الشـريفة لتذكير النبى صـلى الله عليه و آله بذلک ومنعه «.. وَلَا تَعْجَـلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان يُقضـى الَيکَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «۲». ورغم أنّ المفسّـرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسير هذه الآيـة الشـريفة، ولكنّهم متفقون على أنّ الآيـة ناظرة إلى أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله لا ينبغى أن يسـتعجل فى اسـتلام الوحى بالرغم من أنّ أصل الموضوع هو عمل إلهى ويتضـمّن هداية الناس إلى اللَّه تعالى. وعلى الرغم من أنّ اسـتعجال النبى صلى الله عليه و آله فى اسـتلام الوحى أو تلاوة الآيات القرآنية على أصـحابه أو طلبه بنزول الوحى كلّ ذلک كان بسـبب عشـقه وشوقه لهداية الناس، ولكن حتّى هـذا العمـل الإيجابى والإنسـانى لاـ ينبغى أن يتم من موقع العجلـة بـل ينبغى أن يكون متزامناً مع الصـبر والتـأنى. «الآـية الخامسـة» تتحـدّث عن جميع الناس، أو بتعبير آخر عن طبيعـة الإنسان وتقول: «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِى فَلَا تَسْـتَعْجِلُونِ» «۳». وكأن الإنسان فى سـلوكه وحركته فى حياته إلى درجـة من العجلـة وكأن ذاته ونفسه قـد عجنت بالعجلة فهى عين العجلة. وتشـير هذه الآية إلى أنّ طبيعة الإنسان مخلوقة منذ اليوم الأوّل بالعجلة والتسـرع، ولكنه يجب عليه استخدام هذه الحالة وسلوک طريق التسرع والعجلـة بعـد توفر المقـدمات للعمـل لا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۷ قبـل ذلـک. وعبـارة «بآياتى» يمكن أن تكون إشارة إلى معجزات النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أو آيات القرآن الكريم أو علائم العذاب الإلهى أو حلول القيامة أو جميع ذلک من الآيات الإلهيـة، فلا يختلف الحال فى أخـذنا لكلّ هـذه التفاسير المـذكورة لهـذه الآيـة، لأن جميع هذه الامور من نزول آيات القرآن وظهور المعجزات وحصول علائم القيامـة وكـذلک نزول العذاب الإلهى كلّها تتفق مع الحكمة الإلهية فى ظرف نزولها الخاصّ، ولا تقترن مع العجلـة والتسـرع لأـن اللَّه الحكيم لا يعمل عملًا على خلاف حكمته، وعليه فلا ينبغى الاسـتعجال فى طلب هـذه الامور. أمّا قوله تعالى للآية الشـريفة «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ» فهو إشارة إلى الأشـخاص الّذين لم يتحركوا فى خطّ التربية الإلهية ولم يرّبوا أنفسهم فى عملية تهذيب النفس وجهادها، وبعبارة اخرى: إن طبع الإنسان الأولى هو أن يتحرک بسـرعة باتجاه اشـباع حاجاته ورغباته البدنية والنفسـية، وقـد ورد هـذا المضـمون أيضاً فى الآية ۱۹ من سورة المعـارج حيث يقول تعـالى «انّ الإنسـانَ خُلِقَ هَلُوعـاً» أى حريصـاً وقليـل الصبر. ولـذلک نجـد أنّ بعض الآيـات الّتى تشـير إلى كون الإنسان عجولًا فإنّها تتحـدّث عن هدايـة الإنسان قبل ذلک كما فى الآيـة ۱۱ من سورة الإسـراء والّتى سـتأتى الإشارة إليها لاحقاً. وهـذه الخاصـية فى الإنسان «كونه عجولًا» حالها حال الأهواء النفسـية والنوازع البـدنية الاـخرى الّتى هى بنّاءة وضـرورية ومفيـدة فيمـا لو تحرّک الإنسـان على مسـتوى تعـديلها وتهـذيبها والاسـتفادة منها فى خطّ السـعادة والتكامل المعنوى والإنسانى، وبـذلک تخرج هـذه الحالات السـلبية فى الظاهر كونها مخربة وسـلبية، فهى مثل السـيل الهادر فإنه رغم ظاهره المـدمر ولكنه إذا بنى الإنسان أمامه السـدود لضـبطه والاسـتفادة من قوته فإنه يتحول إلى قوّة ايجابيـة تؤدى إلى العمران والنور والرقى فى حركـة الحياة الدنيويـة. ونفس هذا المضـمون ورد أيضاً فى «الآية السادسة» من الآيات محل البحث مع تفاوتٍ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۸ يسـير وهو أنّ فى هـذه الآية نجد إشارة إلى أحد الافرازات السـلبية والسيئة للعجلة والتسـرع حيث تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۱». وهنا أيضاً نجد مفردة «الإنسان» الّتى تشير إلى طبيعة الإنسان الأولية، وقد تكررت هـذه الكلمـة فى أوّل الآيـة وفى آخرهـا أيضاً. «دعا» فى هـذه الآيـة بمعنى طلب وأراد، سواءاً كان باللسان أو بالعمل، وبما أنّ الإنسان يتصف بالعجلة فى ذاته والتسـرع فى تحصـيل المنافع الشخصـية فإنّ ذلک قد يتسبب فى أن لا يدرس جوانب المدرسة بشكل

جید ولا یدرک خیره وشره وبالتالی یوقع نفسه فی المخاطر والمشاکل المتنوعة. وهذا «الدعاء» تارةً یکون بصورة لفظیة، یعنی أنّ الإنسان یطلب من اللَّه تعالی وباصرار شدید بعض الامور الّتی لا تکون خیراً له فی الواقع بل هی شرُّ له وإن کانت فی ظاهرها أنیقة ومطلوبة کما یقول الإمام الصادق علیه السلام «وَاعِرفْ طَریقَ نِجاتِکَ وَهَلاکِکَ کَی لاتَدعُوا اللَّهَ بِشَیءٍ عَسی فِیهِ هَلاکُکَ وَانْتَ تَظُنُّ انّ فِیهِ نَجاتُکَ قَالَ اللَّهُ تَعالی «وَیَدَعُ الإنسانُ بِالشَّرِّ دُعائَهُ بِالخَیرِ وَکانَ الإنسانُ عَجُولًا» «۲». وأحیاناً یتحرّک الإنسان علی مستوی العمل فی طلب شیءٍ بدافع من وحی الأهواء والشهوات ویکون شقاءه فی ذلک ولکنه بسبب تزیین النفس وتسویلات الشیطان یحسب ذلک خیراً له وموجباً لسعادته ویحزن عندما لم یحصل علیه، فی حین انه سیتضح له بمرور الزمان انه إذا کان اللَّه قد استجاب له طلبه ذلک ونال حاجته وحقق هدفه فإنّ ذلک سیکون سبباً لشقائه مدی الحیاة. وتستعرض «الآیة السابعة» مطلباً جدیداً علی مستوی عجلة الإنسان، وهو أنّ هذا الإنسان العجول أحیاناً بدلًا من أن یستعجل فی طریق الخیر واکتساب الحسنات علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۸۹ الأقل فإنه یستعجل فی طریق الشر والفساد، کما نری هذا الحال لدی الکفّار المعاندین عندما یحذرهم النبی الأکرم صلی الله علیه و آله من عذاب اللَّه وعقوباته الدنیویة، فتجدهم یستعجلون بهذا العذاب ویطلبون من النبی أن یسرع فی نزول العذاب المهلک، وفی الحقیقة یطلبون موتهم وهلاکهم من النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کما تتحدّث الآیة مورد البحث عن ذلک: «وَیَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَی ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّکَ لَشَدِیدُ الْعِقَابِ» «۱». أجل، إذا اقترنت العجلة لدی الإنسان بالعناد والإصرار، فالنتیجة هی ما قرأناه فی هذه الآیة الشریفة، فبدلًا من الاستعجال لطلب الخیر واکتساب الحسنات فإنّهم یستعجلون فی طلب الشرّ ویوقعون أنفسهم بأمواج البلاء والشقاء کما نجد هذا المضمون فی الآیة الاولی من سورة المعارج «سَئَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ وَاقِعٍ* لِلْکافِرینَ لَیْسَ لَهُ دافِعٌ». وقد ذکر الکثیر من المفسّرین وأرباب الحدیث أنّ هذه الآیة نزلت فی «النعمان بن الحارث الفهری» عندما نصب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله الإمام علی فی غدیر خم خلیفة له وقال قولته المشهورة «مَنْ کُنتُ مَولَاهُ فَهَذَا عَلِیٌّ مَولاهُ» فلمّا سمع بذلک هذا الرجل اغتاظ من ذلک وجاء إلی النبی معترضاً بشدّة، وعندما سمع من النبی أنّ هذا الأمر إنما هو أمرٌ إلهیٌّ ازداد غیظاً وقال: إلهی إن کان هذا هو الحقَ من عندک فانزل علینا حجارةً من السماء، فلم یمکث مدّة حتّی نزلت علیه حجارةً من السماء فأصابته فی رأسه وقتلته، وقد نزلت الآیة فی هذه الواقعة «۲». ألم یکن من الأفضل لمثل هؤلاء الأشخاص أن یطلبوا من اللَّه تعالی بدلًا من العناد واللجاجة، الهدایة والمغفرة وإزالة حالة التعصب والعناد فی ذاتهم؟ وطبقاً للآیة مورد البحث فإنّ مغفرة اللَّه تسبق عذابه «سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ» وهکذا فإنّ اللَّه تعالی لا یعذب أحداً ما دام احتمال هدایته موجوداً، ولکن مع الأسف فإنّ بعض الناس المعاندین الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۰ والمتعصبین یستعجلون بالعذاب الإلهی بدلًا من المغفرة والرحمة. وتتحرّک «الآیة الثامنة» من الآیات مورد البحث للکشف عن بعد آخر من أبعاد صفة العجلة لهذا الإنسان وتقول: «وَلَوْ یُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَیْرِ لَقُضِیَ إِلَیْهِمْ أَجَلُهُمْ ...» «۱» ولکن بما أنّ اللَّه تعالی غفور رحیم کریم فإنه لا یسرع فی عقاب القوم الفاسقین فلعلّهم ینتبهون من غفلتهم ویسیرون فی خطّ التقوی والإیمان والتوبة. ویضیف القرآن الکریم فی ذیل هذه الآیة الشریفة «فَنَذَرُ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ» «۲» إلی أن یحین وقت مجازاتهم وعقوبتهم. وعلیه فإنّ اللَّه تعالی لا- یعمل مثل عملکم، فانتم تستعجلون باکتساب الخیرات والمنافع، ولکن اللَّه تعالی لا یُسرع فی عقابکم، لأن المقصود الأصلی للَّه‌تعالی لیس هو عقابکم بل غرضه هدایتکم وأنزال الرحمة علیکم. وطبقاً للآیات القرآنیة الاخری فیحتمل فی تفسیر هذه الآیة أن یکون المراد منها هو أنّ هؤلاء الناس یستعجلون بطلب نزول العذاب الإلهی علیهم کما یستعجلون فی طلب الخیرات والمنافع الدنیویة، ولکن القرآن الکریم یقول لهم: «لو أنّ اللَّه تعالی استجاب لطلبکم فی مسألة التسریع بنزول العذاب لم یبق أحداً منکم» «۳»، ولکنَّ المعنی الأوّل أو التفسیر الأوّل للآیة ینسجم أکثر مع ظاهرها. وفی «الآیة التاسعة» وضمن الإشارة إلی حالة الاضطراب والقلق لدی الکفّار والمشرکین فی مقابل وعد اللَّه تعالی للمسلمین بالنصر وهزیمة أعدائهم الکافرین الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۱ ومعاقبتهم تقول: «وَیَقُولُونَ مَتَی هذَا الْفَتْحُ إِنْ کُنتُمْ صَادِقِینَ» «۱». أی لماذا لم تتحقق هذه الوعود الإلهیة؟ ألیس هذا دلیلٌ علی کذبکم وانکم تخادعون أنفسکم بهذه

الوعود الزائفۀ؟ ویجیب القرآن الکریم علی هـذا التساؤل ویأمر النبی صـلی الله علیه و آله بأن یقول لهم «قُل یَوْمَ الفَتحِ لا یَنْفَعُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِیمَانُهُمْ وَلَا هُم یُنْظَرُونَ ...» «۲». فلا تستعجلوا بنزول العذاب، لأنّه فی ذلک الیوم لایجد هؤلاء الکافرون فرصۀ للعودة إلی الحقّ. إن اللَّه تعالی بلطفه وکرمه وعنایته قـد أمهلکم هـذا الیوم لتعودوا إلی وجودکم وتسـلکوا فی طریق الحقّ والإیمان، ولکن عنـدما یأتی ذلـک الیوم فإنّ العـذاب الإلهی سـینزل علیکم وتوصـد أمامکم أبواب التوبـۀ فلا تسـتطیعون العودة والانابـۀ إلی اللَّه، إذاً فبـدلًا من أن تسـتعجلوا نزول العـذاب علیکم، لابـدّ أن تسـتثمروا هذه الفرصۀ والمهلۀ الإلهیۀ وتتحرکوا من موقع إصـلاح الذات والسـلوک فی خطّ التوبـۀ والإیمـان والانفتـاح علی اللَّه تعـالی. ثمّ تأمر الآیـۀ الشـریفۀ النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله وتقول «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ» «۳»، فعلیک أن تنتظر رحمۀ اللَّه ونصـره وهؤلاء ینتظرون عذابه وعقوبته. وقد ذکر بعض المفسّرین أنّ جملۀ «أنّهم منتظرون» هی إشارة إلی ما کان ینتظره الکفّار من موت نبی الإسـلام أو هزیمته فی میدان القتال، ولکنَّ التفسیر الأوّل المذکور أعلاه أنسب إلی جو الآیۀ. «الآیۀ العاشـرة» تخاطب النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله وتوصیه بالصبر والاستقامۀ کما هی حالۀ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۹۲ الأنبیـاء الماضـین، وبـالرغم مـن أنّ التاریـخ شاهـدٌ علی أنّ النبی الأـکرم صـلی الله علیـه و آله لم یتحرک من موقـع العجلۀ والتسـرع بل کان یسلک فی خطّ المثابرة والصبر والاستقامۀ فی کلّ أعماله وأفعاله، ولکنَّ الآیۀ الشریفۀ جاءت لتؤکد هذا المعنی علی نبیّنـا الکریم وتقول «فَاصْبِر کَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسـتَعْجِلْ لَهُم کَانَّهُم یومَ یَرَونَ مَا یُوعَـدُونَ لَمْ یَلبَثُوا الّا سَاعَـۀً مِنْ نَهارٍ» «۱». ونظراً إلی أنّ جمیع عمر الدنیا فی مقابل الآخرة لا یعد سوی ساعۀ واحدة من الزمان، فعلیه لا تستعجل فی الأمر إلی أن تتم الحجّۀ علیهم، ویسـتفاد من هذا التعبیر إلی أنّ جمیع الأنبیاء والمرسلین کانوا یعیشون الصبر والمثابرة والاستقامۀ مقابل عناد أقوامهم وجهالتهم ولجاجتهم وکانوا یمهلون أقوامهم حتّی النفس الأخیر لغرض اصلاحهم وهدایتهم. ولم یکن نبی الإسلام صلی الله علیه و آله إلّاکأحد هؤلاء الأنبیاء اولی العزم، وما ورد فی الآیۀ أعلاه هو فی الواقع یعبر عن تأکید الآیۀ علی هذا المعنی أو أنّ مضمون الآیۀ له بعد تعلیمی أو تربوی للآخرین، أو هو إنـذارٌ إلی الکافرین بأن لا یهمل هـذه الفرصـۀ الثمینـۀ ولا یُسیـء الاسـتفادة من الامهال الإلهی. وهـذه الآیۀ شاهدٌ أکید علی أنّ الصبر والاسـتقامۀ وترک العجلۀ من الفضائل الأخلاقیۀ المتوفرة لدی جمیع الأنبیاء العظام الّذین کانوا طیلۀ التاریخ البشری أُسوةً وقدوةً لأقوامهم فی التحلّی بهذه الصفۀ الأخلاقیۀ السامیۀ.

النتیجۀ:

ویتضـح من مجموع الآیات أعلاه أنّ العجلۀ والتسرع لدی الأقوام والشـعوب البشـریۀ المختلفۀ فی نظر الإسـلام صـفۀ سـلبیۀ، وتقع فی مقابـل القیم الأخلاقیـۀ الایجابیـۀ من الصبر والمثـابرة والتـأنی إلی أن تتوفر مقـدمات العمـل، وأنّ الصبر والتـأنی یعـد من أهم الفضائل الأخلاقیۀ والإنسانیۀ، وهی الفضیلۀ الّتی کانت متوفرة لدی جمیع الأنبیاء العظام وقادة البشریۀ فی خطّ الحقّ والإیمان.

العجلۀ والتسرع فی الروایات الإسلامیۀ:

وقـد وردت بحوث کثیرة فی الروایات الإسـلامیۀ فی ذمّ العجلۀ ومدح التأنی والصبر ونقرأ فی مضامینها نکات دقیقۀ فی هذا الموضوع من قبیل: ۱- ما ورد عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «الْاناةُ مِنَ اللَّهِ وَالعَجَلَۀُ مِنَ الشَّیْطانِ» «۱». ۲- وقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی حدیث آخر «انَّما اهْلَکَ النّاسَ الْعَجَلَۀُ وَلَوْ انَّ النّاسَ تَثَبَّتُوا لَمْ یُهلِکْ أَحدٌ» «۲». وطبعاً أنّ المقصود من الهلکۀ هو الموت بسـبب الحوادث غیر المتوقعـۀ والّتی تکون معلولۀ بالعجلۀ وعدم التثبت من الامور. ۳- وقـد ورد عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله قوله: «ایّاکَ وَالعَجَلَـۀَ فَانّکَ ان عَجَّلْتَ اخْطَأْتَ حَظَّکَ» «۳». ۴- ویقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام: «مَعَ العَجَلِ یَکثِرُ الزَّلَلَ» «۴». ۵- وفی وصـیۀ الإمـام أمیرالمؤمنین علیه السـلام لابـنه الإمـام الحسن علیه السـلام عنـدما کـان الإمـام علی علی فراش المرض قال: «انْهاکَ عَنِ التَّسَرُّعِ بِالقَوْلِ وَالْفِعْلِ» «۵». ۶- وقـد ورد أیضاً عن الإمام أمیرالمؤمنین قوله «الْعَجَلُ قَبلَ الْامْکانِ یُوجِبُ الغُصَّۀَ» «۶» ؛ لأنّ العجلۀ تهدر

أتعاب الإنسان وسعيه ولا يصل إلى نتيجة مطلوبة. ٧- وورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَن رَكَبَ العَجَلَ رَكِبَتْهُ المَلامَةُ» «٧». ٨- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَعَ التَّثَبّتِ تَكونُ السَّلامَةُ وَمَعَ العَجَلَةِ تَكونُ النَّدامَةُ» «٨». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٩۴ ٩- وجاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «العَجَلَةُ مَذمُومَةٌ فِي كُلِّ أمْرٍ الّا فِي مَا يَدفَعُ الشَّرَّ» «١». ١٠- ونختم هذا البحث بحديثٍ شريف عميق المغزى عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ ان يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِن أَرْبَعَةٍ أَشياءٍ فَهُوْ خَليقٌ بانْ لا يَنْزِلَ بِهِ مَكرُوهٌ ابَداً. قِيلَ وَ مَا هِي؟ قَالَ: الْعَجَلَةُ وَاللّجاجَةُ وَالعُجْبُ وَالتَّواني» «٢». وقد رأينا فى هذه الأحاديث الشريفة أنّ التأنى هو عطية إلهية وموهبة ربانية للإنسان بينما «العجلة» هى صفة شيطانية تدفع بالإنسان إلى طريق الخسران والزيغ فى حركة الحياة وتضيع عليه الفرص الثمينة، وتكثر اشتباهاته، وتكون عاقبته إلى الندم والهلكة، فى حين أنّ النقطة المقابلة لها، أى التأنى والصبر والتدبر يقود الإنسان إلى الفلاح والسعادة والاستفادة الكبيرة من الفرص الثمينة فى حياته الدنيوية.

ملاحظات مهمة:

١- مفهوم العجلة والتسرع

إن العجلة بما هى صفة ذميمة فى سلوك الإنسان تظهر باشكال مختلفة، بمعنى أنّ الإنسان وقبل أن يوفر مقدمات العمل يُقدم على تحصيل النتيجة، وهذا العمل لا يترتب عليه سوى الفشل أو يثمر ثمرة ناقصة. وهذا كما لو أنّ الإنسان قطف الثمرة قبل نضجها فإنه يحرم نفسه من طيب هذه الثمرة أو تكون ذات فائدة قليلة، أو أنّه يقوم بنثر البذور على الأرض قبل أن يحرثها فتكون النتيجة تلف البذور أو قلّة المحصول الزراعى، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد: «وَمُجْتَنِي الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٣٩۵ الثَّمَرةِ لِغَيرِ وَقتِ ايناعِهَا كَالزّارعِ لِغَير ارْضِهِ» «١». أى انه يتلف طاقاته ورأس ماله بدون أن يعود عليه بالفائدة المطلوبة، والعجول: يقال للأشخاص الّذين لا يتمتعون بحالة الصبر فى أعمالهم وأقوالهم وتعاملهم مع الآخرين ولغرض الوصول إلى هدفهم لا يسلكون الطريق الصحيح لذلك، فلهذا السبب فإنّهم يقعون فى دوامة من المشكلات والنواقص فى حركتهم الاجتماعية وسلوكهم فى خطّ التكامل المادى والمعنوى. والصفة المقابلة للعجلة والتسرع هى «التأنى» والتريث والتحمل والطمأنينة والوقار. ولا ينبغى أن تؤخذ «العجلة» بمعنى السرعة فى الأقدام على العمل والّذى يحمل مضموناً ايجابياً فى حركة الحياة، فالسرعة فى العمل تكون بعد ترتب وتوفر المقدمات المطلوبة لذلك العمل وأن لا يدع الإنسان الفرصة تفلت من يده للحصول على النتيجة والثمرة، فمثل هذا العمل من الواضح أنّه يعد أحد العوامل المهمة للفلاح والنجاة والموفقية، ولكننا نرى فى موارد كثيرة وجود الاشتباه والخلط بين مصاديق العجلة وموارد السرعة، أو نرى أنّ البعض ولغرض تبرير كسلهم واهمالهم يضيعون الفرص الثمينة ويقولون انه لا ينبغى العجلة فى الامور وأنّ العجلة من الشيطان، فى حين أنّ هناك فرقاً واضحاً بينهما، ففى بعض الروايات نقرأ أنّ العجلة تعد من أسباب الندم، وأنّ التأنى من أسباب السلامة، وهذا هو ما أشرنا إليه آنفاً. ونختم هذا الكلام بحديثٍ عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه الفرق بين مفهوم العجلة والسرعة أو مفهوم التسرع والسرعة ويقول «ايّاكَ وَالعَجَلَةَ بِالامُورِ قَبْلَ اوانِهَا، وَالتَّساقُطَ فِيها عِندَ امْكانِها» «٢».

٢- المسارعة فى الخيرات

ونقرأ فى القرآن الكريم فى آيات متعددة انه يدعو إلى المسارعة فى الخيرات والمسابقة فى الحسنات، ومن ذلك ما ورد فى الآية ١١۴ من سورة آل عمران فى وصف بعض المؤمنين الحقيقين حيث يقول «.. وَيُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ وَاولئكَ مِن الصَّالِحِينَ ...». ويقول فى سورة الأنبياء الآية ٩٠ فى وصف جماعة من الأنبياء العظام مثل زكريا ويحيى ويقول عنهم «.. انَّهُم كَانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ ...». ويقول فى الآية ۶١ من سورة المؤمنين فى شرح الصفات البارزة لهؤلاء المؤمنين ويقول: «اولئكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ

وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ». وجاء فى الآيـة ۱۳۳ من سورة آل عمران أنّ هـذه المسألـة بعنوان خطاب عام لجميع المؤمنين أن يتحركوا من موقع المسارعـة، ويقول: «وَسَارِعُوا الَى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُـهَا السَّمَاوَاتُ وَالْارْضُ اعِـدَّتْ لِلمُتَّقينَ». ونفس هـذا المعنى ورد فى الآية ۱۴۲ من سورة البقرة تحت عنوان المسابقـة فى الخيرات حيث تقول الآية «... فَاستَبِقُوا الخَيراتِ ...». وبديهى أنّ المسارعة فى الخيرات كلها إشارة إلى هـذه الحقيقـة الواحـدة، وفى الواقع آنها من قبيل اللازم والملزوم لأن المسابقـة لا تتحقق بدون المسارعة، وكلّما طوى الشـخص الطريق إلى مقصوده بسـرعة أكثر فإنه بلا شكّ سـيصل إلى مقصوده أسـرع. وقد ورد فى الروايات الإسلامية إشارات جميلة وعميقـة المعنى بالنسبة إلى هـذا الموضوع، نختار منها نماذج معيّنة وهى: ۱- قـال رسـول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «انّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الخَيْرِ مَـا يُعَجَّلُ» «۱». ۲- وفى حـديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قـال: «بَـادِرُوا بِعَمَـلِ الخَيرِ قَبلَ ان تُشـغَلُوا عَنْهُ بِغَيرِهِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۷ ۳- وفى أحاديث متعددة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن هَمَّ بِخَيرٍ فَلْيُعَجِّلْهُ وَلا يُؤَخِّرْهُ» «۱». ۴- وجاء هذا المعنى أيضاً فى حديث آخر بصورة مفصلـة، قال الإمام الصادق عليه السـلام «اذا هَمّ احَدُكُم بِخَيرٍ أوَ صِـلَةٍ فَانّ عَن يَمينِهِ وَشِمالِهِ شَيطانَينِ فَلْيُبادِرْ لا يَكُفّاهُ عَن ذَلِکَ». ۵- وقال أميرالمؤمنين عليه السلام «لَيْسَ مِن عَادَةِ الْكِرام تَأخيرُ الْانعام» «۲». ۶- وقال الإمام الباقر عليه السـلام «مَن هَمَّ بِشَـىْءٍ مِنَ الخَيرِ فَلْيُعَجِّلْهُ فَانَّ كُلَّ شَـىْءٍ فيهِ تَأخيرٌ فَانَّ لِلشَّيطانِ فِيهِ نَظْرَةً». وخلاصة الكلام فإنّ الموانع النفسانيـة والوساوس الشـيطانية تصـد الإنسان دائماً عن أعمال الخير، ولهذا فعندما تتوفر مقدمات ذلک العمل تجب المسارعة إليه قبل أن يضع بعض الجهـال الضـيقوا الافـق العوائق فى طريق الحركـة نحو الخير ويثبطوا الإنسـان عن سـلوک طريق الكمال المعنوى، ولابدّ أيضاً أن يفرق الإنسان بين السـرعة والمسارعة فى أعمال الخير، وبين العجلة المذمومة الّتى تكون قبل توفر مقدمات العمل. ونختم هذا الكلام بحديث شـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث قال «لا تُؤَخِّر انالَةَ الْمُحتَاجِ الَى غَدٍ، فَانَّکَ لا تَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَکَ وَلَهُ فِى غَدٍ» «۳».

الآثار السلبية للعجلة والتسرع:

۱- اتلاف الوقت والطاقات

إن هـذه الصـفة الذميمة يترتب عليها آثار مخربة كثيرة فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، والأضـرار التى تعود على الإنسان بسـبب هـذه الحالـة السيئة هى أكـثر من أن الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۸ تحصـى ومن ذلـک أنّهـا تعمل على اهـدار طاقات الإنسان واتلافهـا وبالتـالى تمنعه من الوصول إلى مقصوده ومطلوبه، مثلًا إذا قصـد جيش العـدو بلاد الإسـلام ولم يتريث جيش الإسـلام لكى يباغت العـدو فى موقف من مواقف الضـعف والعسر بالنسـبة للعـدو، أو قبل أن ينتهى جيش الإسـلام من حيث العـدّة والعـدد والخطّة العسـكرية يقوم هذا الجيش بالهجوم على العدو، فتكون النتيجة الاندحار والهزيمة لجيش الإسـلام واتلاف الكثير من الطاقات والقوى وبالتالى تقويـة جيش الأعداء وجرأتهم أكثر. وهذا المعنى يصدق أيضاً بالأعمال الفردية، لأن كلّ حركة تتصف بالعجلة فإنّها تتسـبب فى اهـدار الطاقات واتلاف الامكانات للإنسان. وينقل الفيض الكاشانى فى «المحجّـة البيضاء» حـديثاً جميلًا ويعتبر شاهداً ناطقاً على ما تقدّم آنفاً، حيث جاء فى هذا الحدُيث انه عندما ولد المسيح عليه السـلام فإنّ الشـياطين جاءوا إلى إبليس فقالوا: أصـبحت قد نكست رؤوسـها، قال: هنا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى جال خافقى الأرض ولم يجد شـيئاً، ثم وجد عيسـى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفّت حوله، فرفع إليهم فقال: إنّ نبيّاً قد ولد البارحة ما حملت انثى قط ولا وضعت إلّاوأنا بحضرتها إلّاهذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفّة «۱».

۲- اليأس

ومن المعطيات السلبية الاخرى للعجلة، هو حالة اليأس الّتى تصيب الإنسان عندما لا ينال مقصوده ولا يتسنّى له تحصيل النتيجة من عمله، وقد يفضى به هذا الحال إلى أن يسىء الظنّ بكلّ شىء حتّى بالتقدير الإلهى، ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام أنّه قال: «لا تَعْجَلْ عَلَى ثَمَرَةٍ لا تدرك وَانَّما تَنالُها فِى اوانِها وَاعْلَمْ انَّ المُدَبِّرَ لَكَ اعْلَمُ بِالوَقتِ الّذى يُصلِحُ حَالُكَ فيهِ، فَثِقْ بِخَيَرَتِهِ فِى جَميع امورِكَ، يُصلِحُ حَالُكَ، وَلا تَعجَلْ بِحَوائِجِكَ قَبلَ وَقتِها فَيَضيقُ قَلبُكَ وَصَدرُكَ وَيَخشاكَ (يغشاك) القُنوط» «۲».

۳– الندامة

الثالث من الآثار السيئة للعجلة هى الندم كما مرّت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة، فما أكثر الأشخاص الّذين استعجلوا فى تحصيل النتيجة قبل أن تتوفر المقدمات وقبل أن تتهيأ الأرضية لذلك، فكانت النتيجة هى اتلاف طاقاتهم وامكاناتهم وعدم تحصيل مقصودهم الحقيقى، فى حين أنّهم لو مكثوا وصبروا قليلًا فسوف لا يتورطون فى ما وصلوا إليه، وما أكثر الأشخاص الّذين اتجهوا من موقع العجلة فى طريق خاص وإذا بهم يرون الخسارة تحيط بهم من كلّ جانب وعندها أدركوا خطأ هذا الطريق بعد فوات الأوان فاصبحوا يتحسرون على ما صدر منهم ويقولون يا ليتنا لم نسلك هذا الطريق. وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «فَكَمْ مِن مُستَعجِلٍ بِما ان ادرَكَهُ وَدَّ انَّهُ لَمْ يُدرِكْهُ» «۱».

۴– الحزن والغم

الرابع من العواقب السلبية للعجلة فى الأعمال هو أن يعيش الإنسان امواج الحزن والهم، لأن الفشل فى حركة الحياة الاجتماعية المترتب على العجلة والتسرع تكلف الإنسان غالياً فى كثير من الأوقات وتجعل الإنسان يعيش دائماً القلق والاضطراب والحزن. وقد ورد هذا المعنى فى إحدى الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال «العَجَلُ قَبْلَ الإمكانِ يُوجِبُ الغُصّةَ» «۲».

۵– زيادة الخطأ

إن من الآثار السيئة الاخرى للعجلة والتسرع هو كثرة ما يقع فيه الإنسان من الخطأ والاشتباه بسبب ذلك، لأن التخطيط الصحيح يحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر والدقّة، وهذا المعنى يتقاطع مع العجلة والتسرع، ولذا نرى الأشخاص الّذين تستولى عليهم حالة العجلة فى تصرفاتهم وسلوكياتهم فإنّهم يبتلون عادة بأخطار كثيرة سواءً على مستوى تشخيص الهدف أو على مستوى المنهج والطريق للوصول إليه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۰ يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مَعَ العَجَلِ يَكْثُرُ الزَّلل» «۱». وكذلك يقول عليه السلام: «مَن عَجَل كَثُرَ عِثارُهُ» «۲».

۶– كثرة الزلل

السادس من آثار العجلة والتسرع «كثرة الزلل» والّذى يمكن أن يكون بمعنى واحد مع كثرة الأخطاء ويمكنه أن يكون قسماً مستقلًا «الخطأ فى تشخيص الهدف والزلل فى طريق الوصول إليه». ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «اصابَ مُتَأَنٍّ اوْ كادَ، واخطَأَ مُسْتَعجِلٌ او كَادَ» «۳». وعلى أية حال فإنّ الأضرار الناشئة من العجلة والتسرع أكثر من أن يتصورها الإنسان، والضرر والخسارة الّتى يدفعها الإنسان العجول فى واقع الحياة من الامكانات المادية والأضرار النفسية والمعنوية أكثر من أن تحصى

جذور هذه الصفة الذميمة:

۱– اتباع الهوى

إن هـذا الخلق الذميم حال سائر الأخلاق الرذيلة الاخرى ينبع من اتباع الهوى فى الأساس، فالإنسان إذا تحرّك بوحى أهوائه فإنه عادةً ولأجل تحصـيل مطامعه ورغباته النفسـية يستعجل فى ذلك، والغالب أنّ الهوى لا يسمح له بأن يتدبر عواقب الامور ويتأمل فى الطريق السليم فى الوصول إلى مقصـده، ولهـذا السـبب فإنه يلقى بنفسه بصورة عشوائيـة فى هذا الاتجاه ويركض خلف ارضاء النوازع الذاتية والأهواء النفسية وبالتالى يتورط فيما لا يحمد عقباه.

۲– حبّ الدنيا والتعلق بها

الثانى من أسـباب العجلة والتسرع هو حبّ الدنيا والتعلق بها الّذى يعد رأس كلّ خطيئة، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۱ فمن كان عبداً للدنيا فإنه لا يرى غيرها وكأنما يغلق عينه واذنه عن رؤية عواقب الامور ويلقى بنفسه وبدافعٍ من العشق للدنيا والشوق إلى تحصيل زخارفهـا من موقع العجله والتسـرع وهـو يتصـور إنمـا يسـعى لخيره ومصـلحته ولكنَّ الأـغلب هـو أنّ هـذه العجلـة تتسـبب فى تورطه بالمشاكل واصـطدامه بالموانع الّتى لم يكن يراها بسـبب العجلـة ولم يكن مسـتعداً نفسـياً لمواجهتها، ولهذا السـبب فإنه يمنى بالهزيمة والفشل الذريع.

۳– ضيق الصدر وسعته

ومن الـدوافع الاخرى للعجلـة والتسـرع هو ضـيق الصدر وافق التفكير، فالأشـخاص الّذين يعيشون ضـيق الصدر وضـيق الافق هم الّذين يسلكون طريق العجلـة فى تحصـيل مبتغاهم، واما من كان يعيش سـعة الصـدر ويتسم بسـعة الافق فى تفكيره فنجـده يخطو فى حركته الاجتماعيـة بتـأنٍ ووقـار وتـدبّر فيمـا يصـدر منه من سـلوكيات وأعمـال ويتجه لتحصـيل مقاصـده بعزم قـوى وفى نفس الوقت بـبرودة أعصاب، ولهـذا فإنه قلما يصاب بالفشل والهزيمة. إن تسويلات الشـيطان وخداع رفاق السوء والمتملقين والكاذبين والحساد والنمامين هى بـدورها من العوامل المهمـة للوقوع فى دائرة الاسـتعجال والتسـرع. يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام فى هذا الصدد «وَلا تَعجَلَّنَّ الَى تَصديقِ ساعٍ فَانَّ السّاعِىَ غَاشٌّ وَان تَشبَّهَ بِالنّاصِحينَ» «۱».

۴– الجهل

وأحد العوامل الاخرى للاسـتعجال بالامور الجهل والسـفه، فان الشخص الجاهل والسفيه يعيش فى الغالب فى دائرة الأوهام والخيالات الباطلـة فيتصور أن مقـدمات هـذا العمل الفلانى متهيئـة وأنّ الأرضـية مساعـدة لـذلك فيلقى بنفسه فى دوامة الحوادث ولا يرجع منها إلّابخف حنين ولاـ يكون مصيره منهـا سوى الفشل، فى حين أنّ الشـخص العالِم بالامور والعاقل الـذكى فإنه يسـعى لبرمجـة خطواته العمليـة فى سبيل الوصول إلى هـدفه ومقصـده وبالتالى فسوف يحصـد ثمار هـذا التأنى والتـدبر ولا يصـيبه سوى الفلاح. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۲ يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مِنَ الْحُمُقِ الْعَجَلَةُ قَبلَ الْامْكانِ» «۱».

طرق العلاج:

ولغرض التصـدى لهذه الرذيلة الأخلاقية وعلاجها أو الوقاية منها فقبل كلّ شـىء يجب التفكر فى هذه العواقب الوخيمة والآثار السـيئة

لحال الاستعجال والتسرع، فنحن نشاهد الكثير من الوقائع المؤلمة والحوادث والمشاكل الكثيرة الّتى تكون بسبب التسرع ... وهناک نماذج كثيرة من ذلک ذكرها لنا تاريخ الانسانية. فلو أنّ الشخص تفكر فى هذه الامور والآثار السيئة، فإنه سيدرک حتماً أنّ الاستعجال فى العمل مضافاً إلى انه لا يوصله إلى مقصده ولا يحصل على غايته بسرعة فإنه قد لا يحصل عليها أبداً فيما بعد. وما تقدّم من العبارات العميقة فى الروايات الشريفة من قبيل «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ» و «وَالعَجَلَةُ قَبْلَ الامْكانِ يُوجِبُ الغُصّيةَ وَمَعَ العَجَلَةِ تَكوُن النَّدامَةُ» «۲» . يجب أن تكون بمثابة الشعار لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية يضعه نصب عينه كى يحد ذلک من عجلته فى الامور، ويضع فى خاطره دائماً الحديث الشريف الوارد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما أهلک الناس العجلة ولو أنّ الناس تثبتوا لم يُهلک أحد» «۳». ومن جهة اخرى يجب عليه أن يمارس عملية التأنى ويتمرن عليها ويلقن نفسه بها حتّى يمتزج هذا الخُلق الحسن بروحه ويمتد إلى أعماق وجوده، فيكون له كالطبيعة الثانية، لأن كلّ عمل يتبدل بالممارسة والتمرن إلى عادة، وكلّ عادة تتبدل إلى خُلق وطبيعة فى نفس الإنسان.

الصبر والتأنى

تنويه:

إن الحياة الدنيوية مليئة بالمشاكل والمصائب الّتى تستوعب حياة الإنسان فى واقعه الفردى والاجتماعى، ولو انه تصدى لهذه المشكلات وواجه هذه المخاطر والتحديات للواقع العملى بصبرٍ ومقاومة ومثابرة فإنه سوف يتجاوزها وينتصر عليها قطعاً، وإلّا فإنه لن يصل إلى مقصوده أبداً، وسيجد نفسه يعيش الخنوع والخضوع للتحديات الصعبة الّتى يفرضها عليه الواقع. والمراد من الصبر هو الاستقامة أمام المشاكل والحوادث المختلفة، والصفطة المقابلة له هو «الجزع» ويعنى افتقاد عنصر المقاومة والاستسلام أمام تحديات الواقع والمشاكل الاجتماعية والنفسية فى حركة الحياة على المستوى المادى والمعنوى، فلو أنّ الإنسان لم يقف أمام أهوائه الطاغية ونوازعه النفسية ولم يقاوم الجوانب الدنيوية ولم يسلک فى طريق «معرفة اللَّه» واطاعته، فإنه لن يصل إلى أى مرتبة من مراتب الكمال المعنوى والإنسانى، ولذلک قسم علماء الأخلاق الصبر إلى ثلاثة أقسام: ١- الصبر على الطاعة، أى على المشكلات الّتى تواجه الإنسان فى خط التقوى والإيمان وطاعة اللَّه تعالى. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۴ ۲- الصبر على المعصية، ويعنى الصمود أمام النوازع النفسية والأهواء الشيطانية ومقاومتها والتصدّى لها. ٣- الصبر على المصيبة، ويعنى الصمود أمام المصائب والحوادث المرة الّتى تصيب الإنسان فى حركة الحياة وعدم الانفعال عند حدوثها والخضوع لتحدياتها وترک الجزع والفزع فى عملية مواجهتها. ويعتبر «الصبر» من أهم أركان الإيمان حيث يشبه الإمام على مكانة الصبر بالنسبة إلى الإيمان كمكانة الرأس بالنسبة إلى الجسد، وقد لا نجد فى القرآن الكريم مورداً اهتم فيه القرآن من موقع التأكيد والمدح مثل ما نجد ذلک بالنسبة إلى الصبر، فقد وردت سبعون آية تقريباً فى هذا الموضوع، عشرةٌ منها مختصة بتوصيات القرآن للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله نفسه. ونقرأ فى آيات القرآن أنّ اللَّه تعالى وعد الصابرين أجراً عظيماً وبدون حساب «انَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ اجْرَهم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۱». وأنّ الصبر هو مفتاح الجنّة كما تقول الآية «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۲». وجاء فى الحديث النبوى المعروف اشارات إلى هذا المعنى وأنّ الصبر نصف الإيمان، كما سيأتى تفصيله لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم بدراسة هذا الموضوع الأخلاقى المهم من جوانبه وابعاده المختلفة.

آيات الصبر:

١- «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». ٢- «وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ

الاخلاق فى القرآن، ج ۲، ص: ۴۰۵ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ» «۱». ۳- «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» «۲». ۴- «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» «۳». ۵- «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُواْ اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۴». ۶- «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم كَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ ...» «۵». ۷- «فَاصْبِر صَبراً جَميلًا» «۶». ۸- «يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۷». ۹- «يَا ايُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرينَ» «۸». ۱۰- «قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَا سِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۹». ۱۱- «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۱۰». ۱۲- «أوْلَئكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا» «۱۱». ۱۳- «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ا لْخَوْفِ وَا لْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَا لِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَا تِ الاخلاق فى القرآن، ج ۲، ص: ۴۰۶ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» «۱». ۱۴- «.. وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَواْ بِالصَّبْرِ» «۲».

تفسير واستنتاج:

اسوة الصبر والمقاومة

«الآيـة الاولى تسـتعرض حياة أحـد الأنبياء العظام الّـذى صار مثلًا للصبر والاسـتقامة فى مواجهته للبلايا والمصائب فى الحياة، فى حياته الفرديـة والاجتماعيـة، ولهذا فإننا نقرأ فى حالاته وسـيرته المذكورة فى سورة «ص» إن القرآن الكريم يضـربه مثلًا للمسـلمين فى أوائل البعثـة الّـذين كانوا يعيشون التحـديات الصـعبة والضـغوط المسـتمرة من قِبل المشـركين فى مكّة ويتعلموا منه درس الصبر والاسـتقامة والصـمود فى مواجهـة المشاكل والمصاعب المفروضة عليهم. وصـحيح أنّ اسم النبى أيوب عليه السـلام أو سـيرته قد وردت فى عدّة سور فى القرآن الكريم، ولكنَّ مـا ورد فى سورة «ص» يعـدو شـرحاً وافيـاً لسـيرته الكريمـة حيث تقول الآيـة ۴۴ من هـذه السورة: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». وهكـذا واجه النبى أيوب عليه السـلام مصائب عظيمـة لغرض اختباره وامتحانه لمعرفة درجة شكره وطـاعته للّه‌تعـالى وليصـعد بهـذا الطريق إلى مقامـات ساميـة من القرب الإلـهى، فقـد كانت له ثروة كبيرة وبساتين وأغنام كثيرة وأبنـاء صالحون، ولكن كلّ ذلك فقـده بين عشـية وضـحاها حتّى أبناءه أيضاً ونفس أيوب ابتلى بمرض شديـد ومزمن إلى درجـة انه كـان يتلوى فى فراشه من شـدّة الالـم الّـذى أوقعه فى الفراش أسـيراً، ولكن أى واحـدٍ من هـذه الامـور لم يسـتطع أن يقلل من شـكره للّه‌تعـالى، ولم يتمكن أن يخـدش فى صـبره واسـتقامته فى الاخلاـق فى القرآن، ج ۲، ص: ۴۰۷ خط الإيمان والطاعـة. هذا وقد سـمع أيوب الكثير من التعريض به وبشخصـيته، ولعلّ هذه المصـيبة كانت عليه من أعظم المصائب، وأحياناً كان عُبّاد بنى إسرائيل ورهبانهم يأتون لرؤيته ويقولون له بصـراحة: ما هو الذنب العظيم الّذى ارتكبته حتّى ابتلاك اللّه بهذا الابتلاء والعذاب الشديد؟ ولكن هذا النبى العظيم لم يفقـد صبره بـل كـان يعيش الانضـباط الأخلاـقى أمـام نوازعه النفسـية ويلهـج لسانه بشـكر اللّه تعالى ويتعامل مع كلّ هـذه المصائب من موقع الشـكر لا من موقع كفران النعمة والشـكوى والجزع، وبعد أن مضت عليه سنوات عديدة وهو يتحدى هذه الصعاب العظيمة دعا اللّه تعالى لأن يكشف عنه هذا البلاء كما تقول الآية: «وَاذْكُر عَبْدَنا ايّوبَ اذ نَادى رَبَّهُ انّى مَسَّنِيَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». فعنـدما ختم هـذا النبى العظيم جميع مراحـل هـذا الامتحـان الإلـهى الكبير ووقف أمـام البلايـا والمصـائب المختلفـة كجبـلٍ من الصبر والاستقامة وأخجل الشيطان الرجيم من أن ينال منه ولو كلمة جزع وشكوى واحدة حتّى يئس منه، عندها فتح اللّه تعالى أبواب رحمته عليه، وعاد عليه كلّ ما فقده من المال والأولاد والمواهب الدنيوية الاخرى بل ضاعفها له أضعافاً مضاعفة، والأهم من ذلك انه نال من ذلـك مقامـاً عظيمـاً فى دائرة القرب الإلـهى ونـال وسـام «نّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». وذكر المفسّـر المعروف «ابن مسـعود»: إن أيوب عليه السلام كان «رَأسُ الصَّابِرينَ الَى يَومِ القِيامَةِ» «۱» وهكذا سجّل أيوب لنفسه هذا الشرف والافتخار على طول التاريخ البشرى. ولا ينبغى التساهل فى المرور على هذا المطلب، وهو أنّ إنساناً كان يتمتع بجميع الامكانات المادية والدنيوية، وفجأةً فقد كلّ شىء وجلس صفر اليـدين حتّى انه لـم يسـلم من تعريضـات قومه من الأصـدقاء والأعـداء وكناياتهم الموجعـة الّتى كانت تؤلمهُ أكثر من طعنات السـيوف

والخناجر ومع ذلک لم یصدر منه حتّی کلمة واحدة علی خلاف رضی اللَّه تعالی بل کان لسانه لهجاً بذکر اللَّه وشکره، وفی نهایة أمره قال کلمة واحدة تعبر عن دعاءه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۸ وتضرعه إلی اللَّه تعالی لا غیر، وهی العبارة الّتی تصور البعض أنّها من قبیل الشکوی ولکنه خطأ فاحش لأنها لاتتضمن أی نوع وأی أثرٍ للشکوی فیها حیث تقول: «اذ نَادی رَبَّهُ انّی مَسَّنِیَ الشَّیطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». وتأتی «الآیة الثانیة» لتستعرض صبر «النبی یعقوب» الّذی یُعد اسطورة فی الصبر والاستقامة، فقد فَقَدَ ابنه وأعز ما لدیه فی الحیاة، وهو «یوسف» الّذی کان یحبّه حبّاً جمّاً، وعاش سنوات مدیدة بعینٍ باکیة وصبرٍ عظیم حتّی انه عمیت عیناه، ولکن رغم ذلک فإنه لم تفلت منه کلمة مخالفة لرضی اللَّه تعالی وکان شاکراً وصابراً دائماً وکما تعبر الآیة علی لسان یعقوب نفسه بکلمة «صبرٌ جمیل» حیث تقول «وَجَآءُو عَلَی قَمِیصِهِ بِدَمٍ کَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَی مَاتَصِفُونَ» «۱». وهکذا نری إن الاخوة الکذّابین غفلوا عن تمزیق قمیص یوسف عندما جاءوا به ملطخاً بالدم وقالوا لأبیهم إنّ الذئب قد أکل یوسف فی غفلة منا، ولهذا لم یصدق یعقوب کلامهم هذا وقال: «بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا»، ولکن بما انه لم یکن یملک أی شیء اتجاه هذه الحادثة المؤلمة فاکتفی بالبکاء علی یوسف وقال: «فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» أی الصبر المقترن مع الشکر للَّهعلی هذه المحنة دون أن تمتد إلی قلبه حالة الجزع الذمیمة. وبالنسبة لعبارة «فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» فللمفسّرین بیانات مختلفة فی تفسیرها، فذهب البعض إلی أنّ «الصَبْرٌ الجَمِیلٌ» هو الصبر الّذی لا یخالطه الجزع ولا الشکوی للناس من المصیبة، وذهب البعض الآخر إلی أنّ الصبر الجمیل أن یکون بدافع إلهی وطلباً لرضی اللَّه تعالی وقد ورد فی الروایات انه سُئل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن الصبر الجمیل ما هو؟ وقال «هُوَ الّذی لَا شَکْوَی مَعَهُ» «۲». وذهب آخرون إلی أنّ الصبر الجمیل هو ما لم یقترن مع الشکوی إلی الناس، وأجمل منه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۹ أن یعرض حاله علی اللَّه تعالی ویلتجی إلیه فی هذه المصیبة ویؤدی حقّ الطاعة والعبودیة له. فعندما اعترض أبناء یعقوب علی أبیهم بسبب کثرة البکاء علی یوسف وتذکره الدائم قال لهم إننی لا أشکو حالی إلی الناس وإلیکم بل «قَالَ انَّمَا أشْکُوا بَثّی وَحُزْنِی الی اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» «۱». «الآیة الثالثة» تتحدّث عن طائفة اخری من الأنبیاء الإلهیین الّذین سلکوا فی دعوتهم لأقوامهم وفی مواجهة المشکلات والمصاعب فی خطّ الاستقامة والتحمل، من أجل ذلک فإنّ اللَّه تعالی أغرقهم برحمته وجعلهم فی زمرة الصالحین: «وَإِسْمَاعِیلَ وَإِدْرِیسَ وَذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِینَ» «۲». أما صبر إسماعیل فواضح، وذلک بانه أوّلًا: استعد لأن یضحی بنفسه فی طاعة اللَّه وامتثال أمره وامتثل لما أمره به أبوه من ذبحه کما أمر اللَّه، ولکن اللَّه تعالی شملهما بعنایته وأرسل لإبراهیم خروفاً أو کبشاً لیذبحه بدل إسماعیل. وثانیاً: لبقائه فی الصحراء المحرقة فی منطقة مکّة وإلی جانب بیت اللَّه الحرام کی ما یقوی ویشتد أمر هذا المرکز الإلهی ویشیع أمرهُ بین الناس. وأمّا بالنسبة إلی صبر إدریس فقیل: أنّه أوّل من بُعث من بین قومه یدعوهم إلی عبادة اللَّه تعالی ولکنه بالرغم من ذلک واجه صعوبات کبیرة فی هذا السبیل ولم یستجب له أحدٌ من قومه. وأمّا «ذی الکفل» فإنما سمی بهذا الاسم وصار فی زمرة الصابرین الکبار من الأنبیاء الإلهیین فبسبب انه کان یعیش فی بنی إسرائیل، وکان یحکمهم نبیّاً من الأنبیاء، وفی یوم من الأیّام جاء الوحی إلی ذلک النبی وأخبره بحلول أجله وأنّ علیه أن یسلم مقالید الحکم إلی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۰ شخص آخر تتوفر فیه هذه الصفات الثلاثة: أن یقوم فی کلّ لیلة بالعبادة والصلاة، وأن یصوم کلّ یوم، وأن یحکم بین الناس دون أن یغضب، فقال شابٌ من المؤمنین: أنا أتکفل بکلّ هذه الامور، قال ذلک واستمر علی الوفاء بعهده والاتیان بهذه الثلاثة (مع جمیع ما تتضمنها من مشاکل وصعوبات) وبذلک نال مقام النبی أیضاً فسُمی: ذی الکفل. أجل، فإنّ هؤلاء العظماء الثلاثة کانوا اسطورة للصبر والاستقامة بحیث إنّ القرآن الکریم جعلهم اسوة لجمیع المسلمین فی العالم وأشار إلیهم بذلک فی هذه الآیة الکریمة. وتتعرض «الآیة الرابعة» إلی الحدیث عن «قصة موسی علیه السلام والخضر علیه السلام» ونقرأ فی هذه القصة دروساً وعبراً مهمة ونافعة حیث جاء موسی علیه السلام إلی الخضر علیه السلام لطلب العلم وسأله أن یعلمه من العلوم والأسرار الإلهیة، لأن هذه العلوم والأسرار هی غیر «علم الشریعة» الّذی تلقاه موسی علیه السلام بطریق الوحی وکان علی اطلاع عام به، ولکنَّ تلک العلوم والمعارف متعلقة بأسرار عالم التکوین والحوادث الواقعة فی عالم الوجود، ولکن علی أیة حال فإنّ الخضر علیه السلام کان قلقاً

من عدم تحمل موسی علیه السلام بهذه العلوم والمعارف وقال له کما تذکر الآیة «قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا* وَکَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً» «۱». فکان أن وعد موسی علیه السلام معلمه بأن یصبر ویتریث ولا یعترض علی شیء، ولکن الحوادث والوقائع الّتی رآها فیما بعد کانت عجیبة وغریبة إلی درجة أنّ موسی علیه السلام لم یطق صبراً إلی أن یخبره الخضر علیه السلام عن أسرارها، وفتح فمه بالاعتراض علی معلمه، فما کان من الخضر علیه السلام إلّاأن ذکره بوعده بالصبر والتریث، فاعتذر موسی علیه السلام بذلک ولکنه فی المرّة الثالثة قرر الانفصال إلی الأبد. وهذه القصة العجیبة تتضمن دروساً ومعارف کثیرة، ولکن ما یرتبط ببحثنا هذا هو أنّ موسی علیه السلام لو صبر أکثر ولم یعترض علی الخضر علیه السلام لکان یکتشف أسراراً جدیدة ویزداد علماً إلی علمه، ولکن عدم صبره هذا تسبب بأن لا- یتعلم سوی ثلاثة امورٍ فقط، فی حین انه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۱ وکما یقول بعض المفسّرین المعروفین أنّ موسی علیه السلام لو صبر أکثر لکان یتعلم من الخضر علیه السلام آلاف الأسرار والمعارف الموجودة فی عالم التکوین والخلقة. وعلی هذا فإنّ الصبر یعد أحد مفاتیح العلوم والمعارف. ویمکن أن یتساءل البعض: ألم یکن الأنبیاء أعلم الناس فی زمانهم؟ فکیف طلب موسی من اللَّه تعالی أن یتعلم بعض العلوم من الخضر وحتّی انه فارقه بعد ذلک ولم یتعلم منه سوی بعض الامور والأسرار القلیلة؟ والجواب علی هذا السؤال واضح، وهو أنّ کلّ نبی یجب أن یکون أعلم الناس بالنسبة إلی دائرة مهمته ووظیفته فی تحمل مسؤولیة الدعوة إلی اللَّه وهدایة الناس إلی الحقّ، وهکذا کان موسی أعلم الناس بنظام الشریعة والدین، ولکنَّ مسؤولیة الخضر ودائرة علومه ترتبط بعالم التکوین وعمله وهو کعمل الملائکة «المدبرات أمراً» المأمورین بتدبیر عالم الوجود، ولهذا فإنّ الأعمال الّتی صدرت من الخضر قد لا تکون مطابقة لموازین الشرع فی الظاهر حتّی أنّ موسی علیه السلام اعترض علیه فی ذلک، ولکن عندما شرح الخضر علیه السلام الأسرار الکامنة فی أعماله قبل موسی علیه السلام منه ورضی بذلک. وأساساً فإنّ القوانین الحاکمة علی عالم التکوین رغم أنّها تصب فی نتیجة واحدة مع قوانین عالم التشریع إلّاآنها منفصلة عنها فی الظاهر، ولهذا السبب فإنّ صداقة موسی والخضر علیهما السلام لم تدم طویلًا. ومن الممکن أنّ یکون لبعض الأنبیاء وکذلک الأئمّة إحاطة بأسرار عالم التکوین أیضاً «کما یستفاد ذلک من الروایات بالنسبة إلی نبی الإسلام والأئمّة المعصومین علیهم السلام» ولکن هذا الأمر لا لزوم له فی توکید مرتبة النبوة للأنبیاء وکذلک مرتبة الإمامة للأئمّة لأن ذلک یعد مجرد فضیلة لا شرطاً للرسالة والإمامة. «الآیة الخامسة» تتحدّث عن أحد أنبیاء بنی إسرائیل الّذی ورد اسمه فی التفاسیر والتواریخ انه «اشموئیل» لکی یعین لهم رئیساً وقائداً للجیش لیحاربوا معه جالوت، فاختار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۲ لهم رجلًا یدعی «طالوت» لانه یمتاز ببعض الممیزات والصفات الإیجابیة الموجودة فیه بتفاصیل قد تخرج عن موضوع هذا البحث. وعندما جاء طالوت بذلک الجیش العظیم من بنی إسرائیل لحرب جالوت أدرک جیداً بفراسة من اللَّه تعالی أنّ هذا الجیش العظیم غیر قابل للاعتماد، لانه رأی کثیراً من أفراده یعیشون حالة الکسل والخمول وعدم الهمة، فمضافاً إلی أنّ وجودهم لیس فقط لا یبعث علی تقویة الجیش، بل سیؤدی إلی تضعیف روحیة الآخرین أیضاً، لذا عزم علی تصفیة جیشه بالعدید من الاختبارات والامتحانات، وبعد أن نجح فی ذلک وأتم اختباره لجیشه لم یبق منه إلّاعدّة قلیلة. وهذه الفئة القلیلة کانت تعیش القلق والاضطراب من قلّة الأفراد، فکان أحدهم یقول للآخر: نحن لا نستطیع مقاومة جیش جالوت العظیم ولا نتمکن من الصمود أمام قوته وجحافله، ولکنَّ البعض منهم کما یقول القرآن الکریم «قَالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُواْ اللَّهِ کَم مِّن فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ» «۱». ثمّ إن هذه الفئة القلیلة عندما برزوا لجالوت دعوا اللَّه تعالی أن یرزقهم حسن الصبر کما تقول الآیة: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَیْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَی الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ» «۲». وعلی هذا فقد اثبتوا أنّ الجماعة الکثیرة للجنود والجیش العظیم إذا کانوا فارغین من الدوافع المعنویة والاستقامة والصبر فإنّهم سینالهم الفشل الذریع فی میدان القتال، بخلاف الفئة القلیلة، الّتی تعیش الاستقامة والصبر والثبات فإنه یمکنها الانتصار علی الجیش العظیم فی العدّة والعدد، وبذلک استطاعت هذه العدّة القلیلة مع قائدهم طالوت بالانتصار علی جالوت وجنوده الکثیرین ویهزموهم شرَّ هزیمة، وهناک قتل داود الّذی کان شاباً قویاً فی جیش طالوت، «جالوت» واستطاع بنو إسرائیل العودة إلی دیارهم وأهلیهم فتخلصوا من الاخلاق فی القرآن، ج۲،

ص: ۴۱۳ سيطرة عدوهم جالوت وتحرروا من أسره، وبهذا فقد خلفوا للتاريخ البشرى درساً آخر عن أهمية الصبر والاستقامة فى سلوكهم العملى. ويستفاد من هذه الآيات الشريفة أنّ التوكل على اللَّه بالإيمان بالآخرة والثواب الإلهى يشكل دعامة قوية للصبر والاستقامة فى واقع النفس، ونقرأ فى بعض الروايات أنّ عدد جيش جالوت ۳۱۳ نفراً كما كان أصحاب بدر كذلك فى العدد، واللطيف أنّ داود مع صغر سنه ولكنّه كان مسلحاً بقوّة الإيمان، وكان قد أخذ معه مقلاعاً وعدّة أحجار ورمى بأحدها باتجاه جالوت فأصابته بجبينه وخرَّ جالوت صريعاً بسبب ذلك، فلمّا رأى جيشه ذلك أسرعوا بالفرار يحدوهم خوف عظيم وتلاشى ذلك الجيش الكبير الّذى يبلغ عدده كما ورد فى بعض الروايات «منه ألف نفر» مسلحين بأنواع الأسلحة. وتستعرض «الآية السادسة» خطاب اللَّه تعالى للنبى الكريم صلى الله عليه و آله موصيةً له بالاستقامة وأن يقتدى بذلك بسيرة الأنبياء اولى العزم من قبله وتقول: «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم ...» «۱». ورغم أنّ هذه الآية الشريفة تتحدّث عن الصبر والتأنى فى مقابل طلب نزول العذاب الإلهى على المخالفين والأعداء إلى أن تتم الحجّة عليهم فلعلّه يوجد من بينهم من له رغبة فى سلوك طريق الحقّ ويهتدى بالتالى إلى الإيمان ويكون فى زمرة السعداء، ولكن هذا الأمر الإلهى بمثابة دستور عام ودليل واضح على فضيلة الصبر بعنوان منهج عام لجميع الأنبياء من اولى العزم. أجل فإنّ جميع الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع السماوية عندما كانوا يواجهون أعدائهم المعاندين والأشخاص الّذين يعيشون الجهل والسفه والعناد كانوا يتسلحون بالصبر والاستقامة أكثر ليتمكوا من هداية الامّة إلى ساحل النجاة بصورة أفضل. النبى نوح عليه السلام دعا قومه إلى طاعة اللَّه « ۹۵۰ سنة» ليل نهار فى الخفاء والاجهار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۴ ووعظهم وحذرهم طيلة هذه المدّة المديدة ولكنه لم يؤمن له سوى بضع أفراد معدودين. النبى إبراهيم عليه السلام أُلقى فى النار الملتهبة، والنبى موسى عليه السلام تعرض هو والمؤمنين من قومه إلى أشد العذاب من قبل فرعون وأتباعه، وكذلك ما واجهه عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل من الأذى والاتهام والطرد إلى أن أرادوا صلبه وقتله ولكن اللَّه تعالى انقذه فى اللحظة الأخيرة، والخلاصة أنّ الحياة الدنيا هى دائماً محل التضاد بين الحقّ والباطل حيث لا يمكن التغلب على المشكلات والمصاعب الّتى يواجهها الإنسان فى حركة الحياة إلّابقوّة الصبر والاستقامة. امّا المراد من الأنبياء اولى العزم من هم؟ فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد به هم الأنبياء الّذين يأتون بشريعة جديدة وعددهم مع نبى الإسلام خمسة أشخاص، وامّا اختيار هذا الأسم والعنوان لهم فهو من أجل ارادتهم القوية وعزمهم القاطع فى الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس إلى اللَّه تعالى، ولا شكّ أنّ هذه الفئة من الأنبياء كانوا يواجهون من المشاكل والمصاعب فى حركة التغيير بالرسالة الإلهية أكثر من غيرهم، لأن عرض شريعة جديدة تتقاطع مع كلّ ما يألفه الناس من الشرائع والقوانين السائدة لديهم يتضمّن مشكلات كثيرة وصعوبات يقوم بها المتعصبون من هذه الأقوام البشرية. وذهب بعضٌ آخر إلى أنّ عددهم «۱۸ نفر» حيث ورد اسمهم فى الآيات ۸۳ إلى ۹۰ من سورة الأنعام، وذهب البعض الآخر إلى أنّهم تسعة أشخاص، وآخرون إلى سبعة أشخاص، بينما ذهب البعض إلى ستة أشخاص، وبعض قال بأنّهم خمسة أشخاص، وذكر آخرون أنّ جميع الأنبياء الإلهيين هم «اولى العزم»، لأنهم يرون أنّ جميعهم يتمتعون بالعزم الراسخ فى أداء المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقهم، ولكنَّ القول الأخير بعيد حسب الظاهر، وسائر الأقوال لا دليل عليها سوى ما ورد من الروايات الشريفة عن المعصومين عليهم السلام فى تفسير هذه الآية وأنّ عددهم مع نبى الإسلام هو خمسة أشخاص. وأما «الآية السابعة» فتعود لتخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من موقع الأمر بالصبر مقابل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۵ استهزاء وتكذيب المشركين واذاهم وتقول: «فَاصْبِر صَبراً جَميلًا» «۱». وقد ذكر المفسّرون فى تفسير «صبراً جميلًا» تفاسير مختلفة وقد تقدّم البحث عنها فى تفسير الآية الثانية فى هذا البحث وسنتابع الكلام فيها فى حديثٍ آخر لاحقاً، ويقول الإمام الباقر عليه السلام فى الجواب عن معنى الصبر الجميل فى هذه الآية، «صَبْرٌ لَيسَ فِيهِ شَكْوىً الَى النّاسِ» «۲». وفى «الآية الثامنة» يخاطب اللَّه تعالى جميع المؤمنين ويأمرهم بالصبر والمثابرة وأنّ ذلك هو مفتاح السعادة والنجاة ويقول «يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۳». فنقرأ فى هذه الآية أربع أوامر تمثل مفتاح السعادة ومصدر الخيرات والبركات على الإنسان فى حياته المادية والمعنوية. الأوّل: الصبر والاستقامة والصمود أمام الحوادث والمشكلات والمصائب

والموانع الّتی یجدها الإنسان فی حرکته الدنیویة لتحدیات الواقع وصعوبة الظروف. الثانی: المصابرة، وهی من باب «مفاعلة» وتأتی بمعنی الصبر والاستقامة مقابل صبر واستقامة الآخرین، وفی الحقیقة فإنّ الدستور الأوّل ناظرٌ إلی الصبر والاستقامة أمام أنواع المشکلات والحوادث الّتی یفرضها الواقع علی الإنسان، أما الدستور الثانی فناظرٌ إلی الصبر والاستقامة أمام الأعداء، وعلیه فکلّما بذل الأعداء جهداً فی سبیل المقاومة فی میدان القتال، فعلی المؤمنین أن یبذلوا جهداً أکبر من ذلک ویعیشوا الصبر بأقوی ممّا لدی العدو کی ینالوا النصر والغلبة علیه. «رابطوا» من مادّة «مرابطة» وهی فی الأصل من «رباط» بمعنی شد الشیء إلی مکان معین، وتستعمل هذه المفردة «مرابطة» عادةً بمعنی مراقبة الحدود والثغور لأن جنود الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۶ الإسلام یضعون مراکبهم وأدوات حربهم وامتعتهم فی ذلک المکان. وآخر دستور إلهی فی هذه الآیة هو الأمر بتقوی اللَّه الّذی هو من قبیل الخیمة الّتی تستوعب بظلّها جمیع الأوامر والدساتیر السابقة، فعندما یکون الصبر والمصابرة والمرابطة من أجل اللَّه وبعیداً عن أی أشکال الریاء والأمراض الشخصیة وتکون مقترنة بالتقوی فإنّ ذلک سیتسبب فی الفلاح والنجاة فی الدنیا والآخرة. بعض المفسّرین ذکر فی تفسیر «المصابرة» أنّها الصمود ومقاومة العادات والأهواء النفسانیة، لانها تقف فی المقابل أمام الإنسان لتمنعه من سلوک طریق الهدی والصلاح والسیر فی خطّ التقوی والإیمان، فیجب علی الإنسان أن یقف فی مقابلها بالمثل، وقالوا فی تفسیر «المرابطة» أنّ المراد منها هو ربط النفس بطاعة اللَّه أو ربط القلب باللَّه تعالی وقد نقل عن أحد العرفاء انه کان یتجه إلی الحجّ مشیاً علی الأقدام، فالتقی بأعرابی راکباً جمله فقال له الأعرابی: أین تذهب یا شیخ؟ فقال له: إلی بیت اللَّه الحرام. فقال: لماذا أنت راجل؟ فقال: بل لدی مراکب کثیرة، فتعجب الأعرابی من ذلک فسألة: وما هی هذه المراکب؟ فقال العابد: عندما تنزل علیّ مصیبة فسأرکب مرکب الصبر، وعندما تنزل علیّ نعمة أرکب مرکب الشکر، وعندما یداهمنی القضاء والقدر أرکب مرکب الرضا، وعندما تطغی نفسی وتطلب منی شیئاً فأعلم أنّه لم یبق من عمری شیء وما مضی منه أکثر ممّا بقی. فقال الأعرابی: فی الواقع أنت الراکب وأنا الراجل والسلام علیکم، فودعه وانصرف. «الآیة التاسعة» تخاطب جمیع المؤمنین بتعبیرٍ جدید وتتحرک ضمن توصیتهم بأن یلتزموا الصبر ویستعینوا بالاستقامة والتحمل فی مقابل تحدیات الواقع الصعبة والمشکلات المفروضة علیهم وتقول: «یَا ایُّها الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِینَ» «۱». وهذه الآیة لها مفهوم واسع بحیث تشمل کلّ أشکال الصبر والاستقامة، سواءٌ الصبر علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۷ الطاعة أو الصبر علی المعصیة أو الصبر علی المصیبة، فتوجب علی الإنسان أن یستعین بکلّ عمل مهم بالصبر سواءً کان ذلک العمل هو الجهاد فی سبیل اللَّه أو غیر ذلک، فلابدّ من الاستعانة بأحد أقسام الصبر بما یتناسب مع المشکلة الّتی تواجه الإنسان. ولابدّ من القول فی من فسّر الصبر بالصوم أنّ الصوم أحد المصادیق البارزة للصبر لا أنّه یستوعب جمیع مفهوم الصبر فی هذه الآیة الشریفة. وهنا یثار سؤال، وهو أنّه ما هی الرابطة بین الصبر بمعناه الواسع، وبین الصلاة؟ ذکر بعض المفسّرین فی مقام الجواب أنّ الرابطة بینهما هو أنّ الإنسان قد یفقد صبره أحیاناً أو یتضعضع أمام المشکلات وضغط الواقع الصعب فتأتی الصلاة لتمنحه قوّة القلب الإرادة والعزم والتوکل علی اللَّه تعالی، وبذلک فإنّ الصلاة تزید الإنسان قوّة فی عملیة الصبر والمقاومة. وبتعبیر آخر: عندما یتجه الإنسان إلی الباری تعالی من خلال الصلاة فإنه یجد نفسه مرتبطاً بالقدرة اللامتناهیة والحقّ الأزلی، وهذا العمل یزید من مقاومة الإنسان فی مقابل المشکلات بحیث یبلغ به مرتبة أن یتغلب علی جمیع ما یواجهه من صعوبات ومشاکل ویستمر فی خط الاستقامة والتحمل والمثابرة، ولهذا ورد فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وأحیاناً عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، وکلا الحدیثین صحیحان من حیث السند: «اذَا أَهَالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ، قَامَ الی الصَّلَوةِ ثُمَّ تَلی هَذِهِ الآیَةِ وَاسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ «۱»» «۲». وعلی أیة حال فإنّ هذه الآیة من أوضح الآیات القرآنیة الّتی تبیّن أهمیة الصبر وکونه عاملًا مهماً فی نجاح الإنسان فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة. «الآیة العاشرة» تخاطب نبی الإسلام صلی الله علیه و آله «من جانب اللَّه تعالی» بأن یقول لجمیع عباده المؤمنین: «قُلْ یَاعِبَادِ الَّذِینَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُواْ فِی هذِهِ الدُّنْیَا حَسَنَةٌ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۸ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا یُوَفَّی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَیْرِ حِسَابٍ» «۱». وهذه الآیة الشریفة تدلّ من جهة علی أنّ الإنسان یجب علیه أن یستعین بقوّة الصبر والاستقامة فی مقابل الصعوبات الّتی

يفرضـها الواقع وتفرضـها عليه عمليـة الصـراع مع الظـالمين والجبابرة، لأنّه بـدون ذلك فلا يوجـد منفـذ أمام الإنسان سوى الاستسـلام للظالمين وقوى الإنحراف والخضوع لهم. ومن جهـة اخرى فإنّها تشـير إلى ثواب الصابرين عنـد اللّه وأنّه لا يقبل العد والحساب. عبارة «بغير حساب» تشـير إلى أنّ اللّه تعالى سوف يجازى هؤلاء الصابرين بالثواب العظيم إلى درجـة أنّ أحـداً لا يقـدر على عـدّه واحصائه إلّااللّه تعالى، ولهـذا نقرأ فى الحـديث الشـريف عن رسول اللّه أنّه قال: «إذا نشـرت الـدواوين ونُصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشـر لهم ديوان، ثمّ تلاـ هـذه الآيـة: إِنَّمَـا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۲». وهـذه العبـارة «بغير حساب» وردت فى آيات متعـددة اغلبها يتعلق بالرزق الـدنيوى الكثير الّذى يهبه اللّه تعالى لبعض الناس، ولكن فقط فى هذه «الآية ۴۰ من سورة المؤمن» فتتحـدّث عن الثواب الإلهى للمؤمن والصابر يوم القيامـة، ومن المعلوم انه إذا كان الرزق الـدنيوى بـدون حساب فإنّ ذلك لا يعنى انه يتنـاسب مع كميـة العمـل أو كيفيته، بـل يتنـاسب مع لطف اللّه تعالى وعنايته لعبـده، وبالتالى تكون ثمرته ساميـة جـداً فى مقام القرب الإلـهى والكمال المعنوى. ونقرأ فى «الآيـة الحاديـة عشـر» تعبيراً جميلًا جـداً عن أهميـة الصبر والاسـتقامة، وذلك أنّ الملائكـة عنـدما تسـتقبل أهـل الجنّـة من كـلّ بـاب يردون إليها يقولون لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۹ صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۱». واللطيف أنّ الملائكة هنا أشاروا من بين جميع الأعمال والطاعات والعبادات الّتى أتى بها أهل الجنّة إلى الصبر والاسـتقامة لأن ذلك كان سبب دخولهم الجنّة، ولو دققنا النظر لرأينا أنّ الصبر بحد ذاته له دورٌ مهم فى سعادة الإنسان ونجاته فى الآخرة ودخوله الجنّة لانه بدون الصبر فلا يستطيع الإنسان أن يتوقى من الذنوب ولا يؤدى العبادات والطاعات ولاجهاد النفس أو جهاد الأعداء، ولهذا السبب فإنّ الملائكـة فى أوّل سـلام وتبريك لهؤلاء ذكروا مسألة الصبر. والشاهد على هذا الكلام أنّ جميع الطاعات يأتى بها الإنسان فى ظلّ عنصر الصبر ونقرأ فى الآية ۲۲ من هذه السورة قوله تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَاقَامُوا الصَّلَوةَ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَئُونَ بِالْحَسَنَةِ السيِّئَة ...». وجاء فى تفسير هذه الآية حديثاً جميلًا عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إذا كـان يوم القيامـة ينـادى منـاد: ليقم أهـل الصبر، فيقوم جمعى من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنـة، فتتلقاهم الملائكـة فيقولون إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنـة. قـالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنـا أنفسـنا على طاعـة اللّه، وصبرناهـا عن معاصـى اللّه، وصبرناها على البلاء والمحن فى الـدنيا، قال على بن الحسـين عليه السـلام: فتقول لهم الملائكـة: «سـلام عليكم بمـا صبرتم فنعم أجر العاملين» «۲». وذكر بعض رواة هـذا الحـديث أنّ الملائكة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» «۳». «الآية الثانية عشـر» تكرر هذا المطلب بصورة جذابة، وهذه الآية هى استمرار للآيات الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۰ الّتى تحدّث عن صـفات «عباد الرحمان» واسـتعرضت فى سياقها اثنى عشـر صـفة ايجابية تبين شخصيتهم السامية فى جميع الأبعاد «اولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَروا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً» «۱». «غُرفة» من مادّة «غَرْفَ» على وزن «ظرف» بمعنى حمل الشـىء وأخـذه باليـد ولـذلك يقال لمن يتناول الماء من العين بيـده انه: اغترف من الماء، وكـذلك تطلق هذه الكلمة على الأقسام العلوية من البناء فيقال لها «غرفـة» وفى هـذه الآيـة اطلقت هـذه الكلمة على أعلى المنازل فى الجنّة وأنّها من نصـيب الصابرين. ويسـتفاد من تعبير الآية أعلاه أنّ الصبر هو العنصـر المشترك الممتد فى جميع الصفات الاثنى عشر لهؤلاء العباد المخلصين «عباد الرحمان». وتأتى «الآية الثالثـة عشـر» وهى من الآيـات المعروفـة فى مسألـة الصبر لتثير فى أجواء الصـابرين البشـارة بالثواب الإلهى الجزيل وتقول: «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا انَّا لِلَّهِ وَانَّا الَيهِ رَاجِعُونَ* اولئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۲». وبالرغم من أنّ هذه الآيات تشـير إلى غصن واحد من اغصان شـجرة الصبر، وهو الصبر على المصائب والمشـكلات، ولكن تتضـح أهمية ذلك من خلال ما يترتب على هذا اللون من الصبر من صـلوات اللّه ورحمته على هؤلاـء الصـابرين وأنّهم يسيرون فى خطّ الهدايـة والاسـتقامة والتـوجه إلى اللّه تعـالى من خلاـل حـالة الاسـتقامة والصبر أمام البلايا والمصائب. فنظراً إلى أنّ الامتحان الإلهى للإنسان فى هذا العالم الدنيوى يُعد من السنن الحتمية فى عالم التكوين، وأنّ العبور من هذا النفق والوادى العسـير لا يتسنّى ألا بالاسـتعانة بالصبر، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۱ وحينئذٍ يتضح

دور الصبر والاستقامة فى حركة الحياة الدنيوية والنتائج المترتبة على ذلك، فما أعظم أن يجد الإنسان نفسه مشمولًا بثلاث عنايات إلهية فى مقابل الصبر وهى: الاولى: الصلوات والتحيات الإلهية من النوع الّذى يصلى فيه اللّه تعالى على نبيّه الكريم، ثمّ شمول رحمته الواسعة لهذا الإنسان ودخوله فى دائرة اللطف الإلهى، والأهم من ذلك أنّ الهداية الإلهية ستكون من نصيب هؤلاء والّتى هى مصدر جميع النعم والمواهب وأشكال السعادة الدنيوية والاخروية. وأما لماذا وردت كلمة «صلوات» بصورة جمع؟ هنا ذكر تفسيران كلّ منهما محتمل فى معنى الآية، الأوّل أنّ ذلك إشارة إلى أنواع الاكرام الإلهى والاحترام الربانى لهؤلاء، والآخر انه إشارة إلى تكرار هذه العملية وأنّ اللّه يصلّى عليهم عدّة مرّات، اما التعبير بالرحمة بصورة نكرة فهو إشارة إلى الأهمية والعظمة لهذه النعمة. واما الفرق بين الصلوات والرحمة فقد ذكر البعض أنّ الصلوات إشارة إلى مدح اللّه ولطفه ومغفرته، فى حين أنّ الرحمة إشارة إلى النعم المادية والمعنوية فى الدنيا والآخرة. «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات مورد البحث والّتى وردت فى سورة العصر فإنّها ضمن بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ جميع الناس سيكون مصيرهم إلى الخسران حتماً ما عدا الأشخاص الّذين يتمتعون بأربع صفات، وأحدها: الصبر والاستقامة وتقول «وَالْعَصْرِ* انَّ الْانْسانَ لَفِى خُسْرٍ* الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» «۱». جملة «تواصوا» من مادّة «تواصى» وتشير إلى انه ينبغى على المؤمنين بعد الإيمان والمعرفة والعمل الصالح أن يتحركوا من موقع التكاتف والتعاون لاحقاق الحقوق والانصاف والعدالة فى التعامل مع الغير والتوصية بذلك فيما بينهم، لأنّ إحقاق الحقّ واجراء العدالة فى المجتمع الإنسانى لا يتسنّى إلّابالاستقامة والصبر أمام تحديات الواقع الصعبة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۲ والموانع العسيرة، ولذلك أوصت الآية الشريفة بالصبر على مستوى العامل الرابع من العوامل المؤدية إلى النجاة، وفى الحقيقة أنّ هذا العامل هو دعامة وأساس للعوامل الثلاثة الاخرى، وعليه فإنّ الصبر يعد أحد الأركان الأصلية لسعادة الناس وتحركهم فى خطّ الإيمان وتعميق شجرة الأخلاق والصلاح فى قلوبهم، وبدونه سوف لا- تثمر القيم الأخلاقية والأعمال الصالحة فى واقع الإنسان والمجتمع شيئاً، ولا يمكن احقاق الحقوق واجراء العدالة فى المجتمع البشرى، ولا شكّ أنّ احقاق الحقوق واجراء العدالة يعد من أهم الامور والوظائف، لأنّه أحياناً يكون الحقّ فى الطرف المقابل للإنسان أو لأحد أحبته وأقربائه، وهنا تكون اجراء العدالة والعمل بالحقّ بحاجة إلى الاستمداد والاسترفاد من عنصر الصبر. ومن مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة تتضح هذه الحقيقة، وهى أنّ أهمية الصبر والاستقامة والمثابرة فى خطّ العدالة والحقّ إلى درجة من الأهمية أكثر ممّا نتصور، وكما يقول بعض المفسّرين أنّ الصبر فى القرآن الكريم ورد أكثر من سبعين مرّة أو تكرر بما يقرب من مئة مرة، فى حين اننا لا نجد فضيلة من الفضائل الأخلاقية والإنسانية قد وردت بمثل هذا التأكيد فى الكتاب العزيز، وهذا إنما يدلّ على أنّ القرآن الكريم يولى هذه الفضيلة الأخلاقية أهمية كبيرة ويعدها عصارة جميع الفضائل والأساس لجميع أشكال السعادة الدنيوية والاخروية والاداة الحاسمة للوصول إلى أى نوع من أنواع الفلاح والنجاح والموفقية.

الصبر فى الأحاديث الإسلامية:

وكما يقول بعض علماء الأخلاق أنّ الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام فى فضيلة الصبر والاستقامة أكثر من أن تحصى وقد ورد فى بعض الكتب الأخلاقية ما يقرب من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۳ تسعمائة حديثاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فى هذا الموضوع، ولذلك نختار بعض النماذج من هذه الأحايث الشريفة لنستوحى منها دورساً فى هذه الفضيلة: ۱- قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله «الصَّبْرُ خَيْرُ مَرْكَبٍ مَا رَزَقَ اللَّهُ عَبْداً خَيراً لَهُ وَلَا اوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «۱». وعبارة «خيرُ مركب» الواردة فى هذا الحديث الشريف تشير إلى أنّ الصبر هو أفضل وسيلة للوصول إلى السعادة والنجاة وأنّ الإنسان بدونه لا يصل إلى شىء من المقامات الاجتماعية والمعنوية فى الدنيا والآخرة. ۲- وعن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عَلَيْكُم بِالصَّبْرِ فَانَّ الصَّبْرَ مِنَ الْايمَانِ كَالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ» «۲». وهذا الحديث يدلّ على أنّ الصبر يعد مفتاحاً لجميع الأبعاد الحيوية فى حركة الإنسان المادية والمعنوية، ولهذا ورد فى ذيل الحديث المذكور «لا ايمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ». ۳- وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام

أيضـاً أنّه قـال: «لا ـ يَعْـدِمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ و انْ طَـالَ بِهِ الزَّمـانُ» «۳». ومع الالتفـات إلى أنّ الصـبر ذكر هنـا بشـكل مطلق وكـذلك الظفر والنصب، فهذا يدلّ على أنّ هذه الحكم يستوعب جميع الأبعاد المادية والمعنوية فى حياة الإنسان. ۴- وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى باب الصبر «الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمانِ» «۴». وجاء فى بعض الروايات الاخرى أنّ نصف الإيمان هو الشكر والنصف الآخر هو الصبر. أى الصـبر والاسـتقامة للوصول إلى النعم والمواهب الإلهيـة ثمّ الشـكر على هـذه النعمـة، أى الاسـتفادة الصـحيحة من المواهب والنعم الإلهية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۴ ومن الواضـح أنّ هـذا الحـديث لا يتنافى مع الأحاديث السابقة، لأنّه كما تقدّم أنّ المؤمن إذا لم يتمسك بالصبر فإنّ إيمانه سوف يتعرض للاهتزاز والارتباك بسبب الموانع الكثيرة الّتى يجدها فى طريقه، وكذلك لو لم يكن شكوراً على نعم اللَّه تعالى، فإنّ هـذه النعم ستزول وتهرب من يده كما ورد فى الآية: «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ انَّ عَذَابِى لَشَديد». ۵- وفى حديث آخر عن رسـول اللَّه صـلى الله عليه و آله أنّه قـال: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» «۱». ۶- ودليل هـذا المعنى ما ورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام يوضـح هذا المعنى ويقول «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلى كُلِّ امْرٍ» «۲». لأنّه كما تعلمون أنّ نظام الحياة فى الـدين والدنيا يضع أمـام كلّ عملٍ مهم بعض الموانع الّتى لايتجاوزها ولا يعبرها إلّابالاسـتعانة بالصبر والاسـتقامة. ۷- اما بالنسـبة للصبر عند المعصية فورد فى الحديث الشـريف «وَمَنْ صَبَرَ عَنْ مَعْصِـيَةِ اللَّهِ فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبيلِ اللَّهِ» «۳». أجل فكليهما مجاهـد فى سبيل اللَّه، مع فارق أنّ أحـدهما يجاهـد العـدو الخارجى «الجهاد الأصـغر» والآخر يجاهـد العـدو الداخلى «الجهاد الأكبر». ۸- وورد فى حـديثٍ آخر عن أميرالمؤمنين قوله: «انْ صَبَرْتَ ادْرَكْتَ بِصَبْرِكَ مَنـازِلَ الا ـبْرارِ وَان جَزَعْتَ اوْرَدَكَ جَزَعَكَ عَـذابَ النّارِ» «۴». ۹- وعن الإمام الصادق عليه السـلام قال فى الصبر فى مقابل البلايا والمصائب «مَن ابْتُلى مِنَ المُؤمِنينَ بِبَلاءٍ فَصَبَرَ عَلَيهِ كَان لَهُ مَثلُ اجرِ الْفِ شَهِيدٍ» «۵». ويقول العلّامـة المجلسـى بعد ذكر هذا الحديث فى الجزء ۶۸ من بحـار الأنوار انه كيف يعقل أنّ للصبر مثل هـذا الثواب فى حين أنّ للشـهيد بنفسه أحد الصابرين لانه صبر أمام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۵ العدو حتّى استشهد؟ ويمكن فى مقام الجواب عن هذا السؤال أن نقول: إنّ الشـهيد يصبر أمام هجوم الأعداء، وهؤلاء الصابرون إنما يصبرون فى مقابل الصـعوبات المرة الّتى تعترضهم فى الحياة من قبيل أنواع المرض، الفشل، وفقد الأحبّة وأمثال ذلك. والدليل الآخر على أفضلية الصابر بالنسبة إلى الشهيد هو أنّ الشهادة تحدث مرة واحدة للإنسان، ولكنَّ صعوبات الحياة تتكرر آلاف المرات. ۱۰- ويقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى الثواب المعنوى للصابرين «مَنْ ابْتُلِىَ فَصَبَرَ وَاعْطِىَ فَشَكَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ اولَئِكَ لَهُم الْامْنُ وَهُم مُهتَدونَ» «۱». ۱۱- ويقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «الصَّبْرُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِ العِبادِ مِنَ النُّورِ وَالصَّفاءِ والْجَزَعُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِهِم مِنَ الظُّلْمَـةِ وَالْوَحْشَـةِ» «۲». ۱۲- ونختم هذا البحث عن أحاديث الصبر بحديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لا تَكبُوا وَالقَناعَةُ سَيفٌ لا يَنْبُوا» «۳».

معطيات الصبر ونتائجه:

كمـا تقـدّم فى المبـاحث السابقـة فـإنّ طبيعـة الحيـاة الـدنيا تقترن بـالموانع والمشـكلات والبلايـا، فلو أنّ الإنسـان لم يلتزم بـالمقررات والقوانين الّتى تنسجم مع هذه الحياة ويحل بذلك ما يواجهه من مشـكلات فإنّه سوف لايصل إلى مقصده ولا يحقق غايته، وكذلك فإنّ الآفات والمصائب موجودة فى ضـمن النعم والمواهب وتتسـبب فى فقدها أو الاضـرار بها من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۶ قبيـل المصـائب الّتى تواجه الإنسان فى أولاده وأقربائه وأمثال ذلك. فالإنسان بـدون الاسـتعانة بالصبر والاسـتقامة سوف لا يتمكن من سلوك طريق الكمال والسعادة فى بعده الإيجابى، وكذلك لا يتمكن من الصمود أمام عناصر الشَّر فى حركة الحياة، ولهذا السبب فإنّ المفتـاح الأصـلى للموفقيـة والنجـاح فى الحيـاة هـو الاسـتعانة بـالصبر والاسـتقامة، وبمـا أنّ الـدين هـو عبـارة عن مجموعـة الواجبـات والمحرمـات، أو الطاعات وترك المعاصـى، فإنّ الإيمان والإلتزام بالـدين لا يكون ولا يتحقق بـدون الصبر والاسـتقامة، لانه وطبقاً لما تقـدّم من البيان فإنّ الصبر بالنسـبة للإيمان كالرأس بالنسـبة إلى الجسد، ولذلك ورد فى بعض الأحاديث الإسـلامية «ومنها الأحاديث الواردة عن أميرالمؤمنين عليه السلام» أنّ الصبر قرين الظفر «الصَّبْرُ الظَّفَرُ» «۱». ونقرأ أيضاً فى الآيات القرآنية أنّ الشرط المهم لإنتصار

المجاهدين في سبيل اللّه هو الصبر والاستقامة في هذا الطريق ومن ذلك قوله تعالى «... إنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْ ئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنكُم مِّاْ ئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ» «٢». ما هذه القوّة الّتى تمنح رجلًا واحداً القدرة على مقابلة عشرة أشخاص، وتمنح مئة شخص القدرة على مقابلة ألف شخص؟ إن هذه القوّة هى قوّة الصبر والاستقامة الّتى ورد التصريح بها فى الآية الشريفة. فالأشخاص الّذين يعيشون ضعف الإرادة وقلّة العزيمة سوف يواجهون الحوادث والمشاكل من موقع الاذعان والخنوع أو يديرون ظهورهم لها ويجمحون عن مقاومتها، ولكنه لا الدنيا تتحقق للإنسان بدون الصبر والاستقامة ولا الآخرة، ولهذا السبب فان الشعوب الّتى حقّقت تقدماً علمياً وتطوراً حضارياً فإنما تحقق لها ذلك بواسطة الاستقامة والمثابرة والصبر، ويذكر فى حالات العلماء الكبار، سواءاً الشخصيات الدينية الّتى فتحت أبواب العلوم والمعارف الدينية أمام الناس، أو علماء العلوم الطبيعية الّذين حققوا للبشرية الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٤٢٧ اكتشافات واختراعات مهمّة، أنّهم كانوا يعيشون قبل كلّ شيء حالة الصبر والاستقامة والمثابرة فى أعمالهم ودراساتهم، فأحياناً يضطر أحد العلماء للكشف عن قانون علمى إلى اختيار العزلة والانزواء فى المكتبة أو المختبر لعدّة سنوات حتّى يوفق أخيراً إلى هدفه واكتشافه. وقد ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَكِبَ مَراكِبَ الصَّبْرِ اهْتُدِيَ الَى مَيْدَانِ النَّصْرِ» «١». وكذلك ورد عن هذا الإمام قوله «مِفْتَاحُ الظَّفَرِ لُزُومِ الصَّبْرِ» «٢». ومن جهة اخرى نجد أنّ الأشخاص الّذين يشكون ضعف العزم وقلّة الصبر والاستقامة فإنّهم يتلوثون بسرعة بأنواع الذنوب، لأنّ الذنوب لها جاذبية قوية للنفس الأمارة فى الإنسان، فلو لم تكن فى الإنسان قدرة على مقاومتها لأسرع الإنسان الخطى فى منزلقات الانحطاط والرذيلة. وورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله «كَمْ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ قَدْ اوْرَثَتْ فَرَحَاً طَويلًا وَكَمْ مِنْ لَذَّةِ سَاعَةٍ قَدْ اوْرَثَتْ حُزْناً طَويلًا» «٣». ومن الممكن أن يبتلى الإنسان فى مسيرة حياته بأنواع الضرر والخسارة المادية والمعنوية والاجتماعية، مثلًا بالنسبة إلى موت الأحبّة يجب القول: إن هؤلاء الأحبّة من الأصدقاء والاقرباء لم يتولدوا فى وقت واحد وسوف لا يرحلون من هذه الدنيا فى وقتٍ واحد أيضاً، فهناك من يرحل قبل الآخر وهناك من يتأخر، والأشخاص الّذين يرحلون من هذه الدنيا أسرع سوف يخلفون فى قلوب أحبتهم حالات الغم والحزن على فراقهم، فلو أنّ الإنسان لم يتحل بالصبر فسوف يفقد سلامته النفسية وصحّته الجسمية ويعيش اليأس فى الحياة ويتأخر عن القافلة. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٤٢٨ أجل فإنّ الصبر مع وجود جميع هذه الحوادث والمصاعب يمنح روح الإنسان وقلبه القدرة على الاستمرار فى حركة الحياة وإدامة السلوك فى خطّ التكامل الإنسانى. وقد رأينا فى الأحاديث السابقة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول إنّ ثواب الصبر لدى الشيعة مقابل المصائب والبلايا يعادل ثواب ألف شهيد، وهذا المعنى يدلل على ما تقدّم آنفاً من أهمية الصبر. والخلاصة هى إننا كلّما تحدّثنا عن أهمية الصبر ودوره فى الصعود بالإنسان فى مدارج الكمال المادى والمعنوى، الدنيوى والأخروى، فلا نصل إلى غاية الكلام ولا نحيط بتمام الموضوع، ولهذا فلا ينبغى أن نتصور أنّ ما ورد فى الروايات الشريفة عن ثواب الصابرين هو مبالغة فى الكلام، وبعبارة اخرى: يمكن التمسك بالحديث الشريف الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال «انَّهُ مَنْ صَبَرَ نَالَ بِصَبْرِهِ دَرَجَةَ الصّائِمِ الْقائِمِ، وَدَرَجَةِ الشَّهيدِ الّذى ضَرَبَ بِسَيفِهِ قُدّامَ مُحمَّدٍ صلى الله عليه و آله» «١».

أقسام الصبر:

وقد ورد فى الكثير من كتب الأخلاق وكلمات علماء الأخلاق أنّ الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ١- الصبر على الطاعة. ٢- الصبر على المعصية. ٣- الصبر على المصيبة. والمراد من «الصبر على الطاعة» هو مقاومة المشكلات الّتى تعترض طريق الطاعة للّه تعالى وامتثال أوامره من قبيل أداء الصلاه والصوم والحجّ والجهاد ودفع الحقوق المالية مثل الخمس والزكاة، وكذلك الصبر والاستقامة مقابل المشكلات الّتى تقع فى طريق طاعة الأوامر الاستحبابية والّتى تستوعب دائرة عريضة، والمقصود من «الصبر على المعصية» هو الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ٤٢٩ الوقوف أمام الأهواء والدوافع النفسية والنوازع الدنيوية الّتى تستعر فى قلب الإنسان وباطنه، وقد تستعر نيرانها إلى درجة أن تتحول إلى اعصار يدمر جميع عناصر الخير فى الإنسان، ويتلف ما لديه من الإيمان والتقوى والطهارة والصدق

والصفاء وأمثال ذلك. والمقصود من الصبر على المصيبة هو أن يتحلّى الإنسان بالصبر فى حياته مقابل الحوادث المؤلمة من قبيل فقد الأحبّة، الخسارة المالية الكبيرة، وقوع شخصيته وسمعته الاجتماعية فى الخطر، وقوع الإنسان فى مخالب المرض العسير والمؤلم، والابتلاء برفاق السوء أو الشريك الخائن أو الحكومة الظالمة وأحياناً الزوج والزوجة الفاسدة وأمثال ذلك. وقد أورد علماء الأخلاق هذا التقسيم للصبر اقتباساً من الروايات الشريفة كما ورد فى الحديث الشريف النبوى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «الصَّبْرُ ثَلاثَةٌ، صَبْرٌ عَلَى الْمُصيبَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزائِهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلاثَ مِائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَما بَينَ السَّمَاءِ الَى الارضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتَّ مائةِ دَرَجَةٍ، مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَينَ تُخُومُ الْارضِ الَى الْعَرْشِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَعْصِيةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَ مِائةِ دَرَجَةٍ مَا بَينَ الدَّرَجَةِ الى الدَّرَجَةِ كَمَا بَينَ تُخُوم الارْضِ الَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ» «۱». ويستفاد من عبارات هذا الحديث الشريف الصبر على المعصية أهمّ من الجميع، ثمّ الصبر على الطاعة، ثمّ الصبر على المصيبة الّذى يأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الأهمية والثواب. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديث آخر بعد أن يقسم الإيمان إلى أربع «الصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى اربَع شُعَبٍ، عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ» «۲». ومع قليل من التأمل يتضح أنّ هدف الإمام عليه السلام من هذا البيان هو شرح دوافع الصبر والاستقامة لا فروعه وأغصانه، وهو مثل ما تقدّم من الحديث النبوى الشريف.

دوافع الصبر والاستقامة:

إن العوامل والعناصر الّتى تمنح الإنسان القدرة على الصبر مقابل مشكلات الطاعة وترك المعصية أو مقابل المصائب هى كثيرة، ولكلٍّ واحدٍ منها تأثير خاصّ فى تقوية وتعميق هذه الفضيلة الأخلاقية فى واقع النفس، وأهمها: ۱- تقوية دعائم الإيمان واليقين فى القلب، وخاصّةً مع ملاحظة هذه النكتة، وهى أنّ اللّه تعالى هو أرحم الراحمين وهو المتكفل لرعاية مصالح عباده والعناية بهم، ومن هذا المنطلق قد يبتلى الإنسان ببعض الحوادث الّتى تكون أسرارها ومنافعها خفية على الإنسان ليقوى به روح الصبر، وهنا ينبغى الالتفات والتفكر بالثواب العظيم الّذى أعده اللّه تعالى للمطيعين والورعين عن ارتكاب المعاصى فإنّ ذلك من شأنه أن يرسخ فى عزم الإنسان عنصر الصبر والاستقامة. ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ» «۱». وبديهى انه كلّما اشتد إيمان الإنسان وكثرت معرفته بحكمة اللّه ورحمته فإنّ صبره سيزداد تبعاً لذلك، وبتعبير آخر: أنّ تحمل الصبر سيكون أسهل وأيسر، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه «انَّا صُبَّرٌ وَشِيعَتُنا اصْبَرُ مِنّا» فقال له الراوى: جعلت فداك كيف يكون شيعتكم أصبرُ منكم؟ فأجابه الإمام عليه السلام «لَانّا نَصْبِرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشيعَتُنا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لايَعْلَمُونَ» «۲». ۲- إن تحصيل ملكة الصبر واكتساب هذه الفضيلة حاله حال الفضائل الأخلاقية الاخرى لابدّ فيه من الممارسة والتمرن ومقابلة الحوادث الصعبة ومواجهة التحديات المفروضة على الإنسان، ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين قوله «مَنْ تَوالَتْ عَلَيهِ نَكَباتُ الزَّمانِ اكْسَبَتْهُ فَضيلَةُ الصَّبْرِ» «۳». وبعبارة اخرى: إن الإنسان فى بداية مواجهته للمصيبة قد يصرخ ويحزن بشدّة، وكذلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۱ عندما يتحرّك فى خط الطاعة والاتيان بالعبادة فإنه قد يواجه مشكلة من ثقل هذه العبادة ويشعر بالتعب، ولكن تكرار هذه الحوادث وممارسة هذه العبادات سوف تكسبه بالتدريج فضيلة الصبر وتمنحه القوّة فى ذاته على الاستمرار فى خطّ الاستقامة. ۳- ومن العوامل المهمة فى تقوية ملكة الصبر فى الإنسان أن يلتفت الشخص إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الدنيا دار الحوادث والمشكلات، ولا يتسنّى له الحصول على أية موهبة من المواهب المادية والمعنوية من دون عبور هذه الموانع المختلفة والتغلب على تلكم المشكلات، وأيضاً يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الأفراد الّذين يعيشون النزق وقلة الصبر وسرعة الانفلات لا يصلون إلى مرتبة من مراتب الكمال النفسى والاجتماعى، كلّ ذلك من شأنه أن يقوى فى الإنسان العزم والإرادة والصمود أمام المشكلات والحوادث. وكما تقدّمت الإشارة إليه انه لابدّ لقطف الوردة من تحمل ألم الوخزة، ولتناول جرعة من العسل لابدّ من تحمل لسع النحل، وأنّ

الکنوز موجودۀ عادۀً فی الخرائب، والجنّۀ کامنۀ فی أعماق المشاکل والحوادث المؤلمۀ. ومن المعلوم أنّ کلّ إنسان یتفکر جیّداً فی هذه الامور فإنه سیجد فی نفسه القدرۀ علی الصبر أکثر وتتعمق فیه هذه الفضیلۀ الأخلاقیۀ، ومن ذلک ورد فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لِکُلِّ نِعْمَۀٍ مِفْتاحٌ وَمِغْلاقٌ وَمِفتاحُهَا الصَّبْرُ وَمِغلاقُها الْکَسَلْ» «۱». ۴- وأحد العوامل والدوافع الاخری للصبر وسُبل تقویته فی وجود الإنسان هو أن یتشبه الإنسان بالصابرین، وهذا الأمر یصدق علی جمیع الفضائل الأخلاقیۀ، فکلّما تحلّی الإنسان فی الظاهر بصفۀ معیّنۀ فسوف تنفذ وتمتد إلی باطنه بالتدریج ویکتسب بذلک هذه الملکۀ. وورد فی حدیث شریف عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «مَنْ یَتَصَبَّرْ یُصَبِّرُهُ اللَّهُ وَمَنْ یَسْتَعْفِفِ یَعُفَّهُ اللَّهُ، وَمَن یَسْتَغْنِ یُغْنِهُ اللَّهُ وَمَا اعْطِی عَبْدٌ عَطاءً هُوَ خَیرٌ وَاوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۲ ۵- الصبر له علاقۀ وثیقۀ بسعۀ وجود الإنسان وشخصیته، فکلّما اتسعت ظرفیۀ الإنسان وقویت شخصیته فإنه یعیش الصبر والاستقامۀ أکثر وأشد، ولهذا السبب فإنّ الأطفال وکذلک الکبار الّذین یعیشون حالۀ الطفولۀ یجزعون لأقل حادثۀ، فی حین أنّ الأشخاص الّذین یتمتعون بشخصیۀ قویۀ وسعۀ صدر فإنه یهضمون المشکلات ویتغلبون علیها. إن المسبح الصغیر قد یتماوج بأدنی نسیم وأقل ریح بینما البحر الکبیر لا یتماوج بهذه السهولۀ، وإنما سمّی أکبر المحیطات فی الدنیا بالمحیط الهادی لأن هیجان أمواجه هی أقل من هیجان الأمواج فی المحیطات الاخری. إن مطالعۀ سیرۀ الشخصیات المهمۀ فی التاریخ البشری وخاصّۀ الأنبیاء والأولیاء الإلهیین الّذین وصلوا إلی مقامات عالیۀ ومراتب سامیۀ فی دائرۀ الکمال المعنوی بسبب الصبر والاستقامۀ، یمکنها أن تکون من العوامل المؤثرۀ فی تقویۀ هذه الملکۀ الحمیدۀ فی الإنسان ویکون دافعاً له علی التحلی بهذه الفضیلۀ أسوۀً بهؤلاء العظام. إن مسألۀ الصبر والاستقامۀ مقابل الحوادث المؤلمۀ والمشکلات الکبیرۀ الّتی تواجه الإنسان فی حرکۀ الحیاۀ لا تقتصر علی البعد الأخلاقی والمعنوی فحسب بل هی مؤثرۀ بالنسبۀ إلی سلامۀ البدن وقواه الحیویۀ، فالأشخاص الّذین لا یملکون حالۀ الصبر أمام الحوادث فإنّ حیاتهم عادۀً تکون مقترنۀ بأنواع الأمراض وأهمها الأمراض القلبیۀ والعصبیۀ، فی حین أنّ الصابرین یتمتعون بعمرٍ طویل مع سلامۀ بدنیۀ نسبیۀ، ولذلک فإنّ علماء النفس یرون أنّ الدین بصورۀ عامۀ «والّذی یقوی فی الإنسان حالۀ الصبر أمام المشکلات» یعد أحد شروط سلامۀ الجسم والصحّۀ النفسیۀ. وفی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «مَن احَبَّ الْبَقاءَ فَلْیُعِدَّ لِلْمَصائِبِ قَلْباً صَبُوراً» «۱». «الجزع» یقع فی النقطۀ المقابلۀ للصبر، وهو الحالۀ النفسیۀ الّتی لا تنضبط فیها النفس أمام الحوادث والمشاکل بحیث یعیش الإنسان الرضوخ والإذعان بالأمر الواقع وتحدیاته الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۳ الصعبۀ وتتملکه حالۀ الیأس من الخلاص، أو تمنعه هذه الحالۀ من التحرّک والسعی نحو المقصود والهدف. إن الجزع یعد من اشنع الصفات الأخلاقیۀ وأسوأ الحالات النفسیۀ للإنسان حیث تفضی به إلی الشقاء فی الدنیا والآخرۀ وتمنعه من تحصیل المقامات والمراتب العالیۀ فی معراج الکمال، وتؤدی کذلک إلی فقدان شخصیته وحیثیته فی المجتمع وتکون حیاته ملیئۀ بالمنغصات والمؤلمات فلا یری للراحۀ والسعادۀ وجهاً. وقد وصف القرآن الکریم الإنسان فی سورۀ المعارج بأنه موجود حریص وقلیل الصبر عندما یدهمه بلاءٌ وسوء، وعندما یحصل علی شیء من النعمۀ والخیر فإنه یتحرک فیه عنصر البخل ویمنعه من البذل والعطاء کما تقول الآیۀ: «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً» «۱». والمراد من الإنسان فی هذه الآیۀ «کما وردت هذه الکلمۀ فی آیات قرآنیۀ اخری تصف الإنسان بصفات سلبیۀ مشابهۀ» هو الإنسان الّذی لم یصل بعد إلی مستوی النضج الأخلاقی والعاطفی ولم یسلک فی خطّ تهذیب النفس، ولذلک ورد فی ذیل هذه الآیات استثناء الأشخاص الّذین یعیشون الإیمان ویسلکون فی خطّ الصلاۀ ومساعدۀ المحرومین ومراعاۀ اصول العفۀ والأمانۀ کما تقول الآیات «الَّا الْمُصَلِّینَ ..... والَّذِینَ هُمْ عَلَی صَلاتِهِم یُحَافِظُونَ» «۲». إنّ تعبیر الآیات أعلاه لعلّه إشارۀ إلی هذه الحقیقۀ وهی أنّ الأشخاص الّذین یعیشون الجزع وقلّۀ الصبر هم عادۀً من البخلاء أیضاً، کما أنّ البخلاء یتسمون بالجزع أیضاً، وبعبارۀ اخری: أنّ هاتین الصفتین یرتبطان برابطۀ وثیقۀ ویجتمعان فی دائرۀ مفهوم «هلوع». وقد ورد فی الروایات الإسلامیۀ أیضاً بحوث عمیقۀ وجذابۀ تتضمن ملاحظات دقیقۀ فی هذا المجال، وفیما یلی نشیر إلی بعض النماذج منها: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۴ ۱- ما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی ذمّ الجزع قوله «ایَّاکَ وَالْجَزَعَ فَانَّهُ یَقْطَعُ الامَلَ

وَيُضَعِّفُ الْعَمَلَ وَيُورِثُ الهَمَّ» «۱». ۲- وقد ورد أيضاً عن هذا الإمام يقول فی حديث آخر ضمن الإشارة إلی نكتة لطيفة اخری: «الْجَزَعُ اتْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ» «۲». والسبب فی ذلک واضح، وهو أنّ الجزع وقلّة الصبر لا يحل أيَّة مشكلة وليس له أثر سوی أن يحطم عناصر القوّة والاستقامة فی روح الإنسان وجسمه، ولهذا فإنّ الّذی يعيش الجزع يوقع نفسه فی التعب أكثر من الصابر، مثلًا عندما يفقد الإنسان عزيزاً له يمكن أن يصرخ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالجدار أو ينتحر أخيراً، ولكن أية واحدة من هذه السلوكيات لا تعيد له عزيزه، بل من شأنها أن تدمر دعائم الإيمان فی قلبه وتحطيم أركان سلامته البدنية والروحية، مضافاً إلی انه سيتلف ثوابه الأُخروی. ۳- ويقول الإمام علی عليه السلام أيضاً «الْجَزَعُ لا يَدْفَعُ الْقَدَرَ وَلَكِنْ يُحْبِطُ الاجْرَ» «۳». وبالنسبة إلی سبب احباط الأجر فلابدّ من القول: أنّ الجزع وعدم الصبر علامة علی عدم الرضا وعدم التسليم لقضاء اللَّه وقدره، فهو فی الواقع اعتراض علی عدل اللَّه وحكمته حتّی لو كان الجازع غافلًا عن هذا المطلب. ۴- وورد فی حديثٍ آخر عن الإمام الهادی عليه السلام وضمن الإشارة إلی نكتة اخری «الْمُصِيبَةُ لِلصَّابِرِ وَاحِدَةٌ وَلِلْجَازِعِ اثْنانِ» «۴». وكما تقدّم أنّ الجزع وعدم الصبر من شأنه مضافاً إلی زوال أجره وانعدام ثوابه أن يزيد فی مشكلته، وعليه فإنّ المصيبة علی الجازع مضاعفة. ۵- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام فی بيانه لأحد وصايا المسيح عليه السلام «وَلَا تَجْعَلُوا قُلُوبَكُم مَأْوىً لِلشَّهَواتِ انَّ اجْزَعَكُم عِنْدَ الْبَلاءِ لَاشَدُّكُم حُبّاً لِلدُّنيا وَانَّ اصْبَرَكُمْ عَلَی الْبَلاءِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۵ لَازْهَدُكُم فِی الدُّنيا» «۱». ويستفاد من هذه الرواية أنّ المصدر الأساس للجزع وعدم الصبر هو الحرص وحبّ الدنيا، ولأجل أن يخفف الإنسان من شدّة الجزع عليه أن يخفف من حبّه للدنيا وتعلقه بزخارفها. ۶- ونقرأ فی حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله أنّه قال: «انْ تَحْتَسِبُوا وَتَصْبِرُوا تُوجَرُوا، وَانْ تَجْزَعُوا تَأْثِمُوا وَتُوزَرُوا» «۲». ۷- وفی حديثٍ مختصر وعميق المعنی عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ اهْلَكَهُ الْجَزَعُ» «۳». ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله بعنوان «مسک الختام» فقد ورد فی هذا الحديث أنّ رسول اللَّه كتب إلی بعض أصحابه يعزّيه بابنه: «أما بعد فعظم اللَّه جلّ اسمه لک الأجر والهمک الصبر ... فلا تجمعن أن يحبط جزعک أجرک وأن تندم غداً علی ثواب مصيبتک وانک لو قدمت علی ثوابها علمت أنّ المصيبة قد قصرت عنها واعلم أنّ الجزع لا يرد فائتاً ولا يدفع حزن قضاء فليذهب أسفک ما هو نازل بک مكان ابنک والسلام» «۴». وينقل المرحوم المحدّث القمّی فی «سفينة البحار» قصة جميلة عن «بزرجمهر» وزير كسری تتعلق بمسألة الصبر هذه ويقول: «حكی عن بعض التواريخ أنّه سخط كسری علی بزرجمهر، فحبسه فی بيت مظلم وأمر أن يصفّد بالحديد، فبقی أياماً علی تلک الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر مطمئن النفس، فقالوا له: أنت فی هذه الحالة من الضيق ونراک ناعم البال. فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهی الّتی ابقتنی علی ما ترون. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۶ قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلّنا ننتفع بها عند البلوی. فقال: نعم، أما الخلط الأوّل فالثقة باللَّه عزّوجلّ. وأما الثانی: فكلّ مقدّر كائن. وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن. وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع ولا أعين علی نفسی بالجزع. وأما الخامس: فقد يكون أشدّ ممّا أنا فيه. وأما السادس: فمن ساعة إلی ساعة فرج. فبلغ ما قاله كسری فأطلقه وأعزّه «۱».

علاج الجزع وقلّة الصبر:

اشارة

إن هذا المرض النفسی والأخلاقی مثل بقية الأمراض الاخری له طرق للعلاج ونشير إليها فيما يلی:

۱- تشخيص المرض

عندما يتوجه المريض إلی الطبيب الروحانی يقوم هذا الطبيب بالفحص عن علامات المرض الأخلاقی والروحی من قبيل: الضرب علی

الرأس والوجه، عض الأنامل، الصراخ والعويل، سوء الأخلاق والجفاف فى التعامل مع الآخرين، سوء المعاملة مع الزوجة والأطفال وكذلك الشكوى وعندها يدرك هذا الطبيب وجود مرض الجزع فى مثل هذا الشخص وبالتالى يقوم بعلاجه بطرق مختلفة.

۲- التفكير بالعواقب السلبية للجزع وقلّة الصبر

إن تفكير المريض بعواقب الجزع الوخيمة والآثار السلبية لقلّة الصبر له دورٌ مهم فى علاج هذا المرض الروحى، وقلما يسمع الإنسان بعواقب هذا المرض الوخيم ولا ينزجر لهذه الحالة ويتصدّى لرفعها من نفسه وإزالتها من أخلاقه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۷ أجل، فعندما يعلم الإنسان أنّ الجزع يذهب بأجره وثوابه عند اللَّه تعالى من دون أن يحل له أية مشكلة، وكذلك يحطم أعصابه وقواه النفسية ويسلب منه سلامته البدنية والروحية، والأسوأ من ذلك انه يوصد أمامه أبواب حلّ المشكلة، لأن الإنسان إذا احتفظ ببرودة أعصابة عند بروز المشكلات والمصائب وتسلط على نفسه فإنّ ذلك من شأنه أن يفتح أمام عقله أبواب الحلّ لذلك المشكل أو على الأقل يقلل من شدّة المصيبة، ولكنَّ الإنسان وبسبب حالة الجزع والاضطراب وعدم التسلط على الأعصاب وبالتالى عدم تمركز الفكر فإنه لا يجد أمامه نافذة مفتوحة للأمل والحلّ، بل حتّى لو فتحت له الأبواب والنوافذ ليرى حلًا لهذه المشكلة فإنه وبسبب ما يعيشه من حالة الأضطراب والتوتر لا يرى هذه الأبواب والنوافذ، بخلاف ما إذا هدأ لحظة وضبط نفسه لفترة وجيزة ونظر إلى ما حوله فسيجد طريق النجاة والحلّ أمامه يسيراً. إن النظر الدقيق إلى هذه الحقائق والتدبر فيها له تأثير مهم فى تغير حالة الجزع لدى الإنسان وبالتالى مع تكرارها سينطوى الشخص تحت لواء الصابرين.

۳- مطالعة الآيات والروايات الواردة فى هذا الباب

إن مطالعة الآيات والروايات الشريفة الّتى تتحدث عن أجر الصابرين وثوابهم ومقامهم عند اللَّه له دور مهم فى تقوية عناصر الصبر والاستقامة فى روح الإنسان، ومن ذلك ما ورد فى الآية الشريفة الّتى تبشر الصابرين بأعظم بشارة وتقول: «وَبَشّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا انَّا للَّهِ وَانَّا الَيهِ رَاجِعُونَ* اولئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۱». وعبارة «أُولئك هم المهتدون» تتضمن معنىً عميقاً ولها تفاسير مختلفة، وأحدها هو ما ذكر آنفاً من أنّ الصابرين سيجدون حلًا لمشكلاتهم أسرع من الآخرين وتفتح أمامهم أبواب النجاة والخلاص من الأزمات والبلايا، لأن أحد العوامل الأصلية للجزع هو «ضعف النفس» فكلّما سعى الإنسان فى تقوية معنوياته وتكريس عناصر الشد والقوّة فى نفسه فإنّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۸ ذلك من شأنه أن يمنحه التوفيق لإزالة عناصر الجزع وقلّة الصبر من نفسه.

۴- مطالعة حالات الأنبياء والأولياء

وأحد الطرق لعلاج حالة الجزع هى مطالعة حالات الأنبياء والأولياء فى دائرة صبرهم واستقامتهم أمام المصائب والبلايا الكثيرة وما كانوا يتحملونه من أعدائه وأقوامهم، وتذكر هذه الحالات ومطالعتها يلهم الإنسان القوّة فى الصمود أمام حجم التحديات المفروضة عليه من الواقع الخارجى والداخلى.

۵- تلقين الاعتماد على النفس فى تحمّل الصعاب

ولا ينبغى أن ننسى هذه الحقيقة، وهى أنّ التلقين سواءً كان من طرف الشخص نفسه أو من قبل الآخرين فإنه يشكل عاملًا مؤثراً فى إزالة الأخلاق السيئة والصفات الذميمة من واقع النفس، فلو أنّ الشخص الّذى يعيش قلّة الصبر والجزع يلقن نفسه كلّ يوم بضرورة أن

يتحلّى بالصبر، وكـذلك يسعى ممن حوله من افراد الاسرة أو الأصـدقاء فى تعميق هـذا التلقين لـديه، فلا شكّ فى ظهور آثار الصبر على سلوكياته وحالاته النفسية. ونختم هـذا البحث بدعاء شريف للإمام زين العابدين عليه السلام يقول فيه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِى هَذَا صَلاحاً وَاوسَطَهُ فَلاحاً وَآخِرَهُ نَجاحاً واعُوذُ بِكَ مِنْ يَوم اوَّلُهُ فَزَعٌ وَاوسَطَهُ جَزَعٌ وَآخِرُهُ وَجَعٌ» ويستفاد من هذا الحديث أنّ الجزع يورث الإنسان الألم والوجع، فمضافاً إلى انه لا يزيل همه وألمه فإنه من شأنه أن يزيده ألماً وهمّاً.

الفرق بين الجزع والعواطف المعقولة:

إن قلب الإنسان هو مركز العواطف والاحساسات الإنسانية، وكلّما فقد الإنسان عزيزاً له فإنه يتألم لـذلك ويجرى دمع عينه من شّدّة التأثر، ولكن لا ينبغى الخلط بين إظهار التأثر والحزن مع الجزع وقلّة الصبر، لأن قلب الإنسان يتأثر بالحوادث المؤلمة بطبيعة الحال، ويمكن أن تعكس عينه حالة التأثر هذه وتبكى بسبب ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۹ وعليه فإنّ البكاء والحزن على فقد الأحبّة يعد أمراً طبيعياً وإنسانياً. فالمهم هو أنّ الإنسان لا يسلك فى المصيبة فى خطّ الجزع والشكوى وعدم الشكر ويتكلّم بكلمات لا تنسجم مع الإيمان والعبودية للّه‌تعالى والرضا بقضائه، وفى هذا المجال نقرأ حديثاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعا بِدَعْوَىَ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». وقد ورد فى سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله انه عندما توفى ولده إبراهيم عليه السلام بكى النبى صلى الله عليه و آله عليه بحيث جرت دموعه على خديه وصدره الشريف فقالوا: يا رسول اللّه أنت تنهانا عن البكاء ولكنك تبكى لوفاة إبراهيم؟ فقال «لَيْسَ هَذَا بُكاءً وَانّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَمَن لَم يَرحَمْ لا يُرْحَمُ» «۲». أى هذا نوع من إظهار المحبة والرحمة الصادرة من العاطفة الإنسانية الّتى يعيشها الإنسان الواقعى. وقد ورد هذا الموضوع بتفصيلٍ أكثر فى كتاب «بحار الأنوار» حيث ذكر المجلسى أنّه عندما اتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فوضعه فى حجره فقال له: يا بنى أنّى لا أملك لك من اللّه شيئاً وذرفت عيناه، فقال له عبدالرحمن: يا رسول اللّه تبكى أو لم تنه عن البكاء، قال: إنّما نهيت عن النوح عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعم لعب ولهو ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشق جيوب ورنّة شيطان إنّما هذه رحمة، من لا يرحم لا يرحم، لولا أنّه أمر حقّ ووعد صدق وسبيل باللّه وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً أشد من هذا وأنا بك لمحزونون»، «وَإنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ تَبْكِيَ الْعَينُ وَيَدْمَعُ الْقَلْبُ وَلا نَقولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ» «۳». وأحياناً يمكن أن يفقد الإنسان انضباطه وإلتزامه ويشق جيبه ويخمش وجهه ولكن كلّ ذلك يكون بالمقدار المعقول والطبيعى لغرض إيجاد الهيجان العام وتعبئة العواطف الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۴۰ والاحساسات فى مقابل الأعداء فإنّ ذلك قد يكون ضرورياً أيضاً ويستثنى من الأصل، إذاً فما ورد من بعض الحالات الاستثنائية لبعض العظماء يكون من هذا الباب. ونختم هذا الحديث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «النِّياحَةُ عَمَلُ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». والمراد من النياحة هنا ليس إقامة المآتم أو ذكر المصيبة والبكاء على الميت بصورة فردية أو جماعية بل هو إشارة إلى ما كان مرسوماً ومتداولًا فى زمان الجاهلية بين العرب عندما كان يفقدون أحد الأحبّة، فإنّهم يدعون نسوة لإقامة النياحة والتحدّث بكلمات لزيادة النوح والبكاء على الميّت، وفى الغالب يصفونه بأوصاف كاذبة ومبالغ فيها وقد يعملن على تمزيق ثيابهنَّ فيلطمن وجوههن ويخدشن خدودهن، وبذلك يسعين إلى تثوير عواطف أهل العزاء وتفعيل حرارة المجلس.

نهاية الجزء الثانى:

اللّهمّ! أنت تعلم جيداً بأننا إذا وفقنا لسلوك طريق أوليائك فى تهذيب النفس وحسن الأخلاق وصفاء الباطن فانّا نطلب ذلك ونتعشقه من صميم القلب، فزدنا توفيقاً فى سلوك هذا الطريق وأعنا فى سلوك خطّ الإيمان والتقوى وحسن الأخلاق والحقنا بجماعة «مَنْ انْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» واجعلنا من جملة «وَحَسُنَ اولئكَ رفِيقاً». (آمين يا ربَّ العالمين) الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی. - من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَی ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد"/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی"/"بنایة "القائمیّة" تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنَّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ

التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالی؛ و اللّهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹